

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

محمّد بن
محمّد بن الفضل بن حسين

دار الكتب والوثائق
بيروت - لبنان

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الجارود

بتفيس
محمداً بن الفضل بن محمد
مركز تحقيقات علوم اسلامی

الجزء العاشر

دارالاعتناء للكتاب العربی
میس البانی الجلی و شریکاء

الطبعة الثانية
(١٣٨٦ هـ - ١٩٦٧ م)
جميع الحقوق محفوظة



مركز تحقيق وتكميل التراث الإسلامي

منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي
قم - إيران ١٤٠٤ هـ ق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« الحمد لله الواحد العدل »^(١)

(١٧٥)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام في معنى طلحة بن عبيد الله :

قَدْ كُنْتُ وَمَا أَهْدُ بِالْحَرْبِ ، وَلَا أَرْهَبُ بِالضَّرْبِ ؛ وَأَنَا عَلَى مَا وَعَدَنِي رَبِّي
مِنَ النَّصْرِ ؛ وَأَلَهُ مَا اسْتَعَجَلَ مُتَجَرِّدًا لِيَطْلُبَ يَدَيَّ عُثْمَانَ إِلَّا خَوْفًا مِنْ أَنْ يُطَالَبَ
بِيَدِي ؛ لِأَنَّهُ مَطْلُوبٌ ؛ وَلَمْ يَسْكُنْ فِي الْقَوْمِ أَحَدٌ مِنْهُمْ مَعَهُ ، فَأَرَادَ أَنْ يُضَالِطَ بِمَا
أَجْلَبَ فِيهِ لِيَلْتَبِسَ^(٢) الْأَمْرُ ، وَيَقَعَ الشُّكُّ

وَوَالَهُ مَا صَنَعَ فِي أَمْرِ عُثْمَانَ وَاحِدَةً مِنَ ثَلَاثٍ

لَئِنْ كَانَ ابْنُ عَفَّانَ ظَالِمًا - كَمَا كَانَ بَزْمٌ - لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُوَازَرَ
فَاتَّيَلَا بِهِ ، وَأَنْ يُنَازِلَهُ فَاغْتَابَهُ .

وَلَئِنْ كَانَ مَظْلُومًا ، لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُنْهَبِينَ عَنْهُ ،
وَالْمُعْذَرِينَ فِيهِ .

وَلَئِنْ كَانَ فِي شَكٍّ مِنَ الْخُلَصَّةَيْنِ ؛ لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنْزِلَهُ ، وَيَرْكُدَ
جَانِبًا ، وَيَدْعَ النَّاسَ مَعَهُ .

فَمَا قَلَّ وَاحِدَةٌ مِنَ الثَّلَاثِ ؛ وَجَاءَ بِأَمْرِ لَمْ يُعْرِفْ بَابَهُ ، وَلَمْ تَسْلَمْ مَعَاذِيرُهُ .

(٢) غلظة التهج : « ليلبس » .

(١ - ١) ساقط من به .

الشرح :

كان هاهنا تامة ، والواو واو الحال ؛ أى خُلِقْتُ ووجدتُ وأنا بهذه الصفة ، كما نقول : خلقني الله وأنا شجاع .

ويجوز أن تكون الواو زائدة ، وتكون « كان » ناقصة ، وخبرها « ما أهدد » ، كافي للتل : « لقد كنت وما أخشى بالذنب ^(١) » .

فإن قلت : إذا كانت ناقصة ، لزم أن تكون الآن بخلاف ماضى ؛ فيكون الآن يهدد ويرهب .

قلت : لا يلزم ذلك ، لأن « كان » الناقصة للماضى من حيث هو ماضٍ ؛ وليس بشرط في ذلك أن يكون منقطعاً ؛ بل قد يكون دائماً ، كقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ ^(٢) .

ثم ذكر عليه السلام أنه على ما وعده ربه من النصر ، وأنه واثق بالظن والقلب الآن ، كما كانت عادته فيما سبق .

ثم شرح حال طلعة ، وقال : إنه تجرد ^(٣) لقلب بدم عيان ، مغالطة للناس ، وإيهاماً لهم أنه برىء من دمه ، فيلتبس الأمر ، ويقع الشك .

وقد كان طلعة أجهد نفسه في أمر عيان والإجلاب ^(٤) عليه ، والخصم له ، والإغراء به ، ومقتة نفسه بالخلافة ؛ بل تلبس بها ، وتسلم بيوت الأموال وأخذ مفاتيحها ، وقابل الناس ، وأحدقوا به ، ولم يبق إلا أن يصفق ^(٥) بالخلافة على يده .

(١) بقية التل : « فاليوم قيل الذاب الذاب » ، وأول من قاله فبات بن أشيم الكنانى ، وانظر مجمع الأمثال ٧ : ١٨٠ .

(٢) سورة النساء ١٧ .

(٣) يقال : تجرد للأمر ؛ إذا جدد فيه وتفرغ له .

(٤) أجلب عليه ، أى حاول أن يجمع الناس له من كل مكان .

(٥) صفق على يديه بالبيعة صفقاً وصفقة ، أى ضرب يده على يده .

[ذكر ما كان من أمر طلحة مع عثمان]

ذكر أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في كتاب "التاريخ" ، قال :

حدثني عمر بن شبة ، عن علي بن محمد ، عن عبد ربه ، عن نافع ، عن إسماعيل بن أبي خالد^(١) ، عن حكيم^(٢) بن جابر ، قال : قال علي عليه السلام لطلحة وعثمان محصور :
أنشدك الله إلا رددت الناس عن عثمان ! قال : لا والله حتى تمضي بنو أمية الحق من أنفسها .

وروى الطبري أن عثمان كان له ملى طلحة خسون ألفا ، فخرج عثمان يوما إلى المسجد ، فقال له طلحة : قد تم يأمالك فاقبضه ، فقال : هو لك يا أبا محمد ممونة لك على مروءتك^(٣) .

قال : فكان عثمان يقول وهو محصور : جزاء سينتار !

وروى الطبري أيضا أن طلحة باع أرضا له من عثمان بسبعمائة ألف ، فحملها إليه ، فقال طلحة : إن رجلا بييت^(٤) وهذه عنده وفي بيته ، لا يدري ما يطرقة من أمر الله لفريق بالله ؟ فبات ورسله يخاف بها في سلكك المدينة بقيمتها حتى أصبح وما عنده منها درهم واحد .

قال الطبري : روى ذلك الحسن البصري ، وكان إذا روى ذلك يقول : ثم جاء إلها يطلب الدينار والدرهم - أو قال : والصفراء والبيضاء^(٥) .

(١) في الأصول : أبو طالب ، تحريف وصوابه من تاريخ الطبري .

(٢) حكيم بفتح الحاء وكسر الكاف ؛ كذا ضبط في التريب .

(٣) تاريخ الطبري ٤ : ١٠٤ .

(٤) في الطبري : " نفق " .

(٥) تاريخ الطبري ٤ : ١٠٥ .

وروى الطبري أيضا ، قال : قال ابن عباس رحمه الله : لما حُجِبت بالناس نيابة عن عثمان وهو محصور ، مررت بمائشة بالصلصل^(١) ، فقالت : يا ابن عباس ، أنشدك الله . فإنك قد أُعْطيت لسانا وعقلا ، أن تُخَذِّلَ الناسَ عن طلعة ؛ فقد بانت لم بصائرهم في عثمان وأنهجت^(٢) ، ورفضت لم للنار ، وتعلّبوا من البلدان لأمر قد حُمَ ؛ وإن طلعة - فيما بلغني - قد اتخذ رجالا على بيوت الأموال ، وأخذمفاتيح الخزائن وأغلته يسير إن شاء الله بسيرة ابن عمه أبي بكر ، فقال : يا أمه ، لو حدثت بالرجل حدث ما فرغ الناس إلا إلى صاحبنا ، فقالت : إيهما عنك يا ابن عباس ؛ إني لست أريد مكابرتك ولا مجادلتك^(٣) .

وروى اللدائني في كتاب " مقتل عثمان " ، أن طلعة منع من دفنه ثلاثة أيام ، وأن عليا عليه السلام لم يبايع الناس إلا بعد قتل عثمان بخمسة أيام ، وأن حكيم بن حزام أحد بني أسد بن عبد العزى ، وجبير بن مطعم بن الحارث بن نوفل استنجد أبلي عليه السلام على دفنه ، فأقعد طلعة لم في الطريق ناسا بالحجارة ، فخرج به نفر يسير من أهله وهم يريدون به حائطا بالمدينة يعرف بحش كوكب^(٤) . كانت اليهود تدفن فيه موتاهم ، فلما صار هناك رَجَمَ سريره ، وهَمَّوا بطرحه ؛ فأرسل على عليه السلام إلى الناس يهزم عاههم ليكفوا عنه فكفوا ، فانطلقوا به حتى دفنوه في حش كوكب .

(١) صلصل : موضع بنواحي المدينة على سبعة أميال منها ؛ نزل به صل الله عليه وسلم يوم خرج من المدينة إلى مكة عام الفتح ؛ قال صباه بن مصعب الزبيري :

أشرف على ظهر القديمة هل ترى برقاً سرى في حاضي منهل
نصح المقيوق فبطن طيبة مؤجنا ثم استمر يوم قصد الصلصل

(٢) أنهج الطريق : وضع .

(٣) تاريخ الطبري ٤ : ٤٠٧ .

(٤) حش كوكب : موضع عند بطن الفرد ، ذكره ياقوت ، وقال : اشتراه عثمان بن عفان ، وزاده في البقيع ، وثا قتل النبي فيه ، ثم دفن في جنبه .

وروى الطبري نحو ذلك ؛ إلا أنه لم يذكر طلعة بيته ؛ وزاد فيه أن معاوية لما ظهر على الناس ؛ أمر بذلك الحائط فهدم حتى أفضى به إلى البقيع ، وأمر الناس أن يدفنوا موتاهم حول قبره حتى اتصل [ذلك] ^(١) بمقابر المسلمين .

وروى اللدائني في هذا الكتاب ، قال : دفن عثمان بين المغرب والمقمة ، ولم يشهد جنازته إلا مروان بن الحكم وابنه عثمان وثلاثة من مواليه ، فرفعت ابنته صوتها تندبه ؛ وقد جعل طلعة ناساً هناك أكنهم كميناً ، فأخذتهم الحجارة ، وصاحوا : نعل نعل ^(٢) ! فقالوا : الحائط الحائط ! فدفن في حائط هناك .

وروى الواقدي ، قال : لما قتل عثمان ، تكلموا في دفنه ، فقال طلعة : يُدفن بدير سلع - يعني مقابر اليهود .

وذكر الطبري في تاريخه هذا ؛ إلا أنه روى عن طلعة فقال : قال رجل : يدفن بدير سلع - فقال حكيم بن حزام : والله لا يكون هذا أبداً وأحد من ولد قصي [حتى] ^(٣) حتى كاد الشرء بأنهم ؛ فقال ابن عديس البكري : أيها الشيخ ؛ وما بضرك أين دفن ؟ قال : لا يدفن إلا ببقيع الرقعة ^(٤) ؛ حيث دفن سلفه ورهطه ؛ فخرج به حكيم بن حزام في اثني عشر رجلاً ، منهم الزبير بن العوام ، فلبسهم الناس عن البقيع ، فدفنوه بمحش كوكب ^(٥) .

• • •

(١) من تاريخ الطبري .

(٢) نعل : رجل من أهل مصر ؛ كان طويل الأجنة ؛ وكان شاعرو عثمان رضي الله عنه يسمونه بذلك . السلس .

(٣) أصل البقيع في اللغة ، اللوح الذي فيه أروم العجر ؛ والرقعة كبار الشجر المسمى بالموسج . وهو مقبرة أهل المدينة (بالوت) .

(٤) تاريخ الطبري ٤ : ٤٩٢ ، ٤٩٧ .

وروى الطبري في التاريخ أن عثمان لما حُصِر ، كان على عليه السلام بخير في أمواله ؛ فلما قدم أرسل إليه يدعو ، فلما دخل عليه قال له : إن لي عليك حقوقاً : حق الإسلام ، وحق النسب ، وحق مالي عليك من العهد واليثاق ؛ والله أن لو لم يكن من هذا كله شيء وكنت في جاهلية ؛ لكان عاراً على بني عبد مناف أن يبتزهم أخوتهم ملكهم - يعني طلعة - فقال له عليه السلام : سيأتيك الخبر ، ثم قام فدخل للسجدة ، فرأى أسامة بن زيد جالساً ، فدعاه فاعتمد على يديه ، وخرج يمشي إلى طلعة ، فدخل داره ؛ وهي دحاس^(١) من الناس ؛ فقام عليه السلام ، فقال : يا طلعة ، ما هذا الأمر الذي وقعت فيه ؟ فقال : يا أبا أحسن ، أبعد ما من الحزام الطيبين ؛ فانصرف على عليه السلام ولم يجر إليه شيئاً حتى أتى بيت المال ، فنادى : افتحوا هذا الباب ، فلم يفتحوا على فتحة ، فقال : اكسروه ، فكسر فقال : أخرجوا هذا المال ، فجمعوا يخرجونه وهو يعطى الناس ؛ وبلغ الذين في دار طلعة ما صنع على عليه السلام ، فجمعوا يتساقون إليه حتى بقي طلعة وحده ؛ وبلغ الخبر عثمان ، فسر بذلك ، ثم أقبل طلعة يمشي حامداً إلى دار عثمان ، فاستأذن عليه ؛ فلما دخل قال : يا أمير المؤمنين ؛ أستغفر الله وأنوبُ إليه ؛ لقد رمت أمراً حال الله بيني وبينه . فقال عثمان : إنك والله ما جئت تاتياً ؛ ولكن جئت مذنباً ؛ والله حبيبك يا طلعة^(٢) .

ثم قسم عليه السلام مال طلعة ، فقال : لا يخلو إماماً أن يكون معتقداً حل دم عثمان ، أو حرمة ؛ أو يكون شاكاً في الأمرين ؛ فإن كان يعتقد حله لم يجر له أن ينقض الهمة لفصرة إنسان لحلال الدم ، وإن كان يعتقد حرمة ، فقد كان يجب عليه أن ينهيه عنه الناس ، أي يكفهم .

(١) دحاس من الناس ؛ أي منقلة .

(٢) تاريخ الطبري ٤ : ٢١٠ .

وإن يذّر فيه ؛ بالتشديد أى يقصر ولم يفعل ذلك ؛ وإن كان بشاكاً ؛ فقد كان
يجب عليه أن يعتزل الأمر ، ويركد جانبا ؛ ولم يعتزل وإنما صلي بنار الفتنة ،
وأصلاها غيره .

فإن قلت : يمكن أن يكون طلعة اعتقد إباحة دم عثمان أولاً ، ثم تبدل ذلك
الاعتقاد بعد قتله ؛ فاعتقد أن قتله حرام ، وأنه يجب أن يقتص من قاتليه ؛
قلت : لو اعترف بذلك لم يقسم على عليه السلام هذا التقسيم ؛ وإنما قسمه لبقائه على
اعتقاد واحد ؛ وهذا التقسيم مع فرض بقائه على اعتقاد واحد صحيح لا مطعن فيه ؛ وكذا
كان حال طلعة فإنه لم ينقل عنه أنه قال : ندمت على ما فعلت بعثمان .
فإن قلت : كيف قال أمير المؤمنين عليه السلام : « فافعل واحدة من الثلاث » ؛ وقد
فعل واحدة منها ، لأنه وازر قاتليه حيث كان محصوراً ؛
قلت : مراده عليه السلام أنه إن كان عثمان ظالماً ، وجب أن يوازر قاتليه بعد قتله ؛
بحاى عنهم ، ويعتصمهم ممن يروم دماءهم ؛ بمعلوم أنه لم يفعل ذلك ، وإنما وازرهم وعثمان حي ؛
وذلك غير داخل في التقسيم .

(١٧٦)

الأصل :

من خطبة له عليه السلام :

أَيُّهَا النَّاسُ غَيْرُ الْمَقُولِ مِنْهُمْ ، وَالتَّارِكُونَ ، وَالْمَأْخُذُ ^(١) مِنْهُمْ .

مَا لِي أَرَاكُمْ مِنْ أَهْلِ ذَاهِبِينَ ، وَإِلَى غَيْرِهِ رَاغِبِينَ أَكُنْتُمْ نَمَّ أَرَاخَ رِيهَا سَائِمٌ إِلَى
مَرْعَى وَبَيْرٍ ، وَمَشْرَبٍ دَوِيٍّ ؛ وَإِسَاسِي كَالْمَلُوقَةِ لِلدَّيِّ ؛ لَا تَعْرِفُ مَاذَا يُرَادُ بِهَا
إِذَا أَحْسِنَ إِلَيْهَا تَحْسِبُ يَوْمَهَا دَهْرَهَا ، وَشَبَعَهَا أَمْرَهَا .

وَأَلَّهِ تَوَشَّيْتُ أَنْ أُخْبِرَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَخْرَجِهِ وَمَوْجِعِهِ وَجَمِيعِ شَأْنِهِ
فَفَعَلْتُ ؛ وَلَكِنْ أَخَافُ أَنْ تَكْفُرُوا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . أَلَا وَإِنِّي
مُضْمِرٌ إِلَى الْخَاطِئَةِ مِنْ يَوْمَنْ ذَلِكَ مِنْهُ . وَالَّذِي بَيْنَهُ بِالْحَقِّ ، وَأَصْطَفَاهُ عَلَى الْخَلْقِ ،
مَا أَنْطَقُ إِلَّا صَادِقًا ؛ وَلَقَدْ عَيْدَ إِلَيَّ بِذَلِكَ كُلُّهُ وَبِمَهْلِكٍ مِنْ يَهْلِكُ ، وَمَنْجَى مَنْ
يَنْجُو ، وَمَالَ هَذَا الْأَمْرِ ؛ وَمَا أَبْقَى شَيْئًا يَمُرُّ عَلَى رَأْسِي إِلَّا أَفْرَقَهُ فِي أَذُنٍ ،
وَأَفْضَى بِهِ إِلَيَّ .

أَيُّهَا النَّاسُ ؛ إِنِّي وَأَلَّهِ مَا أَحْكُمُ عَلَى طَاعَةٍ إِلَّا وَأَسِيقُكُمْ إِلَيْهَا ، وَلَا أَنَهَاكُمْ عَنْ
مَعْصِيَةٍ إِلَّا وَأَنَا هِيَ قَبْلَكُمْ عَنْهَا .

• • •

الشرح :

خاطب للكافرين كافة ؛ وقال : إنهم غافلون عما يُراد بهم ومنهم ؛ وليسوا بمغفول
عنهم ؛ بل أعمالهم محفوفة مكتوبة .

(١) ب : « المأخوذ » ، م غير واو .

ثم قال : والتاركون : أى يتركون الواجبات .

ثم قابل ذلك بقوله : « والمأخوذ منهم » ، لأن الأخذ فى مقابلة التارك ؛ ومعنى الأخذ منهم انتقاص أعمارهم ؛ وانتقاص قواهم ، واستلاب أحيائهم وأموالهم .
ثم شبههم بالنعم التى تتبع نماء أخرى .

سائمة ، أى راعية ؛ وإنما قال ذلك لأنها إذا انتهت أمثالها كان أبلغ فى ضرب المثل بمجملها من الإبل التى يسيئها راعيها والمرعى الوبى : ذو الوباء والمرض . والشرب الدوى : ذو الداء ، وأصل « الوبى » اللين الوبى المموز ؛ ولكنه تينه ؛ يقال : أرض وبيثة على « فبيثة » ، وبيثة على « قيلة » ؛ ويحوز أو بات فهى مويثة .

والأصل فى الدوى « دوى » بالتخفيف ؛ ولكنه شدده للازدواج .

ثم ذكر أن هذه النعم الجليلة التى رقت أنفوسها فى هذا الرتع والشرب المذمومين كالنعم وغيرها من النعم المملوكة .

لهذى : جمع مذبة ؛ وهى الشكين ، لا تعرف ماذا يراد بها ، وتظن أن ذلك العاف إحسان إليها على الحقيقة .

ومعنى قوله : « تحسب يومها دهرها » ؛ أى تظن أن ذلك العاف والإطعام كما هو حاصل لها ذلك اليوم ، يكون حاصلها أبداً .

و « غبها أمرها » ، مثل ذلك ، أى تظن أنه ليس أمرها وشأنها إلا أن يطعمها أربابها للشبع وتحسن وتسمن ؛ ليس يريدون بها غير ذلك .

ثم خرج عليه السلام من هذا الفن إلى فن آخر ، فأقسم أنه لو شاء أن يخبر كل واحد منهم من أين خرج ، وكيف خرج ، من منزله ، وأين بايع ، وكيف ولوجه ؛ وجميع شأنه من مطعمه ومشربه ، وما عزم عليه من أفعاله ، وما أكله ، وما أذخره فى بيته ، وغير ذلك من شئونه وأحواله ، لفعل .

بل يعلم أموراً محدودة من الغيبات ؛ مما اقتضت حكمة الباري سبحانه أن يؤثقه لعله ؛ وكذلك القول في رسول الله صلى الله عليه وآله إنه إنما كان يعلم أموراً محدودة لا أموراً غير متناهية ؛ ومع أنه عليه السلام قد كنتم ما عليه حذراً من أن يكفروا فيه برسول الله صلى الله عليه وآله ، فقد كفر كثير منهم ، وادعوا فيه النبوة ، وادعوا فيه أنه شريك الرسول في الرسالة ، وادعوا فيه أنه هو كان الرسول ؛ ولكن اللئك غلط فيه ؛ وادعوا أنه هو الذي بعث محمداً صلى الله عليه وآله إلى الناس ، وادعوا فيه الخلول ، وادعوا فيه الاتحاد ، ولم يتركوا نوعاً من أنواع الضلالة فيه إلا وقالوه واعتقدوه ؛ وقال شاعرهم فيه من أبيات :

وَمَنْ أَهْلَكَ عَادَا وَنَمُودَا بِلَوَاهِيهِ
وَمَنْ كَلَّمَ مُوسَى قَوْماً قَطْرٍ إِذْ بُنِيَ كَرِيهِ
وَمَنْ قَالَ عَلَى اللَّهِ هُوَ مَا وَهُوَ رَاقِيهِ
سَلُونِي أَيُّهَا النَّاسُ يَهَارُوا فِي مَعَانِيهِ

وقال بعض شرائعهم :

إِنَّمَا خَالِقُ الْخَلَائِقِ مَنْ زَعَى أَرْكَانَ حِصْنِ خَيْبَرَ جَذْبَا
قَدْ رَضِيَ بِأَبِيهِ إِمَامًا وَمَوْلَى وَسَعَدْنَا بِهِ إِلَهًا وَرَبًّا

•••

[جملة من إخبار على بالأمور الضميمة]

وقد ذكرنا فيما تقدم من إخباره عليه السلام عن الغيوب طرقاً صالحة ، ومن عجيب ما وقفت عليه من ذلك قوله في الخطبة التي يذكر فيها للملاحم ، وهو يشير إلى القرامطة ^(١) :

(١) يرجع مذهب القرامطة إلى كبرم الحسن بن جهرام الجسافي أبو سعيد ؛ كان خلاقاً من أهل جنابة بخارس ، وثق فيها ، فأقام و البحرين تاجراً ، وجعل يدعو العرب إلى نهضته ، فطمع أمره ؛ فخاربه الخليفة مظفر الحسن وسأله للتصديع الناس ؛ وكان أصحابه يسمونه السيد . استول على حيدر والأحساء والتطيف وسائر بلاد البحرين ؛ وكان شجاعاً ؛ داعية ، قتله خادم له مغربي في الحمام بهجر ، مات سنة ٣٠٦ . وانظر تاريخ ابن الأثير .

« ينتعلون لنا الحب والهو ، ويضربون لنا الرمض والليل ؛ وآية ذلك قتلهم ورأينا ،
وعبرهم أحداثنا » .

وصح ما أخبر به ؛ لأن القرامطة قتل من آل أبي طالب عليه السلام خلقا كثيرا ؛
وأسمائهم مذكورة في كتاب « مقاتل الطالبين » لأبي الفرج الأصفهاني .

ومر أبو طاهر سليمان بن الحسن الجنائي في جيشه بالعري^(١) وبالخابر^(٢) ؛ فلم يرج
على واحد منهما ولا دخل ولا وقف

وفي هذه الخطبة قال وهو يشير إلى السارية التي كان يستند إليها في مسجد الكوفة :
كأني بالعجير الأسود منصوبا هاهنا . ويحكم . إن فضيلته ليست في نفسه ، بل في موضعه
وأُسسه ، يحكث هاهنا برهة ، ثم هاهنا برهة - وأشار إلى البحرين - ثم يمود إلى مأواه ،
وأم مشواه .

ووقع الأمر في العجير الأسود بموجب ما أخبر به عليه السلام .

وقد وقعت له على خطب محدلة فيها ذكر للملاحم ، فوجدتها تشتتل على ما يجوز أن
ينسب إليه وما لا يجوز أن ينسب إليه ، ووجدت في كثير منها احتلالا ظاهرا ؛ وهذه المواضع
التي أهلها ليست من تلك الخطب للضطربة ، بل من كلامه وجدته متفرقا في كتب
مختلفة ؛ ومن ذلك أن نعيم بن أسامة بن زهير بن دريد التميمي اعترضه ؛ وهو يخاطب على
النبر ويقول : « سلوني قبل أن تمقدوني ؛ فوافقه لا تسألوني عن فئة نضل مائة ، أو تهدي مائة
إلا تبأتكم بناقضها وساقها ، ونوشئت لأخبرت كل واحد منكم بمخرجه ومدخله
وجمع شأنه » . فقال : فكم في رأسى طاقة شعر ؟ فقال له : أما والله إني لأعلم ذلك ؛
ولكن أين برهانه لو أخبرتك به ؟ لقد أخبرتك بقيامك ومقاتلت . وقيل لي إن على كل

(١) العري ، واحد العرين ؛ وما بناء ان كالصومعين ؛ كانا يظهر الكوفة ؛ قرب قبر علي عليه السلام
(مهاسد الاطلاح) .
(٢) الخابر ، بعد الألف ياء مكسورة ؛ موضع قبر الحسين عليه السلام . ذكره ياقوت .

شجرة من شعر رأسك ملكاً يلعنك وشيطاناً يستفزك ، وآية ذلك أن في يديك سغلا يقتل
ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويحضر على قتله (١) .

فكان الأمر بموجب ما أخبر به عليه السلام ، كان ابنه حصين - بالصاد للهمة -
يومئذ طفلاً صغيراً يرضع اللبن ، ثم عاش إلى أن صار على شرطة عبيد الله بن زياد ، وأخرجه
عبيد الله إلى عمر بن سعد بأمره بمناجزة الحسين عليه السلام وجوعده على لسانه إن
أرجأ ذلك ، قتل عليه السلام صبيحة اليوم الذي ورد فيه الحصين برسالة في ليلته .

ومن ذلك قوله عليه السلام للبراء بن عازب يوماً : يا براء ، أقتل الحسين وأنت حي
فلا تنصروه ! فقال البراء : لا كان ذلك يأمر للؤمنين !

فلما قتل الحسين عليه السلام كان البراء يذكر ذلك ؛ ويقول : أعظم بها حسرة !
إذ لم أشهده وأقتل دونه !

وسنذكر من هذا النمط - فيما بعد إذا سهرنا بما يقتضيه ذكره - ما يحضرنا إن شاء الله .

(١٧٧)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

اتَّقِعُوا بَيَانَ اللَّهِ ؛ وَاتَّعِلُوا بِمَوَاعِدِ اللَّهِ ، وَاقْبَلُوا تَصْبِيحَةَ اللَّهِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ
أَعَذَرَ إِلَيْكُمْ بِالْجَلِيَّةِ ، وَأَحَذَ^(١) عَنْكُمْ الْحِجَّةَ ؛ وَبَيَّنَ لَكُمْ نَحَابَةَ مِنَ الْأَعْمَالِ ،
وَمَسْكَرَتَهُ مِنْهَا ؛ لِيَتَّبِعُوا هَذِهِ وَتَجْتَنِبُوا هَذِهِ ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
كَانَ يَقُولُ : إِنَّ الْجَنَّةَ حُمْتُ بِالْكَرِّ ، وَإِنَّ النَّارَ حُمْتُ بِالشَّهَوَاتِ .

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَا مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ لَيْسَ إِلَّا بِكَرٍّ فِي كَرِّهِ ، وَمَا مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ شَيْءٌ إِلَّا
بَيِّنٌ فِي شَهْوَةٍ ، فَارْحِمَ اللَّهُ أَمْرًا يَزْعَمُ مِنْ شَهْوَتِهِ ، وَقَمَعَ هَوَى نَفْسِهِ ، فَإِنَّ هَذِهِ
النَّفْسَ أَنْفَدُ شَيْءٍ مَزْعَمًا ، وَإِنَّمَا لَا تَرَالُ تَرْغُ إِلَى مَعْصِيَةٍ فِي هَوَى .

وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّ لِلْمُؤْمِنِ لَا يُخْسِي وَلَا يُصْبِحُ إِلَّا وَنَفْسُهُ ظَنُونٌ عِنْدَهُ ، فَلَا
يَزَالُ زَارِبًا عَلَيْهَا ، وَمُسْتَزِيدًا لَهَا . فَكُونُوا كَالسَّابِقِينَ قَبْلَكُمْ ، وَالْمَاضِينَ أَمَامَكُمْ ؛
فَوَضُّوا مِنَ الدُّنْيَا تَقْوِيصَ الرَّاحِلِ ، وَطَوَّوْهَا طَيَّ الدَّارِلِ .

الشرح :

أعذر إليكم : أوصح عذره في عقابكم إذا حالتم أوامره . والجلية : اليقين ؛ وإعما
أعذر إليهم بذلك ، لأنه مكتم من العلم البهيم بتوحيده وعدله ، وأوجب عليهم ذلك في

(١) مخطوطة التهج : • وأعد •

مقولم ؛ فإذا تركوه ساغ في الحكمة نذيتهم وعقوبتهم ؛ فكأنه قد أبان لهم عذره أن
لو قالوا : لم تعاقبنا ؟

ومحابة من الأعمال ، هي الطاعات التي يحبها . وحبها لها إرادة وقوعها من المكلفين .
ومكارهه من الأعمال : القبائح التي يكرها منهم ؛ وهذا الكلام حجة لأصحابنا على
الجهلة . والخبر الذي رواه عليه السلام مروي في كتب المحدثين ؛ وهو قول رسول الله صلى
الله عليه وسلم : « حُببت الجنة بالمسكاره ، وحفت النار بالشهوات » ، ومن المحدثين من
يرويه : « حفت » فيها ، وليس منهم من يرويه : « حُببت » في النار ؛ وذلك لأن لفظ
« الحجاب » إنما يستعمل فيما يرام دخوله وولوجه لمكان النفع فيه ؛ ويقال : حُجب زيد
عن مأذبة الأمير ، ولا يقال : حُجب زيد عن الحبس .

ثم ذكر عليه السلام أنه لا طاعة إلا في أمر نكرهه النفس ، ولا معصية إلا بمواقعة
أمر تحبه النفس ؛ وهذا حق ، لأن الإنسان ما لم يكن مترددا للدواعي لا يصح التكليف ؛
ولما تتردد الدواعي إذا أمر بما فيه مشقة ، أو سُيِّئَ بها في لذة ومنفعة .

فإن قلت : أليس قد أمر الإنسان بالتكاح وهو لذة ؟ قلت : ما فيه من ضرر الإنفاق
ومعالجة أخلاق النساء يُرَبِّي على اللذة الخاصة فيه ^(١) مرارا .

ثم قال عليه السلام : « رحم الله امرأ نزع عن شهوته » ، أي أفلح .
وقم هوى نفسه ، أي قهره .

ثم قال : فإن هذه النفس أبدُ شيء مَرَّفاً ، أي مذهباً ، قال أبو ذؤيب :
والنفس رافية إذا رعتها وإذا تردت إلى قليل تنقع ^(٢)

(١) : : : منه .

(٢) ديوان الهذليين ١ : ٣ .

ومن الكلام الروى عنه عليه السلام - وروى أيضا عن غيره : « أيها الناس، إن هذه النفوس طُلعة ^(١) فإلا تهدموا ^(٢) تنزع بكم إلى شر غاية » ^(٣) .

وقال الشاعر :

وَمَا النَّفْسُ إِلَّا حَيْثُ يَجْعَلُهَا الْمَقَى فَإِنْ أُطِيعَتْ نَقَتْ وَإِلَّا تَسَلَّتِ
ثم قال عليه السلام : « نفس المؤمن غُلُون عنده » ؛ الطُّنُون : البئر ^(٤) التي لا يدرى
أفيتها ماء أم لا ، فالؤمن لا يصبح ولا يمسي إلا وهو على حذرٍ من نفسه ، معتقدا
فيها التقصير والتضييع ^(٥) في الطاعة ، غير فاطح على صلاحها وسلامة عاقبتها .
وزاربا عليها : عاثبا ؛ زريئت عليه : عبت .

ثم أمرهم بالتأني بمن كان قبلهم ، وهم الذين قوضوا من الدنيا حياتهم ، أى قصوها ،
وطوّوا أيام العمر كما يطوى المسافر سائر طريقه .



الأصل :

وَأَعْلَمُوا أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ الْقَاصِحُ الَّذِي لَا يَمُشُ ، وَالْهَادِي الَّذِي لَا يَضِلُّ ،
وَالْمُعَدِّثُ الَّذِي لَا يَكْذِبُ ، وَمَا جَاءَ هَذَا الْقُرْآنَ أَحَدٌ إِلَّا قَامَ عَنْهُ بِزِيَادَةٍ
أَوْ نَقْصَانٍ ؛ زِيَادَةٍ فِي هُدًى ؛ أَوْ نَقْصَانٍ مِنْ تَعْمَى .
وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ الْقُرْآنِ آيٌ مِنْ فَاقَةٍ ، وَلَا لِأَحَدٍ قَبْلَ الْقُرْآنِ مِنْ

(١) الطلعة : السكينة التطلع .

(٢) الهدم : النح والكف .

(٣) الخبر في الفائق ١ : ٢٤٦ منسوب إلى الحسن البصري بهذه الرواية : « حدثوا هذه القلوب
بذكر الله ؛ فإنها سريضة الدنور ، والدمعوا هذه الأوس فإياها طلعة » . وانظر مهـاية ابن الأثير ٣ :
٤٧ ، ٢٣٤ .

(٤) في اللسان من المحكم : « بئر طنون : بنية الله ، لا يوثق عاثبا » .

(٥) التضييع في الأمر : التضييع فيه .

غِيٍّ ؛ فَاسْتَشْفَوْهُ مِنْ أَذْوَانِكُمْ ، وَاسْتَمِينُوا بِهِ عَلَى لَأْوَانِكُمْ ، فَإِنْ فِيهِ شِفَاءٌ مِنْ
أَكْبَرِ الدَّاءِ ، وَهُوَ الْكُفْرُ وَالنِّفَاقُ ، وَالنَّمْيُ وَالضَّلَالُ ، فَاسْأَلُوا اللَّهَ بِهِ ، وَتَوَجَّهُوا إِلَيْهِ
يَحْبُّهُ ، وَلَا تَسْأَلُوا بِهِ خَلْقَهُ ؛ إِنَّهُ مَاتَوْجَهَ الْعِبَادُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِمِثْلِهِ .

وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ ، وَقَائِلٌ مُصَدِّقٌ ؛ وَأَنَّهُ مَنْ شَفَعَ لَهُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
شَفَعَ فِيهِ ، وَمَنْ تَحَلَّى بِهِ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صُدِّقَ عَلَيْهِ ؛ فَإِنَّهُ يُنَادِي مُنَادٍ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ : أَلَا إِنَّ كُلَّ حَارِثٍ مُبْتَلَى فِي حَرَّتِهِ وَعَاقِبَةٍ تَحْمِلُهُ ، عَمِيرَ
حَرَّتِهِ الْقُرْآنُ .

فَكُونُوا مِنْ حَرَّتِهِ وَأَتْبَاعِهِ ، وَاسْتَدِلُّوهُ عَلَى رُسُلِكُمْ ، وَاسْتَنْصِحُوهُ عَلَى أَعْيُنِكُمْ ،
وَأَتَّبِعُوا عَلَيْهِ آرَاءَكُمْ ؛ وَاسْتَمِشُوا فِيهِ أَهْوَاءَكُمْ



الْبَيْتُ :

غَشَّهَ بَشَّتَهُ ، بِالضَّمِّ ، عِشَاءً ، خِلَافَ نَصَحَةٍ . وَلِلْأَوَّاءِ : الشُّدَّةُ .
وَشَفَعَ لَهُ الْقُرْآنُ شَفَاعَةً ، بِالْفَتْحِ ؛ وَهُوَ مِمَّا ^(١) يَمْلُطُ فِيهِ الْعَامَّةُ مَيْكُسِرُونَهُ ، وَكَذَلِكَ
مَتَّ كَذَا بِكَذَا ، أَتْبَعْتَهُ ، مَفْتُوحٌ أَيْضًا .

وَتَحَلَّى بِهِ إِلَى السُّلْطَانِ ، قَالَ عَنْهُ مَا بَصُرَتْهُ ؛ كَأَنَّهُ جَعَلَ الْقُرْآنُ يَتَحَلَّى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
عِنْدَ اللَّهِ بِقَوْمٍ ؛ أَيْ يَقُولُ عَنْهُمْ شَرًّا ، وَبِشَفَعَ عِنْدَ اللَّهِ لِقَوْمٍ ، أَيْ يُبَشِّرُ عَلَيْهِمْ خَيْرًا .
وَالْحَارِثُ : الْكَتْسُ ، وَالْحَرِثُ : الْكَسْبُ . وَحَرَّتُهُ الْقُرْآنُ : الْمَتَاجِرُونَ بِهِ اللَّهُ .
وَاسْتَنْصَحُوهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، أَيْ إِذَا أَشَارَ عَلَيْكُمْ بِأَمْرٍ وَأَشَارَتْ عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ بِأَمْرٍ يَخَالِفُهُ ،

(١) ب د والنلط .

فاقبلوا مشورة القرآن دون مشورة أخسكم ؛ وكذلك معنى قوله : « وأنهموا عليه آراءكم ، واستغشوا فيه أهواءكم » .

•••

[فصل في القرآن وذكر الآثار التي وردت بفضله]

واعلم أن هذا الفصل من أحسن ما ورد في تعظيم القرآن وإجلاله ؛ وقد قال الناس في هذا الباب فأكثرُوا .

ومن الكلام للروى عن أمير المؤمنين عليه السلام في ذكر القرآن أيضاً ما رواه ابن قتيبة في كتاب " عيون الأخبار " عنه عليه السلام أيضاً ، وهو : « مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة ؛ ريحها طيب ، وطعمها طيب . ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها . ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة . ريحها طيب ، وطعمها مر . ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن مثل الحنظل طعمها مر ، وريحها منتنة » .

وقال الحسن رحمه الله : قرأ القرآن ثلاثة : رجل اتخذ بضاعة فنقله من مصر إلى مصر ؛ يطلب به ماعند الناس ، ورجل حفظ حروفه ، وضيع حدوده ، واستند به الولاء واستطال به على أهل بلاده ، وقد كفر الله هذا الضرب من حملة القرآن - لا كثرم الله - ورجل قرأ القرآن فبدأ بما يعلم من دواء القرآن ، فوضعه على داء قلبه ، فسهر ليله ، وانهملت عيناه ، وتسربل بالخشوع ، وارتدى بالحرى ؛ فهذا وأمثاله يسقى الناس الفيت ، وينزل التنصر ، ويدفع البلاء . والله هكذا الضرب من حملة القرآن أعز وأقل من الكبريت الأحمر .

وفي الحديث المرفوع : « إن من تعظيم جلال الله إكرام ذى الشبهة في الإسلام ، وإكرام الإمام العادل ، وإكرام حملة القرآن » .

وفي الخبر المرفوع أيضا : « لا تهايدوا بالقرآن إلى أرض العدو ؛ فإنى أخاف أن يئله العدو » .

وكانت الصحابة تكثر بيع الصحاف وثرأه عظيمًا ، وكانوا يكرهون أن يأخذوا العلم على تعليم القرآن أجرا .

وكان ابن عباس يقول : إذا وقعت في آل حم ؛ وقعت في روضات ديمثات أناتق فيهن .

وقال ابن مسعود : لكل شيء ديباجة ، وديباجة القرآن آل حم .
قيل لابن عباس : أيموز أنت بحمل المصحف بالذهب والفضة ؟ فقال : حليمته في جوفه .

وقال النبي صلى الله عليه وآله : « أصفر البيوت جوف صفر من كتاب الله » .
وقال الشعبي : « إلام وتفسير القرآن ؛ فإن الذى يفسره إنما يحدث عن الله » .
الحسن رحمه الله : رجم الله أسرا عرض نفسه وعمله على كتاب الله ؛ فإن وافق ، حمد الله وسأله الزيادة ، وإن خالف ، أعتب وراح من قريب .
حفيظ عمر بن الخطاب سورة البقرة ، فنعروا وأطعم .

وقد غالب بن مصصة على على عليه السلام ومعه ابنه العززدق ، فقال له : من أنت ؟ فقال غالب بن مصصة المحاشي ، قال : ذو الإمل لكثيرة ؟ قال : نعم ، قال : ما فعلت إبلتك ؟ قال : أذهبها النواشب ، ودفع عنها الحفوق . قال : ذلك خير سبلها .

ثم قال : يا أبا الأخطل ، مَنْ هذا الغلام معك ؟ قال : ابني وهو شاعر ، قال : علمه القرآن فهو خير له من الشعر ؛ فكان ذلك في نفس الفرزدق ؛ حتى قيد نفسه ، وآلى ألا يحمل قيدَه حتى يحفظ القرآن ؛ فاحلته حتى حفظه ؛ وذلك قوله :

وما صَبَّ رجلٌ في حديدٍ مجاشعٍ مع القيدِ إلا حاجةٌ لي أريدُها^(١)

قلت : تحت قوله عليه السلام : « يا أبا الأخطل » ، قبل أن يعلم أن ذلك الغلام والله وأنه شاعر ، مرةً غامض ؛ ويكاد يكون إخباراً عن غيب ؛ فليح .

الفضيل بن عياض : بلغني أن صاحب القرآن إذا وقف على مصحف ، خرج القرآن من جوفه فاعتزل ناحية وقال : ألمذا حنتي !

قلت : وهذا القول على سبيل للنل والتخويف من موافقة للعاصي لمن يحفظ القرآن .
أنس : قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا ابن أم سليم ، لا تسفل عن قراءة القرآن صباحاً ومساءً ؛ فإنَّ القرآنَ يحيي القلب الميت ، وينهي عن القعشاء والنكر » .

كان سفيان الثوري إذا دخل شهر رمضان ترك جميع العبادة ، وأقبل على قراءة القرآن من المصحف .

كعب الأحبار : قال الله تعالى لموسى عليه السلام : مثل كتاب محمد في الكتب مثل سقاء فيه لبن ، كلما خضضته استخرجت منه زُبْداً .

أسلم الخواص : كنتُ أقرأ القرآن ؛ فلا أجده حلاوة ، فقلت لنفسي : يا أسلم ، اقرأ القرآن كأنك تسمعه من رسول الله صلى الله عليه ، فجاءت حلاوة قليلة ، فقلت : اقرأ كأنك تسمعه من جبريل عليه السلام ؛ فازدادت الحلاوة ، فقلت : اقرأ كأنك تسمعه من الله عز وجل حين تكلم به ، فجاءت الحلاوة كلها .

(١) ديوان ١ : ٢١٥ ؛ وهو أيضاً في اللسان ٥ : ٢ ؛ ويقال : صب رجلاً فلان في القيد ؛ أي قيد .

بعضُ أرباب القلوب : إن الناس يَحْمِزون^(١) في قراءة القرآن ما خلا المهين ؛ فإن لم خان إشارات ، إذا مرؤوا به نزلوا . يريد آيات من القرآن يقومون عندها فيفكرون فيها . في الحديث للرفوع : « ما من شفيح ؛ من ملك ولا من ولا غيرها ، أفضل من القرآن » .

وفي الحديث للرفوع أيضا : « من قرأ القرآن ثم رأى أن أحدا أوتي أفضل مما أوتي فقد استصغر عظمة الله » .

وجاء في بعض الآثار : إن الله تعالى خلق بعض القرآن قبل أن يخلق آدم ، وقراء على الملائكة ، فقالوا : طوى لأمة ينزل عليها هذا ! وطوى لأجواف تحمل هذا ! وطوى لألسنة تنطق بهذا !

وقال النبي صلى الله عليه وآله : « إن القلوب تصدا كما يصد الحديد » ، قيل : يا رسول الله ، وما جلاؤها ؟ قال : « قراءة القرآن وذكر الموت » .

وعنه عليه السلام . « ما أذن الله شيء أذنه للنبي حسن التزم بالقرآن »^(٢) .
وعنه عليه السلام : « إن ربكم لأشدُّ أدنا إلى قارى القرآن من صاحب القينة إلى قيمته » .

وهذه عليه السلام : « أنت تقرأ القرآن ما سهاك ؛ فإذا لم يهلك فليست تقرأه » .
ابن مسعود رحمه الله : ينبغي لحامل القرآن أن يُعرف بليته إذا الناس ناعون ، وبهزله إذا الناس مفرحون ، وبمحزنه إذا الناس يفرحون ، وبسكاته إذا الناس يضعفون ، وبمحشوعه إذا الناس يحتالون . وينبغي لحامل القرآن أن يكون سكتنا زميتنا ليتنا^(٣) ، ولا ينبغي أن يكون جافيا ولا عاريا ، ولا صبحا ولا حديدا ولا صغابا^(٤) .

(١) يحمزون : يسرعون . (٢) الأذن : الاستماع مع الإعجاب .

(٣) السكت : السكينة ، والزميت : الخليم الساكن القليل الكلام .

(٤) الحديد : السرمع الغضب .

بعض السلف . إن العبد ليفتتح سورة فتصل عليه حتى يفرغ منها . وإن العبد ليفتتح سورة فتعلمه حتى يفرغ منها ، قيل : كيف ذلك ؟ قال : إذا أحل حلالها ، وحرم حرامها ؛ صلت عليه وإلا لعنته .

ابن مسعود : أنزل الله عليهم القرآن ليعملوا به ، فاتخذوا دراسته مهلاً ؛ إن أحدهم يقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يسقط منه حرفاً ، وقد استقط العمل به .
ابن عباس : لأن أقرأ البقرة وآل عمران أردت لهما وأتدبرهما أحب إلي من أن أقرأ القرآن كله هذرمة ^(١) .

ثابت البناني : كابدت في القرآن عشرين سنة ، وتلقمت به عشرين سنة .



الأصل :

العمل العمل ، ثم النهاية النهاية ، والاستقامة الاستقامة ، ثم الصبر الصبر والورع الورع .

إن لكم نهاية فاستهوا إلى يهايتكم ، وإن لكم علقاً فاهتدوا بعليكم ، وإن للإسلام غاية فاستهوا إلى غايته ؛ وأخربوا إلى الله بما أقرض عليكم من حقه ، وبيّن لكم من وطأه .

أنا شاهد لكم ، وحجيج يوم القيامة عنكم . ألا وإن القدر السابق قد وقع ، والقضاء الماضي قد تورد .

ولأي متكلم بعيدة الله وحجته ؛ قل الله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أُنْ لَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ

(١) الهدرمة : السرعة في القراءة .

الَّتِي كُنْتُمْ تُوعِدُونَ ؛ وَقَدْ كُنْتُمْ : (رَأَى اللَّهُ) ، فَاسْتَقِيسُوا عَلَى كِتَابِهِ ، وَعَلَى مِنْهَاجِ أَمْرِهِ ، وَعَلَى الطَّرِيقَةِ الصَّالِحَةِ مِنْ عِبَادَتِهِ ؛ ثُمَّ لَا تَمُرُّوا مِنْهَا ، وَلَا تَبْتَدِعُوا فِيهَا ، وَلَا تُخَافُوا عَنْهَا ، فَإِنَّ أَهْلَ الْمُرُوفِ مُنْقَطِعٌ بِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

• • •

البَيِّنَاتُ :

النَّصِبُ عَلَى الْإِغْرَاءِ ؛ وَحَقِيقَةُ فِعْلِ مُقَدَّرٍ ، أَيْ الزَّمَوِ الْعَمَلِ ، وَكَرَّرَ الْأَسْمَ لِيُنَوِّبَ أَحَدُ الْعَظِيمِينَ عَنِ الْعَمَلِ الْمُقَدَّرِ ؛ وَالْأَشْبَهُ أَنْ يَكُونَ الْفِعْلُ الْأَوَّلُ هُوَ الْقَائِمُ مَقَامَ الْفِعْلِ ؛ لِأَنَّهُ فِي رَتْبِهِ . أَمْرٌ بِالرُّومِ الْعَمَلِ ثُمَّ أَمْرٌ بِمُرَاعَاةِ الْعَاقِبَةِ وَالْحَاطِمَةِ ، وَخَبَرٌ عَنْهَا بِالنِّهَايَةِ ؛ وَهِيَ آخِرُ أَحْوَالِ الْمُسْكِنِ الَّتِي يَخْرُقُ الدُّنْيَا عَلَيْهَا ؛ إِمَّا مُؤْمِنًا أَوْ كَافِرًا ، أَوْ فَاسِقًا ، وَالْفِعْلُ الْمُقَدَّرُ هَاهُنَا : رَاعُوا وَأَحْسِنُوا وَأَصْلَحُوا ، وَنَحْوُ ذَلِكَ .

ثُمَّ أَمْرٌ بِالِاسْتِقَامَةِ وَأَنْ يَلْزَمُوهَا ؛ وَهِيَ أَدَاءُ الْعَرَّائِصِ .

ثُمَّ أَمْرٌ بِالصَّبْرِ عَلَيْهَا وَمِلَازِمَتِهِ ، وَبِمِلَازِمَةِ الْوَرَعِ .

ثُمَّ شَرَحَ بِهَذَا الْكَلَامِ الْجَمَلِ فِي تَفْصِيلِهِ قَالُ : « إِنْ لَكُمْ نِهَآيَةٌ فَانْتَهُوا إِلَى نِهَآيَتِكُمْ » ، وَهَذَا لَفْظُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : « أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنْ لَكُمْ مَعَالِمٌ فَانْتَهُوا إِلَى مَعَالِمِكُمْ ، وَإِنْ لَكُمْ غَايَةٌ فَانْتَهُوا إِلَى غَايَتِكُمْ » ، وَلِلرَّادِ بِالنِّهَايَةِ وَالْعَايَةِ أَنْ يَمُوتَ الْإِنْسَانُ عَلَى تَوْبَةٍ مِنْ فِعْلِ الْقَبِيحِ وَالْإِحْلَالِ بِالْوَاجِبِ .

ثُمَّ أَمْرٌ بِالِاهْتِدَاءِ بِالْعِلْمِ الْمُنْصَوِّبِ لَهُمْ ؛ وَإِنَّمَا يَعْنِي نَفْسَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ لِلْإِسْلَامِ غَايَةً ، وَأَمْرًا بِالنِّهَايَةِ إِلَيْهَا ؛ وَهِيَ أَدَاءُ الْوَاجِبَاتِ ، وَاجْتِنَابُ الْمَقْتَبَعَاتِ .

ثُمَّ أَوْضَحَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : وَخَرَجُوا إِلَى اللَّهِ بِمَا افْتَرَضَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَقِّهِ ، وَبَيَّنَ لَكُمْ

من وظائفه ؛ فكشف بهذا الكلام معنى العاية التي أجهلها أولاً . ثم ذكر أنه شاهد لهم ، ومحتاج يوم القيامة عنهم ؛ وهذا إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أَنْفَسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ ^(١) .

وحجيج : فصيل بمعنى « فاعل » ، وإنما سمي نفسه حجيجاً عنهم ؛ وإن لم يكن ذلك الموقف موقف محاسبة ^(٢) ؛ لأنه إذا شهد لهم ، فكأنه أثبت لهم الحججة ، فصار محتاجاً عنهم .

قوله عليه السلام : « أَلَا وَإِنَّ لِقَدَرِ السَّابِقِ قَدْ وَقَعَ » ، يشير به إلى خلافته . وهذه الخطبة من أوائل الخطب التي خطب بها أيام بروج بعد قتل عثمان ؛ وفي هذا إشارة إلى أن رسول الله صلى الله عليه وآله قد أخبره أن الأمر سيفضي إليه منتهى عمره ، وعند انقضاء أجله .

ثم أخبرهم أنه سيتكلم بوعده الله تعالى ومحجته على عباده في قوله : « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْأَوْا... » ^(٣) الآية ، ومعنى الآية أن الله تعالى وعد الذين أقرؤوا بالربوبية ولم يقتصروا على الإقرار ، بل عقبوا ذلك بالاستقامة أن ينزل عليهم الملائكة عند موتهم بالبشرى ، ولغة « ثم » التراخي ، والاستقامة مفضلة على الإقرار باللسان ، لأن الشأن له في الاستقامة ، ونحوها قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ ^(٤) ، أي ثم ثبتوا على الإقرار ومقتضياته ، والاستقامة هاهنا هي الاستقامة الفعلية شافعة للاستقامة القولية . وقد اختلف فيه قول أمير المؤمنين عليه السلام وأبي بكر ، فقال أمير المؤمنين عليه السلام : أذكوا القرائض ، وقال أبو بكر : استمروا على التوحيد .

(٢) د : « حاجه » .
(٤) سورة المجرات ١٥ .

(١) سورة الإسراء ٧٩
(٢) سورة ص ٣٠

وروى أن أبا بكر تلاها ، وقال : ما تقولون فيها ؟ فقالوا : لم يذنبوا ، فقال : حلتكم الأمر على أشده ، فقالوا : قل ، قال : لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان . ورأى أبي بكر في هذا الموضع - إن ثبت عنه - يؤكد مذهب الأرجاء ، وقول أمير المؤمنين عليه السلام يؤكد مذهب أصحابنا .

وروى سفيان بن عبد الله الثقفي ، قال : قلت يا رسول الله ، أخبرني بأمر أعظم به ، فقال : قل : لا إله إلا الله ، ثم استقم ، قلت : ما أخوف ما تخافه على ؟ فقال : هذا ، وأخذ بلسان نفسه صلى الله عليه وآله .

وتنزل عليهم الملائكة ، عند الموت ، أو في القبر ، أو عند النشور .
والأخوف « أن » بمعنى « أي » ، أو تكون حذينة من التثنية ، وأصله « أنه لا تخافوا » والماء ضمير الشأن .

وقد فسر أمير المؤمنين الاستقامة للشرعة في الآية ، فقال : قد أقررتم بأن الله ربكم فاستقيموا على كتابه ، وعلى منهاج أمره ، وعلى الطريقة الصالحة من عبادته .

لا تفرقوا منها ، مرق السهم ، إذا خرج من الرمية مروقاً .
ولا تبدعوا : لا تحدثوا ما لم يأت به الكتاب والسنة .
ولا تخالفوا عنها ، تقول : خالفت عن الطريق ، أي عدلت عنها .
قال : فإن أهل اللروق منقطع بهم ، بفتح الطاء . انقطع يزيد بضم الهمزة ، فهو منقطع به ، إذا لم يجد بلاغا ووصولا إلى المقصد .

الأصل :

نَمْ إِنَّا كَمْ وَتَهْزِجُ الْأَخْلَاقَ وَتَضْرِبُهَا ، وَاجْعَلُوا اللِّسَانَ وَاحِدًا ، وَلِيُخْزِنَ الرَّجُلُ لِسَانَهُ ؛ فَإِنَّ هَذَا اللِّسَانَ جَوْحٌ بِصَاحِبِهِ ، وَاللَّهُ مَا أَرَى عَبْدًا يَتَّقِي تَقْوَى تَنْفَعُهُ حَتَّى يَخْتَرَنَ لِسَانَهُ ؛ وَإِنْ لِسَانُ الْمُؤْمِنِ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ ؛ وَإِنْ قَلْبُ الْمُنَافِقِ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِهِ ؛ لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَمَرَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِكَلَامٍ تَدَبَّرَهُ فِي نَفْسِهِ ؛ فَإِنْ كَانَ خَيْرًا أَبْدَاهُ ، وَإِنْ كَانَ شَرًّا وَارَاهُ ؛ وَإِنْ الْمُنَافِقُ يَتَكَلَّمُ بِمَا أَتَى عَلَى لِسَانِهِ لَا يَدْرِي مَاذَا لَهُ ، وَمَاذَا عَلَيْهِ . وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَا يَسْتَقِيمُ إِيْمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ .

فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفِلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ ، وَهُوَ يَقِي الرَّاحَةَ مِنْ دِمَاءِ السُّلَيْمِ وَأَمْوَالِهِمْ ، سَلِمَ اللِّسَانُ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ ، فَيَعْمَلُ .

• • •

الشرح :

تهزجُ الأخلاق : تغيرها ؛ وأصل اهزج : الكسر ، أسد مهزج : يكسر الأحصاف ويرض العظام ، ولما كان التصريف بحقه ، انقل له من حال قد أعدم سمته الأولى كما يعدم الكاسر صورة الكسور ؛ اشتراك في معنى شامل لها ؛ فاستعمل التهزج في الخلق للتصيير والتبديل محازاً .

قوله : « واجعلوا اللسان واحدا » ، منى عن الاتفاق واستعمال الوجهين .

قال : « وليخزن الرجل لسانه » ، أى ليعبئه ؛ فإن اللسان يجمع بصاحبه فيلقبه في الملكة .

ثم ذكر أنه لا يرى التقوى نافعة إلا مع حبس اللسان ؛ قال : فإن لسان المؤمن وراء قلبه ، وقلب الأحق وراء لسانه ؛ وشرح ذلك وبينه .

فإن قلت : للسموع المعروف : « لسان العاقل من وراء قلبه ، وقلب الأحق وراء لسانه » ؛ كيف نقله إلى المؤمن والمنافق ؟

قلت : لأنه قل أن يكون المنافق إلا أحق ، وقل أن يكون العاقل إلا مؤمناً ، فلا كثرية ذلك ، استعمال لفظ « المؤمن » ؛ وأراد العاقل ، ولفظ « المنافق » وأراد الأحق .

ثم روى الخبر المذكور عن النبي صلى الله عليه وآله وهو مشهور .

ثم أمرهم بالاجتهاد في أن يلقوا الله تعالى وكل منهم نقي الراحة من دماء المسلمين وأموالهم ، سليم اللسان من أعراضهم ؛ وقد قال النبي صلى الله عليه وآله : « إنما المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » ، فسلامتهم من لسانه سلامة أعراضهم ، وسلامتهم من يده سلامة دمايتهم وأموالهم ؛ وانفصالي تهذيب ؛ على التحذير ؛ وحقيقته تقدير فعل ، وصورته : اجتنبوا أنفسكم تهذيب الأخلاق ؛ و « إياكم » قائم مقام أنفسكم ، واووا عوضاً عن الفعل المقدّر ، وأكثر ما يحى بالواو ؛ وقد جاء بغير واو في قول الشاعر :

إِيَّاكَ إِيَّاكَ المراء فَبَانَهُ إِلَى الشَّرِّ دَعَا وَالشَّرُّ جَالِبُ

وكان يقال : ينبئ العاقل أن يمسك ست خصال ، فإنها من المروءة : أن يحفظ دينه ، ويصون عرضه ، ويصل رحمه ، ويحمي جاره ، ويرعى حقوق إخوانه ، ويحزن عن البذاء لسانه^(١) .

وفي الخبر المرفوع : « مَنْ كَفَى شَرَّ قَعْبِهِ وَذَبَذَبَهُ ، وَلَقَّاهُ ، دَخَلَ الْجَنَّةَ » .

(١) البذاء : السفه والفتور في اللسان .

فالتعقب البطلن : والذبذب : الفرّج ، والقلق : اللسان .
وقال بعض الحكماء : مَنْ عَلِمَ أَنَّ لِسَانَهُ جَارِحَةٌ مِنْ جَوَارِحِهِ أَقْلٌ مِنْ أَعْمَالِهَا ،
وَاسْتَفْهِحَ تَحْرِيكَهَا ؛ كَمَا يَسْتَفْهِحُ تَحْرِيكَ رَأْيِهِ أَوْ مَنْكِبِهِ دَائِمًا .

• • •

الأصل :

وَأَعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَنْفَعِلُ الْعَامَ مَا اسْتَحَلَّ عَامًا أَوَّلَ ، وَيُحَرِّمُ الْعَامَ
مَا حَرَّمَ عَامًا أَوَّلَ ؛ وَأَنَّ مَا أَخَذَتْ النَّاسُ لَا يُحِلُّ لَكُمْ شَيْئًا يَمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ، وَلَكِنْ
الْحَلَالُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ ، وَالْحَرَامُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ، فَقَدْ جَرَّبْتُمُ الْأُمُورَ وَصَرَّحْتُمُوهَا ،
وَوُعِظْتُمْ بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَضُرِبَتْ الْأَمْثَالُ لَكُمْ ، وَدُعِيتُمْ إِلَى الْأَمْرِ الْوَاضِحِ
فَلَا يَقُومُ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا أَصَمٌ ، وَلَا يَنْصَرِفُ عَنْهُ إِلَّا أَصَمٌ .
وَمَنْ لَمْ يَنْفَعِهِ اللَّهُ بِالْبَلَاءِ وَالتَّجَارِبِ ، لَمْ يَنْفَعِهِ شَيْءٌ مِنَ الْعِظَةِ ؛ وَأَتَاهُ اللَّهُ نَصِيرُهُ
مِنْ أَمَامِهِ ؛ حَتَّى يَعْرِفَ مَا أَنْكَرَ ، وَيُنْكِرَ مَا رَفَى ؛ فَإِنَّ النَّاسَ رَجُلَانِ ؛ مُتَّبِعُ
شَرِيعَةٍ ، وَمُتَّبِعُ يَدْعَةٍ ؛ لَيْسَ مَعَهُ مِنْ أَفْرِ سَبْعَانَةٍ يُرْهَانُ سُنَّةً ، وَلَا ضِيَاءَ حُجَّةٍ .

• • •

الفرج :

يقول : إِنَّ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ لَا يَجُوزُ بَعْدَ ثَبُوتِ الْأَدْلَةِ عَلَيْهَا مِنْ طَرِيقِ النَّصِّ أَنْ
تُنْقَضَ بِاجْتِهَادٍ وَقِيَاسٍ ؛ بَلْ كُلُّ مَا وَرَدَ بِهِ النَّصُّ تُتَّبَعُ مَوْرِدُ النَّصِّ فِيهِ ، فَمَا اسْتَحَلَّتْ عَامًا
أَوَّلَ ؛ فَهِيَ فِي هَذَا الْعَامِ حَلَالٌ ؛ وَكَذَلِكَ الْقَوْلُ فِي التَّحْرِيمِ ؛ وَهَذَا هُوَ مَذْهَبُ أَكْثَرِ
أَحْبَابِنَا ؛ أَنَّ النَّصَّ مُتَقَدِّمٌ عَلَى الْقِيَاسِ ، وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ فِي كِتَابِنَا فِي أَصُولِ الْفَقْهِ .
وَأَوَّلُ هَاهُنَا ، لَا يَنْصَرَفُ ، لِأَنَّهُ صِفَةٌ عَلَى وَزْنِ « أَفْعَلٌ » .

وقال : « إن ما أحدث الناس لا يحل لكم شيئا مما حرم عليكم » ؛ أى ما أحدثوه من القياس والاجتهاد ؛ وليس هذا هادج في القياس ، ولكنه مانع من تقديمه على النص ؛ وهكذا يقول أصحابنا .

قوله : « وضرستموها » بالتشديد أى احكمتوها تجربة وممارسة ، يقال : قد ضرسته الحرب ، ورجل مضرس .

قوله : « فلا بسم عن ذلك إلا أصم » أى لا بسم عنه إلا من هو حقيق أن يقال عنه : إنه أصم ، كما تقول : ما يحول هذا الأمر إلا جاهل ؛ أى بالغ في الجهل .

ثم قال : « من لم ينفعه الله بالبلاء » أى بالامتحان والتعربة ، لم تنفعه المواعظ ؛ وجاء النقص من بين يديه حتى يتعطل فيها أسكره أنه قد عرفه ، ويكر ما قد كان عارفا به . وسمى اعتقاد العرفان وتخليه عرفانا على المجاز .

ثم قسم الناس إلى رجلين : إما متبع طريقته ومنها ما ، أو مبتدع ما لا يعرف ؛ وليس بيده حجة ، فالأول الحق والثاني للباطل .
والشريعة : المهاج . والبرهان : الحجة .

• • •

الأصل :

فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَعْظَ أَحَدًا يَمْنُلْ هَذَا الْقُرْآنَ ؛ فَإِنَّهُ حَبْلُ اللَّهِ الْتَيْنُ ، وَسَبَبُهُ الْأَمِينُ ، وَفِيهِ رَيْعُ الْقَلْبِ ، وَبَنَایِعُ الْعِلْمِ ، وَمَا لِقَلْبٍ جَلَاءَ فَهْرُهُ ؛ مَعَ أَنَّهُ قَدْ ذَهَبَ الْمَتَدُّ كُرُونًا ، وَبَقِيَ النَّاسُونَ أَوْ لِلتَّقَاسُونَ ، فَيُذَارُ رَأْيُنْمُ خَيْرًا فَأَعْيَنُوا عَيْنِي ؛ وَإِذَا رَأَيْتُمْ شَرًّا فَادْهَبُوا عَنْهُ ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ : يَا بَنَ آدَمَ ، أَهْمِلِ الْخَيْرَ ، وَدَعْ الشَّرَّ ؛ فَإِذَا أَنْتَ جَوَادٌ قَاصِدٌ .

• • •

البُزْج :

إنما جعله حبل الله ؛ لأنّ الحبل ينجو من تعلق به من هوة ، والقرآن ينجو من الضلال من يعلق به .

وجعله متينا ، أى قويا ، لأنه لا انقطاع له أبدا ، وهذه غاية المتانة والقوة .
ومتى الشيء ، بالضم ، أى صلب وقوى . وسببه الأمين ، مثل حبله المتين ؛ وإنما خالف بين التفتين على قاعدة الخطابة .

وفيه ربيع القلب ؛ لأنّ القلب يحيا به كما تحيا الأنعام برعى الربيع .
وبنايع العلم ؛ لأنّ العلم منه يتفرع كما يخرج الماء من اليسوع ويتفرع إلى الجداول .
والجلاء ، بالكسر : مصدر جلّيت السيف ، يقول : لا جلاء لصدأ القلوب من الشبهات والمغلات إلا القرآن .

ثم قال : إنّ المتذكّرين قد ذهبوا وماتوا ، وبقي الناسون الذين لا علوم لهم ، أو المتناسون الذين عديم العلوم ، ويكفون إظهار الجهل لأغراض دنيوية تعرض لهم وروى : « والمتناسون » بالوار .

ثم قال : أعيّنوا على الخير إذا رأيتوه ، متعسّيه عند فاعله ، وبدفع الأمور المانعة عنه ، وبتسهيل أسبابه وتسفيه سبله ، وإذا رأيتم الشرّ فاذهبوا عنه ، ولا تقاربوه ولا تقيموا أنفسكم في مقام الرضا به ، الموافق على فعله . ثم روى لم الخير .
والجواد القاصد : السهل التبر ، لا سريع يتعب بشرعته ، ولا لطف يفتؤ
العرض ببطئه .

الأصل :

أَلَا وَإِنَّ الظُّلْمَ ثَلَاثَةٌ : فَظُّلْمٌ لَا يُغْفَرُ ، وَظُّلْمٌ لَا يُنْزَكُ ، وَظُّلْمٌ مَعْفُورٌ لَا يُطْلَبُ .
فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يُغْفَرُ ؛ فَالشُّرْكُ بِإِلَهِ ، قَالَ اللَّهُ سُبحَانَهُ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ
أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ .

وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يُغْفَرُ ، فَظُّلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ حِينَ يَهْمُ إِلَهَاتٍ .
وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يُنْزَكُ ، فَظُّلْمُ الْعِبَادِ بِمَنَاصِبِهِمْ بَعْضًا .
الْقِصَاصُ هُنَاكَ شَدِيدٌ ، لَيْسَ هُوَ جَزَاءً بِالْمَدَى ، وَلَا ضَرْبًا بِالشَّيْطَانِ ؛ وَلَكِنَّهُ
مَا يُتَعَصَّرُ ذَلِكَ مَعَهُ .

فَلْيَا سَمْعُهَا وَاللَّوْنُ فِي دِينِ اللَّهِ ؛ فَلْيَنْجَاعَةً فِيمَا تَكْرَهُونَ مِنْ أَلْحَقْ ، حَيْثُ مِنْ
فُرْقَةٍ فِيمَا تُحِبُّونَ مِنَ الْبَاطِلِ ؛ وَإِنَّ اللَّهَ سُبحَانَهُ لَمْ يَعْطِ أَحَدًا بِفُرْقَةٍ خَيْرًا مِنْ مَعَى ،
وَلَا يَمُنُّ بَقِيٍّ .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، طُوبَى لِمَنْ شَهِدَهُ عَيْنُهُ عَنْ هَيْبِ النَّاسِ ؛ وَطُوبَى لِمَنْ لَزِمَ مَبِيتَهُ ؛
وَأَكْلَ قُوَّتِهِ ، وَاشْتَمَلَ بِطَاعَةِ رَبِّهِ ، وَبَكَى عَلَى خَطِيئَتِهِ ، فَكَانَ مِنْ تَقِيٍّ فِي
شُغْلٍ ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ .

الشرح :

قَسَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الظُّلْمَ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ :
أَحَدُهَا : ظُلْمٌ لَا يَغْفَرُ ؛ وَهُوَ الشُّرْكُ بِاللَّهِ ، أَيْ أَنْ يَمُوتَ الْإِنْسَانُ مَعِيراً عَلَى الشُّرْكِ ؛
وَيَجِبُ عِنْدَ أَصْعَابِنَا أَنْ يَكُونَ أَرَادَ الْكِبَارُ ؛ وَإِنْ لَمْ يَذْكُرْهَا ، لِأَنَّ حُكْمَهَا حَكْمُ
الشُّرْكِ عِنْدَهُمْ .

وثانيها : : الخلفاء المنفردة ، وهي صفات الذنوب ؛ هكذا يفسر أصحابنا كلامه عليه السلام .

وثالثها : ما يتعلق بحقوق البشر بعضهم على بعض ؛ فإن ذلك لا يتركه الله تعالى ، بل لا بد من عقاب فاعله ؛ وإنما أفرد هذا القسم مع دحوه في القسم الأول لتمييزه بكونه متعلقاً بحقوق بني آدم بعضهم على بعض ؛ وليس الأول كذلك .

فإن قلت : لفظه عليه السلام مطابق للآية ؛ وهي قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَفْغَرُ لَا يَعْنِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَنْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لَنْ يَشَاءَ ﴾ ^(١) والآية ولفظه عليه السلام صريحان في مذهب المرجئة ؛ لأنكم إذا فسرتم قوله : « لَنْ يَشَاءَ » بأن المراد به أرباب التوبة قيل لكم : فالشركون هكذا حالم بقبل الله توبتهم ، وبسقط عقاب شرّ كهملها ، فلا شيء ممضى خصص المشيئة بالقسم الثاني وهو ما دون الشرك ؛ وهل هذا إلا تصريح بأن الشرك لا يففر لن مات عليه ، وما دونه من المعاصي إذا مات الإنسان عليه لا يقطع له بالعقاب ، ولا العبرة بل أمره إلى الله ا

قلت : الأصوب في هذا اللوح ألا يعمل قوله : « لَنْ يَشَاءَ » معنيًا به الناشون ؛ بل نقول : المراد أن الله لا يسترفى موقف القيامة من مات مشركا ، بل يفصحه على رموس الأثمهات كما قال تعالى : ﴿ وَبَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رُسُلِهِمْ ﴾ ^(٢) .

وأما من مات على كبيرة من أهل الإسلام ، فإن الله تعالى يسره في الموقف ، ولا يفصحه بين انطلائق ؛ وإن كان من أهل النار ؛ ويكون معنى العفرة في هذه الآية السر وتغطية حال المعاصي في موقف الحشر ؛ وقد يكون من أهل الكبائر ممن يفر بالإسلام

(١) سورة النساء ٤٨ .

(٢) سورة هود ١٨ .

اعظيم كبائره جدًّا ، فيفضحه الله تعالى في الموقف كما يفضح المشرك ؛ فهذا معنى قوله : ﴿ ويضفر مادون ذلك لمن يشاء ﴾ .

فأما الكلامُ المطولُ في تأويلات هذه الآية ودُّكور في كتبنا الكلامية .
واعلم أنه لا نعلق للرجنة ولا جدوى عليهم من عموم لفظ الآية ، لأنهم قد وافقونا على أن
الفلسفي غير مغفوره وليس مشرك ؛ فإذا أراد بقوله تعالى ﴿ إِنْ لَّيْسَ اللَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾
ومن جرى مجرى المشركين ، قيل لهم : ونحن نقول : إن الزاني والقاتل يجرى مجرى المشركين
كما أجريتم الفلاسفة مجرى المشركين ، فلا تنكروا علينا ما لم تنكروه على أنفسكم .
ثم ذكر عليه السلام أن القصاص في الآخرة شديد ؛ ليس كما يمهله الناس من عقاب
الدنيا الذي هو ضرب السوط ؛ وغايته أن يذوقه الإنسان طعم الحديد ؛ وهو معنى قوله :
« جرحاً بالمدى » ، جمع مُدْيَةٍ وهي التسكين ؛ بل هو شيء آخر عظيم لا يستدل بالطلاق من
كسبه وشدة نكاهه وإليه .

بسم الله الرحمن الرحيم

[فصل في الآثار الواردة في شديد عذاب جهنم]

قال الأوراعي في مواظبه المنصور : « روي لي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :
لو أن ثوباً من ثياب أهل النار عُلّق بين السماء والأرض لأحرق أهل الأرض قاطبة ؛
فكيف بمن يتفتممه ! ولو أن دنوباً من حمى جهنم صبّ على ماء الأرض كلّها لأجنته حتى
لا يستطيع مخلوق شربه ، فكيف بمن يتعرّعه ! ولو أن حلقة من سلاسل النار وضّعت
على جبل إدا ب كما يدوب الرصاص ، فكيف بمن يسلك فيها ، ويردّ فضلها على عاتقه !
وروي أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله : « لو كان في هذا المسجد مائة ألف
أو يزيدون ، وأخرج إليهم رجل من النار فتنفس وأصابهم نفسه لأحرق المسجد
ومن فيه » .

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لجبريل : مالي لا أرى ميكائيل ضاحكا قال : إن ميكائيل لم يضعك منذ خنقت النار ورآها .

وعنه صلى الله عليه وآله : « لما أمرى نى سمعت هدة^(١) ، فسالت جبريل عنها ، فقال : حَجَرُ أَرْسَلَهُ اللَّهُ مِنْ شَفِيرِ جَهَنَّمَ ، فَهُوَ يَهْوِي مِنْهُ صَبِيحِينَ خَرِيفًا حَتَّى يَبْلُغَ الْآنَ فِيهِ » وروى عن النبي صلى الله عليه وآله في قوله : ﴿ تَلْفَحُ وَجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾^(٢) . قال : « تَنْقَلِصُ شَفَتُهُ الْعُلْيَا حَتَّى تَبْلُغَ وَسْطَ رَأْسِهِ ، وَتَسْتَرْخِي شَفَتُهُ السُّفْلَى حَتَّى تَضْرِبَ مِرْقَتَهُ » .

وروى عبيد بن عمر القتيبي عنه عليه السلام : « لَتَرْفَرْنَ جَهَنَّمَ زَفْرَةً لَا يَبْقَى مَلَأَكٌ وَلَا نَبِيٌّ إِلَّا خَرَّ مَرْتَعَةً مَرَاتِكُ ؛ حَتَّى إِذَا إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ ؛ لِيَجْثُو عَلَى رُكْبَتَيْهِ ، يَقُولُ : يَا رَبِّ إِنِّي لَا أَسْأَلُكَ إِلَّا نَفْسِي » .

أبو سميدة الخدرى مرفوعا : « كَوُفِعَتْ جَبَالُ الدُّنْيَا بِمَقْعِ^(٣) مِنْ تِلْكَ الْمَقَامِعِ الْحَدِيدِ لَصَارَتْ غُبَارًا » .

الحسن البصرى : قال : الأَعْلَالُ لَمْ يَجْعَلْ فِي أَعْنَاقِ أَهْلِ النَّارِ لَأْسَهُمْ أَهْجَزُوا الرَّبَّ ، وَلَكِنْ إِذَا أَصَابَهُمُ اللَّهَبُ أَرْسَلَهُمْ فِي النَّارِ - ثُمَّ خَرَّ الْحَسَنُ صَعِيقًا ، وَقَالَ - وَدُمُوعُهُ تَتَهَادَرُ : يَا بَنَ آدَمَ ، نَفْسُكَ نَفْسُكَ ! إِنَّمَا هِيَ سَمٌّ وَاحِدَةٌ إِنْ نَحَتْ نَحَوْتَ ، وَإِنْ هَلَكْتَ لَمْ يَنْفَعَكَ مَنْ نَجَا .

طاووس : أَيْتَاهَا النَّاسُ ، إِنَّ النَّارَ لَمَّا حَلِفَتْ طَارَتْ أَفْنَدَةُ الْمَلَائِكَةِ ، فَلَمَّا خَافَتْ حَكَمَتْ .

(١) المدة : صوت وقع الحائط أو الصخر أو نحوهما .

(٢) سورة المؤمن ١٠٤ .

(٣) المقع و المقعة : المورد من الحديد ؛ أو حشة يضرب بها الإنسان على رأسه ليندله ويهوان .

مطرف بن الشَّخِير : إنكم لنذكرون الجنة ، وإن ذكر النار قد حال بيني وبين
أن أسأل الله الجنة .

منصور بن عمار : يامن البعوضة تفلته ، والبقعة تسهره ، أمثقت يقوى على وهج
الشعر ، أو تطيق صفحة حده لنفح تمومها ، ورقة أحشائه خشونة ضريبها^(١) ، ورطوبة
كبده تجرئ غساقها^(٢) !

قيل لعطاء السُّمِّي : أيسرك أن يقال لك : قَع في حِمم فتعرق فتذهب فلا
تبعث أبداً لا إليها ولا إلى غيرها ؟ فقال : والله الذي لا إله إلا هو ، لو سمعت أن
يقال لي ؛ لظننت أنني أموت فرحاً قبل أن يقال لي ذلك .

الحسن : والله ما يقدر العباد قَدْر حرّها ؛ رويها ؛ لو أن رجلاً كان بالشرق ، وجهنم
بالغرب ، ثم كُثِفَ من عطاء واحد منها [أمثقت جمعته] ؛ ولو أن دلواً من صديدها صب
في الأرض ما بقي على وجهها شيء فيه روح إلا مات

كان الأحنف يصلي صلاة الليل ، وبصع الصبح قريباً منه ، فيصع إصبعه عليه ،
ويقول : يا حُتَيْف ، ما حملك على ما صنعت يوم كذا ؛ حتى يُصبح .



[فصل في العزلة والاجتماع وما قيل فيهما]

ثم نهام عليه السلام عن التفرق في دين الله ؛ وهو الاختلاف والفرقة ؛ ثم أمرهم
باجتماع الكلمة ، وقال : إنّ الجماعة في الحق المكروه إليكم ، حير لكم من الفرقة في
الباطل المحبوب عندهم ؛ فإن الله لم يسطر أحداً خيراً بالفرقة ؛ لا يمتن مضي ، ولا يمتن بقي .

(١) الضرب : نالت يسمى رطبه سرفاً ، وباسه صريباً ؛ لا تخرجه دابة حُبّه .

(٢) الغساق : ما يقطر من خلود أهل النار وصديدهم من قيح ونحوه .

وقد تقدم ذكر ما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله في الأمر بلزوم الجماعة ، والنهي عن الاختلاف والفرقة .

ثم أمر عليه السلام بالعمرة ، ولزوم البيت والاشتغال بالعبادة ، ومحاربة الناس ومطاركتهم واشتغال الإنسان بمبيب نفسه عن عيوبهم .

وقد ورد في العمرة أخبار آثار كثيرة ؛ واختلف الناس قديماً وحديثاً فيها ، فضلتها قوم على مخالطة ، وفضل قوم مخالطة عليها .

فتمن فضل العمرة سفيان الثوري ، وإبراهيم بن آدم ، وداود الطائفي ، والفضيل ابن عياض ، وسليمان الخواص ، وبوصف بن أسباط ، وشراح الحاف ، وحذيفة المرعشي ؛ وجمع كثير من الصوفية ، وهو مذهب أكثر التارفين ، وقول المتأخرين من الفلاسفة .

ومن فضل مخالطة على للعمرة ابن المسيب ، والشمي ، وابن أبي ليلى ، وهشام ابن عروة ، وابن شبرمة ، والقاضي شريح ، وشريك بن عبد الله ، وابن عيينة ، وابن المبارك .

فأما كلام أمير المؤمنين عليه السلام فيقتضي عند إيمان النظر فيه أن العمرة خير لقوم ، وأن مخالطة خير لقوم آخرين على حسب أحوال الناس واختلافهم .

وقد احتج أرباب مخالطة بقول الله تعالى : ﴿ قَالَتْ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِيَعْتِهِ إِخْوَانًا ﴾ ^(١) ، ويقول : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا ﴾ ^(٢) ، وهذا ضعيف ، لأن المراد الآية تفرق لأراء واختلاف المذاهب في أصول الدين ، والمراد

(١) سورة آل عمران ١٠٣ .

(٢) سورة آل عمران ١٠٥ .

بتأليف القلوب ، وبالأحوّة عدم الإحسّ والأحفاد بينهم ، بعد استعمار نازها في الجاهلية ؛ وهذا أمر خارج عن حديث العزلة .

واحتجّوا بقول النبي صلى الله عليه وآله : « المؤمن ألف^(١) مألوف ؛ ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف » ؛ وهذا أيضاً ضعيف ، لأنّ المراد منه ذمّ سوء الخلق والأمر بالرفق والبشر ؛ فلا بدّخل تحته الإنسان الحسن الخلق الذي لو خولط لألف وألف ؛ وإنما يمتنع من المخالطة طلب السلامة من الناس .

واحتجّوا بقوله : « من شقّ عصا المسلمين فقد خلع ربقة الإسلام عن عنقه » ؛ وهذا ضعيف أيضاً لأنه مختصّ بالبيعة والمارقين عن طاعة الإمام ، فلا يتناول أهل العزلة الذين هم أهل طاعة للأئمة ؛ إلا أنهم لا يحاطون الناس .

واحتجّوا بسببه صلى الله عليه وآله عن حجر^(٢) الإنسان أحاء فوق ثلاث ؛ وهذا ضعيف لأنّ المراد منه النهي عن العصب ، والفتاح ، وقطع الكلام والسلام لتوران البيط ؛ فهذا أمر خارج عن الباب الذي نحن فيه .

واحتجّوا بأنّ رجلاً أتى جبلاً يمدّ فيه ؛ فناء أهل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فنهاه ، وقال له : « إن صبر المسلم في بعض موطن الجهاد يوماً واحداً خير له من عبادة أربعين سنة » .

وهذا ضعيف ، لأنه إما كان ذلك في ابتداء الإسلام والحث على جهاد المشركين . واحتجّوا بما روى عنه صلى الله عليه وآله أنه قال : « الشيطان ذئب ؛ والناس كالغنم يأخذ القاصية والشاذّة ، إياكم والشباب وعليكم بالعامة والجماعة والمساجد » . وهذا ضعيف ، لأنّ المراد به من اعتزل الجماعة وخالفها .

(١) الألف : الشبر الزاوي .

واحتج من رجع العرة وآثرها على الخاطئة بالآثار الكثيرة الواردة في ذلك ؛ نحو قول عمر : خلوا بحفظكم من العرة .

وقول ابن سيرين : العرة عبادة .

وقول الفضيل : كفى بالله عبوا ، وبالقرآن مؤسسا ، والموت واعظا ؛ اتخذ الله صاحباً ، ودع الناس جانباً .

وقال ابن الربيع الزاهد لداود الطائي : عظمي ، فقال : سمع من الدنيا واجعل فيك للآخرة ، وفر من الناس فرارك من الأسد .

وقال الحسن : كلمات أحفظهن من التوراة : قنع ابن آدم فاستغنى ، واعتزل الناس فسلم ، ترك الشهوات فصار عزياً ؛ ترك الحمد فاهت مروهته ، صبر قليلاً فتمتع طويلاً .

وقال وهب بن نورد : بَلِّغْنَا أَبَاحِيكَ عَشْرَةَ أَجْزَاءَ ؛ نَدَمَةٌ مِنْهَا الصَّمْتُ ، والعاشر في العزة عن الناس .

وقال يوسف بن مسلم لعل بن بكار : ما أصبرك على الوحدة ! وكان قد لزم البيت . فقال : كنت وأما شابٌ أصبرٌ على أشد من هذا ، كنت أجالس الناس ولا أكلمهم .

وقال الثوري : هذا وقت السكوت وملازمة البيوت .

وقال بعضهم : كنت في سفينة ، ومنا شابٌ علوي ؛ فكث معنا سبعاً لأنسمع له كلاماً ، فقلناه : قد جمعنا الله وإياك منذ سبع ، ولا يراك تحالطنا ولا تسكلمنا ! فأشد :

قليلُ الممِّ لا ولد يموتُ وليس بخائفُ أمراً يفوتُ
قضى وطر الصبا وأقاد علماً فعابته التفرد والشكوتُ

وأَكْبَرُ حَقِّهِ مِمَّا عَلَيْهِ تَنَاجِزُ مَنْ تَرَى خَلْقَ وَقُوتِ

قال النخعي لصاحب له : نفعه ثم اعتزل .

وكان مالك بن أنس الفقيه بشهد الجناز ، وبعود الرضى وبعلى الإخوان حقوقهم ، ثم ترك واحداً واحداً من ذلك ؛ إلى أن ترك الجميع . وقال : ليس يسهل للإنسان أن يغير بكل عذر له .

وقيل لعمرو بن عبد العزيز : لو تفرغت لنا ! فقال : ذهب الفراغ فلا فراغ إلا عند الله تعالى .

وقال الفضيل بن عياض : إني لأجد للرجل عندي يداً ؛ إذا تقوى ألا يسلم على ، وإذا مرضت ألا يعودني .

وقال الداراني : بينا ابن خنيم جالس على باب داره ؛ إذ جاء حبر فصك وجهه ؛ فسجد ، وجعل يمسح الدم ، ويقول : لقد عظمت ياربيع ! ثم قام فدخل الدار ؛ فجالس بعد ذلك على بابه حتى مات .

وكان سعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد قد لهما بيوتهما بالقيق ، فلم يكونا يأتیان المدينة لا حاجة لهما ولا لغيرهما ؛ حتى ماتا بالقيق .

قال بشر : أقبل من معرفة الناس ؛ إنك لا تدري ما تكون يوم القيامة ! فإن تكن فضيحة كان من يعرفك أقل .

وأحضر بعض الأمراء حاتم الأصم فكلّمه ، ثم قال له : أهلك حاجة ؟ قال : نعم ، ألا تراني ولا أراك !

وقيل للفضيل : إن ابنك يقول : لو ددت في مكان أرى الناس ولا يروني ! فبكى الفضيل ، وقال : ياربيع على^(١) ، ألا انتمها فقال : ولا أراهم !

(١) على هو ابن الفضيل .

ومن كلام الفضيل أيضاً : من سفاقة عقل الرجل كثرة معارفه .

وقد جاء في الأحاديث المرفوعة ذكر العزلة وفضلها ، نحو قوله عليه السلام لعبد الله ابن عامر الجهني ، لما سأله عن طريق الدعاة ، فقال له : « ليس لك بيتك ، أميك عليك دينك ، وابك على خطيئتك » .

وقيل له صلى الله عليه وآله : أي الناس أفضل ؟ فقال : « رجل معتزل في شعب من الشمام ؛ يعبد ربه ، ويدع الناس من شره » .
وقال عليه السلام : « إن الله يحب التقيّ التقيّ الخفيّ » .

• • •

[ذكر فوائد العزلة]

وفي العزلة فوائد : منها الفراغ للمعبادة ، ولذا سكر والاستنشاق بمناجاة الله عن مناجاة الناس ، فيتفرغ لاستكشاف أسرار الله تعالى في أمر الدنيا والآخرة وملكوته السموات والأرض ؛ لأن ذلك لا يمكن إلا جراح ، ولا فراغ مع المحاطة ؛ ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وآله في ابتداء أمره يتنزل في جبل حراء ، ويعتزل فيه ، حتى أتته النبوة .

وقيل لبعض الحكماء : ما الذي أرادوا بالغلو والعزلة ؟ فقال : دوام الفكر وثبات العلوم في قلوبهم ، ليعبوا حياة طيبة ، ويموتوا موتاً طيباً .
وقيل لبعضهم : ما أصبرك على الوحدة ؟ فقال : لست وحدي ، أنا جليس ربي ، إذا شئت أن يناجيني قرأت كتابه ، وإذا شئت أن أناجيته صلّيت .
وقال سفيان بن عيينة : لقيت إبراهيم بن آدم في بلاد الشام ، فقلت له : يا إبراهيم ،

توكت خراسان فقال : ماتتأت بالعيش إلا هاهنا ؛ أفر بديني من شاق إلى شاق ؛
فن رأني قال : موسوس أو حمال .

وقيل للحسن : يا أبا سعيد ، هاهنا رجل لم يره قط جالسا إلا وحده خلف سارية ،
فقال الحسن : إذا رأيتموه فأخبروني ، فنظروا إليه ذات يوم ، فقالوا الحسن - وأشاروا إليه ،
فمضى نحوه ، وقال له : يا عبد الله ، لقد حُتبت إليك العزلة ، فما يمنعك من محاسبة الناس ؟
قال : أمر شغلني عنهم ، قال : فما يمنعك أن تأتي هذا الرجل الذي يقال له الحسن ،
فتجلس إليه ؟ قال : أمر شغلني عن الناس وعن الحسن ، قال : وما ذلك الشغل يرحلك الله ؟
قال : إني أسي وأصبح بين سنة ودب ، فأشغل نفسي بشكر الله على نعمه ،
والاستغفار من الذنوب ؛ فقال الحسن : أبت أفعه عندي يا عبد الله من الحسن ، فالزم
ما أنت عليه .



وجاء هرم بن حيان إلى أويس فقال له : ما حاجتك ؟ قال : جئت لأس بك ،
قال : ما كنت أعرف أحدا يعرف ربه فيأنس بغيره ؛
وقال المصلي : إذا رأيت أهبل مقبلا فرحت به ، وقلت : أحلو برتي ، وإذا رأيت
الصحيح أدركني ، استرجعت كراهية لقاء الناس ، وأن يحىء إلى من يشغلني عن ربي .
وقال مالك بن دينار : من لم يأس بمعادنة الله عن معادنة المخلوقين ، فقد قلَّ علمه ،
وصحى قلبه ، وضاع حرمه .

وقال بعض الصالحين : بينما أنا أسير في بعض بلاد الشام ، إذا أنا بمابد خارج من
بعض تلك الجبال ، فلما نظر إلى تنحى إلى أصل شجرة ، وتسر بها : فقلت : سبحان الله !
أتهمل على النظر إليك ؟ فقال : يا هذا ، إن أمت في هذا الجبل دهرًا طويلًا ، أعالج
قلبي في الصبر عن الدنيا وأهلها ، فطال في ذلك نهي ، وفي عمرى ، ثم سألت الله تعالى

ألا يجعل حظي من أيامي في مجاهدة قلبي فقط، فسكنه الله عن الاضطراب، وآلفه الوحدة والافراد، فلما نظرت إليك وتريدني حفت أن أفع في الأمر الأول فأعود إلى ألف المخلوقين، فأليك عنى فأتى أعوذ من شرك رب العارفين وحبيب التائبين . ثم صاح : واغتماء من طول المكث في الدنيا ! ثم حول وجهه عنى ، ثم نهض بده ، وقال : إليك عني يا دنيا ، لميرى قتريني ، وأهلك فرمى ! ثم قال : سعان من أذنى العارفين من لغة الخدمة وحلاوة الاقطاع إليه ما ألهى قلوبهم عن ذكر الجنان ، والخور الحسان ؛ فأتى في الخلوة آس بذكر الله ، واستلذ بالاعطاع إلى الله ، ثم أشد :

وَأَتَى لِأَسْتَفْشِي وَمَا بِي نَفَّةً لَعَلَّ حَيَالاً مِنْكَ يَبْقَى خَيَالِيَا^(١)

وأخرج من بين البيوت لعنبي . أحدث عليك النفس في السر خاليا

وقال بعض العلماء : إنما يستوحش الإنسان من نفسه خلوة ذاته عن العزلة، فيتكثر حينئذ بعلاقة الناس ، ويطرده الوحدة عن نفسه بهم ، فإذا كانت ذاته فاضلة طلب الوحدة ليستعين بها على الفكرة ، ويستخرج العلم والحكمة ، وكان يقال : الاستئناس بالناس من علامات الإفلاس .



ومنها التعاض بالمرقة عن النعامى التى يتعرض الإنسان لها غالباً بالخالطة، وهى العيبة، والرياء، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسريقة الطمع بعض الأخلاق الرديئة والأعمال الخبيثة من العير .

أما العيبة فإن التعرض لها مع مخالطة الناس صعب شديد لا ينعمو من ذلك إلا الصديقون ؛ فإن عادة أكثر الناس التخصم بأعراض من يعرفونه ، والتقل بلدة

(١) لجنون ليل ، من قصيدة له ديوانه ٢٩٤ ، ٢٩٦ .

ذلك ، فهي أنسهم الذي يستريحون إليه في الجلوة والمفاوضة ، فإن خالطهم وواظقت أمت ، وإن سكنت كنت شريكاً ، فالمستمع أحد المتعابين ، وإن أنكرت تركوا ذلك للفتاب واعتابوك ؛ فازدادوا إثماً على إثمهم .

فأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ فإن من خالط الناس لا يحملوا عن مشاهدة المنكرات ، فإن سكنت عصى الله ، وإن أكرت تعرض بأنواع من الضرر ؛ وفي العزلة خلاص عن ذلك ، وفي الأمر بالمعروف إثارة للحصام ، ونحر يك لكوا من مافي الصدور .
وقال الشاعر :

وكم سُقْتُ في آثاركم من نصيحة وقد يستفيد الظَّنة المتصفح
ومن تحرر للأمر بالمعروف نديم عليه في الأكثر ، كجدار مائل يريد الإنسان أن يقبضه وحده ، فهو شك أن يقع عليه ؛ فإذا سقط قال : بالهني تركته مائلاً ! نعم لو وجد الأمن حق يحكم ذلك الحائط وبدعه استقام بولسكنك لا تحمد القوم أمواتاً على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ فدفع الناس وانجج جنتك .

وأما الرياء فلا شبهة أن من خالط الناس دأبهم ، ومن دأبهم راءاهم ، ومن راءاهم كان منافقاً ؛ وأنت تعلم أنك إذا خالطت متعابين ، ولم تلق كل واحد منهما بوجه يوافق صرت بغيضاً إليهما جميعاً ، وإن جاملتها كنت من شرار الناس ، وصرت ذا وجهين ؛ وأقل ما يجب في محالطة الناس إظهار الشوق والبالغة فيه ، وليس يغلو ذلك عن كذب ؛ إنا في الأصل وإنا في الزيادة بإظهار الشفقة بالسؤال عن الأحوال ، فتقولك : كيف أنت ؟ وكيف أهلك ؟ وأنت في الباطن فارغ القلب عن همومه ، فتلقى محض .

قال السري السقطي : لو دخل على أخ فسويت لحقي يهدي له خوله ، خشيت أن أكتب في جريدة الناققين .

كان الفضيل جالسا وحده في المسجد ، فجاء إليه أخ له ، فقال : ما جاء بك ؟ قال :
المؤانسة ؛ قال : هي والله بالمواحشة أشبه ؛ هل تريد إلا أن تقتزين لي وأتزين لك ،
وتكذب لي وأكذب لك ؛ إنا أن تقوم عني ، وإنا أن أقوم منك .
وقال بعض العلماء : ما أحب الله عبداً إلا أحب ألا يشعر به خلقه .

ودخل طاوس على هشام بن عبد الملك ، فقال : كيف أنت يا هشام ؟ فغضب ، وقال :
لم لم تخاطبني بإمرة المؤمنين ؟ قال : لأن جميع الناس ما اتفقوا على خلافك ، فخشيت أن
أكون كاذبا .

فمن أمكنه أن يحتز هذا الاحتراز ، فليخاطب الناس ؛ وإلا فليرض يائبات اسمه في
حريصة المنافقين إن خالطهم ؛ ولا شجاعة من ذلك إلا بالمرءة .

وأما سرقة الطبع من المثر ؛ فالتعريية تشهد بذلك ، لأن من خالط الأشرار اكتسب
من شرهم ؛ وكلما طالت محبة الإنسان لأصحاب الكبائر ، هانت الكبائر عنده وفي
المثل : « فإن القرين بالمقارن يقتدى »^(١) .

ومنها الخلاص من العتق والحروب بين الملوك والأمراء على الدنيا .

وروى أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله ، أنه قال : « بوشك أن يكون
خير مال المسلم غنيات يتبع بها شفاف الخبال ، ومواقع القطر ، يفرّ بدينه من
العتن » .

وروى عبد الله بن عمرو بن العاص ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله ذكر الفتن
فقال : « إذا رأيت الناس قد مرجت عهدهم »^(٢) ، وحفت أمانتهم ، وكانوا هكذا - وشبك

(١) أصله في قول الشاعر :

عن المرأة لا تسأل وسل عن قريبه فكل قرين بالمقارن يقتدى

(٢) مرجت عهدهم ، أي انحطت . أمك عبك لسانك ، أي لا تجره إلا بما يكون لك لا عليك .
واظفر النهاية لابن الأثير ٤ : ٨٧ ، ١٠٦ .

بأصابعه - فقلت ما تأمرني ؟ فقال : « الزم يديك ، واملك عليك لسانك ، وخذ ما تعرف ، ودع ما تنكر ، وعليك بأمر الخاصة ، ودع عنك أمر العامة » .

وروى ابن مسعود عنه صلى الله عليه وآله أنه قال : « سيأتي على الناس زمان لا يسلم لذي دين دينه إلا من قر من قرية إلى قرية ، ومن شاق إلى شاق ؛ كالثعلب الرواغ » قيل : ومتى ذلك يا رسول الله ؟ قال : « إذا لم تُل الميثة إلا بمحامي الله سبحانه ، فإذا كان ذلك الزمان كان هلاك الرجل على يد أبويه ؛ فإن لم يكن له أبوان فعلى يد زوجته وولده ، وإن لم يكن فعلى يد قرابته » ، قالوا : كيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : « يهترونها بالفقر وضيق اليد ، فيكلمونه مالا بطيقه حتى يورده ذلك موارد الملوك » .

وروى ابن مسعود أيضا أنه صلى الله عليه وآله ذكر الفتنة ، فقال : « الهرج » فقلت : وما الهرج يا رسول الله ؟ قال : « حين لا يأمن للرجل جليته » ، قلت : فم تأمرني يا رسول الله ، إن أدرت ذلك الزمان ؟ قال : « كفت نفسك ويدك ، وادخل دارك » ، قلت : أرايت إن دخل على داري أنه قال : « ادخل يديك » ، قلت : إن دخل على البيت ، قال : « ادخل مسجدك ، واصنع هكذا - وقبض على الكوع - وقل : ربّي الله ، حتى تموت » .



ومنها الخلاص من شرّ الناس ، فإنهم يؤذونك تارة بالعيبة ، وتارة بسوء الظن والتهمة وتارة بالافتراءات والأطماع السكاذبة التي يمسر الوفاء بها ، وتارة بالنعيمة والكذب مما يروّنه منك من الأعمال والأقوال مما لا تبلغ عقولهم كسبه ؛ فيدخرون ذلك في نفوسهم علة ؛ لوقت يتهزون فيه فرصة الشر ، ومن يعتزلم يستغن عن التحفظ لذلك .

وقال بعض الحكماء لصاحبه : أعلمك شعرا هو خير لك من عشرة آلاف

درهم ! وهو :

اخفضِ الصَّوْتِ إِنْ نَطَقْتَ بِهَلِيلٍ والفتُ بِالْأَرْقَمِ لِلْقَالِ
ليس للقول رجعة حين يبدؤ بفتح يحكون أو بحال
ومن خاوط الناس لا ينفك من حاسد وطاعن ؛ ومن جرب ذلك عرف .
ومن الكلام للأثور من على عليه السلام : « أَحَبُّ تَقْلِيدٍ » قال الشاعر :

مَنْ حَذَّ الدَّسَّ وَلَمْ يَنْتَلِمْ ثم ملام ذم من يحمده
وصار بالوحدة مستأبياً يوحشه الأقرب والأبعد

وقيل لسعد بن أبي وقاص : ألا تاني المدينة ؟ قال : ما بقي فيها إلا حاسد نعمة ،
أو فرح ببقية .

وقال ابن السكك : كتب إلينا صاحب لنا : أما سعد ؛ فإن الناس كانوا دواء يُتداوى
به ، فصاروا داء لا دواء لهم ، فقِرَّ منهم فراركَ من الأسد .

وكان بعض الأعراب يلازم شجرة ويقول : هذه نديي ، وهو يديم فيه ثلاث خصال :
إلى سمح لم يتم على ، وإن تغلَّتْ في وجهه احتل ، وإن عربدت عليه لم يهضب ؛ فسمع
الرشيد هذا الخبر ، فقال : قد زهدني صحابه في الندماء .

وكان بعضهم يلازم الدفاتر والقابر ، فقيل له في ذلك ، قال : لم أر أسلم من الوحدة
ولا أوعظ من قبر ، ولا أمتع من دفن .

وقال الحسن مرة ، إني أريد الحج ، فإني إلى ثابت البنان ، وقال : بلعني أنك تريد
الحج ، فأجبت أن نصطحب ، فقال الحسن : دعنا نتماشى بستر الله ؛ إني أخاف أن نصطحب
فيرى بعضنا من بعض ما نأقن عليه .

وقال بعض الصالحين : كان الناس ورقا لا شوك فيه ؛ قال الناس اليوم شوك لا ورق فيه .
وقال سفيان بن عيينة : قال لي سفيان الثوري : في اليغلة في حياته ، وفي اللنام بعد

وفاته : أَقِلْ معرفة الناس ؛ فَإِنَّ التَّخْلَصَ مِنْهُمْ شَدِيدٌ . وَلَا أَحْسَبُ رَأَيْتُ مَا أَكْرَهُ
إِلَّا مِنْ عَرَفْتُ .

وقال بعضهم : جئتُ إلى مالك بن دينار وهو قاعد وحده وعنده كَلْبٌ رابض قريباً
منه ، فذهبت أطرده فقال : دعه فإنه لا يضر ولا يؤذي ، وهو خير من الجليس السوء .
وقال أبو الدرداء : اتَّقُوا اللَّهَ واحذروا الناس ، فإنهم ماركبوا ظهر نبي إلا أدبروه
ولا ظهر جوادٍ إلا عفروه ، ولا قاب مؤمن إلا أخربوه .

وقال بعضهم : أَقِلْ المعارف ؛ فإنه أسلم لديك وقبك وأحفَ لطهرك ، وأدعى إلى
سقوط الحقوق منك ؛ لأنه كلما كثرت المعارف كثرت الحقوق ، وعسر القيام بالجميع .
وقال بعضهم : إذا أردت النجاة فأبكر من تعرف ، ولا تتعرف إلى من لا تعرف .



ومنها ؛ إِنَّ فِي الْمَرْزَلَةِ قَاءَ التَّمَرِّ عَلَى الْمَرْوَةِ وَالْخَلْقِ وَالْعَمْرِ وَسَائِرِ الْمَوَارِدِ ؛ وَقَدْ
مدح الله تعالى المتقين فقال : (يَحْسِبُهُمُ الْخَافِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعْقَبِ) (١) .
وقال الشاعر :

وَلَا طَارَأَنْ زَالَتْ عَنِ الْحَرَنِمَةِ وَلَسَكَ طَارَأً أَنْ يَزُولَ التَّحْمَلُ

وليس يحلو الإنسان في دينه ودياره وأعماله عن عَوَارِثِ بُنْقَيْنَ ويحب سترها ؛
ولا تنقِ السلامة مع انكشافها ؛ ولا سبيلَ إلى ذلك إلا بترك المخالطة .



ومنها أن يتقطع طمعُ الناس عنك ، ويتقطع طمعك عن الناس ؛ أما انقطاعُ طمع
الناس عنك ففيه نفع عظيم ؛ فَإِنَّ رَحْمَةَ الْخَلْقِ غَايَةٌ لَا تُدْرِكُ ؛ لِأَنَّ أَهْرُونَ حَقَّقَ النَّاسَ

(١) سورة البقرة ٢٧٣ .

وأبسرها حضورُ الجنازة ، وعيادةُ المريض ، وحضورُ الولائم ؛ والإملاكات^(١) ؛ وفي ذلك تضييعُ الأوقات ، والتعرضُ للآفات ؛ ثم يموتُ عن بعضها المواتق ، وتستقلُّ فيها المعازير ، ولا يمكنُ إظهارُ كلِّ الأعداء ، فيقولُ لك قائلٌ : إنَّك قت بحقِّ فلان ، وقصرت في حقِّي ، وبصير ذلك سببَ عداوة ، فقد قيل : إنَّ مَنْ لَمْ يَعُدْ مريضاً في وقت العيادة ، يشتهي موته خيفةً من تخجيله إياه إذا برى من قصيره ؛ فأما مَنْ يَمُ القاس كلهم بالحرمان فإنهم يرضون كلَّهم عنه ، ومتى حصص وقع الاحتياش والعتاب ، وتعميهم بالقيام بجميع الحقوق ؛ بما لا قدرةَ عليه للشجرتِ ليله ونهاره ، فكيف مَنْ ه مهمَّ يشعلهُ دُنيى أو دُيوى !

ومن كلام بعضهم : كثرةُ الأصدقاء زيادةُ المرءاء^(٢) .

وقال الشاعر :

عَدُوُّكَ مِنْ حَدِيْقِكَ مُسْتَفَادٌ فَلَا نَسْتَكْرِهْ مِنْ الصَّعَابِ
فَإِنْ الدَّاءُ أَكْثَرَ مَا تَرَاهُ يَكُونُ مِنَ الطَّعَامِ أَوْ الشَّرَابِ

وأما انقطاع طمعتك عنهم ؛ فيه أيضاً فائدةٌ جزيلة ؛ فإنَّ مَنْ نظر إلى زهرة الدنيا وزخرفها ، تحرك حرمه ، وانبعث بقوة المرض طمعه ؛ وأكثُر الأطماع بدمقها الخلية ؛ فيتأذى الإنسان بذلك ؛ وإذا اعتزل لم يشاهد ، وإذا لم يشاهد لم يشته ولم يطعم ؛ ولذلك قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَرْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾^(٣) .

وقال عليه السلام : « انظروا إلى مَنْ دونكم ، ولا تنظروا إلى مَنْ هو فوقكم ؛ فإنه أجدرُّ ألا تزدروا صمة الله عليكم » .

(١) الإملاكات : مجامع الترويع . (٢) ب : كثرة ، وما أتت من ا ، د .

(٣) سورة المجهر ٨٨ .

وقال عَوْنُ بن عبد الله : كنتُ أجالسُ الأغنياءُ ؛ فلا أزال مضموماً أرى ثوباً أحسن من ثوبى ، ودابةً أفرّةً من دابّتى ، فعالت الثغراءُ فاسترحت .
 وخرج إلّونى صاحب الشافى من باب جامع القسطنطينية بمصر ، وكان فقيراً مقلاً ، فصادف ابن عبد الحكم قد أقبل فى موكبهِ ، فبهره ما رأى من حاله ، وحسن هيأته ، فخلفه تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ ^(١) ثم قال : نعم أصبر وأرضى .
 فالتمزل عن الناس فى بيته لا يتلى بمثل هذه الفتن ؛ فإنّ مَنْ شاهدَ زينة الدنيا ، إمّا أن يفرى دينه ويبقى فيه صبر فيحتاج إلى أن يتجرع مرارة الصبر ؛ وهو أمرٌ من الصبر ، أو تنبث رغبته فيحتال فى طلب الدنيا فيهلك دنياه وآخرة ، أمّا فى الدنيا فبالطمع الذى فى أكثر الأولات ينقضن ، أقلّ المحل ، وأمّا فى الآخرة فلا يناره متاع الدنيا هل ذكر الله ، والتقرّب إليه ؛ والله قال الشاعر :

إذا كانَ بابُ الدّلِّ منْ حابِ الميِّ سموتْ إلى العلياء منْ جانبِ الفقرِ
 أشار إلى أن الطمع يوجب فى الخلل دلاً .

•••

ومنها الخلاص من مشاهدة الثقلاء والحق ومسانة أخلاقهم ؛ فإن رؤية الثقل هو العمى الأصغر ؛ قول للأحمش : بم عشت عينك ^(٢) ؛ قال : بالنظر إلى الثقلاء .
 ودخل على أبى حنيفة رحمه الله ، فقال له : روّبتنا فى الخبر أن من سلب كريمته عوّضه الله ما هو خير منها ؛ فما الذى عوضك ؟ قال : كمأنى رؤية ثقل منكم يمازحه .
 وقال الشافى رحمه الله : ما جالستُ ثقيلاً إلّا وجدت الجانب الذى يليه من بدنى كأنه أدخل على من الجانب الآخر .

وهذه المقاصد وإن كان بعضها دينياً ؛ إلّا أنها تضرب فى الدين بنصيب ؛ وذلك لأنّ

(١) سورة الفرقان ٢٠ .

(٢) د : د عيك .

مَنْ تَأْذَى رُوِيَةٌ ثَقِيلٌ لَمْ يَلْبِثْ أَنْ يَفْتَابَهُ وَيُثْلَبَهُ ؛ وَذَلِكَ فَسَادٌ فِي الدِّينِ ، وَفِي الْعُرَّةِ السَّلَامَةِ
عَنْ جَمِيعِ ذَلِكَ .

وَاعْلَمْ أَنَّ كَلَامَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَخْتَلِفُ مَنَاجِعُهُ ، فَقَدْ رَجَعَ الْعُرَّةَ فِي هَذَا
الْفَصْلِ عَلَى الْخَطِاطَةِ ، وَنَهَى عَنْ الْعُرَّةِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ سَيَأْتِي ذِكْرُهُ فِي الْفَصْلِ الَّذِي أَوَّلُهُ ،
« أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى الْعَلَاءِ بْنِ زِيَادٍ الْحَارِثِيِّ عَائِدًا » ؛ وَيَجِبُ أَنْ يَحْمَلَ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ مِنَ النَّاسِ
مَنْ الْعُرَّةُ حَيْرٌ لَهُ مِنَ الْخَطِاطَةِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ مَالِدٌ مِنْ ذَلِكَ ؛ وَقَدْ قَالَ الشَّافِعِيُّ قَرِيبًا
مِنْ ذَلِكَ ، قَالَ لِيُونُسُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى صَاحِبِهِ : يَا يُونُسُ ، الْإِنْقِبَاضُ عَنِ النَّاسِ مَكْسَبَةٌ
لِلْعُدَاوَةِ ، وَالْإِبْسَاطُ إِلَيْهِمْ مَجْلِبَةٌ لِقَرَنَاءِ السُّوءِ ؛ فَكُنْ بَيْنَ التَّقْبِضِ وَالتَّبَسُّطِ .

فَإِذَا أَرَدْتَ الْعُرَّةَ فَيَنْبَغِي لِمِثْلِي أَنْ يَنْبَغِيَ لِعَرَّتِهِ كَفٌّ شَرٌّ عَنْ النَّاسِ أَوَّلًا ؛ ثُمَّ
مُطْلَبُ السَّلَامَةِ مِنْ شَرِّ الْأَشْرَارِ ثَانِيًا ؛ ثُمَّ الْخُلَاصُ مِنْ آفَةِ الْقُصُورِ عَنْ الْقِيَامِ بِحَقِّهِ
لِلْمُسْلِمِينَ ثَالِثًا ، ثُمَّ لَتَجَرُّدُ بَيْتِكَ لِمُعَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى رَابِعًا ، فَهَذِهِ آدَابُ بَيْتِهِ . ثُمَّ إِيكُنْ
فِي سَلَوَتِهِ مُوَاطِعًا عَلَى الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ ، وَالذِّكْرِ وَالْفِكْرِ ، لِيَجْتَنِيَ ثَمَرَةَ الْعُرَّةِ . وَيَجِبُ أَنْ
يَمْنَعَ النَّاسَ عَنْ أَنْ يَكْثُرُوا غُشْيَانَهُ وَزِيَارَتَهُ ، فَيَتَشَوَّشَ وَقْتُهِ ، وَأَنْ يَكْفَ نَفْسَهُ عَنِ السُّؤَالِ
عَنْ أَحْبَارِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ ، وَعَنْ الْإِصْحَاءِ إِلَى أَرَاغِيْفِ النَّاسِ وَمَا النَّاسُ مَشْغُولُونَ بِهِ ؛ فَإِنْ
كَلَّ ذَلِكَ يَنْمُوسُ فِي الْقَلْبِ حَتَّى يَنْبَغِثَ عَلَى الْعَاظِرِ وَالْبَالِ وَقْتُ الصَّلَاةِ وَوَقْتُ الْحَاجَةِ إِلَى
إِحْضَارِ الْقَلْبِ ؛ فَإِنْ وَقَعَ الْأَخْبَارُ فِي السَّمْعِ كَوُقُوعِ الْبَذْرِ فِي الْأَرْضِ ، لَا يَدْرِي أَنْ يَنْبَغِثَ
وَتَقَرَّعَ عُرْوَتَهُ وَأَغْصَانَهُ ؛ وَإِحْدَى مَهْمَاتِ الْمُتَزِيلِ قَطْعُ الْوَسَاوِسِ الصَّارِعَةِ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ؛
وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْأَحْيَارَ بِنَايِيعِ الْوَسَاوِسِ وَأَصُولِهَا .

وَيَجِبُ أَنْ يَقْتَعَ بِالْيَسِيرِ مِنَ الْمَعِيشَةِ ، وَإِلَّا اضْطُرَّ النَّوَسُ إِلَى النَّاسِ ، وَاحْتَاجَ إِلَى
مُخَالَطَتِهِمْ .

وليكن صبوراً على ما يلقاه من أذى الجيران إذ يسد سمعه عن الإصغاء إلى ما يقول فيه مَنْ أَثْنَى عَلَيْهِ بِالْعَزَّةِ ، وَقَدَحَ فِيهِ بِتَرْكِ الْخَالِطَةِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا بُدَّ أَنْ يُوْثِّرَ فِي الْقَلْبِ ، وَلَوْ مَدَّةً بِسِيرَةٍ ، وَحَالَ اشْتِمَالِ الْقَلْبِ بِهِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ وَاقِعاً عَنْ سِيرِهِ فِي طَرِيقِ الْآخِرَةِ ، فَإِنَّ التَّصَبُّرَ فِيهَا إِنَّمَا يَكُونُ بِالْمُوَاطَّئَةِ عَلَى وَزْدٍ أَوْ ذَكْرٍ مَعَ حُضُورِ قَلْبٍ ، وَإِنَّمَا بِالْفَكْرِ فِي جَلَالِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَمِلْكَوَتِ سَمَاوَاتِهِ ، وَإِنَّمَا بِالذَّمِّ فِي دَقَائِقِ الْأَعْمَالِ وَمُفْسَدَاتِ الْقَلْبِ وَطَلَبِ طَرِيقِ التَّعَالُفِ مِنْهَا ، وَكُلُّ ذَلِكَ بِسُدْعِي الْفَرَاغِ ؛ وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْإِصْفَاءَ إِلَى مَا ذَكَرْنَاهُ يَشُوْشُ الْقَلْبَ .

وَيَحِبُّ أَنْ يَكُونَ لِلْمَعْتَرِلِ أَهْلٌ صَالِحٌ أَوْ جَلِيسٌ صَالِحٌ ، لِتُسْقِطَ نَفْسُهُ إِلَى سَاعَةِ عَنْ كَذِّ الْمُوَاطَّئَةِ ، فَنَفَى ذَلِكَ عَوْنٌ لَهُ عَلَى نَقِيَةِ السَّاعَاتِ وَلَيْسَ يَنْتَمِ لِلْإِنْسَانِ التَّصَبُّرُ عَلَى الْعَزَّةِ إِلَّا بِقَطْعِ الطَّمَعِ عَنِ الدُّنْيَا ؛ وَمَا النَّاسُ مِنْهُمْ كَوْنٌ فِيهِ وَلَا يَتَقَطَّعُ طَمَعُهُ إِلَّا بِقُصْرِ الْأَمَلِ ، وَالْأَمَلُ يَقْدَرُ لِنَفْسِهِ عَمراً طَوِيلًا ، بَلْ يَصْبِحُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَمُوتُ ، وَيَمُوتُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَصْبِحُ ، فَيَسْهَلُ عَلَيْهِ صَبْرُ يَوْمٍ ، وَلَا يَسْهَلُ عَلَيْهِ الْعَزْمُ عَلَى صَبْرِ عَشْرِينَ سَنَةً لَوْ قَدَّرَ رَاحِي أَجَلُهُ ؛ وَلَيْكُنْ كَثِيرَ الذِّكْرِ لِلْمَوْتِ وَوَحْدَةِ الْقَبْرِ ، مَهْمَا صَاقَ قَلْبُهُ مِنَ الْوَحْدَةِ ، وَلِيَتَحَقَّقَ أَنَّ مَنْ لَمْ يَحْصُلْ فِي قَلْبِهِ مِنَ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَعْرِفَتِهِ مَا يَأْسُ بِهِ ، فَإِنَّهُ لَا يَطِيقُ وَحْشَةَ الْوَحْدَةِ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَأَنَّ مَنْ أَيْسَ يَذْكُرُ اللَّهَ وَمَعْرِفَتَهُ فَإِنَّ الْمَوْتَ لَا يَرِيْلُ أَسَهُ ، لِأَنَّ الْمَوْتَ لَيْسَ يَهْدِمُ مَحَلَّ الْأَنْسِ وَالْمَعْرِفَةِ ، بَلْ يَبْقَى حَيَاةً وَمَعْرِفَةً وَأَسَهُ فَرَحًا نَفْصَلُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، قَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ فَرَحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ^(١) .

وَكُلٌّ مِنْ يَجُودُ نَفْسُهُ فِي ذَاتِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيدٌ مَهْمَا أَدْرَكَهُ الْمَوْتُ ، فَالْجَاهِدُ مَنْ

جاهد نفسه وهواه ، كما صرح به عليه السلام ، وقال لأصحابه : « رجعتنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » ، فالجهاد الأصغر محاربة للشركيين ، والجهاد الأكبر جهاد النفس .

وهذا الفصل في العروة قلناه على طوله من كلام أبي حامد الفزالي في إحياء علوم الدين وهذا ما اقتضت الحال تهذيبه ^(١) .

(١) كتاب آداب العروة ؟ من كتاب الإحياء ٧ : ٢٢١ - ٢٤٤ ، وهو الكتاب السادس من ربيع المآداب .

(١٧٨)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام في معنى الحكمين :

فَأَجْمَعَ رَأْيُ مَدْيَنَ عَلَى أَنْ اخْتَارُوا رَجُلَيْنِ : فَأَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَنْ يَجْمَعَا عِنْدَ الْقُرْآنِ ، وَلَا يُجَاوِرَاهُ ، وَتَكُونَ أَلْسِنَتُهُمَا مَعَهُ وَقُلُوبُهُمَا نَدَمَهُ ، فَتَاهَا عَنْهُ ، وَتَرَكَ الْحَقَّ وَهَذَا يُنْصِرَانِي ، وَكَانَ الْحَوَظُ هَوَاهُ ، وَالْأَعْوَجَاجُ دَأْبُهُمَا ، وَقَدْ سَبَقَ اسْتِثْنَاؤُهُمَا عَلَيْهِمَا فِي الْحُكْمِ بِالْعَدْلِ وَالْعَمَلِ بِالْحَقِّ سَوْءَ رَأْيِيهَا ، وَحَوَظَ حُكْمِيهَا ، وَالثَّقَّةُ فِي أَيْدِينَا لِأَنفُسِنَا ، حِينَ جَالَعَا سَبِيلَ الْخَلْقِ ، وَأَتَيَا بِمَا لَا يُدْرِكُ مِنْ مَمْكُوسِ الْحُكْمِ .

الشرح :

للأ : الجماعة . ويجمعها : بحبس نفوسهما وآراءهما عند القرآن ، جمعت ، أي حبست ، أخذت عليهما العهد والميثاق أن يعملوا في القرآن ولا يتجاوزاه .

فتاها عنه ، أي عدلا ، وتركها الحق على علم منهما به .

والأب : العادة ، و « سوء رأيها » منصوب ، لأنه مفعول « سبق » ، والفاعل

« استثنأونا » .

ثم قال : « والثقة في أيدينا » ، أي نحن على برهان وثقة من أمرنا ، وليس بصائر لقامافعلاء لأنهما خالفا للحق ، وعدلا عن الشرط وعكس الحكم .

وروى الثوري ، عن أبي عبيدة ، قال : أمر بلال بن أبي بريدة وكان قاضياً ،
بفريق بين رجل وامرأته ، فقال الرجل : يا آل أبي موسى ، إنما خلقكم الله لتفريق
بين المسلمين !

[كتاب معاوية إلى عمرو بن العاص وهو على مصر]

كتب معاوية إلى عمرو بن العاص وهو على مصر ، قد قبضها بالشرط الذي اشترط
على معاوية : « أما بعد ، فإن سؤال أهل الحجاز وزوار أهل العراق كثروا على ،
وليس عندي فضل عن أعطيات الحجاز ، فأعني بخراج مصر هذه السنة » .

فكتب عمرو إليه :

معاوي، إن تدركك نفس ~~طبيخة~~ ^{طبيخة} ~~فما~~ ^{فما} مصر إلا كالمياه في التراب
وما نلتها عفواً ولكن شرطتها ~~وقد دلت الحرب الموان على قطب~~
ولولا دفاعي الأشعري ~~ورخط~~ ^{ورخط} ~~لأفيتها ترغو كراغية السقب~~ ^(١)
ثم كتب في ظاهر الكتاب - ورأيت أما هذه الأبيات بخط أبي زكريا يحيى بن علي
الخطيب البصري رحمه الله -

معاوي حطى لا تنقل	وعن حنّ الحق لا تعدل
أنفسي مخادعتي الأشعري	وما كان ودومة الجندي
ألين فيطعم في غسرتي	وسهمي قد خاض في القتلي
فالمظله علاماً	وأجبا من تحته حطلي
وأعليته المنبر الشعري	كرجع الحسام إلى المفلي

(١) ارغاء : صوت الإبل ، والسقب : ولد الناقة .

فأضحي لصاحبه خالماً كقطع النمل من الأرجل
وأثبتها فيك موروثاً ثبوت الخواص في الأنامل
وهبت لغيري وزن الجبال وأعطيتني زينة الخردل
وإن علياً غدا خصنا سيجتجى بالله والمرسل
وما دم عثمان منجى لنا فليس من الحق من مزحل
فلما بلغ الجواب إلى معاوية لم يعاوده في شيء من أمر مصر بعدها .



عن عبد الملك رَوْح بن زنباع وبلال بن أبي بردة بن أبي موسى ، إلى زفر بن
الحارث الكلبي بكلام ، وحذرهما من كيديه ، وخمن بالتحذير رَوْحاً . فقال : يا أمير
المؤمنين ، إن أباه كان الخدوع يوم دزينة الجندل لا أبي ، فعلام تخونني الخداع والكيد .
فمضب بلال وضحك عبد الملك .

(١٧٩)

ومن خطبة له عليه السلام :

لَا يَشْعَلُهُ شَأْنٌ ، وَلَا يُعَيِّرُهُ زَمَانٌ ، وَلَا يَحْوِيهِ مَكَانٌ ، وَلَا يَصِفُهُ لِسَانٌ ،
لَا يَمْرُؤُ عَنْهُ حَدُّ قَطْرِ الْمَاءِ ، وَلَا نَحْوُ قَلَمِ الْمَاءِ ، وَلَا سَوَاقِي الرِّيحِ فِي الْهَوَاءِ ،
وَلَا ذَيْبُ السِّلِّ عَلَى الْعَصَا ، وَلَا مِقْبَلُ الذَّرِّ فِي الْأَيْلَةِ الظُّلَمَاءِ . بَعْلَمُ مَسَاطِطِ الْأَوْرَاقِ ،
وَحَنِي طُرْفِ الْأَحْدَاقِ .

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَفْخِرُ مَقْدُولِيهِ ، وَلَا مَشْكُوكِ فِيهِ ، وَلَا مَكْفُورِ
دِينِهِ ، وَلَا تَحْجُودِ تَكْوِينِهِ ؛ شَهَادَةٌ مِنْ حَقِّقَتِ بَيْتُهُ ، وَصَفَتْ دِخْلَتَهُ ، وَحَلَمَتْ
بِقِيَمَتِهِ ، وَتَقَدَّسَتْ مَوَارِيدهُ . وَشَهِدَ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، الْمُحْتَقَنُ مِنْ خَلَائِقِهِ ،
وَالْمُعْتَمَدُ لِشَرْحِ حَقَائِقِهِ ، وَالْمُحْتَضَرُّ مَقَابِلِ كَرَامَاتِهِ ، وَالصُّلَاقِي لِكِرَامَاتِهِ رِسَالَاتِهِ ،
وَالْمَوْصِلَةُ بِهِ أَشْرَاطُ الْهُدَى ، وَالْجَلُوءُ بِهِ عِزٌّ يَجِبُ الْقِيَامُ .

الْبَرْخ :

لا يشعله أمر ؛ لأن الحى الذى تشعله الأشياء هو الحى العالم بالبعض دون البعض ،
والقادر على البعض دون البعض ؛ فإما من لا يعيب عنه شيء أصلاً ، ولا يميز عن شيء
أصلاً ، ولا يميزه من إيجاد مقدوره - إذا أراد - مانع أصلاً ؛ فكيف يشعله شأن
وكذلك لا يعيره زمان ؛ لأنه واجب الوجود ، ولا يحويه مكان ، لأنه ليس بجسم ،

ولا يصفه لسان ، لأن كنهه ذاته غير معلوم ؛ وإنما المعلوم منه إضافات أو سلوب .

ولا يعزب عنه أمر من الأمور ، أى لا يفوته علم شئ ، أصلاً .

والسواى : الذى تسمى التراب ، أى تذروه .

والصفا ، مقصور : الصخر الأملس ؛ ولا وقف عليها ما هنا ؛ لأن المقصور لا يكون

فى مقابلة للمدود ، وإنما الفقرة المقابلة للهواء هى « الظلماء » ، ويكون « الصفا » فى

أدراج الكلام أسوة بكلمة من الكلمات . والتذر : صغار النمل .

ويعلم مساقط الأوراق ، من قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَنقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَمْلِكُهَا ﴾ ^(١) .

وطرف الأحداق : مصدر طرف البصر يطرف طرفاً ؛ إذا انطبق أحد الحفذين على

الآخر ؛ وليكونه مصدراً وقع على الجماعة كما وقع على الواحد ، فقال عليه السلام :

« طرف الأحداق » ، كما قال سبحانه : ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ ^(٢) .

وغير مدلول به : غير مسوى بينه وبين أحد .

والدحلة ، بكسر الهمزة : باطن الأمر ، ويجوز الدحلة بالضم .

والمعتم : المختار . والعيبة بالكسر : خيار المال ؛ اعتم الرجل ، إذا أهد العيبة .

فإن قلت : لفظة « معتم » و « مختار » تصلح للفاعل والمفعول ، فإذا

يفصل بينهما ؟

قلت : بما يقترب باللفظ من الكلام قبله وبعده .

فإن قلت : فهل يختلفان فى التدبير فى صناعة النحر ، وإن اتفقا فى اللفظ ؟

قلت : نعم ؛ فإن عين الكلمة ياء مفتوح ما قبلها ؛ فإن أردت الفاعل فهى

مكسورة ، وتقديره « مختير » مثل « مخترع » ، وإن كان مفعولاً فهى مفتوحة ،

(١) سورة الأنعام ٥٩ .

(٢) سورة إبراهيم ٤٣ .

وتقديره « مخير » مثل « مخترع » وعلى كلا التقديرين لا بد من انقلاب الياء ألفا ، واللفظ ، واحد ولكن يقدر على الألف كسرة للفاعل وفتحه للمفعول ، وكذلك القول في « معتام » و « مضطر » ونحوهما .

وحسبى أن بعض المتكلمين من المحرة ، قال : أسمى العبد مضطرا إلى الفعل إذا فعله ، ولا أسمى الله تعالى مضطرا إليه .

قبل : فكيف تقول ؟ قال : « مضطر » مكسر الطاء ، فضحك أهل المجلس منه . والمقائل : جمع عقيلة ، وهي كريمة كل شيء من الناس والإبل وغير ذلك ، ويقال لقدرة عقيلة للمعر .

وأشراط الهدى : علاماته ، ومنه أشراط الساعة قال تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ ^(١) .

والعريب : الأسود الشديد السواد . ويحمل به غريب المسمى : فكشف به ظلم الصلال ونسبته بهدايته . وقوله تعالى : ﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٍ ﴾ ^(٢) ، ليس على أن الصفة قد تقدمت على الموصوف ، بل يحمل السود بدلا من العرايب .

فإن قلت : الهاء في « حقائقه » إلى ماذا ترجع ؟

قلت : إلى الباري سبحانه ، وحقائقه حقائق توحيدة وعده ، فالضاف محذوف ، ومعنى حقائق توحيدة الأمور الحقيقة اليقينية التي لا تفتريها الشكوك ، ولا تتخالفها الشبه ، وهي أدلة أصحابنا المعزلة التي استنبطوها بمقرهم بعد أن دلهم إليها . ونبهم على طرق استنباطها رسول الله صلى الله عليه وآله بواسطة أمير المؤمنين عليه السلام ، لأنه إمام المتكلمين الذي لم يعرف علم الكلام من أحد قبله .

الأصل :

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الدُّنْيَا تَغُرُّ الْمُؤْمِلَ لَهَا، وَالْمُخْلِدَ لِأَيَّامِهَا، وَلَا تَنْفَسُ بِمَنْ نَفَسَ فِيهَا، وَتَغْلِبُ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهَا .

وَأَيْنُمُ اللَّهُ مَا كَانَ قَوْمٌ فَطَأُ فِي غَمٍّ نِعْمَةٍ مِنْ عَيْشٍ فَرَّالَ عَنْهُمْ إِلَّا بِذُنُوبٍ اجْتَرَحُوهَا ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ فَحَسِيدٍ .

وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ حِينَ تَنْزِلُ بِهِمُ النِّعَمُ ، وَتَنْزُولُ عَنْهُمْ النِّعَمُ ، فَرَّعُوا إِلَى رَبِّهِمْ بِصِدْقٍ مِنْ نِيَّاتِهِمْ ، وَوَلَّيَهُ مِنْ قُلُوبِهِمْ ؛ لَرَدَّ عَلَيْهِمْ كُلَّ شَارِدٍ ، وَأَصْلَحَ لَهُمْ كُلُّ فَاسِدٍ .
وَإِنِّي لَأَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تَسْكُونُوا فِي قَرْعَةٍ ، وَقَدْ كَانَتْ أُمُورٌ مَصَّتْ مِنْكُمْ فِيهَا مَوْتٌ ، كُنْتُمْ فِيهَا عِنْدِي مَحْشُودِينَ ؛ وَلَكِنْ رَدُّ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ إِنَّكُمْ لَعَدَاهُ .
وَمَا عَلَى إِلَّا الْجَهْدُ ، وَلَوْ أَشَاءَ أَنْ أَقُولَ لَقُلْتُ : عَفَا اللَّهُ عَنْكُمْ سَلَفًا

...

الشرح :

المُخْلِدُ : الدائم إليها ، قال تعالى : ﴿ وَلِكَيْلَا أَخْلَقَهُ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ ^(١) .

وَلَا تَنْفَسُ بِمَنْ نَفَسَ فِيهَا : لَا تَضُنَّ بِهِ ، أَيُّ مَنْ نَفَسَ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ الدُّنْيَا تَهْبِطُ وَلَا تَضُنَّ بِهِ ، كَمَا يَضُنُّ بِالْعَلَقِ النَّفِيسُ .

ثُمَّ قَالَ : « وَتَغْلِبُ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهَا » ، أَيُّ مَنْ غَلَبَ عَلَى الدُّنْيَا مَقَاهِرَةٌ فَسُوفَ تَفْلَهُ الدُّنْيَا وَتَهْلِكُ :

ثُمَّ أَقْسَمَ إِنَّهُ مَا كَانَ قَوْمٌ فِي غَضٍّ نِعْمَةٍ أَوْ فِي نِعْمَةٍ غَضَةٍ ؛ أَيُّ طَرِيقَةٍ نَاضِرَةٍ ، فَزَالَتْ عَنْهُمْ

إلا بذنوب اجتروحها ، أى اكتسبوها ، وهذا يكاد يشعر بمذهب أهل التناسخ ؛ ومن قال :
إنَّ الألم لا يحسن أن يفعله الحكيم سبحانه وتعالى بالحيوانات إلا مستعفاً ، فأما مذهب
أصحابنا فلا يتخرج هذا الكلام عليه ، لأنه يجوز عندهم أن تزول النعم عن الناس لصرب
من اللطف مضاف إلى عوض يسوغهم لله تعالى به فى الآخرة ، فيجب أن يحمل هذا الكلام
لا على عمومه ، بل على الأكثر والأغلب .

ثم قال عليه السلام : لو أن الناس عدد حلول النعم بهم وزوال النعم عنهم يلتجئون إلى
الله تعالى تائبين من ذنوبهم ؛ لرفع عنهم العقبة ، وأعاد إليهم النعمة

والولء ، كالتعير يحدث عند الخوف أو الوجد . والشارد : الذهب
قوله : « وإني لأحشى عليكم أن تكونوا فى فترة » ، أى فى أمر جاهلية لم تكن الصلاة
والجمل على الأكثرين منهم .



وهذه خطبة خطب بها عليه السلام بعد قتل عثمان و أول خلافته عليه السلام ،
وقد تقدم ذكر بعضها ، والأمور التى ملأوا فيها عليه : اختيارهم عثمان وعدمهم عنه
يوم الشورى .

وقال : « لئن ردة عابكم أمركم » أى أحوالكم التى كانت أبام رسول الله صلى الله
عليه وآله من صلاح القلوب والنيات إنكم سعداء .
والجهد بالنعم : الطاقة .

ثم قال : لو أشاء أن أقول لقلت ، أى لو شئت قد كرتُ سبب العمل منى وتأخرى
من غيرى ؛ ولكنى لا أشاء ذلك ، ولا أستصلح ذكره .

ثم قال : « عفا الله عما سلف » لفظ مأخوذ من الكتاب العزيز ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْمَا سَبَّ
وَمَنْ هَادٍ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتقامٍ ﴾^(١)
وهذا الكلام يدل على مذهب أصحابنا في أن ماجرى من عبد الرحمن^(٢) وغيره في
يوم الشورى ، وإن كان لم يقع على الوجه الأنصلي ، فإنه مغفور عنه مغفورا قاطعا ، لأنه لو كان
فسقا غير مغفور ، لم يقل أمير المؤمنين عليه السلام : « عفا الله عما سلف » .

(١) سورة المائدة ٩٥ .

(٢) هو عبد الرحمن بن عوف .

(١٨٠)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام وقد سأله ذِعلب اليماني فقال : هل رأيت ربك
بأمير المؤمنين ؟ فقال عليه السلام : أقاعد ما لأرى ! فقال : وكيف تراه ؟ قال :

لَا تُذَرِكُهُ الْعُيُونُ بِشَاهِدَةِ الْبَيَانِ ؛ وَلَسَكِنْ تُذَرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ ،
قَرِيبٌ مِنْ الْأَشْيَاءِ غَيْرِ مَلَامِسٍ ، قَعِيدٌ مِنْهَا غَيْرِ مُبَايِنٍ ؛ مُتَكَلِّمٌ بِلَا رَوْبَةٍ ، مُرِيدٌ
لَا يَهِيئُهُ ، صَانِعٌ لَا يَجَارِحُهُ .

لَطِيفٌ لَا يُوصَفُ بِالْخَفَاءِ ، كَبِيرٌ لَا يُوصَفُ بِالْجَهَاءِ ، تَصِيرٌ لَا يُوصَفُ بِالْحَاسَةِ ،
رَحِيمٌ لَا يُوصَفُ بِالرَّفَةِ .

تَسْوُ الْوُجُوهَ لِعَظَمِيهِ ؛ وَتَحِبُّ الْقُلُوبُ مِنْ مَخَافَتِهِ .

• • •

الهنج :

الذِّعْلَبُ فِي الْأَصْلِ ؛ النَّاظَةُ السَّرِيعَةُ ، وَكَذَلِكَ الذِّعْلَبَةُ ثُمَّ قُلُوبُ فَسَمِيَ بِهِ إِنْسَانٌ ،
وَصَارَ عَلِيًّا ، كَمَا تَقُولُوا « بَكَرًا » عَنْ فَقِيهِ الْإِبِلِ إِلَى بَنِي بَكْرٍ وَائِلٍ .

وَالْيَمَانِيُّ مَخْصَفُ اللَّيْلِ ، وَلَا يَجُوزُ تَشْدِيدُهَا ؛ جَعَلُوا الْأَلْفَ هَوَاضًا عَنْ الْبَاءِ الثَّانِيَةِ ؛
وَكَذَلِكَ فَعَلُوا فِي « الشَّامِيِّ » وَالْأَصْلِ « بَنِي وَشَامِي » .

وقوله عليه السلام : « أقاعد ما لأرى ؟ » ، مقام رفيع جدًا لا يصلح أن يتقوله غيره
عليه السلام .

ثم ذكر ماهية هذه الرؤية ، قال : إنها رؤية البصيرة ، لا رؤية البصر .
ثم شرح ذلك ، فقال : إنه تعالى قريب من الأشياء ، غير ملامس لها ، لأنه ليس
بجسم ، وإنما قرّبه ^(١) منها علمه بها ، كما قال تعالى : ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا
هُوَ رَاسِمُهُمْ ﴾ ^(٢) .

قوله : « بعيد منها غير مبين » ، لأنه أيضاً ليس بحسم فلا يطلق عليه البيئونة ، وتعدّه
منها هو عبارة عن انتفاء اجتماعه معها ، وذلك كما يصدق على البعيد بالوضع ، يصدق أفضل
للمصدق على البعيد بالذات الذي لا يصحّ الوضع والأين أصلاً عليه .

قوله : « متكلّم بلا رؤية » ، الرؤية : العكرة يرثى الإنسان بها ليصدر عنه المأظ
سديدة دالة على مقصده ، والبارى تعالى متكلّم لا بهذا الاعتبار ؛ بل لأنه إذا أراد تعريف
[خلقه ^(٣)] من جملة الحروف والأصوات ؛ وكان في ذلك مصلحة ولطف لهم ، خلق
الأصوات والحروف في جسم جمادى ، فيسمها من يسمها ، ويكون ذلك كلامه ، لأنّ
المتكلّم في اللمة العربية فاعل الكلام لا من حله الكلام . وقد شرحنا هذا في
كتبتنا الكلامية .

قوله : « مربدٌ بلا همة » ؛ أى بلا عزّمْ ، فالعزم عبارة عن إرادة متقدمة للفعل ، تفعل
توطئاً للنفس على الفعل ، وتمهيداً للإرادة المقارنة له ؛ وإنما يصحّ ذلك على الجسم الذي
يتردد فيها ، تدعوه إليه الدواعي ، فأما العالم لذاته ، فلا يصحّ ذلك فيه .

قوله : « صانع لا بمجارة » ، أى لا بمصو ؛ لأنه ليس بجسم .
قوله : « لطيف لا يوصف بالحفاء » ، لأنّ العرب إذا قالوا لشيء : إنه لطيف ، أرادوا
أنّه صبر الحسم ، والبارى تعالى لطيف لا بهذا الاعتبار بل يطلق باعتبارين :

(٢) سورة المجادلة ٧ .

(١) د : « قرّبه » .

(٣) زيادة يلتصقها السياق

أحدهما : أنه لا يُرى لعدم صحة رؤية ذاته ؛ فلما شابه اللطيف من الأجسام في استعماله رؤيته ، أطلق عليه لفظ « اللطيف » إطلاقاً لفظ السبب على المبتدب .
وثانيهما : أنه لطيفٌ بعباده ؛ كما قال في الكتاب العزيز ، أى يفعل الألفاف المقرّبة لهم من الطاعة ، المبعدة لهم من التقيح . أو لطيفٌ بهم بمعنى أنه يرحمهم ويرفق بهم .

قوله : « كبير لا يوصف بالحماة » ، لما كان لفظ « كبير » إذا استعمل في الجسم أقادته بعد أقطاره ؛ ثم لما وصف البارئ بأنه كبير أراد أن ينزهه عما يدلّ لفظ « كبير » عليه ، إذا استعمل في الأحسام ؛ والمراد من وصفه تعالى بأنه كبير ، عظمة شأنه وجلالة سلطانه .

قوله : « نصير لا يوصف بالحاسة » ؛ لأنه تعالى يدرك إمالاته حتى لذاته ، أو أن يكون إدراكه هو عله ؛ ولا جارحة له ولا حاسة على كل واحد من القولين .

قوله : « رحيم لا يوصف بالترقة » ؛ لأن لفظة الرحمة في صفاته تعالى تطلق مجازاً على إمامه على عباده ، لأن الملك إذا رقى على رعيته وعطف ، أصابهم بإمامه ومعرويه .
قوله : « تسو الوحوه » ، أى تمصع ، قال تعالى : ﴿ وَنَسَفَ الْوُجُوهَ لِأَنَّهُ ﴾ الْقِيُومُ ^(١) .

قوله : « وتحبّ القلوب » ، أى تحفيق ، وأصله من وجب الحائط : حقت . ويروى : « توّجل القلوب » أى تحاف ، وتجل : خاف .

ويروى : « صانع لا يحاسة » ؛ ويرى « لا تراء الميون بمشاهدة الميان » هو ضامن « لا تتركه » .

(١) م ، د ، ٢ ، ع .

(٢) سورة طه ١١٢

(١٨١)

الأصل:

ومن كلام له عليه السلام في ذم أصحابه :

أَتَخَذُ اللَّهَ عَلَى مَا فَعَلَ مِنْ أَمْرٍ ، وَقَدَّرَ مِنْ شَيْءٍ ، وَكَأَنِّي أَبْتِلَايَ بِكُمْ ، أَبْتِنَاهَا الْفِرْقَةُ
الَّتِي إِذَا أَمَرْتُ لَمْ تُطِيعْ ؛ وَإِذَا دَعَوْتُ لَمْ تُجِبْ .
إِنْ أَهْمَيْتُمْ خُصْمِي ، وَإِنْ حُورَيْتُمْ خُرْمِي ، وَإِنْ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى إِيمَانٍ طَعَنْتُمْ ،
وَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى مُشَاةٍ سَكَنْتُمْ .

لَا أَنَا لِعَبِيرِكُمْ ، مَا تَنْتَظِرُونَ بِمَعْرِفَتِكُمْ ، وَالْطَّيَّافُ عَلَى حَقِّكُمْ ؛
الْمَوْتُ أَوَّالُ الدُّرِّ أَلَيْكُمْ ، هُوَ اللَّهُ آتِي - هَاءُ - يَوْحَى - وَيَا أَيُّهَا - أَيُّهَا - أَيُّهَا
وَيَتَنَكَّرُكُمْ ، وَأَنَا لِيُحَايِكُمْ قَالِ ، وَبِكُمْ غَيْرُ كَبِيرٍ .
لِلَّهِ أَنْتُمْ ؛ أَمَّا دِينُ يَجْمَعُكُمْ ، وَلَا تَحْيَا تَشْجِدُكُمْ ؛ أَوَّلَيْسَ هَجَا أَنْ مُعَاوِيَةَ
يَدْعُو الْخُلَفَاءَ الطُّغَمَاءَ فَيَسْتَمِئُونَ عَلَى غَيْرِ مَمْنُونَةٍ وَلَا عَطَاءٍ ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ - وَأَنْتُمْ تَرَبِّكُمُ
الْإِسْلَامَ وَبَقِيَّةَ النَّاسِ - إِلَى الْمَمْنُونَةِ أَوْ طَائِفَةٍ مِنَ الطُّغَمَاءِ ، فَتَتَفَرَّقُونَ عَنِّي ،
وَتَحْتَلِفُونَ عَلَيَّ ؟

إِنَّهُ لَا يَخْرُجُ إِلَيْكُمْ مِنْ أَمْرٍ رِصًا فَتَرْصُونَهُ ، وَلَا سُحْطًا فَتَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ ؛
وَإِنْ أَحَبَّ مَا أَنَا لَأَقِي إِلَى الْمَوْتِ .

قَدْ دَارَسْتُكُمْ الْكِتَابَ ، وَفَاتَحْتُكُمْ الْحِجَابَ ، وَعَرَفْتُكُمْ مَا أَنْسَرْتُمْ ،
وَسَوَّغْتُكُمْ مَا جَحَرْتُمْ ، لَوْ كَانَ الْأَعْمَى بِلَحْظٍ ، أَوْ النَّائِمُ بِسَنَقَطٍ ؛

وَأَقْرَبُ يَقْوَمُ مِنَ الْجَهْلِ بِأَفْهَمَ قَائِدُهُمْ مُعَاوِيَةُ ، وَمُؤَدِّهُمْ أَبُو النَّبِيقَةِ ١

• • •

الْبَرْخُ :

قضى وقدر في هذا اللوضع واحد .

ويرى : « على ما ابتلاى » .

وَأَهْلَتْكُمْ : خَلَيْتُمْ وَتَرَكْتُمْ ، ويرى : « أَهْلَتْكُمْ » ، أى أَخْرَجْتُمْ .

وَحَرَمْتُمْ : ضَمَمْتُمْ ، وَانْخَوَرْتُ : لَلَصْتُ ؛ رَجُلٌ خَوَارٌ ، وَرَمَحَ خَوَارٌ ، وَارْضُ خَوَارَةٌ ،

وَالْجَمْعُ خُورٌ . وَيَحْوِزُ أَنْ يَكُونَ « خَرْنَمٌ » ، أى صَحْمٌ ، كَمَا يَخْوَرُ الثَّوْرُ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ نَمَالِي :

﴿ عَجَلًا جَدًّا لَهُ خَوَارٌ ﴾ ^(١) . وَيُرْوَى : « حَرْنَمٌ » ، أى عَدَلْتُمْ عَنِ الْحَرْبِ فَرَارًا .

وَأَجِئْتُمْ : أَجِئْتُمْ ، قَالَ نَمَالِي : ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى حِذِّهَا الْبُخْلَةِ ﴾ ^(٢) .

وَالشَّاقَّةُ : الْقَاطِمَةُ وَالْمَصَارِمَةُ .

وَنَكَصْتُمْ : أَحْبَبْتُمْ ، قَالَ نَمَالِي : ﴿ فَمَا تَرَاهِىَ الْجَنَّةُ أَنْ تَكُنَّ عَلَى عَقَبَتَيْهِ ﴾ ،

أَيْ رَجَعَ عَجِيبًا ، أَيْ دَعَيْتُمْ إِلَى كَسَفِ الْقَدَحِ مَعَ الْمَدْرِ وَجِبْتُمْ وَهَبْتُمُوهُ .

قَوْلُهُ : « لَا أَبَا لَيْدِكُمْ » ، الْأَمْصَحُ « لَا أَبَ » ، بِحَذْفِ الْأَلْفِ ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

أَيُّ الْإِسْلَامِ لَا أَبَ لِي سِوَاهُ إِذَا افْتَخَرُوا بِقَيْسٍ أَوْ تَيْمٍ ^(٣)

وَأَمَّا قَوْلُهُ : « لَا أَبَا لَكَ » ، بِإِثْبَاتِهِ فَدُونَ الْأَوَّلِ فِي الْفَصَاحَةِ ؛ كَأَنَّهُمْ قَصَدُوا الْإِضَافَةَ ؛

وَأَقْصَوْا اللَّامَ مَزِيدَةً مُؤَكِّدَةً ، كَمَا قَالُوا : « يَا تَيْمَ تَيْمَ عَدِي » ، وَهُوَ غَرِيبٌ ؛ لِأَنَّ حُكْمَ

(١) سُورَةُ طه ٨٨ .

(٢) سُورَةُ سُرُم ٢٣ .

(٣) لِنَهَارِ بْنِ تَوْسَعٍ الْيَشْكُرِي ؛ وَالْبَيْتُ مِنْ شَوَاهِدِ سَهْبَوِيَّةِ .

« لا » أن تعمل في الذكرة فقط ، وحكم الألف أن تثبت مع الإضافة ، والإضافة تعرف ؛ فاجتمع فيها حكمان متمايان ، فصار من الشواذ كالملاح والمداكير وليس غدوة^(١) .

وقال الشيخ أبو البقاء رحمه الله : يجوز فيها وجهان آحران . أحدهما أنه أشيع فتحة الهاء ، فنشأت الألف والاسم باقي على تكبيره ، والثاني أن يكون استعمل « أباً » على لغة من قالها « أباً » في جميع أحوالها مثل « عصا » ، ومنه :

• **إِنْ أَبَاهَا وَأَبَا أَبَاهَا** •^(٢)

قوله : « الموت أو القتل لكم » ، دعاء عليهم بأن يصيبهم أحد الأمرين ، كأنه شرع داعياً عليهم بالاعتناء الكلبي ؛ وهو الموت : ثم استدرك فقال : « أو القتل » ؛ لأنه بغير الموت في المعنى ؛ ولكنه في الصورة دونه ؛ ولقد أحيب دعاؤه عليه السلام بالدعوة الثانية ؛ فإن شيعته ذلوا بعد في الأبيات الأموية ؛ حتى كانوا كقنقش قرقر^(٣) .

ثم أقسم أنه إذا جاء موته لنكون مغفوقه لم يزل يلهو ؛ وهو الدمع ، وأدخل حشو بين إنشاء الكلام ، وهي « ليأتيني » وهي حشو لطيفة ؛ لأن لفظة « إن » أكثر ما تستعمل لما لا يعلم حصوله ، ولفظة « إذا » لما يعلم أو يعلم على الظن حصوله ، تقول : إذا طلعت الشمس جئت إليك ، ولا تقول : إن طلعت الشمس جئت إليك ؛ وتقول : إذا أهرق البئر جئت إليك ، ولا تقول : إن أهرق البئر جئت إليك ، فلما قال : « لئن جاء يومى » ، أتى بلفظة دالة على أن الموضع موضع « إذا » لا موضع « إن » ، فقال : « وليأتيني » .

(١) أي أنها لا يستعملان إلا هكذا ، فلا يستعملون « ملحمة » ، ولا يستعملون « مكارا » ، كما أن « لأن » احتضت « بمدوة » ، وانظر سيويه ١ : ٣٤٨ .
(٢) شبهه :

• **قَدْ بَلَغَا فِي الْمَجْدِ هَابَتَاهَا** •

وهو من عوامد النخلة ؛ وانظر ابن عليل ١ : ٤٦ .
(٣) القنقش : ضرب من أروا الكيماة ، والقرقر : المكان المنحوى الألس ؛ ويغص به الرجل القليل ؛ يقال : هو أقل من قنقش بقرقر ؛ لأن الدواب تتجمل بأرجلها .

والواو في قوله : « وأبا لصحبكم » ، واو الحال ، وكذلك الواو في قوله : « وبكم غير كثير » ؛ وقوله : « غير كثير » انظر نصيح ، وقال الشاعر :

إِلَى تَحْمُسُونَ مَدِينًا بَيْنَ قَاضٍ وَأَمِيرٍ
لَسُوا الْوَفْرَ فَلَمْ أَخْلَعْ لَهُمْ ثَوْبَ الْقَسِيرِ
لَكَبِيرٌ هُمْ وَلَكِنِّي لَهُمْ غَيْرُ كَثِيرِ

قوله : « الله أنتم » ؛ في موضع رفع ؛ لأنه خبر عن المبتدأ الذي هو « أنتم » ، ومثله :
« الله در فلان » ، « الله بلاد فلان » ، « الله أهلك » ، واللام هنا فيها معنى التعجب ؛ والمراد بقوله :
« الله أنتم » : « الله سبحانه » ، أو « الله عليكم » ، كما قالوا : « الله درك » ، أي عملك ، محذوف المضاف ،
وأقيم الضمير للفعل المضاف إليه مقامه .

فإن قلت : أفعاء هذه اللام بمعنى التعجب في غير لفظ « الله » ؟
قلت : لا ، كما أن ثناء القوم لم تأخذ إلا في لسان الله تعالى .

قوله عليه السلام : « أما دين بمعكم » ارتجاع « دين » على أنه فاعل فعل مقدر له ؛
أي أما بمعكم دين بمعكم ؛ اللفظ الثاني مفسر للأول كما قدرناه بعد « إذا » في قوله
سبحانه : « (إذا السماء انشقت) ويعبور أن يكون « حجة » مبتدأ ، والخبر محذوف تقديره :
أما لكم حجة ؛ والحجة : الأنفة . وشهدت الفصل : أحدثه .

فإن قلت : كيف قال : إن معاوية لم يكن يعطى جندة وأنه هو عليه السلام كان
يعطيهم ؛ والمشهور أن معاوية كان يعد أحصنة بالأموال والرعائب ؛

قلت : إن معاوية لم يكن يعطى جندة على وجه الممونة والعطاء ؛ وإنما كان يعطى
رؤساء القبائل من اليمن وماكنى الشام الأموال الجليلة ؛ يستعبد بهم بها ، ويدعو أولئك

الرؤساء أتباعهم من العرب فيطيعونهم ؛ فهم من يطيعهم حية ، ومنهم من يطيعهم
لأبائهم وعوارف من أولئك الرؤساء عندهم ، ومنهم من يطيعهم ديناً ، زعموا لطلب بدم
عثمان ، ولم يكن يصل إلى هؤلاء الأتباع من أموال معاوية قليل ولا كثير . وأما
أمير المؤمنين عليه السلام ، فإنه كان يقسم بين الرؤساء والأتباع على وجه العطاء والرزق ،
ولا يرى لشريف على مشروف فصلاً ؛ فكان من يقعد عنه بهذا الطريق أكثر ممن
يصره ويقوم بأمره ، وذلك لأن الرؤساء من أصحابه كانوا يحدون في أنفسهم من ذلك
- أثنى المساواة بينهم وبين الأتباع - فيعدلونه عليه السلام باطلاً ، وإن أظهرُوا له
النصر ، وإذا أحسن أتباعه تتعادلهم وتواكلهم فحاذلوا أيضاً وتواكلوا أيضاً ، ولم يجد
عليه صلوات الله عليه ما أعطى الأنواع من الرزق ، لأن انتصار الأتباع له وقتلهم دونه
لا يتصور وقوعه ، والرؤساء متعادلون ، فكان يذهب ما يرزقهم ضياعاً .

فإن قلت : فأى فرق بين عمره والعطاء ؟

قلت : المعونة إلى الحد شيء - من المال كرسم ترميم أساحتهم ، وإصلاح
دورهم ، وسكون ذلك خارجاً عن العطاء المبروض شهراً وشهراً ، والعطاء المبروض
شهراً وشهراً يكون شيئاً له مقدار بصرف وائتمان الأفوات ، ومؤنة العيال ،
وقضاء الديون .

والتريبة - بيعة المعام تركها في تحميمها ، يقول أئمة حلف الإسلام وبقية
كالبيعة التي تركها النعمانية .

فإن قلت : ما معنى قوله : « لا يخرج إليكم من أمرى رصاً فترضونه ، ولا سخط
فتعتونه » عليه ؟

قلت : مدناه أنكم لا تقبلون مما أقول لكم شيئاً . سواء كان مما يرصيك أو مما
يسخطك ، بل لا مد لك من الخالفة ولا فراق عنه

ثم ذكر أن أحب الأشياء إليه أن يلقى الموت ، وهذه الحال التي ذكرها أبو الطيب فقال :

كُنِّي بِكَ دَاءٌ أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيَا وَحَسْبُ النَّبَا أَنْ تَكُنْ أَمَانِيَا ^(١)
تَمِيَّتْهُمُ أَلَمًا تَمَيَّتَتْ أَنْ تَرَى صَدِيقًا فَأَعْيَا ، أَوْ عَدُوًّا مُدَاجِيَا
قوله : « قد دارسكم الكتاب » ، أى درسته عليكم ، دارسُ الكتب وتدارسها وأدرسها ، ودرسها ، بمعنى ، وهى من الألفاظ القرآنية ^(٢) .
وفاعتكم الجِجاج ، أى حاككم بالحاجة والمجادلة ، وقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا ﴾ ^(٣) أى احكم ، والفتاح : الحاكم .
وعرفتكم ما أكرتم : بصرتكم ما قبي علكم .

وسوّغكم ما تحبّتم ، خال : بجهت الشراب من قبي ، أى رميت به ، وشيخ
ماج : يمجّ ريقه ، ولا يستطيع حمله من كبره ، وأحق ماج : أى يسيل لعابه ، يقول :
ما كانت عقولكم وأدها لكم تنقره من الأمور الدينية أوضحته لكم حتى عرفتموه
واعتمدتموه وانطوت قلوبكم عليه .

ولم يجزم عليه السلام بحصول ذلك لهم ، لأنه قال : لو كان الأعمى يلعب ، والثام
يستيقظ ! أى أى قد فعلت معكم ما يقتضى حصول الاعتقادات الحقيقية ف أذهانكم
لو أرتم عن قلوبكم ما يمنع من حصولها لكم ، والماع المشار إليه هو الهوى والعصية
والإمترار على اللجاج ، ومحبة نصره غفيدة قد سبقت إلى القلب ، وزرعها التمسب ،

(١) ديوانه ٤ : ٢٨١ .

(٢) من قوله تعالى في سورة آل عمران ٧٩ : ﴿ كُونُوا زَمَانِيَيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تَمْلُكُونَ
الْكِتَابَ وَمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ .

(٣) سورة الأعراف ٨٩ .

ومشقة مفارقة الأسلاف الذين قد اندرس في النفس تعظيمهم ، ومالت القلوب إلى تقليدهم
لحسن الظن بهم .

ثم قال : « أَقْرَبُ قَوْمٍ » أي ما أقربهم من الجهل ! كما قال تعالى : ﴿ أَسْمِعْ
بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾ ^(١) أي ما أسمعهم وأبصرهم !

فإن قلت : قد كان يجب أن يقول : « وَأَقْرَبُ قَوْمٍ قَائِدُهُمْ مَعَاوِيَةَ وَمُؤَدِّهِمْ ابْنُ
النَّبَاةِ مِنَ الْجَهْلِ » فلا يحول بين النكرة لموصوفة وصفها بخاصة غريب ، ولم يقل
ذلك ، بل فصل بين الصفة والموصوف بأجنبي منهما !

قلت : قد جاء كثير من ذلك ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَيَمُنُّ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ
مُسَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النَّعَقِ ﴾ ^(٢) في قول من لم يحمل « مَرَدُّوا »
صفة أقيمة مقام الموصوف ، لأنه يحمل « مردودهم » صفة القوم المحذوفين للتقديرين « مرد
الأعراب » وقد حال بين ذلك وبين « مردوا » قوله : « ومن أهل المدينة » .

ونحوه قوله : ﴿ أُنْزِلَ عَلَى قَدِيدَةِ الْكِتَابِ وَلَمْ يَجْمَلْ لَهُ عِوَجًا » ^(٣) .
فإن « قِيًّا » حال من الكتاب وقد توسط بين الحال ونهى الحال « ولم يحمل له
عوجا » والحال كالصفة ؛ ولأنهم قد أجازوا : « مرتت برجل - أيها الناس - طويل » ،
والنداء أجنبي ؛ على أننا لا نسلم أن قوله : « من الجهل » أجنبي ، لأنه متعلق بأقرب ،
والأجنبي ما لا نعلق له بالكلام .

(١) سورة الكهف ٢٦ .

(٢) سورة التوبة ١٠١ .

(٣) سورة الكهف ١ ، ٢ .

(١٨٢)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام وقد أرسل رجلاً من أصحابه يَمْلِكُ لَهُ عِلْمُ أحوالِ قَوْمٍ
مِنْ جُنْدِ الكوفةِ قد هَمُّوا بالحقاقِ بالخوارجِ ، وكانوا على خوفٍ منه عليه السلام ، فلما
عاد إليه الرجلُ قالَ له : أأَمِنُوا قَطَنُوا ، أم جبنوا فظَمَرُوا اِقْتَالَ الرجلُ : بلْ ظَلَمُوا
يا أمير المؤمنين .

فقال عليه السلام :

بُعْدًا لَهُمْ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ أَمَا أَوْ أَشْرَعَتِ الأيْتَةُ إِلَيْهِمْ ، وَصُبَّتِ الشُّيُوفُ عَلَى
هَامَاتِهِمْ ؛ أَقَدْ تَدِمُّوا عَلَى مَا كَانَ لِنُفُسِهِمْ .
إِنَّ الشَّيْطَانَ الْيَوْمَ قَدِ اسْتَفْلَحَ ، وَهُوَ عَلِيمٌ بِمَقَرِّهِمْ ، وَمَتَحَلٍّ عَنْهُمْ ؛
فَحَسَبُهُمْ مِنَ الْهَدَى ، وَارْتِكَاسِهِمْ فِي الضَّلَالِ وَالْمَيِّ ، وَصَدَّهِمْ عَنِ الْحَقِّ ،
وَجَمَّاحِهِمْ فِي التَّيْرِ .

الشرح :

قد ذكرنا قصة هؤلاء القوم فيما تقدم عند شرحنا قصة مصقلة بن هبيرة الشيباني .
وقطن الرجلُ بالمكان ، يقطن بالضم : أقام به ونوطنه ؛ فهو قاطن ؛ والجمع قَطَّان
وقاطنة وقطين أيضا ، مثل غازٍ وغزى . وعازب لكلا البعيد وعزيب .
وظنَّ صار الرجل ظَنًّا وظنًّا ؛ وقرئ بهما : (يَوْمَ ظَنَنْتُمْ)^(١) ؛ وأظلمه : سيره ،
وانتصب « بُعْدًا » على المصدر .

وثمود ؛ إذا أردت القبيلة غير مصروف ، وإذا أردت الحى أو اسم الأب مصروف ،
ويقال : إنه ثمود بن عابر بن آدم بن سام بن نوح ، قيل سميت ثمود لقلة ماؤها ، من الثمود
وهو الماء القليل ؛ وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام إلى وادى القرى .
وأشرعت الرمح إلى ريد ؛ أى سدّته نحوه ، وشرع الرمح نفسه وصبت السيوف
على هاماتهم : استعارة من صبّت الماء ، شبه وقع السيوف وسرعة اغتوارها الرؤوس
نصب الماء .

واستفلمهم الشيطان ؛ وجدّهم تفلولين ، وسترلهم ؛ هكذا فسروه .
ويمكن عدى أن يريد أنه وحدهم قلاً ، لا حير فيهم ، والعل في الأصل : الأرض لا نبات
مها لأنّها لم تخطر ، قل حسان بصف المرى^(١) :
وإنّ التى بالحدّيع من تطن تحلّة^(٢) ومن كاساريل من الخير مئول^(٣)
أى خال من الخير .

ويروى « استفرّهم » ، أى استعظمهم .
والارتكاس فى الصلال : الرجوع ؛ كأنه حملهم فى ترددهم فى طبقات الصلال
كالمرتكس الراجع إلى أمر قد كان مختص منه .
والجراح فى التّيه : اللوّ والإفراط ، مستعار من جراح العرس ؛ وهو أن يعثر صاحبه
وبدله ، جّج فهو جّجوح .

(١) فى الأصل : « المرى » ، تصحيف ، وفى الصحاح : « المرى » وهى شجرة كانت لسد .

(٢) اللسان ١٤ : ٤٧ ، ونسب إلى عبيدة بن رواحة ، وذكر الله :

شَهِدْتُ وَلَمْ أَكْذِبْ بِأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ مِنْ حُلْ

(١٨٣)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

رَوَى عَنْ نَوْفِ الْبَكَالِيِّ ، قَالَ حَظَبْنَا بِهَذِهِ الْخُطْبَةِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيَّ عَلَيْهِ
السَّلَامُ بِالسُّكُوفَةِ ؛ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى جِجَارَةٍ نَصَّهَا لَهُ جَمْدَةُ بْنُ هُبَيْرَةَ الْخَزُرِيُّ ، وَعَلَيْهِ
مِذْرَعَةٌ مِنْ صُوفٍ ، وَحَائِلٌ سَبِيغٌ لَيْفٌ ، نَوْفٌ رِجْلَتُهُ نَعْلَانِ مِنْ لَيْفٍ ؛ وَكَأَنَّ جَبِينَهُ
ثَقِيلَةٌ أَمِيرٌ ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي آتَانِي مَصَائِرُ الْخَلْقِ ، وَعَوَاقِبُ الْأَمْرِ اعْتَمَدَهُ عَلَى عَظِيمِ إِحْسَانِهِ ،
وَيَبِّرُ بُرْهَانِهِ ، وَتَوَاضَعُ فَضْلُهُ وَامْتِنَانُهُ ، كَيْدًا يَكُونُ لِحَقِّهِ قَصَا ، وَلِشُكْرِهِ أَدَاء ،
وَإِلَى ثَوَابِهِ مُقَرَّبًا ، وَلِحُسْنِ مَرِيدِهِ مُرَجَّبًا ؛ وَتَسْتَعِينُ بِهِ اسْتِعَانَةً رَاجٍ لِفَضْلِهِ ،
مُؤْتَمِّلٍ لِنَفْعِهِ ، وَآتِقٍ بِذَنْبِهِ ؛ مُعْتَرِفٍ لَهُ بِالطُّوْلِ ، مُذْعِنٍ لَهُ بِالْعَمَلِ وَالْقَوْلِ ؛
وَنُؤْمِنُ بِهِ بِإِيمَانٍ مِنْ رَجَاءٍ مُوقِنًا ، وَأَنَابٍ إِلَيْهِ مُؤْمِنًا ، وَخَشَعَ لَهُ مُدْعِنًا ، وَأَحْلَصَ لَهُ
مُوحِدًا ، وَعَظَّمَهُ مُمَجِّدًا ، وَلَاذً بِهِ رَافِعًا مُتَّهِدًا .

الشرح :

[نَوْفُ الْبَكَالِيِّ]

قال الجوهرى فى الصَّحاح : نَوْفُ الْبَكَالِيِّ ، بفتح الباء ، كان حاجبًا على عليه
السلام ، ثم قال : وقال ثعلب : هو منسوب إلى بكالة ، فبيلة^(١) .

وقال القطب الراوندى فى شرح " نهج البلاغة " : بكال وبكيل شئ واحد ؛
وهو اسم حى من تهمذان ، وبكيل أكثر ، قال الكُميت :

• فَقَدْ شَرَّ كَتَّ بِيَدِ كَيْلٍ وَارْحَ (١) •

والصواب غير ماقلناه ، وإنما بنو بكال ، بكسر الباء ، حى من خير ؛ منهم هذا
الشخص ؛ هو نوف بن فضالة ، صاحب حل عليه السلام ؛ والرواية الصحيحة الكسر ،
لأن نوف بن فضالة بكالى ، بالكسر ، من خير ؛ وقد ذكر ابن الكلبي نسب بنى بكال
الخيريين ، فقال : هو بكال بن دُمَيْي بن غوث بن سعد بن عوف بن عدي بن مالك بن زيد
ابن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن العوث بن قطن
ابن عريب بن زهير بن أبى بن الهيثم بن خير .



[نسب جمدة بن هُبيرة]

وأما جمدة بن هُبيرة ، فهو ابن أخت أمير المؤمنين عليه السلام ، أمه أم هانى بنت
أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم ، وأبوه هُبيرة بن أبى وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران
ابن محزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب . وكان جمدة فارساً شجاعاً ، فحبها
وورث خراسان لأمر المؤمنين عليه السلام ؛ وهو من الصعابة الذين أدرَكَ رسول الله صلى
الله عليه وآله يوم الفتح ، مع أمه أم هانى بنت أبى طالب ؛ وهرب أبو هُبيرة بن أبى وهب
ذلك اليوم هو وعبد الله بن الزُّبَيْر إلى نجران .

(١) الصحاح ، ومدره :

• يَقُولُونَ بُوْرَثَ وَلَوْلَا تَوَاتُّهُ •

وروى أهل الحديث أن أم هانئ كانت يوم الفتح في بيتها ، فدخل عليها هُبيرة ابن أبي وهب بعلها ، ورجل من بني عمة عارفين من علي عليه السلام ؛ وهو يتبعهما ويملك السيف ، فقامت أم هانئ في وجهه دونهما ، وقالت : ما تريد منهما ! ولم تكن رأتها من ثمانين سنين ، فدفغ في صدرها ، فلم تزل عن موضعها ، وقالت : أَدْخُلْ يا علي يتي ، وتهتك حرمتي ، وتقتل بئلي ، ولا تسعي مني بعد ثمانين سنين ! فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله أهدر دمه ، فلا بد أن أخلصها . فقبضت على يده التي فيها السيف ، فدخل بيتا ثم خرجاه إلى غيره ، فقاتاه ، وجاءت أم هانئ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فوجدته يعنسل من جفنة فيها أثر المجين ، وفطمة ابنته تستر بنوئها ، فوقفت حتى أحد ثوبه ، فتوشع به ، ثم صلى ثمانين ركعة من الصلوة ، ثم انصرف ، فقال : مرحبا وأهلا بأم هانئ ، أما جاء بك ؟ فأخبرته خبر بعلها وبني عمة ، ودخول علي عليه السلام بيتها بالسيف . فجاء علي عليه السلام ورسول الله صلى الله عليه وآله بضحك ، فقال : ما صنعت بأم هانئ ؟ قال : سلمتها يا رسول الله ما صنعت بي والذى به شك بالحق لقد قبضت على يدي وفيها السيف ؛ فما استطعت أن أخلصها ، لا بد لأبي ، وقاتى الرجلان . فقال صلى الله عليه وآله : « لو ولد أبو طالب الناس كلهم لكانوا شجعانا ، قد أجزأنا من أجارت أم هانئ ، وأتينا من أنت ، فلا سبيل لك عليهما » .

فأما هُبيرة فلم يرجع ؛ وأما الرجل الآخر ، فرجع فلم يعرض له .

قالوا : وأقام هُبيرة بن أبي وهب بدجران حتى مات بها كافرا ، وروى له محمد بن إسحاق في كتاب المغارى شعرا أوله :

أَشَاقَتَكَ هَنْدُ أُمِّ أَتَاكَ سُوءُهَا كَدَاكَ النَّوَى أَسْبَابُهَا وَاقْتَالُهَا

يذكر فيه أم هانئ وإسلامها ، وأنها مهاجرة لها إذ صبت إلى الإسلام ، ومن جلته :

فإن كنت قد ناست دين محمد وقطعت الأرحام منك حبالها^(١)
فكوني على أعلى حقوق مهيبه مدللة غراء ببس قلائها^(٢)
وقال ابن عبد البر في كتاب "الاستيعاب"^(٣) :

ولدت أم هاني لخبيرة بن أبي وهب بين أروعة : حمدة ، وعمر ، وهانثا ، ويوسف ،
قال : وجمدة الذي يقول :

أبي من بني محروم إن كنت سائلا ومن هاشم أمتي ، غيرة قبيل^(٤)
من ذا الذي ينأى على بحاله كحال علي ذي الندى وعقيل

• • •

المدركة : الجثة ، وتدرع : لسمها ، ويرى قالوا : تدرع .
وثقة البشير ، واحدة ثقيانم ، وهو ما يقع على الأرض من أعضائه إذا استباح
فيملط ويكثف ، كالركبتين وغيرهما ويقال : ذو الثقيات الثلاثة لعلي بن الحسين ، وعلى بن
عبد الله بن العباس عليهم السلام ، ولسيد الله بن وهب الزاسبي ، رئيس الخوارج ، لأن
طول السجود كان قد أثر في ثيابهم ، قال دغول :

(١) الاستيعاب لأن عبد البر ٧٨٢ .

(٢) الاستيعاب :

• ممتعة لا يستطاع قلائها •

وبعد :

فأني من قوم إذا جد جداهم
ولأني لأحي من وراء عشيرتي
وطارت بأيدي القوم يعض كائنها
وإن كلام المرء في غير كنهه
على أي حال أصبح القوم حالها
إذا كثرت تحت الموالى محالها
محاربت ولذان ينوس خلالها
لنيل نهوى ليس فيها رمالها

(٣) الاستيعاب ص ٨٢ - ٩٢ .

(٤) المصدر السابق .

دِيَارُ عَلِيٍّ وَالْحُسَيْنِ وَجَعْفَرٍ وَخَزَنَةِ وَالسَّجَادِ ذِي الثَّنِيَّاتِ ^(١)

ومصادر الأمور : جمع مصير ، وهو مصدر « صار » إلى كذا ، ومعناه المرجع ، قال تعالى : ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ ^(٢) فأما المصدر من « صار الشيء كذا » فمصير وصيرورة ، والقياس في مصدر « صار إليه » أي رجع « مصاراً » ، كما في « كدماش » ، وإعما جمع المصدر هاهنا لأن الحلائق يرجعون إلى الله تعالى في أحوال مختلفة في الدنيا وفي الدار الآخرة ، فجمع المصدر ، وإن كان يقع بلمطة على القليل والكثير ، لاختلاف وجوهه ، كقوله تعالى : ﴿ وَبَطَلُونَ بِاللهِ الطُّغُونَا ﴾ ^(٣) .

وعواقب الأمر : جمع عاقبة ؛ وهي آخر الشيء .

ثم قسم الحمد ، فحده على ثلاثة أقسام :

أحدها : الحمد على عظيم إحسانه وهو أصول نص تعالى : كالحياة والقدرة والشهوة وغيرها مما لا بد حل جنبه تحت مقدور المتأخر .

وثانيها : الحمد على بَرِّ رعايته ، وهو ما نصبه في القول من العلوم البديهة المفضية إلى العلوم النظرية بتوحيده وحده .

وثالثها : الحمد على أرزاقه النامية ؛ أي الزائدة وما يجري مجراها من إطالة الأعمار ، وكثرة الأرزاق ، وسائر ضروب الإحسان الداحلة في هذا القسم .

ثم بالغ في الحمد جداً ليكون لحقه قصاء ، ولشكره أداء ، وذلك لأن الحمد والشكر [ولو باغ]

(١) من قصيدته الثائية :

مَدْلَرِسُ آيَاتٍ خَلَّتْ مِنْ تِلَاوَةٍ وَمَنْزِلٌ وَخِي مُقْفِرُ الْمَرَحَاتِ

ومعنى في معجم الأدباء ١١ : ١٠٣ - ١١٥ .

(٢) سورة آل عمران ٢٨ .

(٣) سورة الأعراف ١٠ .

أقصى غلاته لم يصل إلى أن يكون قاضياً لحق الله تعالى ، ولا مؤدياً لشكره ؛ ولكنه قال ذلك على سبيل المبالغة .

ثم قال : « وإلى ثوابه مقرباً ، ولحسن مزیده ، وجباً » ؛ وذلك لأن الشكر يوجب الثواب والمزيد ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ ، ^(١) أي « أنبئكم » ، وقال : ﴿ لَنَنْشُكْرَنَّكُمْ لَا زِيدُكُمْ ﴾ ^(٢) .

ثم شرع في الاستعانة بالله ففصلها أحسن تفصيل ، فذكر أنه يستعين به استعانة راجٍ لفضله في الآخرة ، مؤملاً لنفعه في الدنيا ، واثق بدفعه المضار عنه ؛ وذلك لأنه أراد أن يحتوى على وجوه ما يستعان به تعالى لأحده ، فذكر الأمور الإيجابية ، وأعطى بالأمور السلبية ، فالأولى جلب المنافع ، والثانية دفع المضار .

والطول : الإفضال . والإدعان : الإتيان والطلعة
وأناب إليه : أقبل وتاب وخنع : خضع ، والمصدر الخنوع ولادته : لجأ إليه

الأصل :

لَمْ يُولَدْ سُبْحَانَهُ فَيَسْكُونُ فِي أَلَمٍ مُّشَارَكًا ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ فَيَسْكُونُ مَوْرُوثًا هَالِكًا .
وَلَمْ يَتَقَدَّمْهُ وَقْتُ وَلَا رَمَانٌ ، وَلَمْ يَتَعَاوَرَهُ زِيَادَةٌ وَلَا نُقْصَانٌ ، بَلْ ظَهَرَ لِلْعُقُولِ عَازِرَاتُهَا
مِنْ عَلَامَاتِ التَّذْيِيرِ الْمُتَقَنِّ ، وَالْقَضَاءِ الْمُبْرَمِ . فَمِنْ شَوْهِدِ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَمَوَاطِنِ
بِلَا عَمَدٍ ، قَائِمَاتٍ بِأَسْنَدٍ إِدْعَاهُنَّ فَأَجَبْنَ طَائِعَاتٍ مُّذْعِمَاتٍ ، هَبْرَةً تَلْسُكُنَّاتٍ وَلَا مُبْطِئَاتٍ .
وَلَوْلَا إِفْرَازُهُنَّ لَهُ بِالرُّؤُوبِ بَيْتٍ ، وَإِذْعَاهُنَّ لَهُ بِطَوَاعِيَةٍ ؛ لَمَا جَعَلْنَهُنَّ مَوْضِعًا لِمَرَشِيهِ

(١) سورة الفرق ١٥٢

(٢) سورة إبراهيم ٧

وَلَا مَنَكَا اِمْلَانِكِيهٗ ، وَلَا مَصْنَعَا فِكْمِ الطَّيِّبِ ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ مِنْ خَلْقِهِ .



البشر :

نفى عليه السلام أن يكون الباري سبحانه مولوداً فيكون له شريك في العز والإلهية؛ وهو أبوه الذي ولده ، وإنما قال ذلك جرباً على عادة ملوك البشر ؛ فإن الأكثر أن الملك يكون ابن ملك قبله ؛ ونفى أن يكون له ولد ، جرباً أيضاً على عادة البشر ، في أن كل والد في الأكثر ، فإنه يهلك قبل هلاك الولد ، ويرثه الولد ؛ وهذا النمط من الاحتجاج يسمى خطابة ؛ وهو نافع في مواجهة العرب به ، وأراد من الاحتجاج إثبات العقيدة ، فخارة تثبت في نفوس العلماء بالبرهان ، ونارة تثبت في نفوس العوام بالخطابة والجدل .

ثم نفي أن يقتضيه وقت أو زمان ، والوقت هو الزمان ، وإنما حالف بين اللفظين ، وأنى بحرف الطاف ؛ كقولهم تعالى : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ فِرْعَوْنَ وَمِهْجَا ﴾ . ونفى أن يتماوروه ، أى يختلف عليه زيادة أو نقصان ؛ يقال : عاورت زيدا الصرب ؛ أى مضت به من الصرب مثل ما فعلت ؛ واعتوروا الشيء ؛ أى تداولوه فيما بينهم ، وكذلك تَمَوَّرُوهُ وتماوروه ، وإنما ظهرت الواو في « اعتوروا » ، لأنه في معنى « تماوروا » فبنى عليه ولو لم يكن في معناه لاعتلت ، كما قالوا : « احتوروا » لما كان في معنى : « تماوروا » التي لا بد من محبة الواو فيها لسكون الألف قبلها . واعتورت الرياح رسم الدار ؛ احتلفت عليه .

فإن قلت : هذا يقتضى أن يقول : « ولم يتماوروه زيادة ونقصان » ، لأن التماور يستدعى الضدين معاً ، ولا ينبغي أن يقول : « ولا نقصان » ؛ كما لا يجوز أن تقول : لم يختلف زيد ولا عمرو .

قلت : لما كانت مراتب الزيادة مختلفة جاز أن يقال : « لا يمتوره الزيادة » ؛ فكذلك القول في جانب النقصان ؛ وجري كل واحد من النوعين مجرى أشياء متناقضة ، تختلف على الموضع للوصف بها .

قوله عليه السلام : « موطنات » ؛ أي ممتدات منبتات .
والسند : جمع عماد ، نحو إهاب وأهب ، وإدام وأدم ؛ وهو على خلاف القياس ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾ ^(١) ، وقوله تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِفَيْرٍ عَمَدٍ تَرْوُنَهَا ﴾ ^(٢) . والسند : ما يستند إليه .

ثم قال : « دماهن » فأجبن طائمتي ؛ هذا من باب المحاز والتوسع ؛ لأن الجناد لا يدعى ؛ وأما من قال : إن السموات أسماء ناطقة ، فإنه لم يحملهن مكلفات ليقال : ولولا إقرارهن له بالربوبية لما فعل كذا ؛ بل يقول ذلك على وجه آخر ؛ ولكن لغة العرب تنطق بمثل هذا المحاز ، نحو قول الرليز :

أَمْتَلُ الْخَوْضُ وَقَالَ قَطِي مَهْلًا رَوِيْدًا قَدْ تَلَّتْ طَطِي ^(٣)

ومنه قوله تعالى : ﴿ أَتَيْنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِمِينَ ﴾ ^(٤) .

ومنه قول مكاتب لبي بن ربيعة النخعي ، كان قد ظنم ^(٥) مكانته ، فأنى قبر غالب بن صمصمة ، فاستعاره ؛ وأخذ منه حصيات فشدهن و عمامته ، ثم أتى الفرزدق فأخبره خبره ، وقال : إني قد قلت شعرا ، قال : هاته ، فأشده .

(١) سورة المائدة ٩

(٢) سورة الرعد ٢ .

(٣) اللان (قطن) من غير اسم .

(٤) سورة فصلت ١١ .

(٥) يريد أنه صاق بها .

بغير ابنٍ تَيْلَ غالبٌ عدتُ بعدما حثيت الرّدى أو أن أردّ على قسري
بغير امرئٍ بقرى الثّين عظمه ولم بكُ إلا غالباً مَيّت بقرى
فقال لى استقدمُ أمامك إني فكألك أن تلقى الفرزدق بالعصر

فقال : ما اسمك ؟ فقال : لخدم ، قال : يا لخدم حكك مسطاً ، قال : ناقة كوثماء ^(١)
سوداء الحديقة ، قال : يا جارية اطرحى لنا حبلاً ، ثم قال : يا لخدم اخرج بنا إلى الميربد
فألقه في عنق ماشئت من أهل الناس . فتغير لخدم على عينه دقة ، ورمى بالحبل في عنقها ،
وجاء صاحبها ، فقال له الفرزدق : اغد على أولئك نساء ، فجعل لخدم يقودها ، والفرزدق
يسوقها ، حتى أخرجها من البوت إلى الصحراء ، فصاح به الفرزدق : يا لخدم ، قبح الله
أخيراً ! فغبر الشاعر عن القبر ! قوله : « فقال لى استقدمُ أمامك » والقبر والميت الذى فيه
لا يخبران ، ولكن العرب وأهل الحكماء المعجم يحملون كل دليل قولاً وحوالاً ،
الأتى إلى قول زهير :

• أَيْسَ أَمَّ أَوْثَى دِمْنَةً لَمْ تَكْلَمْ ^(٢) •

وإنما كلامها عنده أن تبين ما يرى من الآثار قبيها عن قدم العمى بأهلها .

ومن كلام بعض الحكماء : هَلَّا وَفَعْتُ عَلَى تِلْكَ الْجَنَانِ وَالْخَوَاطِئِ ، فَقُلْتُ : أَيْنَهَا
الْجَنَانُ ، أَيْنَ مَنْ شَقَّ أَهَارَكَ ، وَعَرَّسَ أَشْعَارَكَ ، وَحَنَى ثَمَارَكَ ؟ فَإِنْ لَمْ نَحْمِكَ حِوَاراً ،
أَجَابَكَ اعْتِبَاراً !

وقال ^(٣) النعمان بن النضر رحمه عدى بن ربد ، فى ظلّ شعرات مَوَاقَاتِ بِشْرَبِ ،

(١) الكوثماء : الناقة البيضاء .

(٢) ديمنه ، وخيته :

• مَحْصَاةُ الذَّرَاجِ فَالْتَلَمَ •

(٣) قال ، من القيلولة

قال عدى : أبيت العن ! وأراد أن يعظه : أتدرى ما تقول هذه الشجرات ؟ قال :

ما تقول ؟ قال :

رُبَّ رَكْبٍ قَدْ أَمَّاخُوا حَوْلَنَا يَشْرَبُونَ أَنْشَرَ بِالْمَاءِ الزَّلَالِ^(١)
ثُمَّ اضْحَوْا عَصَفَ الدَّهْرِ بِهِمْ وَكَذَلِكَ الدَّهْرُ يُوْدِي بِالرَّجَالِ
فَتَتَمَسَّ النِّعَمَانُ يَوْمَهُ ذَلِكَ^(٢) .

وللذمين : المنقاد المطيع . والتسكىء : للتوقف .

والكلم الطيب : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً صلى الله عليه وآله رسوله .

والعمل الصالح : أداء الواجبات وتوافل ؛ والمغطات من القرآن^(٣) العزيز .

والصَّدد : موضع الصمود ، ولاشبهة أن السماء أشرف من الأرض على رأى المؤمنين
وعلى رأى الحكماء ، أما أهل الملة ، فلأن السماء معلم الأعمال الصالحة ، ومحلّ الأموار ،
ومكان اللانسكة ، وفيها للعرش والكُرسى ، والكواكب المدبرات أمراً ، وأما الحكماء
فلا أمور أخرى تقتضيها أصولهم .

• • •

الأصل

جَعَلَ نُحُومَهَا أَغْلَامًا يَسْتَقْدِلُ بِهَا الْحَيْرَانُ فِي مُخْتَلِمٍ لِحَاجِ الْأَقْطَارِ ، لَمْ يَمْنَعْ
ضَوْءُ نُورِهَا إِذْ لِهَمَامُ سُجُوفِ الْأَيْلِ الْعَظِيمِ ، وَلَا اسْتِطَاعَتْ حَلَايِبُ سَوَادِ الْحَدَادِسِ
أَنْ تَرُدَّ مَا شَاعَ فِي السَّمَوَاتِ مِنْ تَلَالُؤِ نُورِ الْقَمَرِ ؛ فَسُبْحَانَ مَنْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ سَوَادُ

(١) الشعر والحجرات والأعاني ٢٠٤ ٩٦ (طبعة دار الكتب) .

(٢) من قوله تعالى سورة طه ١٠ . (إِيَّاهُ يَصْمَدُ الْكَلِيمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ
يَرْفَعُهُ) .

فَسَيِّدَاجٍ ، وَلَا لَيْلٍ سَاجٍ ، فِي بِقَاعِ الْأَرْضِينَ الْمُتَعَطِّطَاتِ ؛ وَلَا فِي بِقَاعِ الشُّعْرِ
الْمُتَجَاوِرَاتِ ، وَمَا يَتَجَلَّجَلُ بِهِ الرَّعْدُ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ ، وَمَا تَلَاسَّتْ عَنْهُ يُرُوقُ الْعَمَامُ ،
وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ تَزِيلُهَا عَنْ مَسْقِطِهَا عَوَاصِفُ الْأَنْوَاءِ وَأَنْهِيَالُ السَّمَاءِ أَوْ يَعْلَمُ مَسْقِطُ
الْقَطَرَةِ وَمَقَرُّهَا ، وَمَسْعَبُ الدَّرَّةِ وَمَحَرُّهَا ؛ وَمَا يَكْنِي الْبَحْوَصَةُ مِنْ قُوَّتِهَا ؛ وَمَا تَحْمِلُ
مِنَ الْأَثَنِ فِي بَطْنِهَا .

الشَّيْخُ :

أعلاماً ، أَىِ يَسْتَدِلُّ بِهَا . وَالضَّعَاجُ : جَمْعُ فَيْجٍ ؛ وَهُوَ الطَّرِيقُ فِي الْجَبَلِ .
ثُمَّ قَالَ : إِنَّ أَدْلُهُمْ سَوَادُ الْبَلِّ - أَىِ شِدَّةُ ظِلِّهِ - لَمْ يَمْنَعْ الْكَوَاكِبَ مِنَ الْإِصَاءَةِ ؛
وَكَذَلِكَ أَيْضاً لَمْ يَمْنَعْ ظِلَامُ الْبَلِّ الْقَمَرَ مِنْ تَلَامُ نُورِهِ ؛ وَإِنَّمَا خَسَفَ الْقَمَرُ بِالْقَدْسِ وَإِنْ
كَانَ مِنْ جِلَّةِ الْكَوَاكِبِ ، لِشَرْفِهِ بِمَا يَظْهَرُ لِلْأَبْصَارِ مِنْ عَظَمِ حَجَّتِهِ ، وَشِدَّةِ إِصَاءَتِهِ ،
فَصَارَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فِيهَا قَاكِيَّةٌ وَنَحْلٌ وَرَمَانٌ ﴾ ^(١) ، وَقَدْ رَوَى بَعْضُ الرُّوَاةِ
«أَدْلُهُمْ» بِالنَّصْبِ ، وَجَعَلَهُ مَقْضُولاً ، «وَصَوْرُهُ» بِوَرَّهَاءِ بِالرَّفْعِ وَجَعَلَهُ فاعِلاً ؛ وَهَذِهِ الرُّوَايَةُ
أَحْسَنُ فِي صِبَاغَةِ الْكِتَابَةِ لِمَسَاكِنِ الْأَرْدَوَاجِ ؛ أَىِ لَا الْقَمَرَ وَلَا الْكَوَاكِبَ تَمْنَعُ الْبَلِّ مِنَ
الظَّلْمَةِ ، وَلَا الْبَلِّ يَمْنَعُ الْكَوَاكِبَ وَالْقَمَرَ مِنَ الْإِصَاءَةِ .

وَالشُّعْفُ : جَمْعُ سَيْحَتٍ ، وَهُوَ الشَّرُّ ، وَبِحُورِ فَتْحِ السَّيْنِ .

وَشَامُ : تَفَرَّقَ ، وَالتَّلَاثُ : الْإِتِّحَالُ . وَالْجَلَايِبُ : الثِّيَابُ . وَالْمَسَقُ : الظَّلْمَةُ ،
وَالسَّاجِي . السَّاكِنُ وَالذَّاجِي : الْمَظْلَمُ ، وَالْمُتَعَطِّطُ : الْمُنْتَخَصُّ . وَالشُّعْرُ الْمُتَجَاوِرَاتِ
هَاهُنَا : الْجِبَالُ ؛ وَسَمَّاها شُعْفاً لِأَنَّ الشُّعْمَةَ سَوَادٌ مُشْرَبٌ بِحَمْرَةٍ ؛ وَكَذَلِكَ لَوْهَا فِي
الْأَكْثَرِ .

والقياع : الأرض المرتفعة . والتججل : صوت الرعد .

وما تلاشت عنه بروق الغمام ؛ هذه الكلمة أهل ماءها كثير من أئمة الأمة ؛ وهي صحيحة وقد جاءت ووردت . قال ابن الأعرابي : لَشَأَ الرَّجُلُ ؛ إذا اتضع ، وخس بعد وفة ، وإذا صح أصلها صح استعمال الناس ، تلاشي الشيء ، بمعنى اضمحل .

وقال القطب الراوذي : تلاشي مركب من « لا شيء » ، ولم يقف على أصل الكلمة ؛ وقد ظهر الآن أن معنى كلامه عليه السلام أنه سبحانه يعلم ما يصوت به الرعد ؛ ويعلم ما يضمحل عنه البرق .

فإن قلت : وهل يقصد الرعد محللته معنى مقولا يقال : إن الباري يعلمه ! ثم ما المراد بكونه عالما بضمحل البرق عنه ؟

قلت : قد يكون تعالى يحدث في الرعد جلجلة ، أي صوتا يهلك به قوما ، أو لينفع به قوما ، فعنده بما تقصده تلك الجلجلة هو معنى قولنا : يعلم ما يصوت به الرعد ، ولا ريب أن البرق يلمع فيضيء أقطار محصورة ، ثم بتلاشي عنها ، فالباري سبحانه عالم بتلك الأقطار التي يتلاشي البرق عنها .

فإن قلت : هو سبحانه عالم بما يصيئه البرق ؛ وما لا يصيئه ؛ فمادام خص بالعالمية ما يتلاشي عنه البرق ؟

قلت : لأن علمه بما ليس بمشيء البرق أعجب وأغرب ، لأن ما يصيئه البرق يمكن أن يعلمه أولو الأنصار الصحيحة ، فأراد عليه السلام أن يشرح من صفاته سبحانه ما هو بخلاف المعتاد بين البشر ؛ ليكون إعظام السامعين له سبحانه أتم وأكمل .

والمواصف : الرياح الشديدة ، وأصافها إلى الأنواء ؛ لأن أكثر ما يكون عصفاء في الأنواء ؛ وهي جمع نوء ، وهو سقوط النعم من منازل القمر الثمانية والعشرين في الحرب

مع المعر وطلوع رقبه من المشرق مقبلاً له من ساعته ؛ ومدة التوء ثلاثة عشر يوماً ،
إلا الجهة فإن لها أربعة عشر يوماً .

قل أبو عبيد : ولم يسمع في التوء أنه المنقوط إلا في هذا الموضع ، وكانت العرب
بضيف الرياح والأمطار والحر والبرد إلى الساقط منها .

وقال الأصمعي : بل إلى الطالع في سطره ، فقول : مطر يا شوء كذا وكذا ، ونهى
النبي صلى الله عليه وآله عن ذلك ؛ والجمع أمواء وروآن أبصاً ؛ مثل بطن وبطنان
وعبد وعبدان ، قال حسان بن ثابت :

وَبَرَبِّ تَسْلِمُ أَنَا بِهَا إِذَا قَطَعَ الْقَطَرُ رُوَآئِهَا ^(١)

والأنهطال : الانصباب . ومسقط الفطرة من المطر : موضع سقوطها ؛ ومقرها : موضع
قرارها ، ومسحب الدرة الصعير من البئر : محلها : موضع سحبها وجريها .
وهذا الفصل من فصيح الكلام وبأدبه ؛ ويتضمن من توحيد الله تعالى وتعبده
والثناء عليه ما يشهد لنفسه

الأمثلة :

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ السَّكَّانِ قُلْ أَنْ يَسْكُونَ كَرِيمٍ أَوْ عَرْشٍ أَوْ سَمَاءٍ أَوْ أَرْضٍ أَوْ حَانَ
أَوْ إِنْسٍ ، لَا يَدْرُكُ يَوْمُهُمْ ، وَلَا يَقْدَرُ يَوْمُهُمْ ، وَلَا يَشْعُلُهُ سَائِلٌ ، وَلَا يَنْقَعُهُ نَائِلٌ ،
وَلَا يَنْظُرُ نَصِينٌ ، وَلَا يَحْدُ مَايْنٌ ، وَلَا يَوْصَفُ بِالْأَرْوَاجِ ، وَلَا يَخْلُقُ بِعِلَاجٍ ، وَلَا يَدْرُكُ
بِالْحَوَاسِ ؛ وَلَا يُقْلَسُ بِالنَّاسِ .

الَّذِي كَلَّمَ مُوسَى تَكْدِيماً ، وَأَرَاهُ مِنْ آيَاتِهِ عَظِيماً ؛ يَلَا جَوَارِحَ وَلَا أَدْوَاتٍ ،
وَلَا نَطَقَ وَلَا لَهَوَاتٍ ، بَلْ إِنْ كُنْتَ صَادِقاً أُيُّهَا الْمُشَكِّكُفُ لَوْ صَفِ رَبُّكَ ؛ فَصِفْ

حَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ ، وَجُنُودَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ ، فِي حُجُراتِ لُقْدُسٍ مُرْجَحِينَ ،
مُتَوَلِّينَ عُقُولُهُمْ أَنْ يَعُدُّوا أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ . وَإِنَّمَا يُدْرِكُ بِإِصْصَاتِ ذَوُو الْهَيْئَاتِ
وَالْأَدْوَاتِ ، وَمَنْ يَنْقُصِي إِذَا تَبَعَ أَمَدَ حَدِّهِ بِإِعْصَاءِ فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَصَاءُ نُورِهِ كُلِّ
ظَلَامٍ ، وَأُطْلَمَ بِظُلْمَتِهِ كُلِّ نُورٍ .

الْبَرْخ :

ليس بمعنى بالسكان هاهنا عابديه الحكمة ، ولشكلمون ، بل مراده للوجود ، أى
هو الموجود قبل أن يكون الكرسي والعرش وغيرها . والأوائل يزعمون أن فوق
السموات السبع سماء ثامنة ، وسماء تاسعة ، ويقولون : إن الثامنة هي الكرسي ، وإن
التاسعة هي العرش .

قوله عليه السلام : « لَا يُدْرِكُ بَيُّوْمُهُمْ » ، لَوِمْ هَاهُنَا ^(١) : المكرة والتوهم .

ولا يفتر نفهم ، أى لا نستطيع الأفهام أن نقدره ونحده .

ولا يشمله سائل كما يشعل السؤال ميتاً من يسأله .

ولا ينقصه العطاء ، كما ينقص العطاء خرثن الملوك

ولا يصير محارحة ، ولا يحده ، ثبث ، ولقطة « أين » في الأصل مبيته على المنع ، فإذا نسكتها

صارت اسماً متمكناً ، كما قال الشاعر :

لَيْتَ شِعْرِي وَأَيْنَ مَنَى لَيْتَ إِنْ « لَيْتاً » وَإِنْ « لَوْ » عَنْهُ

وإن شئت قلت : إنه تسكلم بالاصطلاح الحكمي . والآن عندكم ، حصول الجسم في

الكان ، وهو أحد المقولات العشر .

(١) ساقطة من ب .

قوله عليه السلام : ولا يوصف بالأزواج ؛ أى صفات الأزواج ؛ وهى الأصناف ، قال سبحانه : ﴿ وَأُنَبِّتُكُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ ^(١) .

قوله : « ولا يخلق صلاح » ، أى لا يحتاج فى إيجاد المخلوقات إلى معالجة ومزاولة .
قوله : « وكلم موسى تكليماً » ^(٢) من الألفاظ القرآنية ، والمراد هاهنا من ذكر المصدر تأكيد الأمر وإدراك لبس عمله بصلح السامع ؛ فيمتد أنه أراد الجواز ؛ وأنه لم يكن كلاماً على الحقيقة .

قوله : « وأراه من آياته عظيماً » ؛ ليس يريد به الآيات الخارجة عن التكليم ؛ كانشقاق البحر ، وقلب العصا ، لأنه يكون بإدخال ذلك بين قوله : « تكليماً » ، وقوله : « بلاجوارح ولا أدوات ، ولا نطق ولا لهوات » ، مستهجناً ، وإنما يريد أنه أراد بتكليمه إياه عظيماً من آياته ؛ وذلك أنه كان يسمع الصوت من جهات الست ؛ ليس على حد سماع كلام البشر من جهة محصورة ؛ وله دوى وصلصلة كوقع السلاسل العظيمة على الحصى الأسم .

فإن قلت : أقول إن الكلام حل أجساماً مختلفة من الجهات الست ؛ قلت : لا وإنما حل الشجرة قط ؛ وكان يسع من كل جهة ، والمهلل على حلولى الشجرة قوله تعالى : ﴿ قَلَمًا أَنَا هَا نُودِي مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَكْتُبَ الْوَسْى ﴾ ^(٣) ؛ فلا يخلو إما أن يكون النداء حل الشجرة ؛ أو المنادى حلها ، والثانى باطل ، فثبت الأول .

ثم قال عليه السلام لمن يكلف أن يصف ربه : إن كنت صادقاً ؛ أنك قد وصلت إلى

(١) سورة فى ٢ .

(٢) وهو قوله تعالى فى سورة النساء ١٦٤ ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ .

(٣) سورة القصص ٣٠ .

معرفة صِفَتِهِ ؛ فَصِفْ لَنَا الْمَلَائِكَةَ ؛ فَإِنَّ معرفة ذات الملك أهونُ من معرفة ذات الأول سبحانه .

وَحُجَرَاتُ الْقُدُسِ : جمع حُجْرَةٍ . ومرجعتين : مائتين إلى جهة «تحت» خضوها لجلال الباري سبحانه ؛ أرجعنَ الْحَجَرَ ، إذا مال هاروا ، متولئة عقولهم ، أى حائرة .
ثم قال : إِنَّمَا يَبْرُكُ بالصفات ؛ ويعرف كنه ما كان ذا هيئة وأداء وجارحة ، وما يتقضى ويغنى ويتطرق إليه العدم ؛ وواحِبُ الوجود سبحانه بخلاف ذلك .

وتحت قوله : «أضاء بنوره كلَّ ظلام ...» إلى آخر الفصل ، معنى دقيق وسرّ مخفي ؛ وهو أن كلَّ رذيلة في الخلق البشري مع معرفته بالأدلة البرهانية غير مؤثرة ولا قاذفة في جلالة المقام الذي قد بانغ إليه ؛ وذلك نحو أن يكون العارف بجهلا أوجها ، أو حريصا أو نحو ذلك ؛ وكلَّ فضيلة في الخلق البشري مع الجهل به سبحانه ؛ فليست بفضيلة في الحقيقة ولا معتد بها ؛ لأنَّ تهمة الجهل به تكسب تلك الأوبار ، وتعمق فضلها ؛ وذلك نحو أن يكون الجاهل به سبحانه جوارحا ، أو شجاعا ، أو عفيفا ، أو نحو ذلك ؛ وهذا يطابق ما يقوله الأوائل ؛ من أن العارف المذنب يشقى بعد الموت قليلا ؛ ثم يعود إلى النعيم السرمدي ، وأن الجاهل ذا العبادة والإحسان يشقى بعد الموت شقاء مؤبدا ومذهب الخلق من مُرجئة الإسلام يناقض هذه اللفظات ، ويقال : إنه مذهب أبي حنيفة رحمه الله . ويمكن تأويلها على مذهب أصحابنا بأن يقال : كلَّ ظلام من العاصي الصفائر ؛ فإنه يفعل نصياء معرفته وطاعته ؛ وكلَّ طاعة يفعلها المكلف مع الكفر به سبحانه ، فإنها غير نافعة ولا موجبة ثوابا ، ويكون هذا التأويل من باب صرف اللفظ عن عمومته إلى خصوصه .

الأضل :

أَوْصِيَكُمْ عِمَادَ اللَّهِ يَتَّقُوا الَّذِي الْبَسَكُمْ الرِّيشَ ، وَاسْتَعِ عَنَيْكُمْ الْمَعَاشَ ؛
قُلُوا أَنْ أَحَدًا يَحْدُ إِلَى التَّعَا حُلَا ، أَوْ إِذْ فَعِ الْمَوْتَ سَيِّئًا ؛ لَكَ كَانَ ذَلِكَ سُلَيْمَانَ مِنْ
دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ الَّذِي سَحَّرَ لَهُ مُلْكُ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ؛ مَعَ الثَّمَرِ وَالْعُظِيمِ الزُّلْفَةِ ؛
فَلَمَّا اسْتَوَى طَعْمَتَهُ ، وَاسْتَكْمَلَ مِدَّتَهُ ، رَمَتْهُ قِيَمَةُ الْمَاءِ بِدِيَالِ الْمَوْتِ ؛ وَأَصْبَحَتْ
الْهَبَارُ مِنْهُ حَالِيَةً ، وَالْمَسَا كُنْ مُعْطَلَةً ؛ وَوَرِثَهَا قَوْمٌ آخَرُونَ .

وَإِنْ لَكُمْ فِي الْقُرُونِ السَّالِفَةِ لَعْنَةٌ أَيْنَ الْعَارِقَةُ وَأُنْثَاءُ الْعَارِقَةِ أَيْنَ الْعَرَّاعِيَّةُ
وَأُنْثَاءُ الْعَرَّاعِيَّةِ ؛ أَيْنَ أَصْحَابُ مَدَائِي رُؤُسِ الَّذِينَ قَتَلُوا السِّبْيَانَ ، وَأَطْعَمُوا سُنَّ
الْقُرْطَبِيِّينَ ، وَأَخْبُوا شَيْءَ الْخَبَّارِينَ ؛ أَيْنَ الَّذِينَ سَلَرُوا بِالْخَيْشِ ، وَهَزَمُوا الْأَلُوفَ ،
وَعَشَّكَرُوا الْمَسَا كِرَ ، وَمَدَّنُوا الْمَدَائِي ؛

...

اللينج :

الرِّيشَ : اللباس . وأَسْعِج : أوسع ؛ وَإِنَّمَا صَرَبَ الْمَثَلُ بِإِيْمَانٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، لِأَنَّهُ كَانَ
مَلِكُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، وَلَمْ يَحْصُلْ لِمِيزِهِ ذَلِكَ ، وَمِنْ النَّاسِ مَنْ أَسْكِرَ هَذَا ؛ لِأَنَّ الْيَهُودَ
وَالنَّصَارَى يَقُولُونَ : إِنَّهُ لَمْ يَتَعَدَّ مَلِكُهُ حَدُودَ الشَّامِ ، بَلْ دَخَلَ الشَّامَ ، وَيَفْكُرُونَ حَدِيثَ
الْجِنِّ وَالطَّيْرِ وَالرَّيْحِ ، وَيَحْمِلُونَ مَا وَرَدَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى وَحْوِهِ وَتَأْوِيلَاتِهِ عَقْلِيَّةً مَعْنَوِيَّةً ؛ لَيْسَ
هَذَا مَوْضِعٌ دَكْرَهَا .

وَالزُّلْفَةُ : القرب . وَالطَّعْمَةُ ، نَصَمُ الطَّاءِ : الْمَا كَتَّةُ ؛ يُقَالُ : قَدْ جَعَلْتَ هَذِهِ الطَّعْمَةَ
طُعْمَةً لَزِيدَ .

وَالْقِيَمَى : جَمْعُ قَوْمٍ ، وَأَصْلُهَا «قَوْمٌ» عَلَى «فَعُولٍ» ، كَصَرْبٍ وَضُرُوبٍ ؛ إِلَّا أَنَّهُمْ قَدَّمُوا

اللام ، فقالوا « قُتُوْا » على « فُلُوح » ، ثم قلبت الواو ياء ؛ وكسروا القاف كما كسروا عين « عَمُوْ » فصارت « قَيْي » .

[نسب العماقة]

والعماقة أولاد لاوذ إرم بن سام بن نوح ؛ كان الملك باليمن والحجار وما تآخم ذلك من الأقاليم ؛ فمنهم عملاق بن لاوذ بن سام ؛ ومنهم طسم بن لاوذ أخوه .

ومنهم حديس بن لاوذ أخوها ؛ وكان المرء الملك بعد عملاق بن لاوذ بن طسم ؛ فلما ملكهم عملاق بن طسم ، نبى وأكثرت الفساد في الأرض ؛ حتى كان يبطأ العروس ليلة إهدائها إلى بعلها ؛ وإن كانت تكرأ احتفظها قبل وصولها إلى الممل ؛ ففعل ذلك ممرأة من جدیس ؛ يقال لها عميرة بنت عمار ؛ فخرجت إلى قومها ؛ وهي تقول :

لا أحدٌ أذلُّ من حديسٍ أهكذا يفعل بالعروسِ !

فغضب لها أخوها الأسود بن غفار ؛ وتآخه قومه على الفتك بعملاق بن طسم وأهل بيته ، فصنع الأسود طعاما ، ودعا عملاق للملك إليه ، ثم وثب به وطمس ، فأثى على رؤسائهم ، ونجا منهم دباح بن مرة ، فصار إلى دى جيشان بن تنع الطخري ملك اليمن ؛ فاستغاث به ، واستنجد به على جدیس ، فسار ذو جيشان في رحير ، فأثى بلاد جوة ، وهي قصبة اليمامة ، فاستأصل جدیساً كلها ، وأحرب اليمامة فلم يبق لجدیس باقية ، ولا لطمس إلا اليسير منهم .

ثم ملك بعد طسم وجدیس وبار بن أتم بن لاوذ بن إرم ، فسار بولده وأهله ، فنزل بأرض وبار ، وهي المعروفة الآن برمل عالج ، فبنوا في الأرض حيناً حتى أقام الله .

ثم ملك الأرض بعد ديار عبد صخيم بن أثيف بن لاوذ ، فزلوا بالطائف حيناً ،
ثم بادوا .

• • •

[نسب عاد وثمود]

وتمن بعد مع العرافة عاد وثمود ؛ فأما عاد فهو عاد بن عويس بن إرم بن سام بن
نوح ؛ كان بمهد القمر ، ويقال : إنه رأى من صلبه أولاد أولاد أولاده أربعة آلاف ؛
وإياه سكح ألف جارية ، وكانت ملاده الأحقاف المذكورة في القرآن ؛ وهي من شحر
نحمان إلى حضرموت ؛ ومن أولاده شداد بن عاد ؛ صاحب المدينة المذكورة .
وأما ثمود ؛ فهو ثمود بن هاب بن إرم بن سام بن نوح ؛ وكانت دياره بين الشام
والبحار إلى ساحل نهر الحيرة .

• • •

[نسب الفراعنة]

قوله عليه السلام : « أين للفراعنة ، وأبناء الفراعنة ؛ جمع فرعون ؛ وهم ملوك
مصر ، فمنهم الوليد بن الربيعان فرعون يوسف ، ومنهم الوليد بن مضعب فرعون موسى .
ومنهم فرعون بن الأهرج الذي غزا بني إسرائيل وأخرب بيت المقدس .

• • •

[نسب أصحاب الرس]

قوله عليه السلام : « أين أصحاب مدائن الرس ؟ » ، قيل : إنهم أصحاب شعيب

الذي صلى الله عليه وآله ، وكانوا عبدة أصنام ؛ ولم مواشي وآثار يُستقون منها .
والرس : أثر عظيمة جداً انخسفت بهم ؛ وهم حولها ، فهلكوا وحفت بأرضهم كلها
وديارهم . وقيل : الرس قرية بخلج النمامة ، كان بها قوم من بقايا نمود بقوا ، فأهلكوا .
وقيل : قوم من العرب القديمة بين الشام والحجاز ، وكانت المنقاء تختطف صبيانهم
فقتلهم ؛ فدعوا الله أن ينقذهم منها ؛ فسميت إليهم حطلة بن صفوان ، فدعاهم إلى الدين على
أن يقتل المنقاء ، فشارطوه على ذلك فدعا عليها ، فأصابها الصاعقة ، فلم بقوا له
، قتله ؛ فأهلكوا .

وقيل : هم أصحاب الأحود ، والرس ، هو الأخود . وقيل : الرس أرض بأفلاكية
قل فيها حبيب النجار .

وقيل : بل كذب أهلها نبيهم ورثوه في شر ، أي رموه فيها .
وقيل : إن الرس نهر في إقليم الباب ، هو الأبوابا مبسو من مدينة طراز ، ونشوى إلى
نهر السكر ، فيختلط به حتى يصب في بحر الخزر . كان هناك ملوك أولو بأس وقنرة ،
فأهلكهم الله ببيهم .

• • •

الأمثل :

منها :

قَدْ لَبِسَ لِلْعِزَّةِ جُنَّتَهَا ، وَأَحَدَهَا بِحَمِيمٍ أَدْبَا ، مِنْ الْإِقْبَالِ عَلَيْنَا ، وَالْمَعْرِفَةِ بِهَا ،
وَالْتَعَرُّغِ لَهَا ؛ فَبَيَّ عِنْدَ نَفْسِهِ ضَالَّةً لَلَّتِي يَطْلُبُهَا ، وَحَاجَتُهُ الَّتِي يَسْأَلُ عَنْهَا ، فَهُوَ مُتَقَرِّبٌ
إِذَا اغْتَرَبَ الْإِسْلَامُ ، وَصَرَبَ بِسَيْبِ ذَنْبِهِ ، وَالصَّقَ الْأَرْضَ بِجِرَانِهِ ؛ نَفِيَّةٌ مِنْ جَهَا
حُجَّتِهِ ؛ خَلِيقَةٌ مِنْ خَلَائِفِ أَنْبِيَائِهِ .

• • •

البَيِّنَاتُ :

هذا الكلام مفسر على طائفة على حسب اعتقادها ، فالشَّيْخَةُ الإمامِيَّة ؛ تزعم أن المراد به المهدي المنتظر عدمه ، والصوفيَّة يزعمون أنه يعني به ولي الله في الأرض ؛ وعندهم أن الدنيا لا تخلو عن الأبدال ؛ وهم أربعون ، وعن الأوتاد ، وهم سبعة ، وعن القطب وهو واحد ؛ فإذا مات القطب صار أحد السبعة قطباً عوضه ، وصار أحد الأربعين وتدياً ، عوض الوَيد ، وصار بعض الأولياء الذين يصطفيهم الله تعالى أبدالاً عوض ذلك البدل .

وأصحابنا يزعمون أن الله تعالى لا يحل الأئمة من جماعة من المؤمنين العلماء بالعدل والتوحيد ، وأن الإجماع إنما يكون حجة باعتبار أقوال أولئك العلماء ، لكنه لما تعددت معرفتهم بأعيانهم ، اعتبر إجماع سائر العلماء ، وإِنَّمَا الأصل قول أولئك .

قالوا : وكلام أمير المؤمنين عليه السلام ليس بشيء فيه إلى جماعة أولئك العلماء من حيث هم جماعة ؛ ولكنه يصف حال كل واحد منهم ؛ فيقول : من صفته كذا ، ومن صفته كذا .

والفلاسفة يزعمون أن مراده عليه السلام بهذا الكلام العارف ، ولم في العرفان وصفات أربابه كلام يعرفه مَنْ له أسس بأقوالهم . وليس بعد عندي أن يريد به القائم من آل محمد صلى الله عليه وآله في آخر الوقت ، إذا خلقه الله تعالى ؛ وإن لم يكن الآن موجوداً ، فليس في الكلام ما يدل على وجوده الآن ، وقد وقع اتفاق الفرق من المسلمين أجمعين على أن الدنيا والتكليف لا يلغى إلا عليه .

قوله عليه السلام : « قد أيسر للحكمة جنتها » ، الجنة : ما يستتر به من السلاح كالدرع ونحوها ، وليس جنة الحكمة تقع للنفس عن الشهوات ، وقطع علائق النفس عن

المحسوسات ؛ فإن ذلك مانع للنفس عن أن يصيبها سهام الموى ؛ كما تنفع الدرع الدارع
عن أن يصيبه سهام الرماية .

ثم عاد إلى صفة هذا الشخص ، فقال : « وأخذ بجميع أوساها من الإقبال عليها » ؛
أي شدة الحرص والمهمة .

ثم قال : « والمعرفة بها » ، أي والمعرفة بشرفها ونفاسها .

ثم قال : « والتعريح لها » ؛ لأنّ الذهن متى وجهته نحو معلومين تحبّط وفسد ؛ وإنّ
يدرك الحكمة بغاية السرّ من كلّ مامرّ سواها .

قال : « فهي عند نفسه ضالّة التي يطلبها » ؛ هذا مثل قوله عليه السلام : « الحكمة
ضالة المؤمن » ومن كلام الحكماء : لا يمتنعك من الارتفاع بالحكمة حقارة من وحدتها
عنده ؛ كما لا يمتنعك خدث تراب المدين من النقاط التي تهب

ووجدت بخط أبي محمد عبد الله بن أحمد الخشاب رحمه الله في تعليقات مسودة أبياتا
للهماموى ؛ وهي :

قد رأينا الفزال والحصن والتجّيبين شمس الصبح وبذر النّمام
فوحقّ البيان بصّده البرّ هان في ما قبط شديد الحصام^(١)
ما رأينا سوى للمليحة شيناً جمع الحسن كلّ في نظائره
هي تحرى بحرى الأصالة في الرأى ويحترى الأرواح في الأجسام

وقد كتب ابن الخشاب بخطه تحت « المليحة » : ما أصدقه إن أراد بالمليحة الحكمة ؛
قوله عليه السلام : « وساجيته التي يسأل عنها » ؛ هو مثل قوله : « ضالته التي
يطلبها » .

ثم قال : « هو معترب إذا اعترب الإسلام » ؛ يقول هذا الشخص بحفىّ منه ويحملها

(١) الأقط : ساحة التّنال

إذا اغترب الإسلام ، واغتراب الإسلام أن يظهر الفسق والجور على الصلاح والعدل ؛ قال عليه السلام : « بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ » .

قال : « وضرب نسيب دنيته ، وألصق الأرض بحرانه » ؛ هذا من تمام قوله : « إذا اغترب لإسلام » ، أى إذا صار الإسلام غريباً مقهوراً ؛ وصار الإسلام كالبحر البارك يضرب الأرض نسيبه ، وهو أصل الدَّاب ، ويلصق حِرانه - وهو صدره - إلى الأرض ؛ فلا يكون له تصرف ولا نهوض .

ثم عاد إلى صفة الشخص المذكور .

وقال : « بئنة من بقاها حجة ، حليفة من خلافت أسياؤه » ، الصير هاهنا يرجع إلى الله سبحانه وإن لم يحمر ذكره ؛ فلم يه ، كما قال : « حَقَّقْ تَوَارِثَ بِالْجَبَابِ » ^(١) ، ويمكن أن يقال : إن الصير راجع إلى المذكور وهو الإسلام ؛ أى من بقاها صحيح الإسلام وخليفة من خلافت أسياؤه الإسلام .

فإن قلت : ليس للإسلام إلا نبي واحد .

قلت : بل له أنبياء كثير ؛ قال تعالى : « مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ تَمَّ كُتُبَ الْمَسِيحِينَ مِنْ قَبْلُ » ^(٢) ، وقال سبحانه : « ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ تُبَشِّرْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا » ^(٣) ، وكل الأنبياء دعوا إلى مادها إليه محمد صلى الله عليه وآله من التوحيد والعدل ، فكلهم أنبياء للإسلام .

فإن قلت : أليس لفظ « الحجة » ولفظ « الخليفة » مشعراً بما تقول الإمامية ؟ قلت : لا ، فإن أهل التصوف يسمون صاحبهم حجة وخليفة ؛ وكذلك الفلاسفة ،

(٢) سورة الحج ٧٨ .

(١) سورة م ٣٢ .

(٣) سورة النحل ١٢٣ .

وأصعبنا لا يمتنعون من إطلاق هذه الألفاظ على العلماء المؤمنين في كل عصر، لأنهم جميع الله، أي إجماعهم حجة؛ وقد استعطفهم الله في أرضه ليحكموا بحكمه.
وعلى ما اخترناه نحن فالجواب ظاهر.

الأصل:

ثم قال عليه السلام:

أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنِّي قَدْ بَثْتُ لَكُمْ التَّوَاعِيظَ الَّتِي وَمَعَ بِهَا الْأَنْبِيَاءُ أَمَمُهُمْ،
وَأَدَّبْتُ إِلَيْكُمْ مَا أَدَّتِ الْأَوْصِيَاءُ إِلَى مَنْ تَمَّزَّهُمْ، وَأَدَّبْتُكُمْ بِسَوَاطِي فَلَمْ
تَسْقِيئُوا، وَحَدَّثْتُكُمْ بِالرَّوَابِجِ فَلَمْ تَسْتَوْسِفُوا.

لِلَّهِ أَنْتُمْ! أَسْتَوْفُونَ إِمَامًا عَزِيزِي بَطْنًا بِكُمْ الطَّرِيقَ، وَبُرْشِدُكُمْ السَّبِيلَ!
أَلَا إِنَّهُ قَدْ أَذْبَرَ مِنَ الدُّنْيَا مَا كَانَ مُغَيَّلًا، وَأَقْبَلَ كَيْسًا مَا كَانَ مُذْبِرًا، وَأَزْمَعَ التَّرْجَمَانَ
عِبَادُ اللَّهِ الْأَخْيَارُ، وَبَاعُوا قَلِيلًا مِنَ الدُّنْيَا لَا يَبْقَى؛ بِكَثِيرٍ مِنَ الْآخِرَةِ لَا يَفْنَى!
مَا خَرَّ إِخْوَانَنَا الَّذِينَ سَفِكَتْ دِمَاؤُهُمْ بَصَفَيْنَ إِلَّا يَكُونُوا الْيَوْمَ أَحْيَاءَ،
يُسَيِّفُونَ الْمَصَصَ، وَيَشْرَبُونَ الرُّنْقَ! قَدْ وَقَّعَ اللَّهُ مَوَاقِمَ أَجُورَهُمْ، وَأَحْلَاهُمْ
دَارَ الْأَمْنِ بِمَذَخُورِهِمْ!

أَيُّهَا إِخْوَانِي الَّذِينَ رَكِبُوا الطَّرِيقَ، وَمَصَّوْا عَلَى الْخَلْقِ! أَيْنَ عَمَارًا! وَأَيْنَ ابْنُ
النَّيَّانِ! وَأَيْنَ ذُو الشَّهَادَتَيْنِ! وَأَيْنَ نَظَرَاؤُهُمْ مِنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ نَعَاقَدُوا عَلَى الْمِيَّةِ
وَأَبْرَدَ بِرُؤْسِهِمْ إِلَى الْفَجْرَةِ!

قال: ثُمَّ ضَرَبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَدَهُ إِلَى خَلِيقِهِ الشَّرِيفَةِ الْكَرِيمَةِ، فَأَطْلُ الْبُكَاءِ،
ثم قال عليه السلام:

أَوُّهُ عَلَى إِخْوَانِي الَّذِينَ قَرَأُوا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَتَدَبَّرُوا الْقُرْآنَ فَأَقَامُوهُ!

أَحْيُوا السُّنَّةَ ، وَأَمَاتُوا الْبِدْعَةَ ؛ دُعُوا لِلْعِبَادِ فَأَجَابُوا ، وَزَيَّنُوا بِالْفَائِدِ فَاتَّبَعُوهُ .
ثم نادى بأعلى صوته :

الْجِهَادَ الْجِهَادَ عِبَادَ اللَّهِ ! أَلَا وَإِنِّي مُسَكِّرٌ فِي يَوْمِي هَذَا ؛ فَمَنْ أَرَادَ الرُّوْحَ إِلَى
اللَّهِ فَلْيَخْرُجْ .

•••

قالَ نَوْفٌ : وَعَقَدَ الْحُسَيْنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَشْرَةَ آلَافٍ ، وَلَقِيسَ بْنُ سَعْدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ
فِي عَشْرَةِ آلَافٍ ، وَلَأَبَى أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ فِي عَشْرَةِ آلَافٍ ، وَلِغَيْرِهِمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ أُخَرُ ؛
وَهُوَ يَرِيدُ الرُّجْعَةَ إِلَى حَقِّينَ فَمَا دَارَتْ الْجَمْعَةُ حَتَّى ضَرَبَهُ الْمَلْعُونُ ابْنُ الْمُلْجَمِ لَعْنَهُ اللَّهُ ،
فَتَرَا جَمْعُ الْعَسَاكِرِ ، فَكُنَّا كَأَغْنَامٍ فَتَدْت رَاعِيَهَا ، تَحْتَطِفُهَا الذَّنَابُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ !

•••

الْبَرْخُ :

بَشَّرْتُ لَكُمْ الْمَوَاعِظَ : فَرَقْتُهَا وَنَشَرْتُهَا . وَالْأَوْصِيَاءَ : الَّذِينَ يَأْتِيهِمُ الْأَسْبَاءُ عَلَى الْأَسْرَارِ
الْإِلَهِيَّةِ ! وَقَدْ يُمْكِنُ أَلَّا يَكُونُوا حُفَاءَ بِمَعْنَى الْإِمْرَةِ وَالْوَلَايَةِ ، فَإِنَّ مَرَقَتَهُمْ أَعْلَى مِنْ
مَرَاتِبِ الْخُلَفَاءِ .

وَحَدُوثِكُمْ : سَقَتُكُمْ كَمَا تَحْدَى الْإِبِلُ . فَلَمْ تَسْتَوْسِقُوا ، أَيْ لَمْ تَحْتَمِمُوا ، قَالَ :

• سَتَوْسَقَاتٍ لَمْ يَجِدْنَ حَاقِقًا ^(١) •

قَوْلُهُ : « بَطَأَ بِكُمْ الطَّرِيقُ » ، أَيْ بِمَحْلَسِكُمْ عَلَى الْمِنْهَاجِ الْمُرْعَى ، وَبَسَطَ بِكُمْ مَسَافَكَ
الْحَقِّ ، كَأَنَّهُ جَعَلَهُمْ ضَالِّينَ هُنَا الطَّرِيقَ الَّتِي يَطْلُبُونَهَا .

(١) السَّانِ (وَسَقَى) ، وَقَوْلُهُ :

• إِنَّ لَنَا لَأَيُّهَا تَقَاتِيًا •

وقال : أنريدون إماماً غيرى يوقفكم على الطريق الذى تطلبونها حتى تظئوها وتسلكوها !

ثم ذكر أنه قد أذير من الدنيا ما كان مقبلاً ؛ وهو الهدى والرشاد ، فإنه كان فى أيام رسول الله صلى الله عليه وآله وخلفائه مقبلاً ؛ ثم أذير هند استيلاء معاوية وأتباعه ؛ وأقبل منها ما كان مديراً ؛ وهو الضلال والفساد ؛ ومعاوية عند أصحابنا مطمون فى دينه ، منسوب إلى الإلحاد ؛ قد طعن فيه صلى الله عليه وآله ؛ وروى فيه شيخنا أبو عبد الله البصرى فى كتاب " نقض السفهانية " على الجاحظ ؛ وروى عنه أخباراً كثيرة تدل على ذلك ؛ وقد ذكرناها فى كتابنا فى " مناقضة السفهانية " .

وروى أحمد بن أبى طاهر فى كتاب " أخبار الملوك " أن معاوية سمع المؤذن يقول : « أشهد أن لا إله إلا الله » ، فقالها ثلاثاً ، فقال : أشهد أن محمداً رسول الله ! قال : الله أبوك يا بن عبد الله ! لقد كنت على الهدى لما رويت لك إلا أن يقرن اسمك باسم رب العالمين !

قوله عليه السلام : « وأزعم أن رجالاً من بني نوح هم عليه » ؛ يقال : أزعمت الأمر ؛ ولا يقال : أزعمت على الأمر ، هكذا يقول الكسائى ؛ وأجازه الخليل والقرطابى .

ثم قال عليه السلام : إنه لم يضرب إخوان القتل عشرين كونهم اليوم ليسوا بأحياء حياتنا المشوبة بالنقص والنقص .

ويقال : ماء رنق ، بالنسكين ، أى كدر . رنق الماء بالكسر ؛ يرنق رنقا فهو رنق ، وأرنقته ؛ أى كدرتة ، وعيش رنق بالكسر ، أى كدير .

ثم أقسم إنهم لقوا الله فوقهم أحورم ، وهذا يدل على ما يذهب إليه جمهور أصحابنا من نعيم القبر وعذابه .

ثم قال عليه السلام : « أين إخواني » ؟ ثم نادى ، فقال : « أين عمار » .

[عمار بن ياسر ونسبه وتبذ من أخباره]

وهو عمار بن ياسر بن عامر بن كنانة بن قيس العنسي - بالنون - للذهبي ؛ يكنى
أبا اليقظان ، حليف بني مخزوم .

ونحن نذكر طرفاً من أمره من كتاب " الاستيعاب " (١) ، لأنى عمر بن عبد البر
المحدث . قال أبو عمر : كان ياسر والده عمار عربياً قحطانياً ، من عنس في مذحج ؛ إلا أن
ابنه عماراً كان مولى لبني مخزوم ؛ لأن أباه ياسراً قدم مكة مع أخوين له ؛ يقال لهما :
مالك والحارث ؛ في طلب أح لم رابع ؛ فرجع الحارث ومالك إلى اليمن ، وأقام ياسر بمكة ؛
مخالف أبا حذيفة بن المبرزة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، فروحه أبو حذيفة أمة ؛ يقال لها
سُمَيَّة ، فأولدها عماراً ، فأعتقه أم حذيفة ، فخرج هاهنا كان عمار مولى لبني مخزوم . وأبوه
مروى ؛ لا يختلفون في ذلك ؛ وللعجاف والولاء الذى بين بني مخزوم وعمار وأبيه ياسر
كان احتمال بني مخزوم على عمار ؛ حين نزل من عمار غلمان عثمان ما مالوا من الصرب ؛ حتى
انفتق له فتق في بطنه ، زعموا ، وكسروا حينئذ من أصلاعه ، فاحتضمت بنو مخزوم ، فقالوا :
والله لئن مات لاقتلنا به أحداً عبرة عثمان ا

قال أبو عمر : كان عمار بن ياسر ممن عذب في الله ثم أعطاهم عماراً ما أرادوا بلسانه ،
واطمأن الإيمان قلبه ؛ فبرل فيه : ﴿ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَدْ لَبِثَ مُطْمَئِنًّا بِالْإِيمَانِ ﴾ (٢) ، وهذا
مما أجمع عليه أهل التفسير (٣) .

(١) الاستيعاب ١ : ٤٢٢ - ٤٢٤ .

(٢) سورة النحل ١٠٦ .

(٣) في كتاب الجامع لأحكام القرآن القرطبي ١٠ : ١٨٠ . هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر ؛ في
قول أهل التفسير ؛ لأنه طرد بعض ما تدبوه إليه ، ثم قال : « وأما عمار فأعطاه ما أرادوا بلسانه
مكرهاً ؛ فشكا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كيف
نجد قلبك ؟ » قال : مطمئن بالإيمان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فإن عادوا فعد » .

وهاجر إلى أرض الحبشة ، وصلى إلى القبلتين ؛ وهو من المهاجرين الأولين ، ثم شهيد بدماء والشاهد كلها ، وأبلى بلاء حسنا ، ثم شهيد اليمامة ، فأبلى فيها أيضا يومئذ ، وقطعت أذنه .

قال أبو عمر : وقد روى الواقدي ، عن عبد الله بن نافع ، عن أبيه ، عن عبد الله بن عمر ؛ قال : رأيت عماراً يوم اليمامة على صخرة وقد أشرف عليها يصيح : يا معشر المسلمين ، أين الجنة تفرّون ؟ أنا عمار بن ياسر ، ههنا إلى ! وأنا أنظر إلى أذنه قد قطعت ، فهي تذبذب^(١) ؛ وهو يقاتل أشد القتال .

قال أبو عمر : وكان عمار آدم طوالاً مضطرباً أشم^(٢) السمين ، بعبء ما بين المنكبين ، لا يميز شيه .

قال : وبلغنا أن عماراً قال : كنت نرياً لرسول الله صلى الله عليه وآله في بيته ، لم يكن أحد أقرب إليه مني مثلاً .

وقال ابن عباس في قوله تعالى : أَوْ مَنْ كَانَ مُبِينًا فَاحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ : إنه عمار بن ياسر ، (كُنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا)^(٣) إنه أبو جهل بن هشام .

قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إن عماراً مليّ إيماناً إلى مُشاشه »^(٤) . وروى إلى أخمس^(٥) قديمة .

وروى أبو عمر عن عائشة ، أنها قالت : ما من أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) تذبذب . تتحرك .

(٢) الشميل ، محرّك . أي يشوبه سواد العين زرقه .

(٣) سورة الأنعام ١٢٢ ، وفي تفسير القرطبي عن ابن عباس أيضاً أنها نزلت في حمزة بن عبد المطلب وأبي جهل ، قال : « ولجميع أنها عامة في كل مؤمن وكافر » .

(٤) المشاش : رأس العظم .

(٥) الأخمس : من مائة القدم ما لم يصب الأرض .

أشياء أن أقول فيه إلا قلت ، إلا عمار بن ياسر ، فإني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنَّه على إيماننا إلى أخمص قدميه » .

قال أبو عمر : وقال عبد الرحمن بن أبي رزى : شهدنا مع علي عليه السلام صفين ثمانمائة ممن تابع بيعة الرضوان ، قتل منّا ثلاثة وستون ؛ منهم عمار بن ياسر .

قال أبو عمر : ومن حديث خالد بن الوليد ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « مَنْ أَنْصَحَ عَمَّاراً أَبْعَدَهُ اللَّهُ » ؛ فإزات أحبه من يومئذ .

قال أبو عمر : ومن حديث علي بن أبي طالب عليه السلام : إنَّ عماراً جاء يستأذن علي رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً ، فعرف صوته ، فقال : « مَرَحَباً بِالطَّيِّبِ لِلطَّيِّبِ - بِعَمِّي عَمَّاراً - اذْهَبْ » .

قال أبو عمر : ومن حديث أنس بن مالك رضي الله عنه : « اشْتَاقَتِ الْجَنَّةُ إِلَى أَرَامَةِ : عَلِيٍّ ، وَعَمَّارٍ ، وَبِلَالٍ » .

قال أبو عمر : وفصائل عمار كثيرة جداً يطول ذكرها .

قال : وروى الأعمش ، عن أبي عبد الرحمن السُّلَمِيِّ ، قال : شهدنا مع علي عليه السلام صفين ، فرأيت عمار بن ياسر لا يأخذ في ناحية ولا وادٍ من أودية صفين ، إلا رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وآله ينهضون ، كأنهم علم لهم . وسمعتُ يقول يومئذٍ لهاشم ابن عتبة : يا هاشم ، تقدّم ، الجنة تحت الهارقة .

الْيَوْمَ أَلْقَى الْأَحِبَّةُ مُحَمَّدًا وَحِزْبَهُ

والله لو هربونا حتى يهابوا بنا سَعَفَاتِ هَجَرَ لَعَلَّنَا أَنَا عَلَى الْحَقِّ ، وَأَسْمُ عَلَى الْبَاطِلِ ، ثُمَّ قَالَ :

نَحْنُ مَرْبِّائُكُمْ عَلَى تَرْبِيَةٍ فَالْيَوْمَ نَضْرِبُكُمْ عَلَى تَأْوِيلِهِ

صرباً يزِيلُ الهام عزمقبله وبذهِلُ الظليل عن حايِلِه

• أو يرجع الحق على سبيله •

فلم أر أصحاب محمد صلى الله عليه وآله قتلوا في موطن ، ما قتلوا يومئذ .

قال : وقد قال أبو مسعود البدرى وطائفة لُحْدَ بِنَة حين احتُضِر ، وقد ذكر للفتنة :
إذا اختلف الناس فيمن تأمرنا ؟ قال : عليكم ما بن سمية ، فإنه إن يفارق الحق حتى يموت
— أو قال : فإنه يزول مع الحق حيث زال .

قال أبو عمر : وهمهم يحمل هذا الحديث عن حُذَيْفَة مرهوما .

قال أبو عمر : وروى الشعبي ، عن الأحنف ، أن عماراً حمل يوم صفين ، فحمل عليه
ابن جرّء السككى ، وأبو المادية المزاري ؛ فأما أبو المادية فطعمه ، وأما ابن جرّء
فاحتز رأسه .

قلت : هذا الموضع مما اختلف فيه قول أبي حمزة رحمه الله ، فإنه ذكر في كتاب السكى
من " الاستيعاب " (١) ، أبا المادية — بألفين المصنف — وقال : إنه شهِى من شُهينة ، وجُهينة من
قُصاعة ، وقد نُسبها لها فزارياً .

وقل في كتاب السكى : إن اسم أى احادية يسار ، وقيل مسلم .

وقد ذكر ابن قتيبة في كتاب " المعارف " ، عن أى المادية أنه كان يحدث عن نفسه
بقتل عمار ، ويقول : إن رجلاً طعمه فاكشفت الممر عن رأسه ، ففصرت رأسه ، فإذا
رأس عمار قد قَدَّر (٢) .

وكيفية هذا القتل يخالف الكيفية التي رواها ابن عبد البر .

قال أبو عمر : وقد روى وكيع ، عن شعبة ، عن عبد بن مرّة ، عن عبد الله بن صلّة ،

(١) الاستيعاب ٦٨٠ .

(٢) المعارف ٧٥٧ (طعة دار الكتب) .

قال : لكائن أنظر إلى عمار يوم صيفين وهو صريع ، فاستسقى ، فألقى بشربة من ابن فشربه ، فقال :

• اليوم أنى الأحبة •

إن رسول الله صلى الله عليه وآله عهد إلى أن آخر شربة أشربها في الدنيا شربة من ابن ، ثم استسقى ثابة فأنته امرأة طويقة اليدين ياناه ، فيه ضياح^(١) من لبن ، فقال حين شربه : الحمد لله ، الجنة تحت الأسيمة ، والله لو صربونا حتى يعلمونا سمقات هجر لعلنا أنا على الحق ، وأنهم على الباطل ، ثم قاتل حتى قُتل .

قال أبو عمر : وقد روى حارثة بن المضراب : قرأت كتاب عمر إلى أهل الكوفة : أما بعد ، فإني نمت إليكم همّاراً أميراً ، وعهد الله بن مسعود مملاً ووزيراً ، وهما من الشجاء ، من أصحاب محمد ، فاسمواهما ، وتقدوا بهما ، فإني قد آثرتكم بهدي الله على نفسي أثرته .

قال أبو عمر : وإنا قال عمر : همّاراً من الشجاء ، تقول رسول الله صلى الله عليه وآله . « إنّه لم يكن نبي إلا أعطيت سبعة من أصحابه محبة ووزراء فقهاء ، وإني قد أعطيت أربعة عشر : حمزة ، وجعفر ، وعلياً ، وحسباً ، وحسيناً ، وأبا بكر ، وعمر ، وعهد الله بن مسعود ، وسلمان ، وهمّاراً ، وأبا ذر ، وحذيفة ، والمقداد ، وبلالاً . »

قال أبو عمر : وتواترت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال : « تقتل همّاراً للجنة الباغية » ، وهذا من إخباره بالغيب ، وأعلام نبوته صلى الله عليه وآله ، وهو من أصح الأحاديث .

وكانت صيفين في ربيع الآخر سنة سبع وثلاثين ، ودفعه على عليه السلام في ثيابه ولم يفسله .

(١) الضياح : بالفتح : القلب الرقيق الكبير اللام .

وروى أهل الكوفة أنه صلى عليه ؛ وهو مذهبهم في الشهداء ؛ أنهم لا ينسلون
ولكن يصل عليهم .

قال أبو عمر : وكانت سنّ عمار يوم قُتِلَ نيفاً وتسعين سنة ؛ وقيل : إحدى وتسعين ،
وقيل : اثنتين وتسعين ، وقيل : ثلاثاً وتسعين .

• • •

[ذكر أبي الهيثم بن التيهان وطرف من أخباره]

ثم قال عليه السلام : « وأين ابن التيهان » ؛ هو أبو الهيثم بن التيهان ؛ بالياء المنقوطة ؛
بائنتين تحتها ؛ المشددة المكسورة ؛ وقبلها تاء منقوطة بائنتين فوقها ؛ واسمه ماثث ، واسم أبيه
، اثث أيضاً ، ابن عبيد بن عمرو بن عبد الأعمى بن حاتم الأنصاري ؛ أحد النقباء ليلثة العقبة .
وقيل : إنه لم يكن من أغسيهم ، وإليه من علي بن أبي الحارث بن قضاة ، وإنه حليف
لبني عبد الأشهل ؛ كان أحد النقباء ليلثة العقبة ، وشهد بدرأ .

قال أبو عمر بن عبد البر في كتاب " الاستيعاب " : اختلف في وقت وفاته ،
فذكر خليفة ، عن الأصمعي ، قال : سألت قومه ، فقالوا : مات في حياة رسول الله
صلى الله عليه وآله ^(١) .

قال أبو عمر : وهذا لم يتابع عليه قائله .

وقيل : إنه توفي سنة عشرين ، أو إحدى وعشرين .

وقيل : إنه أدرك حيفين ، وشهدا مع علي عليه السلام ؛ وهو الأكثر .

وقيل : إنه قتل بها .

ثم قال أبو عمر : حدثنا خلف بن قاسم ، قال : حدثنا الحسن بن رشيق ، قال :

(١) الاستيعاب ٦٩٦ .

حدثنا الدؤلابي ، قال : حدثنا أبو بكر الوجيهي ، عن أبيه ، عن صالح بن الوجيه ، قال : وممن قتل بصفين عمار ، وأبو الهيثم بن التيهان ، وعبد الله بن بُدَيْل ؛ وجماعة من البدرين رحمهم الله .

ثم روى أبو عمر رواية أخرى ، قال : حدثنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن ، قال : حدثنا عثمان بن أحمد بن السمك ، قال : حدثنا حبيب بن إسحاق بن علي ، قال : قال أبو نعيم : أبو الهيثم بن التيهان ، اسمه مالك ، واسم التيهان عمرو بن الحارث ، أصيب أبو الهيثم مع علي يوم صفين .

قال أبو عمر : هذا قول أبي نعيم وغيره

قلت : وهذه الرواية أصح من قول ابن قتيبة في كتاب المعارف ^(١) ؛ وذكر قوم أن أبا الهيثم شهد جميعين مع علي عليه السلام ؛ ولا يعرف ذلك أهل العلم ولا يثبتونه ؛ فإن تعصب ابن قتيبة معلوم ؛ وكيف يقول : لا يعرفه أهل العلم ، وقد قاله أبو نعيم ، وقاله صالح ابن الوجيه ، ورواه ابن عبد البر وهؤلاء شيوخ الحديثين !

[ذكر ذى الشهادتين خزيمة بن ثابت وطرف من أخباره]

ثم قال عليه السلام : « وأين ذى الشهادتين » ؛ هو خزيمة بن ثابت بن الفاكه بن ثعلبة الخطمي الأنصاري من بني خطمة ^(٢) ، من الأزد جعل رسول الله صلى الله عليه وآله

(١) المعارف ٢٧٠ ، قال : « وليس يعرف ذلك أهل العلم ولا يثبتونه »

(٢) بنو خطمة ؛ ثم بنو عديلة بن مالك بن أوس .

شهادته كشهادة رجلين ؛ لقصة مشهورة^(١) ؛ يكنى أبا حمارة ، شهد بئرا وما بعدها من المشاهد ؛ وكانت راية بني سخطمة بيده يوم الفتح .

قال أبو عمر بن عبد البر في كتاب الاستيعاب^(٢) : وشهد صفين مع علي بن أبي طالب عليه السلام ، فلما قُتل حمار قاتل حتى قُتل .

قال أبو عمر : وقد رُوي حديث مقتل بصفين من وجوه كثيرة ، ذكرناها في كتاب " الاستيعاب " عن ولد والده ، وهو محمد بن حمارة بن خزيمة ذي الشهادة ؛ وأنه كان يقول في صفين : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « تقتل حماراً العتة الباغية » ؛ ثم قاتل حتى قُتل .



قلت : ومن غريب ما وُفِتْ عليه من المصيبة القبيحة ، أن أبا حيان التوحيدي قال في كتاب " البصائر " : إن خزيمة بن ثابت القنول مع علي عليه السلام بصفين ؛ ليس هو خزيمة بن ثابت ذا الشهادتين ، بل آخر من الأنصار صحابي اسمه خزيمة بن ثابت ؛ وهذا خطأ ، لأن كتب الحديث والنسب تنطق بأنه لم يكن في الصحابة من الأنصار ، ولأن غير الأنصار خزيمة بن ثابت إلا ذو الشهادتين ؛ وإنما الهوى لا دواء له ؛ هل أن الطبري صاحب التاريخ قد سق أبا حيان بهذا القول ؛ ومن كتابه نقل أبو حيان ؛ والكتب الموضوعة لأسماء الصحابة تشهد بخلاف ما ذكرناه ، ثم أي حاجة لناصرى أمير المؤمنين أن يتكثروا بخزيمة ، وإلى المهم ، وحمار وغيرهم لو أنصف

(١) ذكر ابن الأثير في أسد الغابة ، قال : « روى عنه ابنه حمارة أن النبي صلى الله عليه وسلم اعتدى غرساً من سواء بن قيس الهذلي ، فجمعه سواء ، فشهد خزيمة بن ثابت للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ فقال له رسول الله : « ما حملك على المعادة ، ولم تكن حاصراً معنا ؟ » قال : صدقتك بما جئت به ، وعلت أنك لا تقول إلا حقا ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من شهد له خزيمة أو عليه فهو حبيب » .

(٢) الاستيعاب ١٥٧ ، ١٥٨ .

الناس هذا الرجل ورأوه بالعين الصحيحة ، لملموا أنه لو كان وحده ، وحاربه الناس كلهم أحمون ، لكان على الحق ، وكانوا على الباطل .

ثم قال عليه السلام : « وأين نظراتهم من إخوانهم » ! يعني الذين قتلوا بصفتين معه من الصحابة ، كابن بُدَيْل ، وهاشم بن عتبة ، وغيرهما ممن ذكرناه في أخبار صفين .
وتعاندوا على الميعة : جعلوا بينهم عقدا ، وروى « تعاهدوا » .

وأبرِد برءوسهم إلى الفَجْرة : حِلَّت رءوسهم مع البريد إلى الفسقة للبشارة بها ، والفجرة هاهنا : أمراء عسكر الشام ، تقول : قد أبردت إلى الأمير ، فأما مبرِد ، والرسول بريد ؛ ويقال للفرائق^(١) البريد ، لأنه ينذر قدام الأسد .

قوله : « أَوْءٍ على إخواني » ساكنة الواو مكسورة الماء ، كلمة شكوى ونوح ، وقال الشاعر :

فَأَوْءٍ لَدَ كَرَاهَا إِذَا مَا ذَكَرْتُهَا وَمِنْ بُشْدِ أَرْضٍ دُونَهَا وَسَمَاءُ^(٢)

وربما قلبوا الواو ألما ، فقالوا : آءٍ من كذا ، آءٍ على كذا ؛ وربما شدحوا الواو وكسروها وسكنوا الماء ، فقالوا : أَوْءٍ من كذا ، وربما حذفوا الماء مع التشديد ، وكسروا الواو ، فقالوا : أَوْءٍ من كذا بلامدة ، وقد يقولون : آءٍ ، بالمد والتشديد وفتح الألف وسكون الماء ؛ لتطويل الصوت بالشكاية ، وربما أدخلوا فيه الياء تارة يمدونه ، وتارة لا يمدونه ، فيقولون : « آرياه » و « آرياه » وقد أَوءَ الرجلُ تأويها ، وتأوّه تأوُّها ، إذا قال « أَوْءٍ » ، والاسم منه « الآءة » بالذ ، قال المتنب العبدى :

إِذَا مَا قَتَّ أَرْحَلَهَا بِمِيسَلٍ فَأَوْءَ آءَةُ الرَّجُلِ الْحَزِينِ^(٣)

(١) ذكره صاحب اللسان ؛ واستشهد بقوله امرئ القيس :

وَأَيُّ أَذِينَ إِنْ رَجَعْتُ مَمْلَكًا بِسِرِّ تَرَى مِنْهُ الْفَرَاتِ أَزُورَا

(٢) اللسان ١٧ : ٣٦٥ .

(٣) اللسان ١٧ : ٣٦٥ .

قوله عليه السلام: «وَتَقُوا الْقَائِدَ فَاتَّبِعُوهُ»، بمعنى نفسه، أى وتقوا بأنى على الحق،
وتيقنوا ذلك، فاتبعونى فى حرب من حاربت، وسلم من سلمت.
قوله: «الجهاد الجهاد»، منصوب بفعل مقدر.
وأتى معسكر فى يومى، أى خارج بالمعسكر إلى منزل يكون لهم معسكرا.

[ذكر سعد بن عباد ونسبه]

وقيس بن سعد بن عباد بن دليم^(١) الطررجى. صحابى، يكنى أبا عبد الملك، روى عن
رسول الله صلى الله عليه وآله أحاديث، وكان طوالاً جدياً سبطاً شجاعاً، جواداً، وأبوه
سعد رئيس الطررج، وهو الذى حاولت الأنصار إقامته فى الخلافة بعد رسول الله صلى الله
عليه وآله، ولم يبايع أبا بكر حين توجه، وخرج إلى حوران، فأتى بها، قيل: قتلته
الجن لأنه مال قائماً فى الصحراء ليلاً، ورووا جيتين من شعر؛ قيل إنها سمعاً ليلته قتله،
ولم ير قائمها:

نَحْنُ قَتَلْنَا سَيِّدَ الطَّرَجِ رَجْرَجٌ مِّنْ عِبَادَةِ
وَرَمَيْنَاهُ بِسَهْمَيْنِ فَلَمْ تُحْطِ فَوَادَةُ

ويقول قوم: إن أمير الشام يومئذ كمن له من رماه ليلاً، وهو خارج إلى الصحراء
بسمين، فقتله لخروجه عن طاعة الإمام، وقد قال بعض المتأخرين فى ذلك:
يقولون سعد شككت الجن قلبه ألا ربما صعدت ديتك بالمدن
وما ذنب سعد أنه بال قائماً ولكن سعداً لم يبايع أبا بكر
وقد صبرت من لذة الجيش أغص وما صبرت عن لذة الآلى والأمر

(١) فى الأصول: «دليم» وأثبت ما فى الاستيعاب.

وكان قبس من سمع من كبار شيعة أمير المؤمنين عليه السلام ؛ وقائل بحبته وولائه ،
 وشهد معه حروبه كلها ، وكان مع الحسن عليه السلام ، ونقم عليه صاحبه معاوية ، وكان
 طالبي الرأي ، محملاً في اعتقاده وودّه ؛ وأكّد ذلك عنده فوات الأمر أياه وما نيل يوم
 السقيفة وبعده منه ، فوجد من ذلك في نفسه وأصمّره ، حتى تمكن من إظهاره في خلافة
 أمير المؤمنين ، وكافيل . « عدوّ عدك صديق لك » .

[ذكر أبي أيوب الأنصاري ونسبه]

وأما أبو أيوب الأنصاري ، فهو خالد بن يزيد بن كعب بن ثعلبة الخزرجي ،
 من بني النجار ، شهد العقبة وندراً وسائر المشاهد وعليه حل رسول الله صلى الله عليه وآله
 لما خرج عن بني عمرو بن عوف ، لعين قدم المدينة مهاجراً من مكة ، فلم يزل عنده حتى
 بنى مسجده ومساكنه ، ثم انتقل إليها ، ويوم المواخاة آخى رسول الله صلى الله عليه وآله
 بينه وبين مصعب بن عمير

وقال أبو عمر في كتاب « الاستيعاب »^(١) : « إن أبا أيوب شهد مع علي عليه السلام
 مشاهدته كلها ، وروى ذلك عن الكلبي وابن إسحاق ، قال : شهد معه يوم الجمل وصيفين ،
 وكان مقدمته يوم النهروان » .

قوله « تحطمتها الذئاب » ، الاحتطاف : أخذك الشيء بسرعة ، وروى « تحطمتها » ،
 قال تعالى : يخافون أن ﴿ يَتَحَطَّمَكُمُ النَّاسُ ﴾^(٢)
 ويقال : إن هذه الخطبة آخر خطبة أمير المؤمنين عليه السلام قائماً .

(١) الاستيعاب ٦٤٠ .

(٢) سورة الأنفال ٢٦ .

(١٨٤)

الأصل :

من خطبة له عليه السلام :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمَرْفُوفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ ، الْخَالِقِ مِنْ غَيْرِ مَنْصَبَةٍ ، خَلَقَ الْفَلَاقَ بِقُدْرَتِهِ ،
وَأَسْتَقْبَدَ الْأَرْبَابَ بِمِزْنِهِ ؛ وَسَادَ الْأَمْطَاءَ بِمُحُودِهِ ؛ وَهُوَ الَّذِي أَسْكَنَ الدُّنْيَا خَلْقَهُ ،
وَبَعَثَ إِلَى الْجِنِّ وَالْإِنْسِ رُسُلَهُ ، لِيَكْشِفُوا لَهُمْ عَنْ فِطَانِهَا ؛ وَلِيَحْذَرُوهُمْ مِنْ ضَرَائِهَا ،
وَلِيَبْصُرُوا لَهُمْ أَمْثَالَهَا ، وَلِيَبْصُرُوهُمْ عُيُونَهَا ، وَلِيَتَجَنَّبُوا عَنْهُمْ بِمُقْتَبِرٍ مِنْ تَصَرُّفِ
مَصَاحِبِهَا وَأَسْقَامِهَا ، وَحَلَالِهَا وَحَرَامِهَا ، وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ لِمُطِيعِيهِمْ مِنَ الْعِصَاةِ ،
مِنْ جَنَّةٍ وَنَارٍ ، وَكَرَامَةٍ وَهَوَانٍ .
أَحَدُهُ إِلَى نَفْسِهِ ، كَمَا اسْتَعْتَدَّ إِلَى خَلْقِهِ ، جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ، وَلِكُلِّ قَدَرٍ
أَجَلًا ، وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابًا .

• • •

التفسير :

للمَنْصَبَةِ ، بِالْمَنْعِ وَالنَّصَبِ : التَّعْبِ ، وَالْمَاضِي نَصَبَ بِالْكَسْرِ ، وَهُمْ نَاصِبٌ فِي
قَوْلِ النَّابِغَةِ :

• كَيْفِي لَيْتَ بِأُمِّيَّةٍ نَاصِبٍ ^(١) •

ذُو نَصَبٍ ، مِثْلُ رَجُلٍ تَامَرَ وَلَايْنِ ، وَيُقَالُ : هُوَ « فَاعِلٌ » نَعْنَى « مَفْعُولٌ فِيهِ » ، لِأَنَّهُ يُنْصَبُ

(١) ديوانه ٢ ، ولبنته :

• وَابِلِ أَقَابِيهِ لَعْنُ لَكُواكِ •

(٨ - نهج - ١٠)

فيه وبتعب ؛ كقولهم : ليل نائم ، أى يُنام فيه ، ويوم حاصف ؛ أى تصف فيه الريح .
واستعبدت فلانا : اتخذته عبداً . والضراء : الشدة .

ومعتبر^(١) : مصدر بمعنى الاعتبار . ومصاحبا : جمع مصححة « مفعلة » من الصححة ،
كفشار جمع مضرة . وصفه سبحانه بأنه معروف بالأدلة ؛ لا من طريق الرؤية كما أمرى
المرثيات ، وبأنه يخلق الأشياء ولا يتمب كما يصب الواحد منها فيما يزاوله ويباشر من أفعاله .
حلق الخلائق بقدرته على خلقهم ؛ لا بمركبة واعتماد^(٢) . « وأسبغ النعمة عليهم » : أوسعها .
واستعبد الذين يذوقون في الدنيا أرباباً بمره وقهره .

وساد كل عظيم سعة حوده ؛ وأسكن الدنيا خلقه ، كما ورد في الكتاب العزيز :
﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾^(٣) .

ومث رسله إلى الجن والإنس : كما ورد في الكتاب العزيز : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ
وَالْإِنْسِ إِنَّمَا بُعِثْتُكُمْ رَسُولٌ مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ
الْحِكْمَةَ وَلِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾^(٤) .

قال : « ليكشفوا لهم عن خطاء الدنيا » أى عن عوراتها وعيوبها المستورة ؛
وليعرفهم من مضرتها وعرورها الموصى إلى عذاب الأبد .

وايمربوا لهم أمثالها ، كالأمثال الواردة في الكتاب العزيز ، نحو قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا
مَثَلُ الْخَافِئِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ الْغُرْثَاءِ ﴾^(٥) . فاحتلط به نكات الأرض .. « الآية »^(٦) .
قوله : « ولهبصموا عليهم » ؛ هجمت على الرجل : دخلت عليه بغتة ؛ بقول : ليدخلوا
عليهم بما في نصاريف الدنيا ؛ من الصخرة والسم ، وما أحل وما حرم على طريق الابتلاء .

(٢-٢) هذا اللمط وشرحه لم يرد في المخطبة .
(٤) سورة الأنعام ١٣٠ .

(١) د - د - معتبر .
(٣) سورة الطرة ٣٠ .
(٥) سورة يونس ٢٤ .

ثم قال : « وما أَعَدَّ اللهُ سبحانه للطَّيِّعِينَ مِنْهُمْ وَالْمُسَاةَ » ، يجوز أن تكون « ما » مطبوعة على « عيوبها » ، فيكون موضعها نصباً ، ويجوز أن يكون موضعها جرّاً ، ويكون من تنمة أقسام ما يُعْتَبَرُ به ، والأوّل أحسن .

ثم قال عليه السلام : إني أحمد الله كما استعبد^(١) إلى خلقه ، استعبد^(٢) إليهم فكل ما يوجب عليهم حده .

ثم قال : إنه سبحانه حل لكل شيء من أفعاله قَدَرًا ، أي فعله مقدراً محدود الغرض ، اقتضى ذلك القدر وتلك الكيفية ، كما قال سبحانه : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾^(٣) .

وجعل لكل شيء مقدّر وقتاً ينتهي إليه وينقطع عنده ؛ وهو الأجل .
ولكل أجل كتاباً ، أي رُفُومَانِهِمَا الْمَلَائِكَةُ فندم انقضاء عمر من يتقضى عمره ، وعدّم ما ألطفهم في معرفة حده .



الأصل :

منها في ذكر القرآن :

فَالْقُرْآنُ أَمْرٌ زَاجِرٌ ، وَصَامِتٌ بَاطِنٌ ؛ حُجَّةٌ أَقْبَى عَلَى خَلْفِهِ بِأَخَذِ عَلَيْهِ مِيثَاقَهُمْ ، وَارْتَهَنَ عَلَيْهِمْ أَنْفُسَهُمْ ؛ أَنْتُمْ بُورَةٌ ، وَأَكْرَمَ بِهِ دِينَهُ ، وَقَبَضَ نَبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ فَرَّغَ إِلَى الْخَلْقِ مِنْ أَحْكَامِ الْهُدَى بِهِ .

فَعَظَّمُوا مِنْهُ شُهْرَتَهُ مَا عَظَّمُوا مِنْ نَفْسِهِ ؛ قَبِيحٌ لَمْ يُخَفِ عَنْكُمْ شَيْئًا مِنْ دِينِهِ ، وَلَمْ يَتْرِكْ شَيْئًا رَضِيَهُ أَوْ كَرِهَهُ إِلَّا وَجَعَلَ لَهُ عَمَّا بَادِيًا ، وَآيَةً مُحْكَمَةً ، تَزَجُّرُ عَنْهُ ، أَوْ تَدْعُو إِلَيْهِ ، فَرِصَةٌ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ ، وَسَخَطٌ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ .

وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرْضَى عَنْكُمْ بَنُوهُ سَخَطُهُ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَلَنْ يَسْخَطَ عَلَيْكُمْ بَنُوهُ رَضِيَهُ يَمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَإِنَّمَا تَسِيرُونَ فِي آثَرِ بَيْنٍ ، وَتَتَكَلَّمُونَ بِرَجْعِ قَوْلٍ قَدْ قَالَهُ الرُّجَالُ مِنْ قَبْلِكُمْ .

قَدْ كَفَاكُمْ مَوَدَّةَ دُنْيَاكُمْ ، وَحَنَنُكُمْ عَلَى الشُّكْرِ ، وَأَفْتَرَضَ مِنْ أَلْسِنَتِكُمْ الذُّكْرَ ، وَأَوْصَاكُمْ بِالْتَّقْوَى ، وَجَعَلَهَا مُنْهَى رِضَاهُ ، وَحَاجَتَهُ مِنْ خَلْقِهِ .
فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بَيْنِيهِ ، وَتَوَاصِبُوا بَيْنَهُ ، وَتَقَلُّبُكُمْ فِي قَبْضَتِهِ ؛ إِنْ أَسْرَزْتُمْ عَلَيْهِ ، وَإِنْ أَعْلَنْتُمْ كُتْبَهُ ، قَدْ وَكَّلَ بِذَلِكَ حَفَظَةَ كِرَامَا ، لَا يُسْقِطُونَ حَقًّا ، وَلَا يُثَبِّتُونَ بَاطِلًا .

وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يَقِيَّ اللَّهَ بِحَمَلٍ لَهُ تَحَرَّجًا مِنَ الْعَيْ ، وَنُورًا مِنَ الْعِلْمِ ، وَيُحْلِلُهُ فِيمَا أَشْتَبَتْ نَفْسُهُ ، وَيُنْزِلُهُ مَنَازِلَ السُّكْرِ مَعَهُ عِنْدَهُ ، فِي دَارِ أَصْطَقَمَهَا لِنَفْسِهِ ؛ طَلَبًا حَرَشُهُ ، وَنُورَهَا بَهْجَتُهُ ، وَرَوَّارَهَا مَلَانِكَتُهُ ، وَرُقَقَاوَهَا رُسُلُهُ .

فَبَادِرُوا الْعَمَادَ ، وَسَاقُوا الْأَجَالَ ؛ فَإِنَّ النَّاسَ يُوشِكُ أَنْ يَتَقَطَّعَ بِهِمُ الْأَمَلُ ، وَيَرْهَقَهُمُ الْأَجَلُ ، وَيُؤَدَّ عَنْهُمْ مَابُ الْقُوَّةِ ؛ فَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي مِثْلِ مَا نَأَى ^(١) إِلَيْهِ الرَّجْعَةُ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَأَنْتُمْ بَنُو سَبِيلٍ عَلَى سَعَرٍ مِنْ دَارٍ لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ ، وَقَدْ أُوذِئْتُمْ مِنْهَا بِالْإِزْحَالِ ، وَأَمِرْتُمْ فِيهَا بِالْإِزَادِ .

الْبَيْتُ

حمل القرآن أمراً وزاحراً، لما كان حاله - وهو الله سبحانه - أمراً زاجراً به ، فأخذ الأمر والزجر إليه ؛ كما تقول : سيف قاتل ، وإني القاتل الصارب به ، وجهله صامتاً مطلقاً ؛ لأنه - من حيث هو حروف وأصوات - صامت ، إذ كان المرض يستحيل أن يكون ناطقاً

لأن النطق حركة الأداة بالكلام، والكلام يستعمل أن يكون ذا أداة ينطق بالكلام بها؛ وهو من حيث يضمن الإخبار والأمر والنهي والنداء وغير ذلك من أقسام الكلام، كالناطق، لأن الفهم يقع عنده، وهذا من باب المجاز كما تقول: هذه الربوع الناطقة، وأخبرني الدمار بعد رحيلهم بكذا.

ثم وصفه بأنه حجة الله على خلقه، لأنه المعزة الأصلية. أخذ سبحانه على الخلائق ميثاقه، وارتهن عاياه أنفسهم، لما كان سبحانه قد قرأ في عقول المكلفين أدلة التوحيد والعدل، ومن جملة مسائل العدل النبوة، وبشيت بهوة محمد صلى الله عليه وآله عقلا، كان سبحانه بذلك كالأخذ ميثاق المكلفين بتصديق دعوته، وقبول القرآن الذي جاء، وجعل به أنفسهم رهناً على الوفاء بذلك، فمن حالف خسر نفسه، وهلك هلاك الأبد.

هذا تصوير المحققين، ومن الناس من يقول: المراد بذلك قصة القرية قبل حاق آدم عاياه السلام، كما ورد في الأخبار، وكما سرقوم عاياه الآية.

ثم ذكر عاياه السلام أن الله تعالى قبض رسوله صلى الله عليه وآله؛ وقد فرغ إلى الخلق بالقرآن من الإكمال والإتمام، كقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾^(١)، وإذا كان قد أكمله لم يبق فيه نقص ينتظر إتمامه.

قال: معظّموا من الله ما عظم من نفسه؛ لأنه سبحانه وصف نفسه بالمعظمة والجلال في أكثر القرآن؛ قالوا حب عاينا أن نعظمه على حسب ما عظم نفسه سبحانه.

ثم علل وجوب تعظيمه، وحسن أمره لنا بتعظيمه سبحانه بكونه لم يخف عنا شيئاً من أمر ديننا، وذلك لأن الشرعيات مصالح المكلفين، وإذا فعل الحكيم سبحانه بها

عافيه صلاحنا ، فقد أحسن إلينا ، ومن جملة صلاحنا تعريفنا من الشرعيات ما فيه لطف ومفضل بنا إلى الثواب ، وهذا أبلغ ما يكون من الإحسان ، والحين يجب تعظيمه وشكره .

قال : لم يترك شيئا إلا وجعل له نكاحا ظاهرا يدل عليه ، أو علما يستدل به عليه ، أي إماما منصوحا عليه صريحا ، أو يمكن أن يستنتج حكمه من القرآن إماما يذكره أو يتركه فيبقى على البراءة الأصلية ، وحكم العقل .

قوله : « فرضاه فيما بقى واحد » معناه أن ما لم ينص عليه صريحا ، بل هو في محل النظر ، ليس يجوز للملأه أن يجتهدوا فيه ، فيحمله بعضهم ، ويحرّمه بعضهم ؛ بل رضا الله سبحانه أمر واحد ، وكذلك سخطه ، فليس يجوز أن يكون شيء من الأشياء يرضى فيه قوم بالحل وقوم بالحرمة ، وهذا قول منه عليه السلام بتحريم الاجتهاد ، وقد سبق منه عايه السلام مثل هذا الكلام مرارا .

قوله : « واعلموا أنه ليس برضى عنكم » ، الكلام إلى انتهاء معناه أنه ليس برضى عنكم بالاختلاف في الفتاوى والأحكام ، كما اختلف الأمم من قبلكم ، فسخط اختلافهم قال سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ ^(١) . وكذلك ليس بسخط عليكم بالاتفاق والاجتماع الذي رضى عنه ممن كان قبلكم من القرون .

ويجوز أن يفسر هذا الكلام بأنه لا يرضى عنكم بما سخطه على الذين من قبلكم من الاعتقادات الفاسدة في التوحيد والعدل ، ولا بسخط عليكم بما تعتقدونه من الاعتقادات الصحيحة التي رضى بها ممن كان قبلكم في التوحيد والعدل ، فيكون الكلام مصروفا إلى الأصول لا إلى القروع .

قال : « وإنما تسيرون في أثر بيتين » ؛ أي أن الأدلة واضحة ، وليس مراده الأمر بالتقليد ، وكذلك قوله « وتتكلمون بجمع قول قد قاله الرجال من قبلكم » ، بمعنى كلمة التوحيد « لا إله إلا الله » ، قد قالها الموحدون من قبل هذه الآية ، لا تقليداً ، بل بالنظر والدليل ، فنقولها أنتم كذلك !

نم ذكر أنه سبحانه قد كفى الخلق مؤونة ديانهم ؛ قال الحسن البصري : إن الله تعالى كعاماً مؤونة دُنياً ، وحشاً على القيام بوظائف ديننا ، فليته كفانا مؤونة ديننا ، وحشاً على القيام بوظائف دنياها .

قوله : « وافترض من ألسنتكم الله شكر » ؛ افترض عليكم أن تذكروه وتشكروه بألسنتكم ، و « من » متعلقة بمحذوف دل عليه المصدر للتأخر ؛ تقديره : « وافترض عليكم الله شكر من ألسنتكم الله شكر » .

نم ذكر أن التقوى المفترضة هي ربما أفترض حاجته من جثفه ، لفظة « حاجته » محارة ، لأن الله تعالى عني غير محتاج ؛ ولكنه لما بالغ في بحث والحرص عليها ، وتوعد على تركها جعله كالاحتاج إلى الشيء ، ووجه المشاركة أن المحتاج يبحث ويحرص على حاجته ، وكذلك الأمر المكلف إذا أكد الأمر .

قوله : « أنتم نصينه » ؛ أي يعلم أحوالكم ، ونواصبكم بيده ؛ الناصية : مقدم شعر الرأس ؛ أي هو قادر عليكم قاهر لكم ، متمكن من التصرف فيكم ، كالإسان القاص على ناصية غيره .

ونفلسكم في قهصته ، أي نصرّفكم تحت حكمه ، لو شاء أن يمتعكم منكم ؛ فهو كالشيء في قبضة الإنسان ؛ إن شاء استدام القبض عليه ، وإن شاء تركه .

نم قال : إن أسررتم أمراً عليه ، وأن أظهرتموه كسبه ، ليس على أن الكتابة غير العلم ، بل هاشيء واحد ؛ ولكن اللفظ مختلف .

ثم ذكر أن الملائكة موكلة بالكُف ؛ وهذا هو نص الكتاب العزيز ؛ وقد تقدم القول في ذلك .

ثم انتقل إلى ذكر الجنة ؛ والكلام يدل على أنها في السماء ، وأن العرش فوقها .
ومعنى قوله : « اصطنعها لنفسه » إعظامها وإجلالها ، كما قال لموسى : ﴿ وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾^(١) ؛ ولأنه لما تعارف الناس في تعظيم ما يصنعونه ؛ أن يقول الواحد منهم لصاحبه : قد وهبتك هذه الدار التي اصطنعها لنفسى ؛ أى أحكمتها ، ولم أكن في بدائها متكلفاً بأن أنبأ لغيرى ، صح وحسن من البايع الفصيح أن يستمير مثل ذلك فيما لم يصطنعه في الحقيقة لنفسه ؛ وإنما هو عظيم جليل عنده .

قوله : « وورعها سبعة » ؛ هذا أيضاً ممتار ، كأنه لما كان إشراق نورها عظيماً جداً نسبه إلى سبعة الباري ، وليس هناك سبعة على الحقيقة ؛ لأن السبعة حسن الخلقة ؛ قال تعالى : ﴿ وَأُثْبِتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾^(٢) ؛ أى من كل صنف حسن .
قوله : « وَرَوَّارُهَا ملائكته » قد ورد في هذا من الأخبار كثير جداً ، ورفقاؤها : رسله ، من قوله تعالى : ﴿ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَافِقًا ﴾^(٣) .

ويوشك ، بكسر الشين ، فعلٌ مستقل ، ماضيه « أوشك » ؛ أى أسرع .
ورحمة الأمر بالكسر : فاجأه .

ويُسَدُّ عنهم باب التوبة ، لأنه لا تقبل عند زول الموت بالإسان من حوث كان يفعلها خوفاً فقط ؛ لا لقبح القبيح ، قال تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ لَآلٍ ﴾^(٤) .

(١) سورة طه ٤٩ .

(٢) سورة في ٧ .

(٣) سورة النساء ٦٩ .

(٤) سورة النساء ١٨ .

ولما قال : في مثل ما سأل إليه الرجعة مَنْ كان قبلكم ، كقولهم سبحانه : ﴿ سَقَى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ • لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ ^(١) .

وبنو سبيل : أرباب طريق مسافرون .

وأوذن فلان بكذا : أعلم . وآدته : أعمته .

وقد تقدم لنا كلام بالغ في التقوى وماهيتها ونأكيده وصاة الخالق سبحانه والرسول عليه الصلاة والسلام بها .

[نبذ وأقاويل في التقوى]

روى المبرّد في الكامل أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب : اتق الله يا أمير المؤمنين ، فقال له رجل : أتأليت على أمير المؤمنين أن لا أنتقيعه ^(٢) ، قال عمر : دعه ، فلا خير فيهم إذا لم يقولوها ، ولا خير فينا إذا لم نقولها .

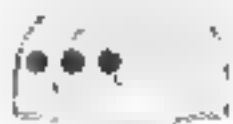
وكعب أبو العتاهية إلى سهل بن صالح ^(٣) - وكان مقبلاً بمسكة : أما بعد ، فاما أوصيك بتقوى الله الذي لا غناء بك عن تقائه ، وأن تقدم إليك من الله ، وبذكر مكر الله فيما دبّت به إليك ساعات الليل والنهار ، فلا تمحّض عن دينك ، فإن ساعاتك أوقاتك إن ظفرت بذلك منك ، وجدت الله فبك أسرع مكرًا ، وأخذ فيك أمرًا ، ووجدت ما مكرت به في غير ذات الله غير رادٍ عنك بد الله ، ولأمانع لك من أمر الله ؛ ولعمرى لقد ملأت عينك الفكر واضطربت في سمعك أصوات العبر ؛ ورأيت آثار نعم الله نسختها آثار نقيبه حين استهزى بأمره ؛ وجوهر بمبادئه . إلا إن في حكم الله

(٢) وأطر النهاية لابن الأثير ١ : ٣٨ .

(١) سورة المؤمن ٩٩ ، ١٠٠ .

(٣) د : د مساعد .

أَنَّهُ مَنْ أَكْرَمَهُ اللَّهُ ، فَاسْتَهَانَ بِأَمْرِهِ ، أَهَانَهُ اللَّهُ . السَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ ، لَا وَعَظَكَ اللَّهُ فِي نَفْسِكَ ! وَجَمَلُ عَظْمِكَ فِي غَيْرِكَ ، وَلَا جَمَلُ الدُّنْيَا عَلَيْكَ حَسْرَةً وَنَدَامَةً ، رَحْمَةً ! وَمَنْ كَلَّمَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : « لَا كَرَمَ كَالْتَقْوَى ، وَلَا مَالٌ أَعْوَدَ مِنَ الْعَقْلِ ، وَلَا وَحْدَةٌ أَوْحَشَ مِنَ الْمَعْبُودِ ، وَلَا عَقْلٌ كَالْتَدَبِيرِ ، وَلَا قَرِينٌ كَعَمَلِ الْخَلْقِ ، وَلَا مِيرَاثٌ كَالْأَدَبِ ، وَلَا فَائِدَةٌ كَالْتَوْفِيقِ ، وَلَا تِجَارَةٌ كَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَلَا رِيحٌ كَشَوَابِ اللَّهِ ، وَلَا وَرَعٌ كَالْوَقُوفِ عِنْدَ الشُّبْهَةِ ، وَلَا رَهْدٌ كَالزَّهْدِ فِي الْحَرَامِ ، وَلَا عِلْمٌ كَالتَّفَكُّرِ ، وَلَا عِبَادَةٌ كَأَدَاءِ الْمَرَانِضِ ، وَلَا إِيْمَانٌ كَالْحَيَاءِ وَالصَّبْرِ ، وَلَا حَسَبٌ كَالْتَوَاضُعِ ، وَلَا شَرَفٌ كَالْعِلْمِ ، وَلَا مَظَاهِرَةٌ أَوْفَقَ مِنَ الْمَشُورَةِ ؛ فَاحْفَظِ الرَّأْسَ وَمَا حَوَى ، وَالْبَطْنَ وَمَا دَعَى ، وَادْكُرِ الْمَوْتَ وَطُولَ الْيَلَى » .



الأصل

وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ لِهَذَا الْجَلْدِ الرَّفِيقِ صَبْرٌ عَلَى النَّارِ ؛ فَارْتَحُوا نَفُوسَكُمْ ، فَإِنَّكُمْ قَدْ جَرَبْتُمُوهَا فِي مَصَائِبِ الدُّنْيَا ، فَرَأَيْتُمْ جَرَعَ أَحَدِكُمْ مِنَ الشُّوْكَةِ نُصَيْبُهُ ، وَالْمَثْرَةِ تَذْيِيبُهُ ، وَالرَّمْضَاءَ تَحْرِيقُهُ فَكَيْفَ إِذَا كَانَ بَيْنَ طَائِفَتَيْنِ مِنْ نَارٍ ؛ صَجَعٌ حَخِرٌ ، وَقَرِينٌ شَيْطَانٌ ! أَعَلَيْتُمْ أَنْ مَا لَكُمْ إِذَا عَصَيْتُمْ عَلَى النَّارِ حَطَمَ نَفْسَهَا نَفْسًا لِيَصْبِيَهُ ، وَإِذَا زَجَرَهَا تَوَثَّبَتْ بَيْنَ أَبْوَابِهَا جَرَعًا مِنْ رَحْمَتِهِ . أَيُّهَا الْيَهَنُ الْكَبِيرُ ، الَّذِي قَدْ لَمَرَّهُ الْقَتِيرُ ؛ كَيْفَ أَنْتَ إِذَا التَّحَمَّتْ أُلْجَوَانُ النَّارِ بِعِظَامِ الْأَعْنَاقِ ، وَتَشَبَّتِ الْجَوَامِيعُ ، حَتَّى أَكَلَتْ لُحُومَ السَّوَاعِدِ ! فَاللَّهُ أَفْهَمُ مَعَشَرَ الْعِبَادِ ! وَأَنْتُمْ سَالِمُونَ فِي الصُّعَةِ قَبْلَ الشُّمِّ ، وَفِي الْفُسْعَةِ قَبْلَ الضُّيْقِ ، فَاسْتَوْا فِي فَسْكَائِكُمْ رِقَائِكُمْ مِنْ قُلٍّ أَنْ تُعَلَّقَ رَهَائِكُمْ .

أَسْبِرُوا عَيْنُونَكُمْ ، وَأَضْمِرُوا بَطُونَكُمْ ، وَأَسْتَقِيمُوا أَفْئَامَكُمْ ، وَأَنْفِقُوا
أَمْوَالَكُمْ ، وَخُذُوا مِنْ أَجْسَادِكُمْ فَخُودُوا بِهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، وَلَا تَمْخُلُوا بِهَا عَمَّا ،
فَقَدْ قَالَ اللَّهُ سُبحَانَهُ : ﴿ إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصَرْكُمْ وَبُنْتِ أَفْئَامَكُمْ ﴾ ^(١) ، وَقَالَ
تَعَالَى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ ^(٢) .
فَلَمْ يَسْتَنْصِرْكُمْ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَمْ يَسْتَقْرِضْكُمْ مِنْ قُلٍّ ؛ أَسْتَنْصَرَكُمْ وَلَهُ حُنُودُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، وَاسْتَقْرِضَكُمْ وَلَهُ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْخَلِيدُ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَبْلُغَكُمْ أَيْسَكُمْ أَحْسَنُ مَحَلًّا .

فَبَايَرُوا بِأَعْمَالِكُمْ تَسْكُونُوا مَعَ حِيَرَاتِ اللَّهِ فِي دَارِهِ ، رَافِقَ سَيِّمِ
رُسُلِهِ ، وَأَزَارَهُمْ مَلَائِكَتُهُ ، وَأَكْرَمَ تَسْمَاعَهُمْ أَنْ تَسْمَعَ حَرِيرَ نَارٍ أَبَدًا ،
وَصَانَ أَجْسَادَهُمْ أَنْ تَلْقَى لُغُوبًا وَاعْتَبَا : ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ
ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ ^(٣) .

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ ، وَاللَّهُ الْمُسْتَمَاتُّ عَلَى نَفْسِي وَأَنْفُسِكُمْ ؛ وَهُوَ حَسْبُنَا
وَمَعَهُ التَّوَكُّلُ !

• • •

البَينُخ :

الرَّمْضَاءُ : الأرض الشديدة الحرارة ، والرَّمَصُ ، بالتعربك : شدة وقع الشمس على
الرَّمَلِ وغيره ، وقدرِمْضَ يَوْمُنَا بالكسر ، يرمض رَمَصًا ؛ اشتدَّ حرُّهُ ، وأَرْضُ رَمَضِيَّةُ
الحجارة ، ورمضت قدمه من الرَّمْضَاءِ : احترقت .

(١) سورة عمدة ٧ .

(٢) سورة البقرة ٢٤٥ .

(٣) سورة الحديد ٢١ .

والطابق ، بالفتح : الأحرّة الكبيرة ؛ وهو فارسيّ معرب .
 وضجيع حَجَر : يوصى فيه إلى قوله تعالى : ﴿ وَقَوِّدْهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ ^(١) ، قيل :
 لأنها حجارة الكبريت .

وقرين شيطان : يوصى فيه إلى قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطَمَيْتُهُ ﴾ ^(٢) .
 وحطّم مضطرباً : كسره أو أكله ، والحطمة من أسماء النار ؛ لأنها تحطّم ما تنقى ،
 ومنه سُمّي الرجل الكثير الأكل : حطمة .

واليفن : الشيخ الكبير . ولغزه : خالطه ، ويقال له حينئذ : ملهوز ، ثم أشمط ، ثم
 أشيب . ولمرت القوم : حالطتهم ودخلت بينهم

والقتير : الشيب ؛ وأصله رهوس السامور في الذرّوع نسيّ قتيلاً .
 والنعمت أطواق النار بالمظام : انفتحت عليها ، وانضمت إليها ، والنصت بها .
 والجوامع : جمع جامعة ، وهي القل لأهلها تجمع المدين إلى الملق .
 ونشبت : علقت . والسواعد : جمع ساعد ، وهو الذراع .
 و « في » من قوله : « في الصّعة قبل السّقم » ، معطوفة بالخطوف الناصب لله ، وهو اتقوا ،
 أي اتقوه سبحانه في زمان صحتكم ، قبل أن ينزل بكم السّقم ، وفي فسحة أعماركم قبل
 أن تبدّل بالضيق .

وفسكاك الرقاب : بفتح الفاء : عتقها قبل أن تفلق رهايتها ، يقال غلق الرهن ،
 بالكسر ؛ إذا استعقّه المرهن بألا يفسكه الراهن في الوقت للشروط ، وكان ذلك من
 شرع الجاهلية ، فنهى عنه النبي صلى الله عليه وآله ، وقال : لا يفلق الرهن .

(١) سورة البقرة ٢٤ .

(٢) سورة في ٢٣ .

وخذوا من أجسادكم ، أى أنعبوها بالعبادة حتى تنحل .
والقل : القلة . والدل : الذلة .

وحسب النار : صوتها . والغبوب : الغضب .

[طرف وأخبار]

ونظير قوله عليه السلام : « استقرضكم وله خزائن السموات والأرض » ،
ما رواه المبرد في " الكامل " من أبي عثمان السارني ، عن أبي زيد الأنصاري ، قال :
وقف علينا أعرابي في حانة بونس [الدعوى] ^(١) ، فقال : الحمد لله كما هو أهله ، وأعوذ
بالله أن أدكر به وأساء ، خرجنا من المدينة ، ملبية الرسول صلى الله عليه وآله ، ثلاثين
رجلاً ممن أخرجته الحاجة ، وحمل على الكرو ، ولا يمر صون مرضام ^(٢) ، ولا يدفون
ميتهم ، ولا ينفقون من منزل إلى منزل وإن كرهوه ، والله يا قوم لقد جئت حتى أكلت
التوى المحرق ، ولقد مشيت حتى امتلأت الدم ، وحتى خرج من قدمي بحص ^(٣) ولم
كثير ، أفلا رجل يرحم ابن سبيل وقل ^(٤) طريق ، ويصو سقرا فإنه لا قليل من الأجر ،
ولا غنى عن [ثواب] ^(٥) الله ، ولا عمل بعد الموت ، وهو سبحانه يقول : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي

(١) من الكامل .

(٢) الكامل : « مرضام » .

(٣) قال أبو العباس المبرد : قوله : « بحص » ؛ يريد اللحم الذي يركب القدم ؛ هذا قول الأصمعي .
وقال غيره : هو لحم يخطه بياس من ساد يحمل فيه . ويقال : يحصت عليه - فالصاد - ولا يجوز إلا ذلك
ويقال : يحصته حله ؛ بالسين ؛ إذا ظلمته ونقصته ؛ كما قال الله عز وجل : « (ولا تبخسوا الناس أشياءهم)
وفي المثل : تحبها حقاً وهي باخس .

(٤) قال أبو العباس : القل في أكثر كلامهم المنهزم لداهب ؛ وفي خبر كعب بن معبدان الأشجري :
« إنا آثرنا الحمد على القل » .
(٥) من الكامل .

يَقْرَضُ أَفَّةً قَرِصًا حَسَنًا^(١) ؛ مَلَى وَىٌ مَاجِدَ وَاجِدٍ ، [جَوَاد]^(٢) لَا يَسْتَقْرِضُ مِنْ عَوَزٍ^(٣) ؛ وَلَكِنَّهُ يَلُو^(٤) الْأَحْيَارَ^(٥) .

قال المازني : فبمعنى أنه لم يبرح حتى أخذ ستين ديناراً .

ومن كلام علي بن عبيدة الرمحي : الأيام مستودعات الأهمال ، ومن الأرضون هي لمن بذر فيها الخير والعمل الصالح .

وحطب المحتاج ، فقال : أيها الناس ، إنكم أغراضٌ حِمام وفُرَصٌ هَلَكَةٌ . قد أذكركم القرآن ، ونادى رحيلكم الجديان ١ ها إن اسمك موعداً لا تؤخر ساعته ، ولا تذفع همته ، وكان قد دأمت إليكم مازنته ، فعلقكم ريبُ النون ، وعلقت بكم أمّ الأهميم الحيزيون ؛ فإدا هيأتمم رحيلكم ؟ وماذا أعددتُم للتزبل ؟ مَنْ أَمَّ يَأْخُذُ أَهْبَةَ الْحَذَرِ ، نَزَلَ بِهِ مَرْهُوبٌ الْقَدَرُ ٢

[خطبة لأبي الشغباء المسقلاني]

قلت : وقد شُغِفَ الناس في المواعظ بكلام كاتب محدث ؛ يعرف بـأبي الشغباء

(١) سورة النقرة ٢٤٥ .

(٢) قال أبو العباس : « لا يستقرض من عور » ؛ قالوا نذر المطلوب ؛ يقال : أعوز فلان ؛ وهو عور ؛ إذا لم يجد .

(٣) قال أبو العباس : قوله : « ولكن ليلو الأحيار » ؛ يقال : ألق بلوهم ويتلهم ويحدهم في معنى وتأويله يتعنهم ؛ وهو السالم عز وجل بما يكون ؛ كلفه بما كان ؛ قال ألق حل تناؤه : ﴿ رَأَيْبُلُكُمْ أَيْكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ .

(٤) الخبر في الكامل ١ : ٤٥١ - ٤٥٥ .

المستقلاني وأنا أورد هاهنا خطبة من مواعظه ، هي أحسن ما وجدته له ، ليعلم الفرق بين الكلام الأصيل والتوليد :

أيها الناس ، فكروا أنفسكم من حُلقات الآمال المتعبة ، وخفقوا ظهوركم من الأصار المستعقة ، ولا تسيئوا أظفاركم في رياض الأمانى للشتمية ، ولا تُميلوا صَفْوَاكم إلى زبارج الدنيا المعيبة ، فثقل أجسامكم في هشامها عاملة نعيبة ! أما علمتم أن طبايعها على العدر مركبة ، وأنها لأعمار أهلها منتهية ، ولما ساءم منتظرة مرتقة ، في هيئتها راجعة متعقة ! فانصوار حكم الله ركائب الاعتبار مشرقة ومنزلة ، وأجروا خيول التفكير مصتدة ومصوبة ؛ هل تجدون إلا قصورا على عروشها حربية ، وديارا معطشة من أهلها محدبة ! أين الأم السالقة للشعبة ، والجبابرة الماضية المتلعة ، والملوك المنظمة المرجبة ، أولوا الحفدة والحبة ، والزخارف المعجبة ، والجيش والحرارة المحبة والخيام للفضاضة المطلية ، والجياد الأعوجية المجنبة ، والمصابب الشديقية المصحبة ، واقدان الثقة الدورية ، والمأذبة الحصينة المنصبة ، طرقت واقعه خيامهم غير منتهية ، وأزادتهم من الأسقام سيوطا مقطعة ، وسيرت إليهم الأيام من نوسها كتاب مكتبة ، فأصبحت أظفارهم من مهاجم قانية مخضبة ، وعدت أصوات النادات عليهم محلبة ، وأكلت لحومهم هوام الأرض السنية . ثم إنهم مجموعون ليوم لا يقبل فيه عذر ولا معتبة ، ونجاذى كل نفس بما كانت مكفسة ، فسيدهم قرابة تجري من تحتها الأسفار مشوبة ، وشقية معذبة في النار مكبكة .

هذه أحسن خطبة خطبها هذا الكاتب . وهي كأنها طاهرة التكلف ، بينة التوليد ، تخطب على نفسها ، وإنما ذكرت هذا ، لأن كثيرا من أرباب الهوى يقولون : إن كثيرا من " نهج البلاغة " ، كلام محدث ، صنعه قوم من فصحاء الشيعة ، وربما عزوا بعضه إلى الرضى أو الحسن وغيره ، وهؤلاء قوم أعمت المصيبة أعينهم ، فضلوا عن النهج الواضح

وركبوا بُنيَات^(١) الطريق ، خلا لا وقلة معرفة بأساليب الكلام ، وأنا أوضح لك
بكلام مختصر ما في هذا الخاطر من العاط فاقول :

[رأى المؤلف في كتاب نهج البلاغة]

لا يخلو إما أن يكون كل " نهج البلاغة " مصنوعاً متحولاً ، أو بعضه . والأول
باطل بالضرورة لأننا نعلم بالتواتر صحة إسناد بعضه إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، وقد
نقل المحدثون كلهم أو جلهم ، والمؤرخون كثيرون منه ، وليسوا من الشيعة لينسبوا إلى
غرض في ذلك . والثاني بطل على ما قلناه ؛ لأن من قد أنس بالكلام والخطابة ، وشدا
طريقاً من علم البيان ، وصار له ذوق في هذا الباب لا بد أن يفرق بين الكلام الركيك
والنصيح ، وبين النصيح والأفصح ، وبين الأصيل واللؤد ، وإذا وقف على كراس
واحد يتضمن كلاماً للجماعة من الخطباء ، أو لاثنتين منهم فقط ؛ فلا بد أن يفرق بين
الكلامين ، ويميز بين الطريقتين . ألا ترى أننا مع معرفتنا بالشعر وقده ، لو نصفها
ديوان أبي تمام ؛ فوجدناه قد كتب في أمثاله قصائد أو قصيدة واحدة أميره ، لعرفنا
بالذوق مباينتها لشعر أبي تمام ونسبه ، وطريقته ومذهبه في القريض ، ألا ترى أن
العلماء بهذا الشأن حذفوا من شعره قصائد كثيرة متحولة إليه ؛ لمباينتها لمذهبه في الشعر ،
وكذلك حذفوا من شعر أبي نواس شيئاً كثيراً ؛ لباينها لمذهبه في الشعر ،
ولا من شعره ، وكذلك غيرهما من الشعراء ، ولم يعتمدوا في ذلك إلا على الذوق خاصة .
وأنت إذا تأملت " نهج البلاغة " وجدته كله واحداً ، ونفساً واحداً ، وأسلوباً
واحداً ، كالجسم البسيط الذي ليس به من أعضائه محالاً لباقي الأجزاء في الماهية ،
وكالقرآن العزيز ، أو له كأوسطه ، وأوسطه كآخره ، وكل سورة منه ، وكل آية مماثلة في

(١) يقال : ركب بنيات الطريق ، أي حل ؛ وأصل البنيات : الطرق المنابر ، ثم أطلقت على الترحات .

للاخذ والمذهب والفن والطريق والنظم لهابي الآلات والشور ؛ ولو كان بعض " نهج البلاغة " منحولاً ومنه صحيحاً ، لم يكن ذلك كذلك ؛ فقد ظهر لك هذا البرهان الواضح خلال من زعم أن هذا الكتاب أو منه منحول إلى أمير المؤمنين عليه السلام .
واعلم أن قائل هذا القول بطرق على نفسه مالا يقبل له به ، لأننا متى فتحنا هذا الباب ، وسلطنا الشكوك على أغصان هذا النخو ، لم تنق بصحة كلام منقول عن رسول الله صلى الله عليه وآله أبداً ، وساغ لطائن أن يظن ويقول : هذا الخبر منحول ؛ وهذا الكلام مصنوع ، وكذلك ما قيل عن أبي بكر وعمر من الكلام والخطب والمواظ والأدب وغير ذلك ، وكل أمر حملة هذا الطاع مستنداه فيما يرويه عن النبي صلى الله عليه وآله ، والأئمة الراشدين ، والصحابة والتابعين ، والشراء والمترسلين ، والخطباء ؛ فلنا ميري أمير المؤمنين عليه السلام أن يسقطوا إلى مثله فيما يروونه عنه من " نهج البلاغة " وغيره ، وهذا واضح .

(١٨٥)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام قال البرج بن مُشِير الطائي ، وقد قال له بمحبة يسمعه :
« لاحكم إلا الله » ، وكان من الخوارج :
اسكت قبحك ^(١) يا أترم أوافق لقد طهر الحق فكتبت فيه ضيلاً شخصك ،
خفياً صوتك ؛ حتى إذا نمر الباطل ، تجمت نجوم قرين الماعز .

• • •

البرج :

البرج بن مُشِير - بضم الميم وكسر الميم - بن الجلاس بن وهب بن قيس بن هبيرة بن
طريف بن مالك بن جدعاء بن ذهل بن رومان بن جندب بن خارجة بن سعد بن قطرة بن
ملي بن داود بن ريد بن يشعب بن مريب بن زيد بن كهلان بن صبا بن يشعب بن مريب
ابن قحطان . شاعر مشهور من شعراء الخوارج ، زادى بشعارهم بحيث يسمعه أمير المؤمنين
عليه السلام ، فزجره .

وقبحك الله : لفظة مصاها كسرك ، يقال : قبحت الجوزة ، أي كسرتها ، وقيل : قبحه :
نحاه عن الخير . وكان البرج ساقط النية ، فأباه أن دعاه به ، كما يهان الأعمور بأن
يقال له : يا أعمور .

والصئيل : الدقيق الخلق ، صول الرجل ، المصم صالة : محف ، وصول رايه : صفر ،
ورجل مقصائل ، أي شئت ، وكذلك : « صولة » .

(١) خطأ المطبع : « نحك » بالنشيد

ونمر الباطل : صاح ، والمراد أهل الباطل ، ونمر فلان في الفتنة : نهض فيها .

ونجم : طلع ، أي طلع بلا شرف ولا شعاعة ولا قدم ، بل على غفلة ، كما ينبت قرن اللامز . وهذا من باب الهمزة ؛ وهو أن يشبه الأمر يراد إهانتة بالهين ، وبشبه الأمر يراد إهظامه بالمعظم ، ولو كان قد تكلم في شأن ناجم يريد تعظيمه ، لقال : نجم نجوم الكوكب من تحت العمام ، نجوم نور الريح من الأكهم ، ومحو ذلك .

(١٨٦)

الأمثل :

ومن خطبة له عليه السلام :

رَوَى أَنَّ صَاحِبَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَخُلُّ لَهُمْ ، كَانَ رَجُلًا عَابِدًا ، فَقَالَ لَهُ :
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : صِنْدُكَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى كَأَنَّ أَنْظَرَ إِلَيْهِمْ ، فَتَنَاقَلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ جَوَابِهِ ،
ثُمَّ قَالَ : يَا هَؤُلَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ وَاحْسِنُوا : فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ^(١) .
فَلَمْ يَقْعُ هَؤُلَاءِ بِهَذَا الْقَوْلِ حَتَّى عَزَمَ عَلَيْهِ ، فَعَيَّدَ اللَّهُ وَأَتَى عَلَيْهِ وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ .



ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

أَمَّا هَذِهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ - حَيْثُ خَلَقَهُمْ - غَنِيًّا عَنْ طَاعَتِهِمْ ،
أَمَّا مِنْ مَخْصِيَّتِهِمْ ؛ لِأَنَّهُ لَا تَصْرُهُ مَخْصِيَّةٌ مِنْ عَصَاةٍ ، وَلَا تَنْفَعُهُ طَاعَةٌ مِنْ أَطَاعَةٍ ،
فَقَسَمَ بَيْنَهُمْ مَعَاشَهُمْ ، وَوَصَّاهُمْ بِبَيْنِ الدُّنْيَا وَمَوَاضِعِهِمْ ، فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ
الْفَضَائِلِ ، مَنَاطِقُهُمُ الصُّرُوبُ ، وَمَلْبَسُهُمُ الْاِقْتِصَادُ ، وَمَشْيُهُمُ التَّوَاضُّعُ .
فَخَضُوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَوَقَفُوا أَعْنَاقَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ .
ثُمَّ لَتَ أَنْفُسُهُمْ وَنَهَمُوا فِي الْبَلَاءِ ، كَأَنَّهُمْ نَزَلَتْ فِي أَرْضٍ حَرَاءٍ ، لَوْ لَا الْأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ
اللَّهُ لَهُمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَحْسَادِهِمْ طَرَفَةً عَيْنٍ ، شَوْقًا إِلَى الثَّوَابِ ، وَخَوْفًا
مِنَ الْعِقَابِ .

عَظُمَ الْتَلَاتِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَادُونُهُ فِي أُعْيُنِهِمْ ، فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَأَاهَا ،
فَهُمْ فِيهَا مُتَعَمِّقُونَ ، وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَأَاهَا ، فَهُمْ فِيهَا مُمَذَّبُونَ . قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ ،
وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ ، وَأَجْسَادُهُمْ خَفِيفَةٌ ، وَحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ ، وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ .

صَبَرُوا أَيَّامًا قَصِيرَةً ، أَغْفَبَتْهُمْ رَاحَةُ طَوِيلَةٍ . نَجَارَةُ مُرِيحَةٍ ، بِسْرَهَا لَهُمْ
رَشِيمٌ . أَرَادَتْهُمْ الدُّنْيَا فَلَمْ يُرِيدُوهَا ، وَأَسْرَتْهُمْ فَقَدَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا .

أَمَّا الْقَلِيلُ فَصَافُونَ أَفْدَامَهُمْ ، تَالِينَ لِأَحْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرَثِّلُونَهَا تَرْثِيلًا ؛ يَحْزَنُونَ بِه
أَنْفُسَهُمْ ، وَيَسْتَشِيرُونَ بِه دَوَاءَ دَائِهِمْ ؛ فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا
طَمَعًا ، وَتَطَلَّعَتْ نَفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقًا ، وَظَلُّوا أَنَّهَا تُنْصَبُ أَعْيُنُهُمْ ؛ وَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ
فِيهَا تَخْوِيفٌ ، أَصْغَوْا لِأَنَّهَا مَسَامِيعُ قُلُوبِهِمْ ، وَظَلُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَشَهيقَهَا فِي أَصُولِ
أَذَانِهِمْ ، فَهُمْ حَائُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ ، مُفَرِّشُونَ لِجَاهِهِمْ وَأَكْثَمُونَ وَرُكْبِهِمْ ، وَأَحْزَانُ
أَفْدَامِهِمْ ، يَطْلُبُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي مَسْكَاتِهِ رِقَائِهِمْ .

وَأَمَّا السَّهَارُ فَحُلَاءُ عُلَمَاءَ ، أَبْرَارِ أَتْقِيَاءَ ، قَدْ بَرَّاهُمْ الْخَوْفُ بِرَى الْقِدَاحِ ، يَنْظُرُ
إِلَيْهِمُ النَّازِلُ فَيَحْسِبُهُمْ مَرْضَى ، وَمَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرْضَى ، وَيَقُولُ : لَقَدْ خُوِلُوا ؛ وَلَقَدْ
خَسَلَتْهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ ؛ لَا يَرْضَوْنَ مِنْ أَهْمَالِهِمُ الْقَائِلَ ، وَلَا يَسْتَكْبِرُونَ الْكَثِيرَ ،
فَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ مُتَهَيِّمُونَ ، وَمِنْ أَهْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ ؛ إِذَا رَكَّى أَحَدٌ مِنْهُمْ حَافَ رِمًا
يَقَالُ لَهُ فَيَقُولُ : أَمَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي ، وَرَأَى أَعْلَمُ بِمَنْ بِنَفْسِي !

اللَّهُمَّ لَا تَوَاضِعْ لِي عَمَّا يَقُولُونَ ، وَأَحْشَى أَنْفَصِلَ رِمًا يَطَّوْنُ ، وَأَغْفِرْ لِي
مَا لَا يَذَلُّونَ !

البُزج :

هَمَامُ الذِّكُورِ فِي هَذِهِ الْخُطْبَةِ : هُوَ هَمَامُ بْنُ شُرَيْحَ بْنِ يَزِيدَ بْنِ مَرْثَةَ بْنِ عَمْرِو بْنِ جَابِرِ بْنِ يَحْيَى بْنِ الْأَصْحَبِ بْنِ كَثْمِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ سَعْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ ذُهَلِ بْنِ مُرَّانَ بْنِ صَيْفَى بْنِ سَعْدِ الْعَشِيرَةِ .

وَكَانَ هَمَامٌ هَذَا مِنْ شَيْعَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَوْلِيَّائِهِ ، وَكَانَ نَاسِكًا طَائِعًا ، قَالَ هُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، صِفْ لِي الْمُتَّقِينَ حَتَّى أَصْبِرَ بِوَصْفِكَ إِيَّاهُمْ ، كَالنَّاظِرِ إِلَيْهِمْ .

فَتَنَاقَلَ عَنْ جَوَابِهِ ، أَيْ أَبْطَأَ .

فَمَزَمَ عَلَيْهِ ، أَيْ أَقْسَمَ عَلَيْهِ ، وَتَقُولُ لِمَنْ يَكْرُرُ عَلَيْكَ الطَّلَبُ وَالسُّؤَالُ : قَدْ حَزَمَ عَلَى ، أَيْ أَمَرَ وَقَطَعَ ، وَكَذَلِكَ تَقُولُ فِي الْأَمْرِ تَرِيدُ قَعْلَهُ وَتَقَطِّعُ عَلَيْهِ : حَزَمْتَ حَزْمًا وَحَزَمَانًا وَحَزِيمَةً وَحَزِيمًا .

فَإِنْ قُلْتَ : كَيْفَ جَازَ هُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَتَنَاقَلَ عَنْ جَوَابِ الْمُسْتَرْشِدِ ؟

قُلْتَ : يَحْجُوزُ أَنْ يَكُونَ تَنَاقُلٌ عَنْ جَوَابِهِ ؛ لِأَنَّهُ عَلِمَ أَنَّ الْمَصْلَحَةَ فِي تَأْخِيرِ الْجَوَابِ ، وَلَعَلَّهُ كَانَ حَاضِرَ الْمَجْلِسِ مَنْ لَا يَجِبُ أَنْ يَجِيبَ وَهُوَ حَاضِرٌ ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَجَابَ ، وَلَعَلَّهُ رَأَى أَنْ تَنَاقَلَ عَنْ الْجَوَابِ يَشْدُ تَشَوُّقَ هَمَامٍ إِلَى سَمَاعِهِ ، فَيَكُونُ أَجْمَعٌ فِي مَوْعِظَتِهِ ، وَلَعَلَّهُ كَانَ مِنْ بَابِ تَأْخِيرِ الْبَيَانِ إِلَى وَقْتِ الْحَاجَةِ ؛ لِأَنَّ بَابَ تَأْخِيرِ الْبَيَانِ عَنْ وَقْتِ الْحَاجَةِ ، وَلَعَلَّهُ تَنَاقَلَ عَنْ الْجَوَابِ لِيَرْتَبِ الْمَعْنَى الَّتِي خُطِرَتْ لَهَا فِي الْقَائِلِ مَنَاسِبَةٌ لَهَا ، ثُمَّ يَنْطَلِقُ بِهَا كَمَا يَفْعَلُهُ الْمُتَرَوِّى فِي الْخُطْبَةِ وَالْمُعْرِضُ

فَإِنْ قُلْتَ : فَمَا مَعْنَى إِجَابَتِهِ لَهُ أَوَّلًا بِقَوْلِهِ : يَا هَمَامُ ، إِنَّ اللَّهَ وَأَخِيْنَ قَدْ إِنْ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ أَنْقَرُوا وَالَّذِينَ هُمْ يُحْسِنُونَ ؟ أَوْ أَىْ جَوَابٍ فِي هَذَا عَنْ سُؤَالِ هَمَامٍ ؟

قلت : كأنه لم يرفى بادي الحال شرح صفات المتقين على التفصيل ، فقال لهم : ماهية التقوى معلومة في الجملة ، فاتق الله وأحسن ؛ فإن الله قد وعد في كتابه أن يكون ولياً وناصر الأهل التقوى والإحسان ، وهذا كما يقول لك قائل : ما صفات الله الذي أعبدته أنا والناس ؟ فتقول له : لا عتيك ألا تعرف صفاته مُفَصَّلة ، بعد أن تعلم أنه خالق العالم ، وأنه واحد لا شريك له ، فلما أبى همام إلا الخوض فيما سأله على وجه التفصيل ، قال له : إن الله تعالى خلق الخلق حين خلقهم ، وروى : « حيث خلقهم » وهو غني عن طاعتهم ؛ لأنه ليس يحسم فيستعصر بأمر أو ينتفع به .

وقسم بين الخلق معاشهم ، كما قال سبحانه : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ^(١) .

وفي قوله : « وضعهم مواضعهم » على قوله : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ سُلْطَانًا ﴾ ^(٢) ، فكأنه عليه السلام أخذ الألفاظ ، قالهاها وآتى معناها .

فلما فرغ من هذه المقدمة شرع في ذكر صفات المتقين ، فقال : إنهم أهل الفضائل . ثم بين ماهذه الفضائل ، فقال : « منطقهم الصواب » .

فإن قلت : أي فائدة في تقديم تلك المقدمة ، وهي كون الباري سبحانه غنياً لا تصرعه للمصيبة ، ولا تدفعه الطاعة !

قلت : لأنه لما تضمنت الخطبة مدح الله تعالى لمتقين وما أعدّه لهم من الثواب ، ودمه للعاصين وما أعدّه لهم من العقاب العظيم ، فربما يتوهم متوهم أن الله تعالى ما رغب في الطاعة

هذا الترغيب للبالغ ، وخوف من المصيبة هذا التخويف للبالغ ، إلا وهو منقطع بالأولى ، مستعمل بالثانية ، فقدم عليه السلام تلك المقدمة نفيًا لهذا الوهم .

[فصل في فضل الصمت والاقتصاد في المنطق]

واعلم أن القول في خطر الكلام وفضل الصمت وفضل الاقتصاد في المنطق وسيم جدًا ، وقد ذكرنا منه طرفًا فيما تقدم ، ونذكر الآن منه طرفًا آخر .

قال النبي صلى الله عليه وآله : « مَنْ صَمَتَ نَجَا » .

وقال أيضًا : « الصمت حكم وقيل فاعله » .

وقال له صلى الله عليه وآله بعض أصحابه : أخبرني عن الإسلام بأمر لا أسأل عنه أحدًا منك ، فقال : « قل : آمنت بالله ثم استقم » قال : فما أتقى ؟ فأومأ بيده إلى لسانه .

وقال له عليه السلام عتبة بن عامر : يا رسول الله ، ما النجاة ؟ قال : « إملاكت عليك لسانك »^(١) ، وابنتك على حطيتك ؛ وليسلك بيتك » .

وروى سهل بن سعد الساعدي ، عنه صلى الله عليه وآله : « من يتوكل لي بما بين لحيته ورجليه أتوكل له بالجنة » .

وقال : « مَنْ وَقِيَ شَرَّ قَبْقَبِهِ^(٢) وَذَبَذَبَ^(٣) وَلَقَلَقَهُ^(٤) فَقَدْ وَقِيَ » .

وروى سعيد بن جبير مرفوعًا : « إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ أَصْبَحَتِ أَعْضَاءُ كُلِّهَا نَشْكُو

(١) إملاكت عليك لسانك ؛ أي لا تحرك إلا بما يكون لك لا عليك .

(٢) القيقب : البطن ؛ من القيقبة ؛ وهي صوت يسبح من الطير ويكأنها حكاية ذلك الصوت
النهاية لابن الأثير ٣ : ٢٢٥ .

(٣) ذبذبه ، أي ذكره . وانظر النهاية لابن الأثير ٢ : ٤٣ .

(٤) القلق : اللسان . النهاية لابن الأثير ١ : ٦٤ ؛ قال : ومنه حديث عمر : ما لم يكن هم ولا لقلقه ؛ أراد الصباح والخلد عند الموت ؛ وكانها حكاية الأصوات الكثيرة

اللسان ، تقول : أى بنى آدم ، اتقى الله فيها ؛ فإنك إن استقممت استقمنا ، وإن اموحجت اموحجتنا .

وقد روى أن عمر رأى أبا بكر وهو يمد لسانه ، فقال : مانصنع ؟ قال : هذا الذى أوردنى المواردة ، إن رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : « ليس شيء فى الجسد إلا يشكو إلى الله تعالى اللسان على حديثه » .

وسمع ابن مسعود يلقى على الصفا ، ويقول : يا لسان ، قل خيراً نفسك ، أو أصمت تسلم من قبل أن تندم . فقيل له : يا أبا عبد الرحمن ، أهذا شيء سمعته ، أم تقوله من تلقاء نفسك ؟ قال : بل سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « أكثر خطايا ابن آدم من لسانه » .

وروى الحسن مرفوعاً : « رحم الله عبداً تكلم ففهم ، أو سكت فسلم » .
وقالت الثلامدة لمبى عليه السلام : دلنا على عمل ندخل به الجنة ، قال : لا تنطقوا أبداً ، قالوا : لا نستطيع ذلك ، قال : فلا تنطقوا إلا بخير .
وقال النبي صلى الله عليه وآله : « إن الله عند لسان كل قائل ، فاتق الله اسوء علم ما يقول » .

وكان يقول : لا شيء أحق بطول سجن من لسان .
وكان يقال : لسانك سبع ، إن أطلقته أكلت .
فى حكمة آل داود : حقيق على العاقل أن يكون عارفاً بزمانه ، حافظاً لسانه ، مقبلاً على شأنه .

وكان يقال : من علم أن كلامه من عمله ، أقل كلامه فيها لا ينفعه .
وقال محمد بن واسع : حفظ اللسان أشد على الناس من حفظ الديار والهمم .

اجتمع أربعة حكماء : من الروم ، والفرس ، والهند ، والصين ، فقال أحدهم : أنا
أندم على ماقلت ولا أندم على ما لم أقُل : وقال الآخر : إذا تكلمت بالكلمة ملكتني ،
ولم أملكها ، وإذا لم أتكلم ملكتها ولم يملكني . وقال الآخر : عجبت لتكلم ؛
إن رجعت عليه كلمته خسرته ، وإن لم ترجع لم تنفعه ، وقال الرابع : أنا على ردِّ ما لم أقُل
أقدر متى على ردِّ ماقلت .

• • •

[ذكر الآثار الواردة في آفات اللسان]

واعلم أن آفات اللسان كثيرة :

فمنها الكلام فيما لا يملك ؛ وهو أخطر آفات اللسان ، ومع ذلك فهو عيب ،
قال النبي صلى الله عليه وآله : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » .
وروى أنه عليه السلام مرَّ بكنيسة يوم أحد ، فقال أصحابه : ههنا له الجنة اقل :
وما يدريك لعله كان يتكلم فيما لا يملكه !

وقال ابن عباس : خمس هي أحسن وأمنع من حُرِّ النِّم : لا تتكلم فيما لا يملكه ،
فإنه فضل لا آمن عليه الوزر . ولا تتكلم فيما يملك حق تَجَدُّ له موصفاً ، فربَّ ما تكلم
في أمر يملكه قد وضعه في غير موضعه فأساء . ولا تُنكر حليماً ولا سفياً ، فإن الحليم يُقلِّبك ،
والسفيه يؤذيك . واذكر أخاك إذا تغيَّب عنك بما تحب أن يذكره به ، وأعفه عما تحب
أن يُغفِّرك عنه . واعمل كل رجل يرى أنه محازي بالإحسان ، مأخوذ بالجرائم .

• • •

ومنها فضول الكلام وكثرته ، وترك الاختصار ؛ وكان يقال : فضول المنطق وزيادته
نقص في العقل ، وما ضدان متنافيان ، كلما زاد أحدهما نقص الآخر .

وقال عبدالله بن مسعود : إياكم وفضول الكلام ؛ حُبُّ امرئ ما بلغه حاجته .
وكان يقال : مَنْ كَثُرَ كلامُهُ كَثُرَ سقطُهُ .

وقال الحسن : فضولُ الكلام كفضول المال ، كلاهما مهلك

ومنها الخوض في الباطل ، والحديث فيما لا يعمل ، كحديث النساء ومحالس الخمر .
ومقامات الفساق ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْفَاسِقِينَ ﴾ ^(١) .

ومنها المراء ^(٢) والجدال ، قال عليه السلام : « دَعِ المِراءَ وَإِنْ كُنْتَ بِحَقٍّ » .
وقال مالك بن أنس : المِراءُ يَهْشِي القلب ، ويورِث الصَّعْثان .
وقال سفيان الثوري : لو خالفتُ أخِي في رُمانةٍ فَقَالَ : حُلوةٌ ، وقلت : حامضةٌ ،
لَسُمِّيَ بِي إِلَى السُّلْطَانِ .

وكان يقال : صَافٍ مَنْ شَتَّ نَمَ أَصْبَهُ بِالْجِدَالِ وَالْمِراءِ ؛ فَلْيَرْمِيكَ بِدَاهِيَةٍ
تَمْنَعُكَ الْمِيشَ .

وقيل لميمون بن مهران : مالك لا تفارق أحبا لك عن قلبي ؟ قال : لأتِي لأشاريه ،
ولا أماريه .

ومنها التعمُّر في الكلام بالتشدد ، والتكلف في الأنفاذ ، قال النبي صلى الله عليه وآله

(١) سورة الدثر ٤٥ .

(٢) المراء ، ومثله ماري بخاري : كثرة التارعة والاباحة في القول

«أبغضكم إلى، وأبغضكم متى يجالس يوم القيامة الثرثارون^(١) المضميقون^(٢) المتشدقون^(٣)». وقال عليه السلام : « هلك المتعطلون . . . » ، ثلاث مرات ، والتعطل : هو المتعطل والاستقصاء .

وقل عمر : إن شقائق الكلام من شقائق الشيطان .

ومنها الفعش والنسب والبذاء^(٤) قال النبي صلى الله عليه وآله : « إياكم والفعش ؛ فإن الله لا يحب الفعش ، ولا يرضى الفعش » .

وقل عليه السلام : « ليس المؤمن بالطعان ، ولا بالقعان ، ولا بالتبأب ، ولا بالهذي » . وقال عليه السلام : « لو كان الفعش رجلاً لكان رجلاً سوء » .

ومنها المراح الخارج عن قانون الشريعة^(٥) وكان يقال : من مراح استغف به . وكان يقال : المراح حل لا ينتج إلا الشر .

ومنها الوعد الكاذب ؛ وقد قال النبي صلى الله عليه وآله : المدة دين ، وقد أنى الله سبحانه على إسماعيل ، فقال : « إنه كان صادق الوعد »^(٦) ، وقال سبحانه : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ »^(٧) .

(١) الثرثارون : الذين يكثر الكلام ؛ سلفاً ونجاوراً وخروجاً من الحق ، وأصله من العين الواحدة من عيون الماء ، يقال : عين ثرثرة .

(٢) المضميقون ، أصله من قوهم : « فويل للندى يهق ، إذا ابتلا » ، فلم يكن فيه موضع مزيد .

(٣) المتشدقون : المتوسعون في الكلام من غير احتياط واحتراز واللسان ؛ ولعل : « أراد بالمتشدق : المتهمى بالناس ، يلوي شدة هم وعليهم » .

(٤) البذاء ، ما يقع : السفه والفعش في المطلق .

(٥) سورة مريم ٥٤ .

(٦) سورة المائدة ١ .

ومنها الكذب في القول واليمين ، والأمر فيها مشهور .

• • •

ومنها العيبة ، وقد تقدم القول فيها .

• • •

قوله عليه السلام : «وملئهم الاقتصاد» ؛ أي لبس باليمين جدًّا ، ولا بالحقر جدًّا ، كالخرق التي تؤخذ من قلى الزابل ؛ والسكنه أمرٌ بين أمرين ؛ وكان عليه السلام يلبس الكرايس ، وهو الخمام الغليظ ؛ وكذلك كان عمر رضى الله عنه . وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يلبس اللين تارة ، والخشين أخرى .

قوله عليه السلام : «ومشبههم التواضع» ؛ تفديره : وصفة مشبههم التواضع ، حذف للمضاف ، وهذا مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ وَأَقْبِضْ يَدَيْكَ وَأَغْمِضْ مِنْ صَوْتِكَ ﴾ ^(١) . رأى محمد بن واسع ابنًا له يمشي ، وهو يتبعه ويمس في مشيته ، فصاح به ، فأقبل ، فقال له : وبك أفرحت نفسك لقصدت في مشيك ، أما أملك غامةً ابتعتها بمائة درهم وأما أبوك فلا أكثر أفة في الناس من أمثاله !

والأصل في هذا الباب ، قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ ^(٢) .

وقوله : « خضوا أبصاركم » أي خفصوها وغمصوها ، وغضضت طرفي عن كذا : احملت مكروهه .

وقوله : « وقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم » أي لم يشغلوا سمعهم بشيء غير العلوم النافعة ؛ أي لم يشغلوا بسماع شعر ولا غناء ولا أحاديث أهل الدنيا .

(١) سورة لقمان ١٩ .

(٢) سورة الإسراء ٣٧ .

قوله : « نزلت أنفسهم منهم في البلاء » ؛ كالذي نزلت في الرخاء » ، يعني أنهم قد طابوا غدا في البلاء ولشدّة كطيب أنفسهم بأحوالهم في الرخاء والنعمة ؛ وذلك لقلة مبالاتهم بشدائد الدنيا ومصائبها ، وتقدير الكلام من جهة الاعراب : نزلت أنفسهم منهم في حال البلاء نزولا كالنزول الذي نزلته منهم في حال الرخاء ، فوضع « كالذي » نصب ؛ لأنه صفة مصدر محذوف ، والموصول قد حذف المائد إليه ، وهو الهاء في « نزلته » كقولك : ضربت الذي ضربت ؛ أي ضربت الذي ضربته .

ثم قال عليه السلام : إنهم من شدة شوقهم إلى الجنة ، ومن شدة خوفهم من النار ، تسكاد أرواحهم أن تفارق أجسادهم ، لولا أن الله تعالى ضرب لهم آجالا ينتهون إليها . ثم ذكر أن الخالق لما عظم في أعينهم استصغروا كل شيء دونه ، وصاروا لشدة بغيهم ومكاشفتهم ، كن رأى الجنة فهو يثتم فيها ، وكن رأى النار وهو يندب فيها ، ولا ريب أن من يشاهد هاتين الحالتين ، يكون على قدم عظيمة من العبادة والخوف والرجاء ، وهذا مقام جليل ، ومنه قوله عليه السلام في حق نفسه : « لو كشف الغطاء ما ازددت بقيتا » . والواو في « الجنة » واو « مع » ، وقد روى بالمعطف بالرفع على أنه مطوف على « م » ، والأول أحسن .

ثم وصفهم بحزن القلوب ، وبخافة الأجسام ، وحقنة الأنفس وحقنة الحوائج ، وأن شروهم مأمونة على الناس ، وأنهم صبروا صبرا يسيرا أحق بهم نيا طويلا . ثم أجادهم فقال : تجارة مريجة ، أي تجارتهم تجارة مريجة ، لحذف المبتدأ . وروى : « تجارة مريجة » ، بالنصب على أنه مصدر محذوف الفعل .

قوله : « أما الليل » بالنصب على الظرفية ، وروى « أما الليل » على الإجداء . قوله : « قالين » ؛ منصوب على أنه حال ؛ إما من الضمير المرفوع بالفاعلية في « صائقون » أو من الضمير المجرور بالاضافة في : « أقداسهم » .

والترتيل: التبيين والإيضاح؛ وهو ضد لإسراع العجل ويروى: «يرتلونه» على أن الضير يعود إلى القرآن، والرواية الأولى يعود الضير فيها إلى أجزاء القرآن.

قوله: «يحزنون به أنفسهم»، أى يستعلبون لها الحزن به، ويستثيرون به دواء دأهم؛ إشارة إلى البكاء، فإنه دواء داء الحزين، قال الشاعر:

فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ الْبُكَاءَ لَرَّاحَةٌ به يشتى من ظن أن لانا لافيا

وقال آخر:

شَمَاكَ مِنْ لِبَتِكَ الطُّولُ فَالدَّمْعُ مِنْ عَيْنِكَ مَسْدُولُ

وهو إذا امت تاملته حُرٌّ على الخدين تحلولُ

ثم ذكر أنهم إذا مرؤوا بآية فيها ذكر الثواب مالوا إليها، واطمأنوا بها، طمأنينة، وتطلعت أنفسهم إليها شوقاً، أى اشتراقت إليه، ونصب أعينهم منصوب على الظرفية، وروى بالرفع؛ على أنه خبر إن؛ والظن هاهنا يمكن أن يكون على حقيقته، ويمكن أن يكون بمعنى العلم، كقوله تعالى: ﴿أَلَا يَنْظُرُ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾^(١).

وأصمى إلى الكلام: مال إليه بسعه. وزفير النار: صوتها

وقد جاء في فضل قراءة القرآن شيء كثير، روى عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ نِمَ رَأَى أَنَّ أَحَدًا أَوْ نَى أَفْضَلَ عَمَّا أَوْ نَى قَدْ اسْتَصْنَرَ مَا عَظَّمَهُ اللَّهُ».

وقال صلى الله عليه وآله: «لو كان القرآن في إهاب ما مسته النار».

وقال: «أفضل عبادة أمتي قراءة القرآن».

وقال : « أهل القرآن أهل الله وخاصته » .

وقال : « إن هذه القلوب تصدأ كاصدأ الحديد » ، قيل : فما جلاؤها ؟ قال :
« تلاوة القرآن وذكر اللوت » .

وقال عليه السلام : « إن الله سبحانه لأشد أذناً^(١) إلى قارئ القرآن من صاحب
القبنة إلى قيئته » .

وقال الحسن رحمه الله : مادون القرآن من غنى ، ولا بعد القرآن من فاقة .



ثم ذكر عليه السلام صورة صلاتهم وركوعهم ، فقال : « حائون على أوساطهم ؛
حنيت الدود : عطفته ، يصف هيئة ركوعهم وانحنائهم في الصلاة .
مفترشون لجباههم : باسطون لها على الأرض .

ثم ذكر الأعضاء السبعة التي مباشرتها بالأرض في الفروض في الصلاة ، وهي : الجبهة ،
والكفان ، والركبتان ، والقدمان .

قوله عليه السلام : « يطلبون إلى الله » ، أى يسألونه ، يقال : طلبت إليك كذا ،
أى سألتك ، والكلام على الحقيقة ، مقدّر فيه حال محذوفة يملق بها حرف الجر ، أى
يطلبون سائلين إلى الله في فسك رقابهم ؛ لأن « طلب » لا يتعدى بحرف الجر

ثم لما فرغ من ذكر الليل ، قال : « وأما النهار فلهاء ، عطاء ، أبرار أتقوا » ، هذه الصفات
هى التى يطلع عليها الناظرون لهم نهاراً ، وتلك الصفات للخدمة من وظائف الليل .

ثم ذكر مامّ عليه من الخوف ، فقال عليه السلام : « إن خوفهم قد برأهم يرمى

(١) الأند : الاستماع .

القداح» ، وهي السهام ، واحدها قدح ، فينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى وما بهم من مرض ، فظير هذا قول الشاعر^(١)

وَمَخْرَجِي عَنْهُ الْقَيْبُ تَحْسَالُهُ بَيْنَ الْبُيُوتِ مِنَ الْحِيَاءِ سَقِيماً^(٢)
حَقٌّ إِذَا رُفِعَ الْقَوَاءُ رَأَيْتَهُ تَحْتَ الْقَوَاءِ عَلَى الْخَبْثِ زَهِيماً^(٣)

ويقال للفقير لشدة خوفهم : كأنهم مراضى ، ولا مراض بهم . وتقول العرب
لكرام من الناس ، القليل للأكل والشرب ، رافعى اللباس الرفيع ، ذوى^(٤) الأجسام
الضعيفة : مراض من غير مرض ، ويقولون أيضاً للمرأة ذات الطرف الفضيف الفاتر ،
ذات السكسل : مريضة من غير مرض ، قال الشاعر :

ضِعْفٌ كَرَّ الطَّرْفُ مَحْسِبُ أَتَمَّا حَدِيثُهُ عَهْدُ الْإِفَاقَةِ مِنْ سَقَمٍ



(١) من آيات قبل الأجلية ، ذكرها أبو تمام في الحاسة ٤ : ١٦٠٧ - يفرح التبرى ، أولها :

يَأْيُهَا السَّدِيمُ الْمَلُوى رَأْسُهُ لِيُقُوْدَ مِنْ أَهْلِ الْحِجَازِ بَرِيحاً
أَتَرِيدُ تَخْرُونَ الْخَلِيعَ وَدِرْنَهُ كَغَبٍّ ، إِذَا لَوَجَدْتَهُ مَرُوماً

ون أمان القالى : ٢٤٨ : ١ • كان الأصمى يروى الجهد من نور الهلال • وانظر طبعات الكرى ٧٨ .

(٢) هل التبرى : • أى لا يزال كيف كان نياه لأنه لا يرى حبه ، إنما يرى حبه ويصون كرمه ،
وقيل : معناه أنه غلبت الناك ، وإذا كان كذلك أسرع الخرق إلى قبضه ، وقيل : أرادت أنه كثير
المروءات متصل الأسفار ، فقبضه منخرق لذلك . وقوله : • من الحياء سقياً • ، أى أنه ينتقع لونه من
شدة الحياء ، وإنما يستحي من ألا يكون قد بلغ من إكرام العلوم ما هو حبه •

(٣) الخبيث : الخبيث ؛ لأنه يكون من خبيث كائن ، أو خبيث صفة : المقدمة ، والبيئة ، والبسرة ،
والقلب ، والساق . وسمى الزميس زعيماً ، لأنه برعه عن قومه ، أى يقول

(٤) ب : ذوى • وصوابه من د .

[ذكر الخوف وما ورد فيه من الآثار]

واعلم أن الخوف مقام جليل من مقامات العارفين ، وهو أحد الأركان التي هي أصول هذا الفن ؛ وهو التقوى التي حث الله تعالى عليها ، وقال : **إِنَّ أَكْرَمَ النَّاسِ عِنْدَهُ أَشَدُّهُمْ خَوْفًا** . وفي هذه الآية وحدها كفاية ، وإذا نظرت القرآن العزيز وجدت أكثره ذكر الخوف ، ومن الخائفون ، وقال النبي صلى الله عليه وآله : **« مَنْ خَافَ اللَّهَ خَافَهُ كُلُّ شَيْءٍ ، وَمَنْ خَافَ غَيْرَ اللَّهِ خَوَّفَهُ اللَّهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ »** .

وقال عليه السلام : **« أَمُّكُمْ خَلَاءُكُمْ أَشَدُّكُمْ خَوْفًا ، وَأَحْسَنُكُمْ فَيَأْتِيَهُمْ بِهِ مِنْهُ »** .

وقال يحيى بن حماد : **سَكِنَ أَيْنَ آدَمُ ، لَمْ يَخَفِ النَّارَ كَمَا يَخَافُ الْفَقْرَ ، دَخَلَ الْجَنَّةَ .**
وقال ذو القنون المصري : **يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْخَوْفُ أَغْلَبَ مِنَ الرَّجَاءِ ؛ فَإِنَّ الرَّجَاءَ إِذَا غَلَبَ نَشَوَّشَ الْقَلْبَ .**

وقيل لبعض الصالحين : **مَنْ آمَنُ الْخَلْقِ خَدَا ؟** قال : **أَشَدُّهُمْ خَوْفًا الْيَوْمَ .**

وقيل لبعضهم : **يَا أَبَا سَعِيدَ ، كَيْفَ تَصْنَعُ بِمَجَالَةِ أَقْوَامٍ مِنْ أَصْحَابِكَ ، يَخَوْفُونَنَا حَتَّى تَسْكَدَ قُلُوبُنَا تَطِيرُ ؟** فقال : **إِنِّي وَاللَّهِ لَأَنْ تَصْعَبَ قَوْمًا يَخَوْفُونَكَ حَتَّى تَدْرِكَ الْأَمْنُ ، خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَصْعَبَ قَوْمًا يُؤْمِنُونَكَ حَتَّى يَدْرِكَكَ الْخَوْفُ .**

وقيل للنبي صلى الله عليه وآله في قوله تعالى : **﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ ﴾** ^(١) : **مِمَّنْ يَصُومُونَ وَيَحْفَظُونَ الْحَصِيَّةَ ؟** قال : **« لَا ، بَلِ الرَّجُلُ بِصَوْمٍ ، وَيَتَصَدَّقُ ، وَيَخَافُ لَا يَقْبَلُ مِنْهُ »** .

(١) سورة المؤمن ٦٠ .

وقال صلى الله عليه وآله : « ما من قطرة أحب إلى الله تعالى من قطرة دمع من خشية الله ، أو قطرة دم أريقت في سبيل الله » .

وقال عليه السلام : « سبعة يظنهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله » ؛ وذكر منهم رجلا ذكر الله في خلوة ، ففاضت عيناه .

• • •

قوله عليه السلام : « ويقول قد خولعوا » ؛ أى أصابهم جنة .

ثم قال : « ولقد خالطهم أمر عظيم » ، أى مارجهم خوف عظيم تولّوها لأجله ، فصاروا كالحائنين .

ثم ذكر أنهم لا يستكثرون في كثير من أعمالهم ، ولا يرضيهم اجتهدام ؛ وأنهم يتهمون أنفسهم ، وينسبونها إلى التقصير في العادة ، وإلى هذا نظر للتدبى ، فقال :

يَسْتَمْنِرُ الْخَطَرَ الْكَبِيرَ لِنَفْسِهِ وَيُظَنُّ دِجَّةً لَيْسَ تَكُنِي شَارِباً^(١)

قال : « ومن أعمالهم مشفقون » ؛ أى مشفقون من عباداتهم ألا تقبل ، وإلى هذا نظر أبو تمام ، فقال :

يَجْتَنِبُ الْإِثْمَ ثُمَّ يَخَافُهَا فَكَيْفَا حَسَنَاتُهُ آثَامُ

ومثل قوله : « أنا أعلم بنفسي من غيري » . قوله عليه السلام لمن ركّاه فاقا : « أما دون ما تقول ، وفوق ما في نفسك » .

وقوله : « اللهم لا تؤخذاني بما يقولون ... » إلى آخر الكلام مفرد مستقل بنفسه منقول عنه عليه السلام ؛ أنه قال لقوم مرّ عليهم وهم يحتلدون في أمره ، فهم الحامد له ، ومنهم اللائم ، فقال : اللهم لا تؤاخذني ... الكلمات إلى آخرها ، ومعناه : اللهم

إن كان ما ينسب إليه الدائمون إلى من الأفعال الموجبة للدم حقاً ، فلا تؤاخذني بذلك ،
واغفر لي ما لا يعلمونه من أفعالي ، وإن كان ما يقوله الحامدون حقاً ، فأجلى أفضل
مما يظنون في .



الأصل :

فَمِنْ عَلَامَةِ أَحَدِيْمٍ ؛ أَنْكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِي دِيْنٍ ، وَحَزْمًا فِي لِيْنٍ ، وَإِيْمَانًا فِي
يَقِيْنٍ ، وَحِرْصًا فِي عِلْمٍ ، وَعِلْمًا فِي حِلْمٍ ، وَتَصَدَّقًا فِي غِنَى ، وَخُشُوعًا فِي عِبَادَةٍ ، وَتَحَمُّلاً
فِي مَقَاتَةٍ ، وَصَبْرًا فِي شِدَّةٍ ، وَآثَارًا فِي حِلَالٍ ، وَنَشَاطًا فِي هُدًى ، وَتَعَرُّجًا عَنْ طَلْعٍ ،
بِعَمَلِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَهُوَ عَلَى وَجْهِ .

يُنْبِئُ وَهْمُهُ الشُّكْرُ ، وَتُصْبِحُ رَحْمَةُ الذِّكْرِ . يَبِيْتُ حَذِيراً ، وَيُصْبِحُ فَرِحاً ؛
حَذِيراً لَنَا حَذَرٌ مِنَ الْعَمَلَةِ ، وَفَرِحاً بِمَا أَصَابَ مِنَ الْعَصْرِ وَالرَّحْمَةِ .

إِنْ انْقَضَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيمَا تَكَرَّرَ ، لَمْ يُعْطِهَا سُؤَالَهَا فِيمَا نَحِبَ .
قُوَّةٌ قَتِيْبَةٍ فِيمَا لَا بَرُولُ ، وَرَهَادَةٌ فِيمَا لَا بَقَى ، يَمْزُجُ الْحِلْمَ بِالْعِلْمِ ،
وَالْقَوْلَ بِالْعَمَلِ .

تَرَاهُ قَرِيبًا أَمَلُهُ ، قَلِيلاً زَلَّتُهُ ؛ حَاشِياً قَلْبُهُ ، قَاسِيةً نَفْسُهُ ، مَنُزُوراً أَسْكَلُهُ ،
سَهْلاً أَمْرُهُ ، حَرِيْزاً دِيْنَهُ ، مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ ، مَكْطُوماً عَيْظُهُ .

الْخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ ، وَالشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ ، إِنْ كَانَ فِي الْإِفْلَاقِ كُتِبَ فِي الذَّاكِرِينَ ؛
وَإِنْ كَانَ فِي الذَّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْإِفْلَاقِ .

يَسْتَوْفُونَ ظَلَمَهُ ، وَيُطْعِمُونَ مِنْ حَرَمَتِهِ ، وَيَأْمِلُونَ مِنْ قَطْمَتِهِ ، أَمِيدًا فُحْشَتِهِ ، كَيْفًا
قَوْلُهُ ، غَانِبًا مُنْكَرُهُ ، حَاضِرًا مَمْرُوفُهُ ، مُقْبِلًا خَيْرُهُ ، مُذِيرًا شَرُّهُ .

فِي الزَّلَازِلِ وَتَوَرُّ ، وَفِي الْمَكَارِهِ مَبُورٌ ، وَفِي الرِّحَاءِ شَكُورٌ ، لَا يَحْيِفُ عَلَى
مَنْ يُبْفِضُ ، وَلَا يَأْتُمُ فِيمَنْ يُحِبُّ .

يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ ، لَا يُضِيعُ مَا اسْتَحْفِظَ ، وَلَا يَفْتِنُ مَا دُكِّرَ ،
وَلَا يُتَايَرُ بِالْأَلْقَابِ ، وَلَا يُصَارُّ بِالْجَارِ ، وَلَا يَشْتَتُ بِالصَّائِبِ ، وَلَا يَدْخُلُ فِي الْبَاطِلِ ،
وَلَا يَخْرُجُ مِنَ الْخَلْقِ .

إِنْ صَبَتْ لَمْ يَنْقُصْ عَشْتُهُ ، وَإِنْ ضَحِكَتْ لَمْ يَمَلْ صَوْتُهُ ، وَإِنْ أُمِيَ عَائِيهِ صَبْرُ حَقِّ
يَكُونُ اللَّهُ هُوَ الَّذِي يَنْتَقِمُ لَهُ .

نَفْسُهُ مِنْهُ فِي عَذَابٍ ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ ، أَنْتَ نَفْسُهُ لِأَجْرَتِهِ ، وَأَرَاخُ النَّاسِ
مِنْ نَفْسِهِ .

بُعْدُهُ عَنْ تَبَاعُدِ عَنِّهِ زُهْدٌ وَتَزَاهٍ ، وَدُنُوهُ يَمْنٌ مَا مِنْهُ ابْنُ وَرَاحَةٍ ، لَيْسَ
تَسَاعُدُهُ بِكِبَرٍ وَعَظَمَةٍ ، وَلَا دُنُوهُ بِعُسْرٍ وَحَدِيثَةٍ .

قال : فَصَرِّقْ هَامَّ صَمْفَةٍ كَانَتْ نَفْسُهُ فِيهَا ، فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ أَحَافِيًا عَائِيهِ .

ثم قال :

هَكَذَا تَصْنَعُ الْمَوَاطِئُ الْبَالِمَةُ بِأَهْلِهَا

فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ : فَمَا مَالُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

وَيْحَكَ ! إِنْ لَيْسَ أَجَلٌ وَقْتًا لَا يَمْدُودُهُ ، وَسَبَبًا لَا يَتَجَاوَزُهُ ، قَتْلًا لَا تَمُدُّ لَيْسَلِيًّا ،

فَمَا بَعْدَ تَفَثِ الشَّيْطَانِ عَلَى لِسَانِكَ !

البشرح :

هذه الألفاظ التي أولها : « قوة في دين » ؛ بعضها يتعلق بحرف الجر فيه بالظاهر ، فيكون موضعه نصباً بالفعولية ، وبعضها يتعلق بمحذوف ، فيكون موضعه نصباً أيضاً على الصفة ، ونحن نفصلها .

قوله : « قوة في دين » حرف الجر « ها هنا » متعلق بالظاهر ، وهو « قوة » ، تقول : فلان قوي في كذا وعلى كذا ، كما تقول : مرت بكذا ، وبأمت إلى كذا .

و « وحزماً في دين » ؛ ها هنا لا يتعلق بحرف الجر بالظاهر ؛ لأنه لا معنى له ، ألا ترى أنك لا تقول : فلان حازم في الدين ؛ لأن الدين ليس أمراً يحزم الإنسان فيه ، وليس كما تقول : فلان حارم في رأيه أو في تدينه ، فوجب أن يكون حرف الجر متعلقاً بمحذوف ، تقديره : وحزماً كأننا في دين .

وكذلك قوله : « وإيماناً في دين » ؛ حرف الجر متعلق بمحذوف : أي كأننا في دين ، أي مع يقين .

فإن قلت : الإيمان هو اليقين فكيف ، قال : « وإيماناً في دين » ؟ قلت : الإيمان هو الاعتقاد مصافاً إلى العمل ، واليقين هو سكون القلب فقط ، فأحدهما غير الآخر .

قوله : « وحزماً في علم » ، حرف الجر « ها هنا » يتعلق بالظاهر ، و « في » بمعنى « على » كقوله تعالى : ﴿ وَأَصْلَبْنَاهُمْ فِي خُدُوعِ الشَّجَرِ ﴾ ^(١) .

قوله : « وقصدنا في عني » حرف الجر متعلق بمحذوف ، أي هو مقصد مع كونه غنياً ، وليس يجوز أن يكون متعلقاً بالظاهر ، لأنه لا معنى لقولك : افترض في الدين ، إنما يقال : افترض في النفقة ؛ وذلك الاتصاف موصوف بأنه مقارن للدين ومجامع له .

- قوله : « وخشوعاً في عبادة » حرف الجر هاهنا يحتمل الأمرين معا .
- قوله : « وتجتلاً في فاقة » ، حرف الجر هاهنا متعلق بمخوف ، ولا يصح تعلقه بالظاهر ؛ لأنه إنما يقال : فلان يجتئل في لباسه ومروءته ؛ مع كونه ذا فاقة ؛ ولا يقال : يجتئل في الفاقة ؛ على أن يكون التجتئل متعلّفاً إلى الفاقة .
- قوله : « وصبراً في شدة » ، حرف الجر هاهنا يحتمل الأمرين .
- قوله : « وطلباً في حلال » حرف الجر هاهنا يتعلق بالظاهر و « في » بمعنى « اللام » ..
- قوله : « ونشاماً في هدى » حرف الجر هاهنا يحتمل الأمرين .
- قوله : « وتخرجاً عن طبع » ، حرف الجر هاهنا يتعلق بالظاهر لا غير .
- قوله : « بسبل الأعمال الصالحة وهو على وجل » قد تقدم مثله .

- قوله : « يسي وحة الشكر » ، هذه درجة عظيمة من درجات الصالحين ، وقد أثنى الله تعالى على الشكر والشاكرين في كتابه في مواضع كثيرة ، نحو قوله : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا إِلَيَّ وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾^(١) فقرن الشكر بالذكركر . وقال تعالى : ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ ﴾^(٢) وقال تعالى : ﴿ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾^(٣) .
- ولعلنا مرتبة الشكر طعن إبليس في بني آدم ، فقال : ﴿ وَلَا نَعْبُدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾^(٤) ، وقد صدقه الله تعالى في هذا القول فقال : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ يَّهَادِي الشُّكُورِ ﴾^(٥) .

(١) سورة الفرة ١٥٢ .

(٢) سورة النساء ١٤٧ .

(٣) سورة آل عمران ١٤٤ .

(٤) سورة الأعراف ١٧ .

(٥) سورة سبأ ١٣ .

وقال بعض أصحاب للماني : قد قطع الله تعالى بالزبد مع الشكر ولم يستثن ، فقال :
﴿ لَيْتَن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ ^(١) .

واستثنى في خمسة أمور : وهي الإغناء ، والإجابة ، والرزق ، والمغفرة ، والتوبة .
قال : ﴿ فَتَوَفَّ بِمَنِيَّتِكُمْ أَفَئِدَةً مِّنْ فَضْلِهِ إِن شَاءَ ﴾ ^(٢) .

وقال : ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ ﴾ ^(٣) .
وقال : ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ ﴾ ^(٤) .

وقال : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ ^(٥) .

وقال : ﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ ﴾ ^(٦) .

وقال بعضهم : كيف لا يكون الشكر مقاماً حليلاً ، وهو خلق من أخلاق الربوبية ،
قال تعالى في صفة نفسه : ﴿ وَاللَّهُ شَكُورٌ عَلِيمٌ ﴾ ^(٧) .

وقد جعل الله تعالى مفتاح كلام أهل الجنة ، فقال : ﴿ وَقَالُوا أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ ، وحمله حائمة كلامهم أيضا فقال : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴾ ^(٨) .

وقيل للنبي صلى الله عليه وآله : قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فبم تقوم
الليل ، وتغيب نفسك ؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً !

(٢) سورة التوبة ٢٨ .
(٤) سورة الشورى ١٩ .
(٦) سورة التوبة ١٥ .
(٨) سورة الزمر ٧٤ .

(١) سورة إبراهيم ٧ .
(٣) سورة الأنعام ٤١ .
(٥) سورة النساء ٤٨ .
(٧) سورة التائبين ١٧ .
(٩) سورة يونس ١٠ .

قوله عليه السلام : « وَيَصْبِحُ وَهُوَ الذَّكُّرُ » ، هذه أيضا درجة كبيرة عظيمة من درجات العارفين ، قال تعالى : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ ^(١) قال بعض العارفين لأصحابه : أنا أعلم متى يذكركم ربي ، ففرحوا به فقال : إذا ذكرته ذكركم ، وتلا الآية ، فسكتوا .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ ^(٢) .

وقال : ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ﴾ ^(٣) .

وقال : ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ ^(٤) .

وقال : ﴿ فَإِذَا قُمْتُمْ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُومًا وَكَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ ^(٥) .

وقال : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُومًا وَكَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ ^(٦) .

وقال في ذم المنافقين : ﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ^(٧) .

وقال : ﴿ وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي مَنَاسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ ^(٨) .

وقال : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ^(٩) .

وقال النبي صلى الله عليه وآله : « ذَاكِرُ اللَّهِ فِي الْغَافِلِينَ كَالشَّجَرَةِ الْخَضِرَاءِ فِي

وَسْطِ الْمَشِيمِ » .

وقال صلى الله عليه وآله : « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَرْتَعَ فِي رِيَاضِ الْجَنَّةِ ، فَلْيَكْثِرْ مِنْ

ذِكْرِ اللَّهِ » .

- (٢) سورة الأحزاب ٤١ .
(٤) سورة البقرة ٢٠٠ .
(٦) سورة آل عمران ١٩١ .
(٨) سورة الأعراف ٢٠٥ .

- (١) سورة البقرة ١٥٢ .
(٣) سورة مائدة ١٩٨ .
(٥) سورة النساء ١٠٣ .
(٧) سورة النساء ١١٢ .
(٩) سورة النكوب ٤٥ .

وسئل عليه السلام: أي الأعمال أفضل؟ قال: « أن تموت ولسانك رطب بذكر الله ». وقال صلى الله عليه وآله ، حكاية عن الله تعالى : « إذا ذكرني عبدي في نفسه ، ذكرته في نفسي ، وإذا ذكرني في ملا ذكرته في ملا خير من ملته ، وإذا تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً ، وإذا تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً ، وإذا مشى إلى هروئت إلى هـ » .

وقال صلى الله عليه وآله : « ما جلس قوم مجلساً يذكرون الله تعالى إلا حفت بهم الملائكة ، وعشيتهم الرحمة ، وذكروا الله فين عنده » .

• • •

قوله عليه السلام : « بيت حذر أو يصبح قريحاً ، حذراً لما حذر من الغفلة ، وفرحاً بما أصاب من الفضل والرحمة » .
وقد تقدم ذكر الخوف .

وقد عرض عليه السلام علينا بالرحمة للتعامل بالخوف ؛ فإن فرح العارف بما أصاب من الفضل والرحمة يمكن أن يحمل على أنه فرح بمجرد ما أصاب من فضل الله ورحمته . ويمكن أن يحمل على أنه فرح بما يرجوه من ثواب الله ونعيمه ؛ لذا استدل على وصوله إليه وقوي ظنه بظفره به ، بما جعل الله تعالى له من الفضل والرحمة في الدنيا ، ومقام الرجاء للعارفين مقام شريف ، وهو في مقابلة مقام الخوف ، وهو اللقائم الذي يوجد للعارف فيه فرحاً ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾ ^(١) .

وقال النبي صلى الله عليه وآله ، حكاية عن الله تعالى : « أنا عند ظن عبدي بي ، فليظن بي ما شاء » .

ودخل صلى الله عليه وآله على رجل من أصحابه ، وهو يحود بنفسه ، فقال : كيف تبهلك ؟ قال : أجِدُّني أخاف ذنوبي ، وأرجو رحمة ربي . فقال صلى الله عليه وآله : « ما اجتماع في قلب عبد في هذا الوطن إلا أعطاه الله ما رجاه ، وأمنه بما حافه » .

قوله عليه السلام : « إن استصعبت عليه شيء » ، أي صارت صعبة غير متفاداة ؛ يقول : إذا لم تطاوعه نفسه إلى ما هي كارهة له لم يعطها مرادها فيما تحته .

قوله عليه السلام : « قرء عليه فيما لا يزول » ، وزهاده فيما لا يبقى ، يقال للفرح للسرور : إنه آقرير للعين ، وقومته صيته نقر ، والمراد بردها ؛ لأن دمة السرور باردة ودمة الحزن حارة .

وهذا الكلام يحتمل أمرين :

أحدهما أن يسي بما لا يزول الباري سبحانه ، وهذا مقام شريف جداً أعظم من سائر المقامات ، وهو حب العارف لله سبحانه ، وقد أكره قوم فقالوا : لا معنى لحبة الباري إلا للواخبة على طاعته ، ونحو قول أصحابنا المتكلمين : إن محبة الله تعالى للمعبود هي إرادته ثوابه ، ومحبة المعبود للباري هي إرادته لطاعته ، فبيست المحبة عندهم شيئاً إذا على الإرادة ولا يجوز أن تتعلق بذات الله سبحانه ، لأن الإرادة لا تتعلق إلا بالحدوث ، وخالفهم شيخنا أبو الحسن ، فقال : إن الإرادة يمكن أن تتعلق بالهائى ، ذكر ذلك فى الكلام فى الأكواف فى أول التصفح ، فاما إثبات الحب فى الجملة فقد بطق به القرآن قال سبحانه : ﴿ يُحِبُّهُمْ

وَيُحِبُّونَهُ ﴿١﴾ . وقال أيضا : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ ﴿٢﴾ وقال : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ ﴿٣﴾ .

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وآله نظر إلى مُصَاصِ بْنِ عَمْرٍو مَقْبِلًا عَلَيْهِ إِهَابٌ كَبِشٍ قَدْ تَمَلَّقَ بِهِ ، فقال : « انظروا إلى الرجل الذي قد نور الله قلبه ، لقد رأيته بين أَيْوَمٍ يَمْدُوَاهُ بِأَطْيَبِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، فَمَدَاهُ حُبَّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى مَا تَرَوْنَ » .

وبقال : إِنْ هِيَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَرَّةً ثَلَاثَةً نَفَرٌ قَدْ نَحَلَتْ أَيْدَانَهُمْ ، وَتَذَوَّرَتْ أَلْوَانَهُمْ ، فقال : مَا الَّذِي بَلَغَ بِكُمْ مَا أَرَى ؟ قَالُوا : الْخَوْفُ مِنَ النَّارِ ، قَالَ : حَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُوْثِنَ مِنْ يَخَافِهِ ، ثُمَّ جَاوَزَهُمْ إِلَى ثَلَاثَةِ آخَرِينَ ، فَلِذَا هُمْ أَشَدُّ مَحْوَلًا وَتَعَبًا ، فقال : مَا الَّذِي بَلَغَ بِكُمْ مَا أَرَى ؟ قَالُوا : الشَّوْقُ إِلَى الْجَنَّةِ ، قَالَ : حَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَعْطِيَ مَنْ رَجَاهُ . ثُمَّ مَرَّ إِلَى ثَلَاثَةِ آخَرِينَ ، فَلِذَا هُمْ أَشَدُّ مَحْوَلًا ، وَعَلَى وُجُوهِهِمْ ، مِثْلُ الْمِرْآئِيِّ مِنَ النُّورِ ، فقال : مَا الَّذِي بَلَغَ بِكُمْ مَا أَرَى ؟ قَالُوا : حُبُّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، قَالَ : أَنْتُمْ الْمُقَرَّبُونَ ، ثَلَاثًا .

وقال بعض العارفين :

أَحْبَبَكَ حَبِيبِينَ : حَبُّ الْهَوَى	وَجِبًا لِأَنَّكَ أَهْلٌ لَهَا كَا
فَأَمَّا الَّذِي هُوَ حَبُّ الْهَوَى	فَشَغْلٌ بِذِكْرِكَ عَنْ سِوَا كَا
وَأَمَّا الَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ	فَكَشْفُكَ لِي الْحُبِّ حَقًّا أَرَا كَا
فَلَا الْحَدُّ مِنْ ذَا وَلَا ذَاكَ لِي	وَلَكِنْ لَكَ الْحَدُّ فِي ذَا وَذَا كَا

(١) سورة المائدة ٥٤ .

(٢) سورة البقرة ١٦٥ .

(٣) سورة آل عمران ١٣١ .

ليس يريد بكشف الحجب والرؤية ما بظنه الظاهريون من أنها الإبصار بالعين ؛ بل المعرفة التامة ؛ وذلك لأن المعارف النظرية يصح أن نصير ضرورية عند جمهور أصحابنا ، فهذا أحد محمل الكلام .

وثانيهما : أن يريد بما لا يزول ، نعم الجنة ، وهذا أدون المقامين ، لأن الخالص من العارفين يحبونه وبمشغوفه سبغاه لذاته ، لا خوفاً من النار ، ولا شوقاً إلى الجنة ، وقد قال بعضهم : لست أَرْضَى لِنَفْسِي أَنْ أَكُونَ كَأَجِيرٍ لِّلسَّوِّءِ ، إِنْ دُعِيتْ إِلَيْهِ الْأَجْرَةَ رِضْوَانًا وَفَرَحًا ، وَإِنْ مُنِعَ سَخَطٌ وَحُزْنٌ ، إِنَّمَا أَحِبُّهُ لِذَاتِهِ .

وقال بعض شعرائهم شعراً من جملة :

فَهَجَرُهُ أَعْظَمُ مِنْ بَارِهِ وَرَحْمَةُ أَطْيَبُ مِنْ جَنَّتِهِ

وقد جاء في كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) من هذا الكثير ، نحو قوله : « لم أعبده خوفاً ولا طمعا ، لكنني وجدته أهلاً للمباداة فعبدته » .

• • •

قوله عليه السلام : « يمزج الحلم بالحلم » ، أي لا يحلم إلا عن حلم بفصل الحلم ليس كما يحلم الجاهلون .

قوله : « والقول بالعمل » ، أي لا يقتصر على القول ، ومثل هذا قول الأحموس :

وَأَرَاكَ تَفْعَلُ مَا تَقُولُ وَبَعْضُهُمْ مَذِقُ الْإِنْسَانِ يَقُولُ مَا لَا يَفْعَلُ

قوله عليه السلام : « تراه قريباً أمه » ، أي ليست نفسه متعلقة بما عظم من آمال الدنيا ؛ وإنما قصارى أمره أن يؤمل القوت والملبس . قليلاً زلة : أي خطؤه .

قوله : « منزوراً أكله » ، أي قليلاً ، ويحمد من الإنسان الأكل النزر ، قال

أعشى باهلة :

تَكْفِيهِ حَزَّةٌ فَلْيَدِّ إِنَّ أَلَمَ بِهَا مِنْ الشَّوَاءِ وَيَكْفِي شُرْبَهُ الْغُسْرُ^(١)
وقال متعم بن نويرة :

لَقَدْ كَفَّنَ أَلَيْهَالُ تَحْتَ رِدَائِهِ قَتَى غَيْرَ مَنطَانَ الْعَشِيَّاتِ أَرْوَعًا^(٢)

قوله عليه السلام : « مكظوما غيظه » كظم العيظ من الأخلاق الشريفة ، قال زيد بن علي عليه السلام : « ما سرني بجرعة عيظٍ أحرَّعها وأصبر عليها حمر التعم » .
وجاء رجل إلى الربيع بن زياد الحارثي ، فقال : يا أبا عبد الرحمن ، إن فلانا يعتابك ويبالُ منك ، فقال : والله لأغيظنَّ مَنْ أمره بذلك ، قال الرجل : ومن أمره ؟ قال : للشيطان عدو الله ، استغواء ليؤثمه ، وأراد أن يُفصِّبني عليه فأكافته ، والله لا أعطيه ما أحبُّ من ذلك . غفر الله لنا وله .

وجيَّه^(٣) إنسان على عمر بن عبد العزيز فقال : أظنك أردت أن يستغفرني الشيطان عزَّ السلطان ، فأبال منك اليوم ما أتاك متى غدا . أنصرف ما قال الله .
وقال النبي صلى الله عليه وآله : « الْمُغَضَّبُ بِقِيْدِ الْإِيْمَانِ ، كَابِقِيْدِ الصَّرِ الْمَسْلِ » .
وقال إسان لرسول الله صلى الله عليه وآله : أوصني ، فقال : « لا تغضب » ، فأطاد عليه السؤال ، فقال : « لا تغضب » ، فقال : « ردي » ، فقال : « لا أجد مزيدا » .
ومن كلام بعض الحكماء لا يبق عزُّ الغضب بذلة الاعتذار .



(١) من قصيدة له في ديوان الأعشى ٢٦٨ ، الكامل ٤ : ٦٥ ، ٦٦ ، أمالي المرفوعة ١ : ٩٦ الفلا :
لعنة من الكبد ؟ ولا يقال إلا للحم ، والفر - كسر دس اللهح الصغير ، والحزة : القطة الصغيرة ورواية الكامل
تَكْفِيهِ فَلْيَدِّ كِبْدٌ إِنَّ أَلَمَ بِهَا •

(٢) من قصيدة له في الكامل ٤ : ٧٧-٧٤ ، والمصليات ٢٦٥-٢٧٠ . والنهال ، هو ابن عصة
الرياحي ، كمن مالكا في نوبه . مير معاني العتات : لا يسجل بالمشاء ، ويتطر السيفان . الأرواح : الذي
إذا رأيته رأيتك بجماله وحسنه .
(٣) الجيَّه هنا : السعامة .
(٤ - ٤) ساقط من م .

قوله : « إن كان في العاقلين » ؛ معناه أنه لا يزال ذا كرامة الله تعالى ، سواء كان جالسا مع العاقلين أو مع الذاكرين ؛ أما إذا كان مع العاقلين فإنه يذكر الله بقلبه ، وأما إذا كان مع الذاكرين فإنه يذكره بقلبه ولسانه .

قوله عليه السلام : « يَغْفُو عَنْ ظَلَمِهِ ، وَيُعْطِي مِنْ حَرَمِهِ ، وَيُصِل مَنْ قَطَعَهُ » ؛ من كلام المسيح عليه السلام في الإنجيل : « أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ ، وَصَلُّوا قَاطِعِيَكُمْ ، وَاعْبُوا عَنْ ظَالِمِيكُمْ ، وَبَارِكُوا عَلَى لَاعِنَيْكُمْ ؛ لِكَيْ تَكُونُوا أَبْنَاءَ أَبِيكُمْ الَّذِي فِي السَّمَاءِ ، الَّذِي يَشْرِقُ شَمْسُهُ عَلَى الصَّالِحِينَ وَالْفَاجِرَةِ ، وَيَنْزِلُ مَطَرُهُ عَلَى الْمُطِيعِينَ وَالْآثِمَةِ » .

قوله عليه السلام : « نَعِيدَا فُحُشَهُ » ؛ ليس يعني به أنه قد يُفْحِشُ تَارَةً ، ويترك الفحش تارات ، بل لا فُحُشَ له أصلا ، فكفى من العدم بالحمد ؛ لأنه قريب منه .
قوله : « لَيْتَنَا قَوْلُهُ » ، الماروف سلم أطلق الرحمة لَيْنَ القول ، وفي صفات النبي صلى الله عليه وآله : « لَيْسَ بَغْظًا وَلَا صَخَابًا » .

قوله : « فِي الزَّلَازِلِ وَقُورٍ » ؛ أي لا تحرُّك الخطوب الطارقة ، ويقال : إِنَّ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يُصَلِّي ، فَوَقَفَتْ عَلَيْهِ حَيَّةٌ ، فَلَمْ يَتَحَرَّكْ لَهَا ، ثُمَّ انْسَابَتْ بَيْنَ قَدَمَيْهِ فَمَا حَرَّكَ إِحْدَاهُمَا عَنْ مَكَانِهِ ، وَلَا تَمَيَّرَ لَوْنَهُ .

قوله : « لَا يَحِيفُ عَلَى مَنْ يَبْغِضُ » ، هذا من الأخلاق الشريفة النبوية ، وفي كلام أبي بكر في صفات مَنْ يَصْلَحُ لِلْإِمَامَةِ : إِنْ رَضِيَ لَمْ يَدْحِلْهُ رِضَا فِي بَاطِلٍ ، وَإِنْ غَضِبَ لَمْ يَخْرِجْهُ غَضَبُهُ عَنِ الْحَقِّ .

قوله : « يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ » ؛ لأنه إِنْ أَنْكَرَ ثُمَّ شُهِدَ عَلَيْهِ فَقَدْ ثَبِتَ كَذِبُهُ ، وَإِنْ سَكَتَ ثُمَّ شُهِدَ عَلَيْهِ فَقَدْ قَامَ نَفْسُهُ فِي مَقَامِ الرَّيْبَةِ .

قوله : « ولا يضار بالألقاب » ؛ هذا من قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾^(١) .

قوله : « ولا يضار بالجار » ، في الحديث المرفوع : « أوصاني ربي بالجار حتى ظننت أن يورثه » .

قوله : « ولا يشمت بالمصاب » ؛ نظير قول الشاعر :

فَلَسْتُ تَرَاهُ شَامِقًا بِمَصِيبَةٍ وَلَا جَزَمًا مِنْ طَارِقِ الْخَدَّائِ

قوله : « إن صمت لم يفته صمته » ؛ أي لا يميز لقوات الكلام ، لأنه يرى الصمت منيما لا مفرما .

قوله : « وإن ضحك لم يعل صوت » ؛ هكذا كان ضحك رسول الله صلى الله عليه وآله ، أكثره التبس ، وقد يفرأ أحبا ، ولم يكن من أهل القهقهة والكثرة .

قول : « وإن بنى عليه صبر » ؛ هذا من قول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ يُفِيءُ عَلَيْهِمْ لَيْتُصَّرَتْهُ أَلَهُ ﴾^(٢) .

قوله : « نفسه منه في عناء لأنه يجمعها بالمهادة » ، والناس لا ياتقون منه عنتا ولا أذى ، فغالط بالنسبة إليه خلاف حال نفسه بالنسبة إليه .

قوله : « فصق هام » ، أغنى عليه ومات ، قال الله تعالى : ﴿ فَصَقَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾^(٣) .

• • •

(١) سورة المجرات ١١ .

(٢) سورة الحج ٦٠ .

(٣) سورة الزمر ٦٨ .

[ذكر بعض أحوال العارفين]

واعلم أن الوجد أمرٌ شريف ، قد اختلف الناس^(١) فيه ، قالت الحكماء فيه أقوالاً ، وقالت الصوفية فيه أقوالاً ؛ أما الحكماء فقالوا : الوجد^(٢) هو حالة تحدث للنفس عند انقطاع علاقتها عن المحسوسات بفترة ، إذا كان قد ورَدَ عليها رادٌ مُشوّق . وقال بعضهم : الوجد هو اتصال النفس بمبادئها المجردة عند سماع ما يقتضى ذلك الاتصال .
وأما الصوفية فقد قال بعضهم : الوجد رفع الحجاب ، ومشاهدة المحسوب . وحضور الفهم ، وملاحظة الغيب ، ومحادثة السر ؛ وهو قَلْبُكَ من حيث أنت أنت . وقال بعضهم : الوجد ميراث الله عند العارفين وكاشفة من الحق توجب القضاء عن الحق .

والأقوال فيه متقاربة في المعنى وإن اختلفت^(٣) العبارة ، وقدمت كثير من الناس بالوجد عند سماع وعظ ، أو صفقة^(٤) مطرب ، والأخبار في هذا الباب كثيرة جداً ، وقد رأينا نحن في زماننا من مات بذلك لحاة .

• • •

قوله : « كانت نفسه فيها » ، أى مات . ونفث الشيطان على لسانك ، أى تكلم بلسانك ، وأصله النفخ بالهم ، وهو أقل من التنفل ؛ وإنما هى أمير المؤمنين القائل : « فهلاً أنت يا أمير المؤمنين ! » لأنه اعترض في غير موضع الاعتراض ، وذلك أنه لا يلزم من موت العاصي عند وعظ العارف أن يموت العارف عند وعظ نفسه ، لأن أعمال العاصي ذى الاستعداد التام للموت عند سماع اللواعظ البالغة أتم من استعداد العارف عند سماع كلام

(١) د : « قدامى الناس » (٢) صائفة من ب (٣) الأصول : اجل .

(٤) صفقة مطرب ، من صفقت النود ؛ إذا حركت أوتاره لمسطق (المان) .

نفسه ، أو الفكر في كلام نفسه ، لأن نفس العارف قوية جداً ، والآلة التي يحفر بها
الطين قد لا يحفر بها الحجر .

فإن قلت : فإن جواب أمير المؤمنين عليه السلام السائل غير هذا الجواب ؟
قلت : صدقت ، إنما أجابه من حيث يعلم هو والسامعون ، وتصيل أفهامهم إليه ،
تخرج معه إلى حديث الآجال ، وأنها أوقات مقدرة لا تتعداها ، وما كان يمكنه عليه السلام
أن يذكر الفرق بين نفسه ونفوسهم ، ولا كانت الحال تقتضيه ، فأجابه بجواب مُشكِتٍ ؛
وهو مع إسكانه الخضم حقاً وعُدل من جواب يحصل منه اضطراب ، ويقع فيه تشويش ،
وهذا نهاية السداد وصحة القول .



(١٨٧)

الأصل .

ومن خطبة له عليه السلام يصف فيها المنافقين :

نَحْمَدُهُ عَلَى مَا وَفَّقَ لَهُ مِنَ الطَّاعَةِ ، وَذَادَ عَنْهُ مِنَ الْفُصِيَّةِ ، وَنَسَأَ لَهُ لِيَنْتَهِيَ نَحْمَا ،
وَلِيَعْبُدَهُ اِعْتِمَامًا .

وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، حَاصِنًا إِلَى رِضْوَانِ أَهْلِ كُلِّ عَمْرَةٍ ، وَنَجْرَعُ
فِيهِ كُلَّ عُمْدَةٍ ، وَقَدْ تَلَوْنَ لَهُ الْأَذُنُونَ ، وَقَالَتْ عَلَيْهِ الْأَفْصُونَ ، وَخَدَّاتُ عَلَيْهِ ^(١)
الْمَرْبُ أَعْيَنْتَهَا ، وَضَرَبْتَ إِلَى مُخَارَاتِهِ ^{يُطْلُونَ رَوَّاحِيَهَا} ، حَقٌّ أَنْزَلْتَ بِسَاحَةِ هَدَاوَتِهَا ،
مِنْ أَتَمِّ الدَّارِ ، وَأَشْحَقِ الْمَرَارِ .

أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَأَحْدَرُكُمْ أَهْلَ السَّمَاءِ ، قَائِمُ الْمَالُونَ الْمُضِلُونَ ،
وَالزَّالُونَ الْمُزِلُونَ ، يَتَلَوْنُونَ الْقُرْآنَ ، وَيَخْتَنُونَ اِعْتِمَادًا ، وَيَسِيدُونَكُمْ بِكُلِّ حَادٍ ،
وَيَرْصُدُونَكُمْ بِكُلِّ مِرْصَادٍ .

قُلُوبُهُمْ دَوِيَّةٌ ، وَصِفَاهُمْ خَفِيَّةٌ . يَمُشُونَ الْخَفَاءَ ، وَيَذِبُونَ الضَّرَاءَ ، وَصَنَمُهُمْ
دَوَالٍ ، وَقَوْلُهُمْ شِفَاءٌ ، وَفِعْلُهُمْ الدَّاءُ الْعِيَاءُ ؛ حَسَدَةُ الرَّجَاءِ ، وَمَوْتُ كَذْوِ الْبِلَاءِ ،
وَمُقْطِعُ الرَّجَاءِ . لَهُمْ بِكُلِّ طَرِيقٍ مَرِيعٌ ، وَإِلَى كُلِّ قَلْبٍ شَفِيعٌ ، وَلِكُلِّ
شَجْوٍ دُمُوعٌ .

بِقَرَارِ صَوْنِ النَّمَاءِ ، وَيَتَرَفَعُونَ الْجَرَاءَ ؛ إِنْ سَأَلُوا أَخْلَفُوا ، وَإِنْ هَدَّوْا كَشَفُوا ،
وَإِنْ حَكَّوْا أَمْرَفُوا .

قَدْ أَعَدُّوا لِكُلِّ حَقٍّ بَاطِلًا ، وَلِكُلِّ قَائِمٍ مَائِلًا ، وَلِكُلِّ حَقٍّ قَائِلًا ، وَلِكُلِّ
بَابٍ مِفْتَاحًا ، وَلِكُلِّ لَيْلٍ مِصْبَاحًا ، يَتَوَصَّلُونَ إِلَى الطَّعْنِ بِالنَّيَاسِ لِيَقْبِضُوا بِهِ أَسْوَأَهُمْ ،
وَيَنْفِقُوا بِهِ أَغْلَاقَهُمْ ؛ يَقُولُونَ فَيْشَبَّهُونَ ، وَبَصِيفُونَ فَيَمُوتُ هُونًا . قَدْ هَوَّنُوا الطَّرِيقَ ،
وَأَضَلُّوا النَّصِيقَ ؛ فَهُمْ لَمَّةُ الشَّيْطَانِ ، وَحَمَّةُ الذَّبَرَانِ : ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ
حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَالِيسُونَ ﴾ ^(١) .

التبنيخ :

الضبير في « هـ » وهو الماء راجعٌ إلى « ما » التي بمعنى « القى » ، وقيل : بل هو
راجع إلى الله سبحانه ، كأنه قال : « محمدٌ على ما وفق من طاعته » ، والصحيح هو الأول ،
لأن « هـ » في الفقرة الأولى بإرسل « هـ » في الفقرة الثانية . والماء في « هـ » ليست
عائدة إلى « الله » وذاد : طرد ، والمصدر الذبادب .

وخاض كلَّ غمرة ، مثل قولك : ارتكك كلَّ مهلكة ، وتغنم كلَّ هول .
والغمرة : ما ردم أكثر من الماء ، وكذلك من الناس ، والجمع عمار .
والعصاة : الشجاة ، والجمع غصص .

وتلَوْن له الأدنُون : تدير عليه أفكاره الواما .

وتألب عليه الأفسون : تجمع عليه الأعدون عنه نهباً .

وحملت إليه العرب أعنتها ، مثل ، معناه أوجفوا إليه مسرعين لمحاربتها ، لأن الخيل
إذا خلعت أعنتها كان أسرع لجرها .

وضربت إلى محاربتها بطون دواجلها ، كناية عن إسراع العرب نحوه لمحاربته ؛

لأنّ الرواحل إذا ضربت بطونها لتساقى كان أوحى لها ؛ ومراده أنهم كانوا فرسانا وركيانيا .

قوله : « حتى أزلت بساحته عداوتها » ؛ أى حربها ، فمير عنها بالعداوة ؛ لأنّ العداوة سبب الحرب ، فمير بالسبب عن السبب ؛ مازلنا نطأ السماء حتى أتيتك ؛ يعنون الماء ، لما كان اعتقادهم أنّ السماء سبب الماء .

واسعق الزار ، أبعد ؛ مكان سعيق ، أى ، بعيد ، والسعق ضم التسين : البعد ، بقل . « سَعَقًا » ؛ ويجوز ضم الحاء ، كما قالوا : عُشْرٌ وَعُسْرٌ ، وسَعَقٌ الشئ ، بالضم ، أى ، بعد ، وأسعقه الله أسده . والمرار : للكان الذى يرار منه ، أو للكان الذى يزار فيه ، والمراد هاهنا هو الأول ومن قرأ كتب السيرة علم ملاقى رسول الله صلى الله عليه وآله فى ذات الله سبحانه من الشقة ، واستهزاء قريش به فى أول الدعوة ، ورميهم إياه بالحجارة ، حتى أدموا عقيقته ، وصياح الصبيان به ، وقرئت الكرش على رأيه ، وقيل الذوب فى غمقه وحضره وحضر أهله فى شعب بنى هاشم سبعين عدة ، محرمة معاماتهم ومبايعتهم ومساكنهم وكلامهم ، حتى كادوا يموتون جوعاً ، لولا أنّ بعض من كان يحنوا لرحيم أو لسبب غيره ، فهو يسرق الشئ القليل من العقيق أو النمر فيأقيه إليهم ليلاً ، ثم ضربهم أصحابه وتعذبهم بالجوع والوثاق فى الشمس ، وطردهم إلام عن شعاب مكة ، حتى خرج من حرج منهم إلى الحبشة ، وخرج عليه السلام مستعبداً منهم تارة بثقيف ، وتارة ببني عامر ، وتارة بربيعة القرس ، وبنيهم . ثم أجمعوا على قتله والعنك به ليلاً ، حتى هرب منهم لاثناً بالأوتس والخزرج ، تاركاً أهله وأولاده ، ولأحوتة يده ، ناجياً بحشاشة نفسه ، حتى وصل إلى المدينة ؛ فهاصبوه الحرب ورموه بالناسر^(١) والكثائب ، وضربوا إليه أباط الإبل ،

(١) الناسر : قطعة من الجيش الكبير .

ولم يزل منهم في عناء شديد ، وحروب مقصدة ، حتى أكرمهم الله تعالى ونصره ،
وأيد دينه وأظهره . ومن له أنس بالتواريخ يعلم من تفاصيل هذه الأحوال ما يطول
شرحه .

سمى النفاق نفاقاً من النفاق ، وهي بيت اليرئوع ، له بابان يدخل من أحدهما ،
ويخرج من الآخر ، وكذلك الذي يظهر ديناً ويبطن غيره .

والضالون المصلون : الذين يضلون أنفسهم ويضلون غيرهم ؛ وكذلك الزالون للزلون ؛
زل فلان عن الأمر ، أى أخطأ ، وأرله غيره .

قوله : « يغتثون » يغتثون فوس ، أى ضروباً .
وبعيدوكم ، أى يهدوكم ويندحوكم ؛ يقال : عمد الرض بعينه ، أى هدته ،
ومنه قولهم للماشي : عميد القلب .

قوله : « بعاد » ، أى تأمر فادح وخطب مؤلم ، وأصل العمد الشدح سأم البعير ،
وماصيه : عمد السام بالكسر ، عمداً فهو عمد

ويرصدوكم : يعدون السكايد لكم ، أرصدت . أعددت ، ومنه في الحديث : « ألا
أن أرصد له بين علي » .

وقلب دوى ، بالتخفيف ، أى فاسد ، من داء أصابه ، وامرأة دوية ، فإذا قلت : رجل
دوى ، بالفتح ، استوى فيه الذكر والمؤن والجماعة ، لأنه مصدر في الأصل ، ومن روى :
« دوية » بالشديد ، قلب ثمده ، فلما شدده ليقابل « نقية » .

والصفاح : جمع صفحة الوجه وهي ظاهره ، يقول : باطنهم عليل ، وظاهرهم صحيح .
يمشون الخفاء ، أى في الخفاء ، ثم حذف الجار فنصب ، وكذلك يدتوث الصرّاء ،

والضراء : شجر الوادي للثقف ، وهذا مثل بضرب لمن يحتمل صاحبه ، يقال : هو يدبته
الضراء ويمشي له الخمر ، وهو جرف الوادي .

ثم قال : « وصفهم داء ، وقولهم شفاء ، وفعلهم الداء القياء » ؛ أي أقوالهم أقوال
الزاهدين السابدين ، وأفعالهم أفعال الناسقين الفاجرين . والداء القياء : الذي
يُسمى الأساة .

ثم قال : « حدة الرخاء » يحذون على انهم . « ومؤكدة البلاء » ، إذا وقع واحد
من الناس في بلاء أكدوه عليه بالتمنيات ولعناتهم ، وإغراء السلطان به ، ولقد أحسن
أبو الطيب في قوله بدم البشر :

وَكُنَّا لَمْ يَرْضَ فَيَا رَبِّ الدَّهْرِ حَتَّى أَعَاهَ مَنْ أَعَانَا^(١)
كُنَّا أَبَتِ الزَّمَانُ قَنَاءَ رَكْبِ الْمَرْءِ فِي الْقَنَاءِ سِنَانَا
« ومقنطو الرخاء » ، أي أهل الرخاء ، أي يبدلون بشروهم وأذاهم رجاء
الراحي قموطا .

قوله : « وإلى كل قلب شفيح » ، بصف خلاصة أمتهم وشدة ملقهم ، فقد استعوزوا
على قلوب الناس بالرياء والنصنع .

قوله : « ولكل شحود دموع » ، الشحود : الحزن ، أي يبكون تباكيا وتعللا للاحق ،
عند أهل كل حزن ومصاب .

يتفاد صون الشفاء ، أي ينشئ ربه على عمرو ، لينشئ عمرو عليه في ذلك المجلس ، أو يبلغه
فيتننى عليه في مجلس آخر ، مأخوذ من القرض .

وبتراقبون الجزاء : يرتقب كل واحد منهم على ثأنه ومدحه لصاحبه جراءه

إِذَا لَمَلَّ أَوْ بَامِرٍ آخِرٍ ، نَحْوُ ثَنَاءِ بَنِي عَلَيْهِ ، أَوْ شَفَاعَةِ يَشْفَعُ لَهُ ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ .
وَالْإِلْحَافُ فِي السُّؤَالِ : الْاسْتِقْصَاءُ فِيهِ ، وَهُوَ مَذْمُومٌ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَا يَسْأَلُونَ
النَّاسَ الْإِخْلَافَ ﴾ (١) .

قوله : « وإن عَذَّبُوا كُشِفُوا » ، أى إذا عَذَّبْنَا أَحَدَهُمْ كُشِفَ عِوَبُكَ فِي ذَلِكَ الْقَوْمِ
وَالْمَذَلِّ ، وَجَنَّتْ بِهَا ، وَرِغْمًا لَا يَسْتَعِى أَنْ يَذْكُرَهَا لَكَ بِمَحْضَرٍ عَنْ لَا تُحِبُّ ذِكْرَهَا
بِمَحْضَرِهِ ، وَلَيْسُوا كَالنَّاصِحِينَ عَلَى الْحَقِيقَةِ ، الَّذِينَ يَرْضَوْنَ عِنْدَ الْمَتَابِ بِالذَّنْبِ تَمْرِيضًا لَطِيفًا
لِيَقْلَمَ الْإِنْسَانُ عَنْهُ .

وإن حكموا أسرفوا، إذا سأل أحدكم فتوة ختة في مالك أسرف ولم يمنع بشيء، وأحب الاستئصال.

فدأء ذوا الكُلِّ حقَّ باطلاً ، يَظهِمون الباطلَ في معارضة الحقِّ ، والشبهة في مصادمة الحقِّ .
ولكلِّ دليلٍ قائمٍ وقولٍ صحيحٍ ثَمَاتٌ ، اِجْتِعاها ماثِلاً مضاداً لذلك الدليل ،
وكلاماً مضطرباً لذلك القول .

ولكل باب مفتاحا ؛ أي السهم ذبقة قادرة على فتح العَلَقَاتِ ، لِطَلْفِ تَوَحُّلِهِمْ ،
وَنَظَرِ مَلَطِهِمْ .

ولكل ليل مصباحا ؛ أي كل أمر مظلم فقد أضاء له كلاما ينيره ويصديه ، ويجعله كالصباح الطارء ليل .

وَيَتَوَصَّلُونَ إِلَى مَطَامِعِهِمْ بِإِظْهَارِ الْيَأْسِ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ ، وَبِالزَّهْدِ فِي الدُّنْيَا . وَفِي
الْآخِرِ : شَرِّكُمْ مَنْ أَخَذَ الدُّنْيَا بِالْدِّينِ .

ثم قال : إِنَّمَا فَعَلُوا ذَلِكَ لِيُعْسِرُوا بِهِ أَسْوَأَ أَهْلِهِمْ ، أَي لِيُتَفَقَّحَ مِنْهُمْ .

(١) سورة البقرة ٢٧٤ .

والأعلاق : جمع علق ، وهو السلعة الثمينة .

يقولون فيشبهون ، يوقمون الشبه في القلوب .

وبصننون فيمتهون ؛ التوبة الترين ، وأصله أن تطل الحديد بذهب يحسها

قد هيئوا الطريق ، أى الطريق الباطل قد هيئوها لتلك بتوبيهاتهم .

وأضلعوا المضيق : أمالوه ، وجعلوه صلعاً ، أى معوجاً ، أى جعلوا للهلك المضيق

وجاً بكلامهم وتلبسهم ، فإذا أسكروه إساءة أعوج لاعوجاجه .

واللثة : بالتخفيف : الجماعة ، واللثة بالتعريف أيضا : السم ، وكفى عن إحراق النار

باللثة للشابهة في الضررة .

(١٨٨)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَظْهَرَ مِنْ آثَارِ سُلْطَانِهِ ، وَجَلَّالِ كِبَرِيَّاتِهِ ؛ مَا حَيَّرَ مَقْلَ الْعُقُولِ
مِنْ تَجَانُّبِ قُدْرَتِهِ ، وَرَدَّعَ خَطَرَاتِ مَهَامِرِ النُّفُوسِ عَنْ هِرْغَانِ كُنْهِ صِنْتِهِ . وَأَشْهَدُ
أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ؛ شَهَادَةَ إِيْمَانٍ وَإِقَانٍ ، وَإِخْلَاصٍ وَإِدْعَانٍ . وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا
عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، أَرْسَلَهُ وَأَعْلَامُ الْهَدْيِ دَارِيَّةً ، وَمَنَاجِيحُ الدِّينِ طَائِيَّةً ، فَصَدَّعَ بِالْحَقِّ ،
وَنَصَحَ لِلْخَلْقِ ، وَهَدَى إِلَى الرُّشْدِ ؛ وَأَمَرَ بِالْقَصْدِ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ !

وَأَمَّا تَعْبَادُ اللَّهِ ؛ أَنَّهُ لَمْ يَخْتَفِكُمْ حَبْنًا ، وَلَمْ يُرْسِلْكُمْ هَمَلًا ؛ عَلِمَ مَبْلَغَ نِيَمِهِ
عَلَيْكُمْ ، وَأَخَصَّ إِحْسَانَهُ إِلَيْكُمْ ؛ فَاسْتَفْتَحُوهُ وَأَسْتَنْجِحُوهُ ، وَأَطْلُبُوا إِلَيْهِ
وَأَسْتَمِيعُوهُ ؛ فَمَا قَطَعَكُمْ عَنْهُ حِجَابٌ ، وَلَا أَعْلَقَ عَنْكُمْ دُونُهُ بَابٌ .

وَأَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ مَكَانٍ ؛ وَفِي كُلِّ حِينٍ وَأَوَانٍ ، وَمَعَ كُلِّ إِسْرٍ وَجَانٍ ، لَا يَشْلِيهِ
الْمَطَاءُ ، وَلَا يَنْقُصُهُ الْجَبَاءُ ، وَلَا يَنْفَعِدُهُ السَّائِلُ ، وَلَا يَنْقُصِيهِ نَائِلٌ ، وَلَا يَلْوِيهِ
شَخْصٌ مِنْ شَخْصٍ ، وَلَا يُبْلِيهِ صَوْتٌ مِنْ صَوْتٍ ، وَلَا تَحْجِزُهُ هَيْبَةٌ عَنْ سَلْبٍ ،
وَلَا يَشْلُهُ غَضَبٌ عَنْ رَحْمَةٍ ، وَلَا تُوَالِيهِ رَحْمَةٌ عَنْ عِقَابٍ ، وَلَا يُجِنُّهُ الْبُطُونُ مِنَ
الظُّهُورِ ، وَلَا يَقْطَعُهُ الظُّهُورُ عَنْ الْبُطُونِ .

قَرُبَ قَنَائِي ، وَعَلَا فِدَائِي ، وَظَهَرَ فَبْطَنِي ، وَبَطَنَ فَسَلَنِي ، وَدَانَ وَلَمْ يَدْنِ .
لَمْ يَذَرِ الْأَخْلَاقَ بِأَحْتِيَالِهِ ، وَلَا أَسْتَعَانَ بِهِمْ لِكَلَالِهِ .

أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ ؛ فَإِنَّهَا الرِّمَامُ وَالْقِيَامُ ، فَتَمَسَّكُوا بِوَتَائِقِهَا ،
وَأَعْتَصِمُوا بِحَقَائِقِهَا ، تَوَلَّ بِكُمْ إِلَى أَكْثَانِ الدُّعَا ، وَأَوْطَانِ السَّعَةِ ، وَمَعَاوِلِ الْحَرْزِ ،
وَمَنَازِلِ الْعِزِّ ؛ فِي يَوْمِ تَشْجَعُ فِيهِ الْأَنْصَارُ ، وَتُطْلِمُ لَهُ الْأَفْطَارُ ، وَتُعْطِلُ فِيهِ صُرُومُ
الْعِشَارِ ، وَتُفْتَحُ فِي الصُّورِ ؛ فَتَرْهَقُ كُلُّ مُنْهَعَةٍ ؛ وَتَبْسُكُمُ كُلُّ لَهْجَةٍ ، وَتَذِلُّ الشُّمُ
الشَّوَامِخُ ، وَالْعُشْمُ الرَّوَاسِخُ ؛ فَيَصِيرُ صَدُّهَا سَرَانًا رَقْرَاقًا ، وَمَمْلُوكًا قَاعًا تَمْلُكًا ؛
فَلَا شَفِيعَ يَشْفَعُ ، وَلَا حَاجِمَ يَنْفَعُ ، وَلَا مَعْذِرَةَ تَذْفَعُ .

• • •

البُيُوتُ

أظهر سبحانه من آثار سلطانه ، محر خلق الأفلاك ودخول بعضها في بعض ، كالشمس
التي يشتعل على المسائل ، وفلك التدوير وغيرها ؛ ونحو خلق الإنسان وما تملك
كتب الشريعة من عجيب الحكمة فيه ؛ ونحو خلق النبات والمعادن ، وترتيب العناصر
وعلاماتها ، والآثار العلوية المتجددة ، حسب تعدد أسبابها ، ما حير عقول هؤلاء ، وأشعر
بأنها إذا لم يحيط بتفاصيل تلك الحكيم مع أنها مصنوعة (١) ، فالأولى ألا تحيط بالصانع
الذي هو يرى عن المادة وعلائق الحس .

والقل : جمع مقلعة ؛ وهي شجرة العين التي تجمع السواد والبياض ؛ ومقلت الشيء :
نظرت إليه بمقلتي ؛ وأضاف للقل إلى « المقلوع » مجازاً ، ومراده البصائر .

وردد : زجر ودفع . وهامم النفوس : أفسكارها وما يهيمهم به عند التمثيل والروية
في الأمر ، وأصل المهمة ، صُوِيْتُ يسم ، لا ينهم محصولة

والعرفان : المعرفة ، وكنه الشيء : هبايته وأقصاه . والإيقان : العلم القطعي ، والإذعان : الاقبياد . والأعلام : المنار والجبال يستدل بها في الطرقات .

والنصائح : السبل الواضحة والطامسة كالمدارسة . وصدع بالحق : بين ، وأصله الشق يظهر ماتحته . ويقال : نصعت زيدا ، وهو أفصح من قولك : نصعت زيدا .
والقصد : العدل .

والعبث . مالا غرض فيه ، أو مالميس فيه غرض مثله ، والمهل : الإبل بلا راع ؛ وقد أهملت الإبل : أرسلتها سدى .

قوله : « علم مبلغ نعمة عليكم ، وأحصى إحسانه إليكم » ، أى هو عالم بكيفية إسمائه عليكم علما مفصلا ؛ وكل من علم قدر نعمته على غيره كان أحرى أن نشكره ونمته عليه عند عصيانه له وجراته عليه ، بخلافه من يحول قدر نعمته على المير ؛ فإنه لا يشتد غضبه لأنه لا يعلم قدر نعمته المكفورة .

قوله : « فاستفتحوه » ، أى اطلبوا منه الفتح عليكم والنصر لكم .

واستنجحوه : اطلبوا منه النجاح والظفر .

واطأوا إليه ، أى أسألوه ، يقال : طلبت إلى زيد كذا وفى كذا .

واستمعوه ، بكسر النون : اطلبوا منه المنفعة ، وهى المطية . وبرى : « واستمعوه »
بالياء ، استمعت الرجل : طلبت عطاءه ، ومحت بالرحل : أعطيته .

ثم ذكر عليه السلام أنه لا يجلب بمنع عنه ، ولادونه باب يفتق ، وأنه بكل مكان موجود ، وفى كل حين وأوان ، والراد بوحوده فى كل مكان إحاطة علمه ؛ وهو معنى قوله

تعالى : ﴿تَابِعُونَ مِنْ تَبَوَّيْ ثَلَاثَةً إِلَّا هُوَ رَأْسُهُمْ﴾^(١) ، وقوله سبحانه : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ﴾^(٢) .

قوله : « لا يتبعه المطاء » بالكسر : لا يتقص قدرته .

والجباء : النوال ولا يستنفذه ، أى لا يفتيه .

ولا يستقصيه : لا يبلغ الجود أقصى مقدوره وإن عظم الجود ، لأنه قادر على ما لا نهاية له .

ولا يلويه شخص عن شخص : لا يوجب ما يخله لشخص أو مع شخص إضرارا ودهولا عن شخص آخر ؛ بل هو عالم بالجميع ، لا يشمله شأن عن شأن . لوى الرجل وجهه ، أى أعرض وانحرف ، ومثل هذا أراد بقوله : « ولا يلويه صوت عن صوت » ، الهاء كذا ، أى شأله .

ولا تحجزه - بالنعم - هبة عن سلب : أى لا يمنعه ، أى ليس كالقادرين بالقدره مثلنا ؛ فإن الواحد منا بصرفه اهتمامه بقطعة زبد من سلب مال عمرو ، حالما يكون مهما بملك العطية ، لأن اشتغال القلب بأحد الأمرين يشمله عن الآخر .

ومثل هذا قوله : « ولا يشمله غصب من رحمة ، ولا توليه رحمة عن عقاب » ، أى لا تحدث الرحمة لمستحقها عنده ولها ، وهو التعبد والتردد ، ونصرفه عن عقاب المستحق ؛ وذلك لأن الواحد منا إذا رحيم إنسانا حدث عنده رقة ، خصوصا إذا توالت منه الرحمة لقوم ممددين ، فإنه يصير الرحمة كالمسكة عنده ، فلا يطبق مع تلك الحال أن ينتقم ، والبارئ تعالى بخلاف ذلك ؛ لأنه ليس بذي مزاج سبحانه .

ولا يجه البطلون من الظهور ، ولا يقطع الظهور عن البطلون ؛ هذه كلها مصادر بطلان

(١) سورة الحاقة ٧ .

(٢) سورة الحديد ٤ .

بَطُّونا أى نَفَقَى ، وظاهر ظهوراً ، أى تجلَّى ، بقول : لا يمنعه خفاؤه عن العقول أن تدركه عند ظهوره بأفعاله وإن لم يكن ظاهراً بذاته ، وكذلك لا يقطعه ظهوره بأفعاله عن أن يخفى كُتُّه عن إنبار العقول وإدراكها له . ويقال : احتشنت كذا ، أى سترته ، ومنه الجنين ، والجنة الأترس ، وسمى الجنُّ جنّاً لاستنارهم .

ثم زاد المعنى تأكيداً فقال : « قُرْبُ مائى » ؛ أى قرب فعلا فنأى ذاتاً ، أى أفعاله قد تُعلم ؛ ولكن ذاته لا تعلم .

ثم قال : « وعلا فدنا » ؛ أى لما علا من أن تحيط به العقول عرفته العقول ، لأنها عرفت ذاته ، لكن عرفت أنه شيء لا يصح أن يعرف ، وذلك خاصته سبحانه ، فإن ماهيته يستحيل أن تصور للعقل لا في الدنيا ولا في الآخرة ، بخلاف غيره من المكنات . ثم أكد المعنى بمباراة أخرى ، قال : « وظهر قهظن ، وطقن فعلان » ، وهذا مثل الأول . ودان : غلب وقهر ، ولم يُدَنَّ ؛ لم يقهر ولم يعلب .

ثم قال : « لم يذرا الخلق باحتيال » ؛ أى لم يخفهم بحيلة توصل بها إلى إيجادهم ، بل أوجدتهم على حسب حيلة المصلحة خلقاً محترعاً من غير سبب ولا واسطة .

قال : « ولا استعان بهم لكالال » ، أى لإحياء ، أى لم يأمر المكلفين بالجهاد لحاجته في قهر أعدائه ، وجاحدى نعمته إليهم ؛ وليس بكالٍ ولا عاجز عن إهلاكهم ، ولكن الحكمة اقتضت ذلك ، قال سبحانه : « وَلَوْ لَا دَفْعُ أَفْئِدَةِ النَّاسِ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ أَفْسَدَتِ الْأَرْضُ » (١) ، أى لبطل التكليف .

ثم ذكر أن التقوى قوام الطاعات التي تقوم بها ، وزمام العبادات لأنها تمسك وتحصن ؛ كزمام الناقة للمنع لها من الخطأ .

والوثائق : جمع وثيقة ، وهي ما يوثق به . وحقائقها جمع حقيقة ؛ وهي آراية ؛ يقال : فلان حامي الحقيقة .

قوله : « تَوَلَّى » بالجزم ، لأنه جواب الأمر ؛ أى ترجع .

والأكنان : جمع كِنَ وهو الستر . والدَّعة : الراحة . السَّعة : الجِدَّة . والمائل : جمع متَّيل ، وهو اللجأ . والخُرَز : الحفظ . وتشمس الأبصار : تبقى مفتوحة لا تطرف .
والأقطار : الجوانب . والشُّروم : جمع صُرْم وصِرْمة ، وهي القطعة من الإبل نحو الثلاثين .

والعِشار : التوقأى عليهما من يوم أرسل الفعل فيها عشرة أشهر فرأى اسمها اسم الخاض ولا يزال ذلك اسمها حتى تَضَع ، والواحدة عُشْرَاء ، وهذان قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ (١) ، أى تركت سيّبة مهدلة لا يلتفت إليها أربابها ، ولا يحلبونها لاشتغالهم بأنفسهم .

وتزهد كل مهجة : تهك . وتبكم كل لمعة : أى تخرس ، رجل ابكم وبكم ، والماضى بكم بالكسر .

والشَّمَّ للشوامخ : الجبال العالية ، وذُلَّها : تدكدها ؛ وهي أيضا الصَّمَّ الرواسخ .
فيصير صلابها - وهو الصلب الشديد انصلاجه - مراباً ، وهو ما يترأى في النهار فيظن ماء .

والرقراق : الخفيف . وممهدا : ما جل منها منزلاً للناس . قاعا : أرضاً خالية .
والسَّمَلَق : الصلغف للمستوى ، ليس منه أرفع وبمنه أخفض .

(١٨٩)

الأفضل :

ومن خطبة له عليه السلام :

لَمَّا حِينَ لَا عِلْمَ قَائِمٌ ، وَلَا مَنَارٌ سَاطِعٌ ، وَلَا مَنَهِجٌ وَاضِحٌ .
أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَأَحْذَرُكُمْ الدُّنْيَا ، فَإِنَّهَا دَارُ شُغُوصٍ ، وَنَحْلَةٍ
تَنْفِيصٍ ، مَا رَكِبَهَا ظَالِمٌ ، وَفَاطَهَا بَاطِلٌ .

تَمِيدُ بِأَهْلِهَا مَيِّدَانِ السَّيْفَةِ ، تَقْصِفُهَا التَّوَاصِيفُ فِي بَلَجِ الْبَحَارِ ، فَمِنْهُمْ الْعَرِيقُ
الْوَبِيقُ ، وَمِنْهُمْ النَّاحِي عَلَى نَظْوَةِ الْأَمْوَاجِ ، تَحْفِزُهُ الرِّيحُ بِأَذْيَالِهَا ، وَتَحْمِلُهُ عَلَى
أَهْوَالِهَا ، فَمَا غَرِقَ مِنْهَا فَلَيْسَ بِمُسْتَدْرِكٍ ، وَمَا بَجَا مِنْهَا قَالَى مَهْلِكٌ .

عِبَادَ اللَّهِ ! الْآنَ فَاعْلَمُوا ، وَالْأَلْسُنُ مُطْلَقَةٌ ، وَالْأَبْدَانُ صَحِيحَةٌ ، وَالْأَعْضَاءُ لَذَنَةٌ ،
وَالْمُنْقَلَبُ قَسِيحٌ ، وَالْمَجَالُ قَرِيبٌ ؛ قَبْلَ إِزْهَاقِ الْقَوْتِ ، وَحُلُولِ الْمَوْتِ ؛ فَحَقِّقُوا
عَلَيْكُمْ تَزْوُلَهُ ، وَلَا تَنْتَظِرُوا قُدُومَهُ .

الجزء :

يقول : بمثل الله سبحانه محمدا صلى الله عليه وآله لما لم يبق علمٌ يهتدى به المكلفون ؛
لأنه كان زمان الفترة وتبدل المصلحة ، وانقضاء وجوب اللطف عليه سبحانه تجديداً
لبسته ؛ ليعرف المبعوث المكلفين الأفعال التي تقر بهم من فعل الواجبات العقلية ، وتبطل
عن المقبحات الفعلية .

وَنَنذِرُ السَّاطِعَ : للارتفاع . سَطَعَ الصَّبْحُ سَطُوعًا : ارتفع .

وَدَارُ شَخْوَصَ : دار رحلة شَخْصٍ من البلد : رحل عنه .

وَالظَّاعِنُ : للسافر . وَالظَّاطِنُ : للقيم . وَالْبَائِثُ : البعيد . بقول : ما كن الدنيا ليس بها كن على الحقيقة ، بل هو ظاعن في المعنى وإن كان في الصورة ساكنًا ، والقيم بها مفارق ؛ وإن ظن أنه مقيم .

وَتَمِيدُ بِأَهْلِهَا : تتحرك وتميل . وَالْيَدَانِ : حركة واضطراب .

وَتَصْنَعُهَا الْعَوَاصِفُ : تضربها بشدة ، ضربًا بعد ضرب . وَالْعَوَاصِفُ : الرياح القوية .

لَللَّجَجِ : جمع لجعة ، وهي معظم البحر .

الْوَيْقُ : الهالك ، وَيَقُ الرِّجْلُ بِالْفَتْحِ ، وَيَقُ وَيُوقَا : هلك ، وَالْوَيْقُ منه كالموعد « مَفْعِل » من وعد يعد ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ^(١) » وفيه لغة أخرى : وَيَقُ الرِّجْلُ يَوْبِقُ وَيَبِقًا ، وفيه لغة ثالثة : وَيَقُ الرِّجْلُ ، بالكسر يَبِقُ بالكسر أيضًا ، وَأَوْبِقَهُ لَقَّةٌ ، أى أهلكه .

وَنَحْزُهُ الرِّيحُ ، تدفعه . ضَرْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَهْلِ الدُّنْيَا مِثْلًا بِرَأْيِ السَّيْفِيَّةِ فِي الْبَحْرِ ، وَقَدْ مَادَتْ بِهِمْ ، فَضَمُّهُمُ الْهَالِكُ عَلَى الْفُورِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَتِمَّجَلُ هَلَاكُهُ ، وَنَحْمَلُهُ الرِّيحَ سَاعَةً أَوْ سَاعَاتٍ ، ثُمَّ مَالَهُ إِلَى الْهَلَاكِ أَيْضًا .

ثُمَّ أَمَرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْعَمَلِ وَقَدْ الْإِمْكَانُ قَبْلَ الْإِمْكَانِ الْعَمَلِ ، فَكَفَى عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : وَالْأَلْسُنُ مَنْطِقَةٌ ، لِأَنَّ الْمُحْتَضَرَ يُعْتَقَلُ لِسَانُهُ ، وَالْأَبْدَانُ مَجْمُوعَةٌ ، لِأَنَّ الْمُحْتَضَرَ سَقِيمُ الْبَدَنِ . وَالْأَعْضَاءُ لِدُنَّةٍ ، أى لينة ، أى قبل الشيوخوخة والمهرم ويس

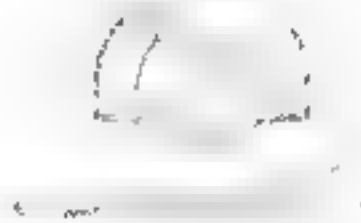
(١) سورة الكهف ٥٢ .

الأعضاء والأعصاب . وللقلب فسح ، والجبال مريض ، أى أيام الشيبة وفي الوقت والأجل مهلة ، قبل أن يضيق الوقت عليكم .

قبل إرحاق النفوت ، أى قبل أن يحملكم النفوت - وهو فوات الأمر وتذرا استدراكه عليكم - مرهقين ، والمرهق : الذى أدرك ليقتل ، قال الكهيت :

تَنذَى أَكْثَرُهُمْ وَفِي أُنْيَاتِهِمْ رَحْمَةُ الْمَحَاوِرِ وَالْمُضَافِ لِلرَّهَقِ^(١)

قوله : « فحشوا عليكم زولته ، ولا تنتظروا قدومه » ، أى اعملوا عمل من يشاهد الموت حقيقة ، لا عمل من ينتظره انتظارا وبطاول الأوقات مطاوعة ، فإن النسويف داعية التقصير .



(١) الصراح واللسان (رهن) .

(١٩٠)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

وَلَقَدْ عَلِمَ الْمُتَحَفِّظُونَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَنِّي لَمْ أَرُدْ عَلَى
اللَّهِ وَلَا عَلَى رَسُولِهِ سَاعَةً قَطُّ ، وَلَقَدْ وَاسَيْتُهُ بِنَفْسِي فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي تَنْكُصُ فِيهَا
الْأَبْطَالُ ، وَتَتَأَخَّرُ الْأَقْدَامُ ، تَجِدَّةً أَكْرَمَنِي اللَّهُ بِهَا .

وَلَقَدْ قُبِيسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنْ رَأَسَهُ لَعَلَّيْ صَدْرِي ، وَلَقَدْ سَالَتْ
نَفْسِي فِي سَكَنِي ، فَأَمَرْتُهَا عَلَى وَجْهِهِ وَلَقَدْ وُلِّيتُ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاللَّائِكَةَ
أَعْوَانِي ؛ فَضَجَّتِ الدَّارُ وَالْأَفْنِيَّةُ : مَلَأَ يَهِيظُ ، وَمَلَأَ يَرْجُ ، وَمَا فَارَقَتْ تَمِيهِ هَيْبَتُهُ
مِنْهُمْ ، يُصَلُّونَ عَلَيْهِ ، حَتَّى وَارَيْنَاهُ فِي ضَرْبِ نَجْمٍ وَفَمَنْ حَاكَ حَقُّ بِهِ مِنْ حَيَا وَمَيِّتًا ؛
فَانْقَضُوا عَلَى بَصَائِرِكُمْ ، وَلَتَصْدُقْ نِيَّاتُكُمْ فِي جِهَادِ عَدُوِّكُمْ ، فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ إِنِّي لَعَلَّيْ جَادَّةُ الْحَقِّ ، وَإِنَّهُمْ لَعَلَّيْ مَرَّةُ الْبَاطِلِ .
أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ .

•••

الشرح :

يمكن أن يعنى بالمستحفظين الخلفاء الذين تقدموا؛ لأنهم الذين استعفظوا الإسلام؛
أى جيلوا حافظين له ، وحارسين لشريعته ولخوزيته ، ويجوز أن يعنى به العلماء والفضلاء
من الصحابة ، لأنهم استعفظوا الكتاب ، أى كفوا حفظه وحراسته .

والظاهر أنه يرمز في قوله عليه السلام : « لم أرد على الله ، ولا على رسوله ساعة قط » إلى أمور وقفت من غيره ، كما جرى يوم الحديبية عند سطر كتاب الصلح ؛ فإن بعض الصحابة^(١) أنكر ذلك ، وقال : يا رسول الله ، ألسنا للسلين ؟ قال : بلى ، قال : أوليسوا الكافرين ؟ قال : بلى ، قال : فكيف نعطى الدنيا في ديننا ا فقال صلى الله عليه وآله : « إنما أحمل بما أوتى به » فقال قوم من الصحابة : ألم يكن قد وعدنا بدخول مكة أوهنا نحن قد صددنا عنها ثم نتصرف بعد أن أعطينا الدنيا في ديننا ، والله لو أجد أعواناً لم أعط الدنيا أبداً ، فقال أبو بكر لهذا القائل : ويحك ! ألزم غرزه^(٢) ، فوالله إنه لرسول الله صلى الله عليه وآله ، وإن الله لا يضيعه .

ثم قال له : أقال لك : إنه سيدخلها هذا العام ؟ قال : لا ، قال : فيدخلها . فلما فتح النبي صلى الله عليه وآله مكة ، وأخذ مفاتيح الكعبة دعا فقال : هذا الذي وعدتم به .



واعلم أن هذا الخبر صحيح لا ريب فيه ، والناس كلهم رووه ، وليس عندي بغير ولا مستحسن أن يكون سؤال هذا الشخص لرسول الله صلى الله عليه وآله كما سأله عنه على سبيل الاسترشاد ، والتماساً لطمانينة النفس ، فقد قال الله تعالى نطليه إبراهيم : (أَوَلَمْ تُؤْمِنْ) قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ لَّيْطَمَئِنَّ قُلُوبُنَا^(٣) . وقد كانت الصحابة تراجع رسول الله صلى الله عليه وآله في الأمور ، وتسأله عما يستقيم عليها وتقول له : أهذا منك أم من الله أو قال له السعدان^(٤) رحمهما الله يوم الخندق ، وقد عزم على مصالحة الأحزاب ببعض تمر المدينة : أهذا من الله أم رأى رأيت من نفسك ؟ قل : بل من نفسي ؛ قالوا : لا ، والله لا نعطيه منها ثمرة واحدة وأيدينا في مقابض سيوفنا !

(١) هو عمر بن الخطاب ، وانظر سيرة ابن هشام ٣ : ٣٣١ (طحة الحلي) .

(٢) الفرز في الأصل : ركاب كور الحمل ، والكلام هنا على الحار ، أي أتبع قوله ونطه .

(٣) سورة البقرة ٢٦١ .

(٤) هما سعد بن معاذ ، وسعد بن عباد الأصارين .

وقالت الأنصار له يوم بدر ، وقد نزل بمنزل لم يستلحوه : أنزلت هذا المنزل من رأي رأيت أم بوحى أوحى إليك ؟ قال : بل عن رأي رأيته ، قالوا : إنه ليس لنا بمنزل ، ارجل منه فأنزل بموضع كذا .

وأما قول أبي بكر له : « الزم غرزه » ، فوالله إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنما هو تأكيده وتثبيت على عقيدته التي في قلبه ، ولا بد لك على الشك ، فقد قال الله تعالى لبيته : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتُمْ تَرُكُّنُ إِيَّاهُمْ شَيْئًا فَلْيَلَا ﴾ ^(١) ؛ وكل أحد لا يستغنى عن زيادة اليقين والطمأنينة . وقد كانت وقت من هذا القائل أمور دون هذه القصة ، كقوله : دغى أضرب عنق أبي سفين وقوله : دغى أضرب عنق عبد الله بن أبي ، وقوله : دغى أضرب عنق حاطب بن أبي بلنعة . وهى النهى صلى الله عليه وآله عن التسرع إلى ذلك ، وجذبه ثوب رسول الله صلى الله عليه وآله حين قام على جئارة ابن سلول بصلى ، وقوله : كيف تستهقر رأسى للناقصين ؟ وليس في ذلك حيلة ما بدلت على وقوع التبيع منه ، وإما الرجل كان مطبوعاً على الشدة والسراسة والخشونة ، وكان يقول ما يقول على مقتضى السجية التي طبع عليها . وعلى أى حال كان ، فقد مال الإسلام بولايته وحلته خيراً كثيراً .



قوله عليه السلام : « ولقد واسيته بنفسى » ؛ يقال : واسيته وآسيته ، وبالهمزة أفصح ، وهذا مما اختص عليه السلام بفضيلته غير مدافع ، ثبت معه يوم أحد وفرّ الناس ، وثبت معه يوم حنين وفرّ الناس ، وثبت تحت رابته يوم حنين حتى فتحها وفرّ من كان بعث بها من قبله .

وروى المحدثون أن رسول الله صلى الله عليه وآله لما ارتث^(١) يوم أحد، قال الناس: قتل محمد، رآته كتيبة من المشركين وهو صريع بين القتل، إلا أنه حي، فصمعت له. فقال لعلي عليه السلام: اكفني هذه، فحمل عليها عليه السلام وقتل رئيسها، ثم صمدت له كتيبة أخرى، فقال: يا لعلي اكفني هذه، فحمل عليها فهزمها، وقتل رئيسها، ثم صمدت له كتيبة ثالثة، ففعلت، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله بعد ذلك يقول: قال لي جبريل: يا محمد، إن هذه لقمواساة، قلت: وما يعمه وهو مني وأنامته! فقال جبريل: وأنا منك.

وروى المحدثون أيضاً أن المسلمين سيموا ذلك اليوم صائحاً من جهة السماء ينادي: «لا سيف إلا ذو الفقار، ولا فتى إلا علي» فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لمن حضره: «الآن تسمون هذا صوت جبريل».

وأما يوم حنين فثبت معه في غير يسير من بني هاشم، بعد أن ولي المسلمون الأدار، وحامى عنه، وقتل قوماً من هوازن بين يديه، حتى ثابت إليه الأنصار، وانهزمت هوازن وعملت أموالها.

وأما يوم خيبر فقصة مشهورة.

• • •

قوله عليه السلام: «نجدة أكرم مني الله سبحانه بها»، النجدة: الشجاعة، وانتصابها هاهنا على أنها مصدر، والمائل فيه محذوف.

ثم ذكر عليه السلام وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: «لقد قبض وإن رأسه لعلي صدري»، ولقد سألت نفسه في كئي، فأمر رثتها على وجهي، يقال: إن رسول الله

(١) ارتث: حل من المعركة جريحاً وفيه رمق.

حلى الله عليه وآله قاء دماً يسيراً وقت موته ، وإنّ عليه السلام مسح بذلك
الدم وجهه .

وقد روى أن أبا طيبة الحجام شرب دمه عليه السلام وهو حي ، فقال له : إذن
لا يجمع بطنك .

قوله عليه السلام : « فضجت الدار والأفنية » ، أى النازلون فى الدار من الملائكة ؛
أى ارتفع ضجيجهم ولججهم ، يعنى أى سمعت ذلك ولم يسمعه غيرى من أهل الدار .
واللأ : الجماعة ؛ يهبط قوم من الملائكة ويصعد قوم . والمروج : الصمود . والمهيمه :
الصوت الخفى . والضريح : الشق فى القبر .

[ذكر خبر موت الرسول عليه السلام]

وقد روى من قصة وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله أنه عرضت له الشكاة التى
عرضت ، فى أواخر صفر من سنة إحدى عشرة للهجرة ، لجهز جيش أسامة بن زيد ، فأمرهم
بالسير إلى البلقاء حيث أصيب زيد وجعفر عليهما السلام من الروم ، وخرج فى تلك الليلة
إلى البقيع ، وقال : إنا قد أمّرت بالاستنفار عديهم ، فقال عليه السلام : السلام عليكم
يا أهل القبور ، ليهيئكم ما أصبحتم فيه بما أصبح الناس فيه ، أقبلت الفتن كقطع الليل
المظلم ، يتبع أولئها آخرها . ثم استغفر لأهل البقيع طويلاً ، ثم قال لأصحابه : إن جبريل كان
يعارضنى القرآن فى كل عام مرة ، وقد عارضنى به العام مرتين ، فلا أراه إلا الخصور أجلى .
ثم انصرف إلى بيته ، فخطب الناس فى غدّه ، فقال ^(١) : مما شر الناس ، قد حان منى خُفوق من
بين أظهركم ، فمن كان له عندى عِدّة ، فليأتنى أعطه إياها ، ومن كان على دين ،
فليأتنى أفضيه . أيتها الناس ، إله ليس بين الله وبين أحد نسب ولا أمر يؤتیه به خيراً ،

(١) ساقطة من ب .

أو يصرف عنه شراً إلا العمل ، ألا بدعين مدح ولا بئنين معمن . والذي بعثني بالحق لا ينبغي إلا عمل مع رحمة ، ولو عصيت لحوبت . اللهم قد بلغت .

ثم نزل فصل بالناس صلاة خفيفة ، ثم دخل بيت أم سلمة ، ثم اقتل إلى بيت عائشة بعثه النساء والرجال ، أما النساء فأزواجه وبنته عليها السلام ، وأما الرجال فعلى عليه السلام والمبأس والحسن والحسين عليهما السلام ، وكانا غلامين يومئذ ، وكان الفصل بن الحباس يدخل أحياناً إليهم ، ثم حدث الاختلاف بين المسلمين أيام مرضه ، فأول ذلك التنازع الواقع يوم قل صلى الله عليه وآله : « اتقوني بدواة وقرطاس ، وتلا ذلك حديث يختلف عن جيش أسامة ، وقول عيش بن أبي ربيعة : أيولّي هذا السلام على جثة المهاجرين والأنصار !

ثم اشتدّ به المرض ، وكان عند حفة مرضه يصلّي بالناس بنفسه ، فلما اشتدّ به المرض ، أسراً أبابكر أن يصلّي بالناس .

وقد اختلف في صلته سهم الشبهة تزعم أنه لم يصلّ بهم إلا صلاة واحدة ، وهي الصلاة التي خرج رسول الله صلى الله عليه وآله فيها يتهاذى بين علي عليه السلام والفضل ، فقام في الخراب مقامه ، وتأخر أبو بكر .

والصحيح عندي - وهو الأكثر الأشهر - أنها لم تكن آخر صلاة ^(١) في حياته صلى الله عليه وآله بالناس جماعة ، وأن أبابكر صلى بالناس بعد ذلك يومين ، ثم مات صلى الله عليه وآله ؛ فمن قائل يقول : إنه توفيّ ليلتين بقيتاً من صفر ، وهو القول الذي تقوله الشيعة ؛ والأكثر أن توفيّ في شهر ربيع الأول بعد مضي أيام منه .

وقد اختلفت الرواية في موته ، فأسكر عمر ذلك ، وقال : إنه لم يمُتْ ، وإنه غاب وسيجود ، فشاء أبو بكر عن هذا القول ، وتلا عليه الآيات للتضخمة أنه سيُبوت ، فرجع إلى قوله .

ثم اختلفوا في موضع دفنه ، فرأى قوم أن يدفنوه بمكة لأنها مسقط رأسه ، وقال من قال : بل بالمدينة ؛ ندفنه بالبيع عند شهداء أحد . ثم اتفقوا على دفنه في البيت الذي قبض فيه ، وصلوا عليه أرسالا لا يؤتمهم أحد .
وقيل : إن عليا عليه السلام أشار بذلك قبلوه .

وأنا أحب من ذلك ؛ لأن الصلاة عليه كانت بعد بيعة أبي بكر ، فما الذي منع من أن يتقدم أبو بكر فيصلي عليه إماما ؟

وتنازعوا في تلحيد متضريحيه ، فأرسل العباس عمه إلى أبي عبيدة بن الجراح - وكان يحفر لأهل مكة ويضرح^(١) على عاداتهم رجلا ، وأرسل على رجلا إلى أبي طلحة الأنصاري - وكان يلحد لأهل المدينة على عاداتهم - وقال : اللهم احقر لنبيك ، فقام أبو طلحة فخلعه ، وأدخل في القعد .

وتنازعوا فمن ينزل معه القبر ، فمنع على عليه السلام الناس أن ينزلوا معه ، وقال : لا ينزل قبره غيري وغير العباس ، ثم أذن في تزول الفضل وأسامة بن زيد مولا ، ثم ضجت الأنصار ، وسألت أن ينزل منها رجل في قبره . فأزولوا أوس بن حولى - وكان بدريا .

فأما المثل فإن عليا عليه السلام تولاه بيده ، وكان الفضل بن العباس يصب عليه الماء .

وروى المحدثون عن علي عليه السلام ، أنه قال : ما قلبت منه عضوا إلا واقلب ، لأجد له قلا ، كأن مني من يساعدني عليه ، وما ذلك إلا لللائكة .

وأما حديث المهينة وسام الصوت ، فقد رواه خلق كثير من المحدثين ، عن علي

(١) يضرح : أى يثني ويحفر له ضريبا .

عليه السلام ، وتروى الشيعة أن علياً عليه السلام عَصَبَ حَقِّي الْفَضْلُ بْنُ الْعَبَّاسِ ، حين صَبَّ عليه الماء ، وأن رسول الله صلى الله عليه وآله أوصاه بذلك ، وقال : إنه لا يصبر مورتى أحدٌ غيرك إلا نَحِمَى .

قوله عليه السلام : « فمن ذا أحقُّ به مني حياً وميتاً ؟ » ، اختصاصها على الحال من الضمير المجرور في « به » ، أي أي شخص أحق برسول الله صلى الله عليه وآله حال حياته وحال وفاته مني أرماد من هذا الكلام ، بأنه أحق بالخلافة بعد وفاته وأحق الناس بالمرتبة منه حيث كان بوقت المرتبة منه في الدنيا ؛ وليس يجوز أن يكونا حالين من الضمير المجرور في « مني » لأنه لا يمكن أن يقول : أنا أحقُّ به إذا كنت حياً من كل أحد ، وأحقُّ به إذا كنت ميتاً من كل أحد ، لأن الميت لا يوصف بمثل ذلك ، ولأنه لا حال ثبت له من الأحقية إذا كان حياً إلا وهي ثابتة له إذا كان ميتاً ، وإن كان الميت يوصف بالأحقية ، فلا تذهب في قوله .

« وميتاً » على هذا الغرض ، ولا يبقى في قسم الكلام إلى قسمين قائمة ، وأما إذا كان حالاً من الضمير في « به » ، فإنه لا يلزم من كونه أحق بالمرتبة الرفيعة من رسول الله صلى الله عليه وآله وهو حي أن يكون أحق بالخلافة بعد وفاته ، أي ليس أحدهما يلزم الآخر ، فاحتاج إلى أن يبين أنه أحق برسول الله صلى الله عليه وآله من كل أحد إن كان الرسول حياً ، وإن كان ميتاً ، ولم يستمع أن يقسم الكلام إلى القسمين المذكورين .

قوله عليه السلام : « فانفذوا إلى بصائرهم » ، أي أسرعوا إلى الجهاد على عقائدكم التي أنتم عليها ، ولا تدخلن الشك والتريب في قلوبكم .

قوله عليه السلام : « إني لملئ جادة الحق ، وإنهم لملئ مزلة الباطل » ؛ كلام عجيب

على قاعدة الصناعة المنوبة ، لأنه لا يحسن أن يقول : وإسهم كعمل جادة الباطل ؛ لأن الباطل لا يوصف بالجادة ، ولهذا يقال لمن ضل : وقع في بُنيّات الطريق^(١) ، فموضع عنها بانفط « الزلّة » ، وهي للموضع الذي يزل فيه الإنسان ، كالزلزلة : موضع الرُّكَّ ، والمرّة : موضع الفرق ، والمهلكة : موضع الهلاك .

(١) بُنيّات الطريق في الأصل : الطرق الممار تتلخص من الجادة .

(١٩١)

الأصل:

ومن خطبة له عليه السلام:

يَسْلَمُ مَجِيجَ الْوُحُوشِ فِي الْفَتَوَاتِ، وَسَامِيَ الْمِبَادِ فِي الْخَلَوَاتِ، وَاخْتِلَافَ النَّبَاتِ
فِي الْبَحَارِ الْمَائِرَاتِ، وَتَلَامُ لَآءَ يَارُ بِأَجِ الْمَاصِفَاتِ .

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا نَحِيبُ اللَّهِ، وَسَفِيرُ وَحْيِهِ، وَرَسُولُ رَحْمَتِهِ .

أَمَّا تَمَدُّ، فَأَنَا أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّتِي ابْتَدَأَ خَلْقَكُمْ، وَإِلَيْهِ يَكُونُ
مَعَادُكُمْ، وَيَبْرُجُ بِجَاحِ طَلَبِكُمْ، [وَالَّذِي مُنْتَهَى رَغْبَتِكُمْ، وَنَحْوُهُ قَعْدُ سَبِيلِكُمْ،
وَإِلَيْهِ مَرَامِي مَفْرَحِكُمْ؛ فَإِنَّ قَوْلِي اللَّهِ دَوَاهُ دَوَاهِ قُطُوبِكُمْ، وَبَصَرُ عَمَى أَفْئِدَتِكُمْ،
وَشِفَاءُ مَرَضِ أَجْسَادِكُمْ، وَصَلَاحُ فَسَادِ صُدُورِكُمْ، وَظُهُورُ دَنَسِ أَنْفُسِكُمْ، وَجِلَاءُ
غِشَاءِ أَبْصَارِكُمْ، وَأَمْنُ قَرْعِ جَانِحِكُمْ، وَضِيَاءُ سَوَادِ ظُلُمَتِكُمْ .

الشرح:

المجيج: رفع الصوت، وكذلك المَجَج، وفي الحديث: «أفضل الحجج المَجَج والمَجَج»، أي
التلبية وإزالة الدم، ومجيج، أي صوت، ومضاعفة اللفظ دليل على تكرير التصويت .
والنباتان: جمع نون، وهو الحوت، واختلافها هاهنا: هو إصعادها وانحدارها .
ونحيب لله: منجبه ومختاره .

وسفير وحيه: رسول وحيه، والجمع سفراء، مثل قبه وقبها .

والله مراعى مفرعكم : إليه تفرعون وتلجئون ، ويقال : فلان مرمى قصدى ، أى هو للوضع الذى أحوه وأقصده .

ويروى : « وجلاء عشى أبصاركم » ، بالعين المهملة والألف المقصورة ، والجأش : القلب ، وتقدير الكلام : وضياء مواد ظلمة عقائدكم ، ولكنه حذف المضاف للعلم به .

• • •

الأصل :

فاجعلوا طاعة الله شعاراً دون دثاركم ، ودجلاً دون شعاركم ، ولطيفاً بين أصلاكم ، وأميراً فوق أموركم ، ومنهلاً بحبين وزودكم ، وشفيماً ليدرك طليعتكم ، وجنته ليؤم فرعكم ، ومصابيح ليطون قبوركم ، وسكناً لطول وحشتكم ، ونفلاً يكرّب مواطنكم ، فإن طاعة الله ليعرز من مكائف مكثفكم ، وتحاوي متوقفة ، وأوار بدران موقدة .

فمن أخذ بالفتوى عرّست عنه الشدايد تمدّ دنوها ؛ وأحلت له الأمور تمدّ مراريتها ، وأفرجت عنه الأمواج تمدّ نراكها ، وأسهمت له الصعاب تمدّ إنصافها ، وهطلت عليه الكرامة تمدّ قحوطها . وتعدّبت عليه الرحمة تمدّ نفورها ، وتفعّرت عليه النعم تمدّ نصوبها ، وتلت عليه البركة تمدّ إزداذها .

فاتقوا الله الذى نفمكم بموعظته ، وقطكم بمرسالته ، وأمننّ عليكم بيمينه . فعبّدوا أنفسكم إيمادته ، وأخرّجوا إليه من حق طاعته .

• • •

الْبَزَج :

الشَّار : أقرب إلى الجسد من الدُّنار . والدَّخِيل : ما خالط باطن الجسد ، وهو ^(١) أقرب من الشَّار .

نم لم يقتصر على ذلك حتى أمر بأن يحمل التَّضَوَّى لطيفا بين الأضلاع ، أى فى القلب ، وذلك أمرٌ بالإنسان من الدَّخِيل ، فقد يكون الدَّخِيل فى الجسد وإن لم يخامر القلب .
نم قال : « وأمرافق أموركم » ، أى يحكم على أموركم كما يحكم الأمير فى رعيته .
واللهل : لاء يردّه الوارد من الناس وغيرهم .

وقوله : « لحين ورودكم » ، أى لوقت ورودكم .

والطَّلْبَةُ بكسر اللام : ما طلبته من شيء .

قوله : « ومصابيح ليطون قُوركم » ، جاء فى الخبر : إن العمل الصالح يضيء قبر صاحبه كما يضيء للمصباح الظلمة .

والتَّكُن : ما يَكُن إليه .

قوله : « ونفساً لكرب مواطنكم » ؛ أى سعة ورؤى .

ومكثنة : محبطة . والأَوَار : حرّ النار والشمس .

وعزبت : بُسِت . واحلوت : حارت حلة . وتراكمها : اجتمعها وتكاثفها .

وأسهلت : حارت سهلة . بعد إنصائها ، أى بعد إنصائها لكم ؛ أنصته : أنهته .

وعطلت : سالت . وقصوطها : قلّتها ووتاحتها ^(٢) .

وتحدّبت عليه : عطفت وحّنت .

نضوبها : انقطاعها . كنضوب لاء : ذهابه .

ووبل المطر : صار وابلا ، وهو أشد المطر وأكثره . وإرذاذاها : إنباتها بالزاد
وهو ضعيف المطر .

قوله : « فمبدوا أنفسكم » ، أى دلوها . ومنه طريق مبد .
وأخرجوا إليه من حق طبعه ، أى أدوا المقترض عليكم من العباداة ، يقال :
خرجت إلى فلان من دينه ، أى قضيت إياه .

• • •

الأصل :

ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْإِسْلَامَ دِينُ اللَّهِ الَّذِي أَمْلَأَهُ لِنَفْسِهِ ، وَأَصْلَحَهُ عَلَى عَيْنِهِ ، وَأَصْفَاهُ
خَيْرَةَ خَلْقِهِ ، وَأَقَامَ دَعَائِهِ عَلَى تَحَبُّبِهِ .

أَذَلَّ الْأَذْيَانَ بِمِزْمِهِ ، وَوَضَعَ الْبَلْلَ بِرُفْعِهِ ، وَأَهَانَ أَخْدَاءَهُ بِكِرَامَتِهِ ، وَخَذَلَ
مُحَادِّبِهِ بِنَصْرِهِ ، وَهَدَمَ أَرْكَانَ الضَّلَالَةِ بِرُكْنِهِ ، وَسَقَى سَنَ عَيْشٍ مِنْ جِبَاهِهِ ،
وَأَتَانَا الْخَبْرَ بِمَوَانِمِهِ .

ثُمَّ جَعَلَهُ لَا أَنْصَامَ لِمُرُوتِهِ ، وَلَا فَكَّ لِحَقِيقَتِهِ ، وَلَا أَنْهَادَ لِبَاسِهِ ، وَلَا زَوَالَ
لِدَعَائِهِ ، وَلَا أَفْلَاحَ لِشَجَرَتِهِ ، وَلَا أَطْفَاعَ لِثَمَرِهِ ؛ وَلَا أَهْوَاءَ لِشِرَائِعِهِ ، وَلَا جَذَّ
لِقُرُوعِهِ ، وَلَا ضَنْكَ لِمُطَرِّقِهِ ، وَلَا وَغُونَةَ لِسُهُولَتِهِ ، وَلَا سَوَادَ لِيَوْضَعِهِ ، وَلَا عِوَجَ
لِانْصِصَائِهِ ، وَلَا عَصَلَ فِي حُرُودِهِ ، وَلَا وَهْتَ لِعَجَبِهِ ، وَلَا أَطْفَاءَ لِصَابِغِهِ ،
وَلَا مَرَارَةَ لِعِلَاقَتِهِ .

فَهُوَ دَعَائِمُ أَسَاخٍ فِي الْخَلْقِ أَسْفَاخُهَا يُوَثِّبُ لَهَا آسَاسَهَا ؛ وَيَتَابِعُ غُرُوتَ مُهْمُونِهَا ،
وَمَصَابِغَ شُبَّتْ نِيرَانُهَا ؛ وَمَنَارَ أَفْعَدَى بِهَا مَنَارُهَا بِوَأَعْلَامُ قُصِيدِهَا فَيَجَاجِبُهَا وَمَسَاجِلُ
دَوَى بِهَا وَرَادُهَا .

جَمَلَ اللَّهُ فِيهِ مُنْتَهَى رِضْوَانِهِ ، وَذِرْوَةَ دَعَائِيهِ ، وَسَقَامَ طَاعَتِهِ ؛ فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ
وَثِيقُ الْأَرْكَانِ ، وَرَفِيعُ الْبُنْيَانِ ، مُنِيرُ الْبُرْهَانِ ، مُعْجِزُ الْبَيْرَانِ ، عَزِيزُ السُّلْطَانِ ،
مُشْرِفُ الْمَارِ ، مُعْوِذُ النَّارِ .
فَشَرَّفُوهُ وَأَتَّبِعُوهُ ، وَأَذُوا إِلَيْهِ حَقَّهُ ؛ وَضَعُوهُ مَوَاضِعَهُ .

• • •

الْبَرْخ :

اصطلمه على عينه ؛ كلمة يقال لما يشتد الاهتمام به ، تقول للمصارع : اصنع لي كذا على
عينى ، أى اصنع صلبة كاملة كالصنعة التى تصنعها وأنا حاضر أشاهدها بعينى ، قال تعالى :
(وَلَتَصْنَعَ عَلَى عَيْنِي)^(١) .

واصفاء خيرة خلقه ، أى أنزله خيرة خلقه ، ثم المملون ؛ ويا : « خيرة » مفتوحة .
قال : وأقام الله دعائم الإسلام على حب الله وطاعته .
والمحاذ : المخالف ، قال تعالى : (مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ)^(٢) ، أى من يعاد الله كأنه يكون
في حد وجهه ، وذلك الإنسان في حد آخر وجهه أخرى ، وكذلك للشاق ؛ يكون في شق
والآخر في شق آخر .

وأناق الحياض : ملأها ، وَتَتَّقِ السَّاءَ معه يتأنق تأقاً ، وكذلك الرجل ، إذا
امتلاً عصباً .

قوله : « بموانحه » ، وهى الدلاء يمتنع بها ، أى يستنى بها .
والانقسام : الانكسار . والمفاء : الدُّروس .
واليلد : القلع ، ويروى بالبدال للهمة ؛ وهو القلع أيضاً .
والضنك : الضيق .

والرمثة : كثرة في السهوة توجب صعوبة للشيء ؛ لأن الأقدام تيهث في الأرض .
والوضح : البياض .

والعوج ، بفتح العين : فيها ينصب كاللغة والرمح ، والعوج بكسرهما : فيها لا ينصب ؛ كالأرض والرأى والدين .

والعقل : الالتواء والاهوجاج ، ناب أفضل وشجرة عصلة ، وسهام عقل .
والفج : الطريق الواسع بين الجبلين ، يقول : لا وعت فيه ؛ أى ليس طريق الإسلام بهوث ، وقد ذكرنا أن الرمثة ماضى .

قوله : « فهو دعائم أساخ في الحق أساخها » ، الأساخ : جمع سينخ ، وهو الأصل ، وأساخها في الأرض : أدخلها فيها ، وساخت قوائم فرسه في الأرض تسوخ وتسيخ : دخلت وغابت .

والأساس بالذ : جمع أسس ، مثل سبب وأسهب ، والأسس والأسس والأساس واحد ، وهو أصل البناء .

وغزرت مهنها ، بضم الزاي : كثرت . وشبت نيرانها بضم الشين : أوقدت ، وللنار : الأعلام في الفلاة .

قوله : « قصد بها فجاجا » ، أى قصد بنصب تلك الأعلام احتداء المسافرين في تلك الفجاج ، فأضاف القصد إلى الفجاج .

وروى : « روادها » جمع رائد ، وهو الذي يسبق القوم فيرتاد لهم السكلاً والماء .
والذروة : أهل السفام والرأس وغيرها .

قوله : « مموذ المثار » ، أى يسجز الناس إثارته وإزجاجه لقوته ومثاته .

الأنزل:

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَثَّ مُحَمَّدًا عَلَى أَهْلِهِ وَآلِهِ بِالْحَقِّ ، حِينَ دَامَ مِنَ الدُّنْيَا
الْأَنْطَاقُ ؛ وَأَقْبَلَ مِنَ الْآخِرَةِ الْإِطْلَاقُ ، وَأُظْلِمَتْ بَهْجَتُهَا بِمَدِّ إِشْرَاقٍ ، وَقَامَتْ بِأَهْلِهَا
عَلَى سَاقٍ ، وَخَشَنَ مِنْهَا مِهَادٌ ، وَأَزِفَتْ مِنْهَا قِيَادٌ ، فِي أَنْطَاقٍ مِنْ مُدَّتِهَا ، وَأَقْتِرَابٍ مِنْ
أَشْرَاطِهَا ، وَتَصَرُّمٍ مِنْ أَهْلِهَا ، وَأَنْصَادٍ مِنْ حَقَّقِهَا ، وَأَنْدِشَارٍ مِنْ سَبَبِهَا ، وَخَفَاةٍ مِنْ
أَعْلَامِهَا ، وَتَسْكُفٍ مِنْ عَوْرَاتِهَا ، وَفِصْرٍ مِنْ طَوْلِهَا .

حَدَّثَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِلَاغٍ لِرِسَالَتِهِ ، وَكَرَامَةٍ لِأُمَّتِهِ وَوَرِيثَةٍ لِأَهْلِ زَمَانِهِ مَوْرِثَةٍ
لِأَهْوَايِهِ ، وَشَرَفًا لِأَنْصَارِهِ .

ثُمَّ أَمَرَ عَلَى الْكِتَابِ سُورًا لَا تَطْلُقُ مَعَ بَيْعِهِ ، وَمِيرَاجًا لَا يَتَخَبُّو تَوَقُّدَهُ ، وَتَحْرَأُ
لَا يَذْرُكُ قَعْرَهُ . وَمِنْهَا جَا لَا يَصِلُ سَهْجُهُ ، وَشِعَاعًا لَا يَطْلُمُ ضَوْؤُهُ ، وَفُرْقَانًا لَا يَحْمَدُ
مُرْهَانُهُ ، وَنَبِيَانًا لَا تَهْدُمُ أَرْكَانُهُ ، وَشِعَاءً لَا تَحْشَى أَسْفَاغُهُ ، وَغَيْرًا لَا تُهْزِمُ أَنْصَارُهُ ،
وَحَقًّا لَا تُحْدِلُ أَعْوَانُهُ .

فَهُوَ مَعْدِنُ الْإِيمَانِ وَبُحْبُوحَتُهُ ، وَتَبَاسُعُ الْعِلْمِ وَخُورُهُ ، وَرِبَاضُ الْعَدْلِ
وَعُدْرَانُهُ ، وَأَثَافِي الْإِسْلَامِ وَبَنِيَانُهُ ، وَأَوْدِيَةُ الْخَلْقِ وَغِيظَانُهُ . وَتَحْرَأُ لَا يَنْزِفُهُ
الْمُسْتَرِيدُونَ ، وَهَيُونَ لَا يَنْصِبُهَا الدَّائِحُونَ ، وَمَنَاطِلُ لَا يَبْيِضُهَا الْوَارِدُونَ ، وَمَتَازِلُ
لَا يَصِلُ سَهْجَتَا الْمَسَافِرُونَ ، وَأَعْلَامُ لَا يَبْعَثُ عَنْهَا السَّائِرُونَ ، وَإِسْكَامُ لَا يَجْمُوزُ
عَنْهَا الْقَاصِدُونَ .

[اختلاف الأقوال في عمر الدنيا]

الشيخ :

قوله عليه السلام : « حين دنا من الدنيا الاقطاع » ، أى أُرِقتِ الآخرة وقرب وقتها . وقد اختلف الناس في ذلك اختلافا شديدا فذهب قوم إلى أن عمر الدنيا خمسون ألف سنة ، قد ذهب بعضها ونق بمعضها .

واختلفوا في مقدار الذهاب والباقي ، واحتجوا لقولهم قوله تعالى : ﴿ تَرْجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ ^(١) ، قالوا : اليوم هو إشارة إلى الدنيا ، وفيها يكون عروج الملائكة والروح إليه ، واختلفهم بالأمر من عنده إلى خلقه ، وإلى رسنه ، قالوا : وليس قول بعض المفسرين أنه قضى يوم القيامة بمستحسن ، لأن يوم القيامة لا يكون للملائكة والروح عروج إليه سبحانه ، لا بخطأ التكليف ، ولأن المؤمنين إما أن يطول عليهم ذلك اليوم بمقدار خمسين ألف سنة ، أو يكون هذا مختصا بالكافرين فقط ، ويكون قصيرا على المؤمنين ، والأول باطل ؛ لأنه أشد من عذاب جهنم ، ولا يجوز أن يلقى المؤمن هذه المشقة ، والثاني باطل ؛ لأنه لا يجوز أن يكون الزمان الواحد طويلا قصيرا بالنسبة إلى شخصين ، اللهم إلا أن يكون أحدهما باثما ، أو بموابة تجري مجرى التوم ، فلا يحس بالحركة ، ومعلوم أن حال المؤمنين بعد موتهم ، ليست هذه الحال .

قالوا : وليست هذه الآية مفاضة للآية الأخرى ، وهى قوله تعالى : ﴿ يُدِيرُ الْأُمُورَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَرْجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ ^(٢) ، وذلك لأن سياق الكلام يدل على أنه أراد به الدنيا ، وذلك لأنه قد ورد في الخبر أن

(١) سورة الطارج ٤ .

(٢) سورة السجدة ٥ .

بين الأرض والسماء مسيرة خمسمائة عام ، فإذا نزل الملك إلى الأرض ، ثم عاد إلى السماء ، فقد قطع في ذلك اليوم مسيرة ألف عام ، ألا ترى إلى قوله : ﴿ يَدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ ، أى ينزل الملك بالوحي والأمر والحكم من السماء إلى الأرض ، ثم يعود راجعاً إليه وارجعاً صاعداً إلى السماء ، فيجتمع من نزوله وصعوده مقدارُ مسير ألف سنة .



وذكر حمزة بن الحسن الأصفهاني في كتابه للسي "تواريخ الأمم" : أن اليهود تذهب إلى أن عدد السنين من ابتداء التنازل إلى سنة الهجرة لحمد صلى الله عليه وآله أربعة آلاف واثنان وأربعون سنة وثلاثة أشهر .

والنصارى تذهب إلى أن عدد ذلك خمسة آلاف وتسعمائة وتسعون سنة وثلاثة أشهر .

وأن الفرس تذهب إلى أن من عهد كيومررت والد البشر عديم إلى هلاك يزديجرد ابن شهريار الملك أربعة آلاف ومائة واثنين وثمانين سنة وعشرة أشهر وتسعة عشر يوماً ، ويسندون ذلك إلى كتابهم الذي جاء به رزذشت ، وهو الكتاب المعروف بأبستا .

فأما اليهود والنصارى فيسندون ذلك إلى النوراة ويحتفظون في كيفية استنباط المدة .

وتزعم النصارى واليهود أن مدة الدنيا كلها سبعة آلاف سنة ، قد ذهب منها ما ذهب وبقى ما بقي .

وقيل : إن اليهود إنما قصرت المدة لأنهم يزعمون أن شيخهم الذي هو منتظرهم ، يخرج في أول الألف السابع ، فلولا تنقيصهم المدة وتقصيرهم أياها لتقبل افتضاحهم ، ولكن سيفتضعون فيها بعد عند من يأتي بعدنا من البشر .

قال حمزة : وأما للنجس فقد أثوا بما ينز هذا كله ، فزعموا أنه قد مضى من الدنيا منذ أول يوم سارت فيه الكواكب ، من رأس الخلق إلى اليوم الذي خرج فيه الفوكسل ابن معصم بن الرشيد من سائر إلى دمشق ، ليحطها دار الملك ، وهو أول يوم من المحرم سنة أربع وأربعين ومائتين للهجرة الحمديّة ، أربعة آلاف ألف ألف - ثلاث لفظات - وثلاثمائة ألف وعشرون ألف سنة ، بسى الشمس

قالوا : والذي مضى من الطوفان إلى صبيحة اليوم الذي خرج فيه الفوكسل إلى دمشق ثلاث آلاف وسبعمائة وخمس وثلاثون سنة وعشرة أشهر واثنان وعشرون يوما .

• • •

وذكر أبو الريحان البيروني في كتاب " الآثار الباقية من القرون الخالية " : أن الفرس واليهوس يزعمون أن عمر الدنيا اثنا عشر ألف سنة ، على عدد البروج وعدد الشهور ، وأن الماضي منها إلى وقت ظهور زردشت صاحب شريعتهم ثلاثة آلاف سنة ، وبين ابتداء ظهور زردشت وبين أول تاريخ الإسكندر مائتان وثمان وخمسون سنة ، وبين تاريخ الإسكندر وبين سنته التي كتبنا فيها شرح هذا الفصل - وهي سنة سبع وأربعين وستة للهجرة النبوية - ألف وخمسمائة وسبعون سنة ، فعلى هذا يكون الماضي إلى يومنا هذا من أصل اثني عشر ألف سنة أربعة آلاف وثمانمائة وثمان عشرة سنة ، فيكون الباقي من الدنيا على قولهم أكثر من الماضي .

وحكى أبو الريحان عن الهند في بعض كتبها ، أن مدة عمر الدنيا مقدار تضعف الواحد من أول بيت في رقعة الشطرنج إلى آخر البيوت .

• • •

فأما الأخباريون من المسلمين ، فأكثرهم يقولون : إن عمر الدنيا سبعة آلاف سنة

ويقولون إنا في السابغ ، والحق أنه لا يعلم أحد هذا إلا الله تعالى وحده ، كما قال سبحانه :
 ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۖ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ۖ﴾ (١) ،
 وقال : ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْعِهَا إِلَّا هُوَ تَقُلَّتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْنِيْكُمْ إِلَّا بَشَفَةٌ
 يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَافِيَةٌ عَلَيْهَا فَلِإِنَّمَا عَلَيْهَا بَشَفَةٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ (٢) .

ونقول مع ذلك كما ورد به الكتاب العزيز : ﴿أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ﴾ (٣) و ﴿أَقْرَبَ
 لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ (٤) ، و ﴿أَنِّي أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ (٥) .

ولا نعلم كمية الماضي ولا كمية الباقي ، ولكننا نقول كما أمرنا ، ونسمع ونطيع كما
 أذننا ، ومن الممكن أن يكون ما بقى قريبا عند الله ، وغير قريب عندنا ، كما قال سبحانه :
 ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ (٦) .

وبالجملة هذا موضع غامض يحجب السكوت عنه

قوله عليه السلام : « وَقَامَتْ بِأَهْلِهَا عَلَى سَاقٍ » ، الضمير للدنيا ، والساق الشدة ، أي
 انكشفت عن شدة عظيمة .

وقوله تعالى : ﴿وَالْتَفَتِ السَّقُ بِالسَّقِ﴾ (٧) أي التفت آخر شدة الدنيا بأول
 شدة الآخرة .

وللهاد : الفراش . وأزف مها قباد ، أي قرب انقيادها إلى التفتى والزوال .
 وأشراط الساعة : علاماتها ، وإصابتها إلى الدنيا لأنها في الدنيا تحدث ، وإن
 كانت علامات للأخرى . والمفاء : الدروس

(٢) سورة الأعراف ٨٧ .

(٤) سورة الأنبياء ٩ .

(٦) سورة الفارج ٦ .

(١) سورة النازعات ٤٢ - ٤٤ .

(٣) سورة القمر ٩ .

(٥) سورة النحل ٩ .

(٧) سورة القيامة ٢٩ .

وروى : « من طَوَّلَهَا » والطَّوْلُ : الحبل .
ثم عاد إلى ذكر النبي صلى الله عليه وآله فقال : جعله الله سبحانه بلاغاً لرسالة ؛
أي ذا بلاغ ، والبلاغ : التبليغ ، فحذف للصارف .

ولا تخبو : لا تنطفيئ ، والفرقان : ما يفرق به بين الحق والباطل .
وأثافي الإسلام : جمع أثفية ، وهي الأحجار توضع عليها القنبر ، شكل مثلث .
والفيضان : جمع غائط ، وهو الطمئن من الأرض .
ولا ينيضها ، بفتح حرف المصارعة ، غاض الماء وغصته أنا ، يتمدى ولا يتعدى ،
وروى « لا يبيضاها » بالنصب على قول من قال : أغصت الماء ، وهي لمة ليست بالشهورة
والإكام : جمع أكم ، مثل حبال جمع حبل ، والأكم جمع إككة ، مثل جنب جمع
جنب ، والأككة : ما علا من الأرض ، وهي دون الكتيب .



الأصل :

جعلهُ اللهُ رَبًّا لِمَعَاشِ الْعُلَمَاءِ ، وَرَبِّمَا لِقُلُوبِ الْفُقَهَاءِ ، وَحَاجٍّ لِمَطْرِقِ الصُّلَحَاءِ ،
وَدَوَّاهٍ لَيْسَ تَعْدُهُ دَاءٌ ، وَمُورٍ لَيْسَ مَعَهُ ظِلَّةٌ ، وَحَبْلًا وَثِيقًا عُرْوَتُهُ ، وَمَمْقِلًا مَبِيعًا
دِرْوَتُهُ ، وَمِيزًا لِمَنْ تَوَلَّاهُ ، وَصِلًا لِمَنْ دَحَلَهُ ، وَهُدًى لِمَنْ أَتَمَّ بِهِ ، وَعُذْرًا لِمَنْ
اتَّعَلَّهُ ، وَبُرْهَانًا لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ ، وَشَاهِدًا لِمَنْ حَاصَمَ بِهِ ، وَقَلْبًا لِمَنْ حَاجَّ بِهِ ، وَحَامِلًا
لِمَنْ حَمَلَهُ ، وَمَطِيَّةً لِمَنْ أَعْمَلَهُ ، وَآبَةً لِمَنْ تَوَسَّمَهُ ، وَجَنَّةً لِمَنْ اسْتَلَامَهُ ، وَصِلًا لِمَنْ
وَعَى ، وَحَدِيثًا لِمَنْ رَوَى ، وَحُكْمًا لِمَنْ قَضَى .



التَّبْنُجُ :

الضمير يرجع إلى القرآن ، جسد الله ربنا لعطش العلماء ، إذا ضلّ العلماء في أمر والتبس عليهم رجعوا إليه ، فسقام كما يسقى الماء العطش ، وكذا القول في « ربيما لقلوب الفقهاء » ، والربيع هاهنا : الجدول ، ويجوز أن يريد الممر في الربيع ، يقال : رست الأرض فهي مربعة .

والحاج : جمع محبة ، وهي جادة الطريق . والمقل : الملعب .

وسمّا لمن دخله ، أى مأمنه ، وانصله : دان به ، وجعله يخضعه .

والبرهان : الحقيقة ، والمسلح : الظفر والنفوذ . وحاج به : خاضع .

قوله عليه السلام : « وحاملاً لمن شمله » ؛ أى أن القرآن ينفعني يوم القيامة من كان حافظاً له في الدنيا ، بشرط أن يعمل به .

قوله عليه السلام : « وسطيّة لمن أحمله » ؛ استمارة ، يقول : كما أن المطية تنفعني صاحبها إذا عملها وصاحبها على السجاء ، فكذلك القرآن إذا أحمله صاحبه أجزاه ، ومعنى إعماله ، اتباع قوانينه والوقوف عند حدوده .

قوله : « وآية لمن توسّم » ، أى لمن تفرّس ، قال تعالى : ﴿ إِنِّي فِي ذِكْرِ لَأَبَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ ^(١) .

والجنة : ما يستقرّ به : واستلام : لبس لأمة الحرب ، وهي الدرع .

ووعى : حفظ .

قوله : « وحديثاً لمن روى » ، قد سمّاه الله تعالى حديثاً فقال : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ

الحديث كِتَابًا مُتَشَابِهًا^(١) ؛ وأصحابنا يحتجّون بهذه اللفظة على أنّ القرآن ليس بقديم ؛ لأنّ الحديث ضدّ القديم .

وليس للمخالف أن يقول : ليس المراد بقوله : (أَحْسَنَ الْحَدِيثِ) ما ذكرتم ؛ بل المراد أحسنُ القول ، وأحسن الكلام ، لأنّ العرب نَسِيَتْ الكلام والقول حديثًا ، لأنّا نقول : لسرى ، إنه هكذا ، ولكن العرب ما سمعت القول والكلام حديثًا إلّا أنه مستحدث متجدّد حالًا فحالًا ، ألا ترى إلى قول عمرو لمعاوية : « قد ملّت كلّ شيء إلّا الحديث » ، فقال : إنما يُملّ العتيق ؛ فدلّ ذلك على أنّه فهم معنى نسيهم الكلام والقول حديثًا ، وفطن لمخزوم ومفصّدم في هذه التسمية ، وإذا كنّا قد كلّفنا أن نجري على ذاته وصفاته وأفعاله ما أجزاه سبحانه في كتابه ، ونطلق ما أطلقه على سبيل الوضع والكيفية التي أطلقها وكان قد وصف كلامه بأنه حديث . وكان القرآن في حرف الهمزة إنما سُمّي حديثًا لخبرته وتجدّده . فقد ساء لنا أن نطلق على كلامه أنّه محدث ومتجدّد ؛ وهذا هو المقصود .

(١٩٢)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام كان يومى به أصحابه :

نَمَاهِدُوا أَمْرَ الصَّلَاةِ ، وَحَاطُوا عَيْنَيْهَا ، وَأَسْتَكْثِرُوا مِنْهَا ، وَتَقَرَّبُوا إِلَيْهَا ، فَإِنَّهَا كَانَتْ عَلَى التَّوَّابِينَ كِتَابًا مَوْفُورًا . أَلَا تَسْمَعُونَ إِلَى جَوَابِ أَهْلِ النَّارِ حِينَ سُئِلُوا : (مَا سَأَلَكُمْ فِي سَفَرِهِ قَالُوا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُسْتَبِينَ) (١) .

وَأَمَّا لَتَعْنَةُ الذُّنُوبِ حَتَّى الْوَرَقِ ، وَأَطْلِقَهَا إِطْلَاقَ الرَّقِ .

وَشَبَّهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِالْجَمَةِ تَكُونُ عَلَى نَابِ الرَّجُلِ ، فَهُوَ يَتَقَبَّلُ مِنْهَا فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ ثَمَنَ مَرَاتٍ ، فَمَا عَسَى أَنْ يَثْقِيَ عَلَيْهِ مِنْ الدَّرَنِ !

وَقَدْ عَرَفَ حَقًّا رِحَالًا مِنَ التَّوَّابِينَ الَّذِينَ لَا تَسْلُمُهُمْ عَنْهَا رِيَّةٌ مَتَاعٍ ، وَلَا قُرَّةُ عَيْنٍ مِنْ وَلَدٍ وَلَا مَالٍ ، يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ : (رِحَالٌ لَا تُلْهِبُهُمْ نَارًا وَلَا يَبْعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ) (٢) .

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَصِيًّا بِالصَّلَاةِ نَمَذَ لِلنَّبِيِّ لِهَ بِالْجَمَةِ ، يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ : (وَأَمْرُ أَهْلِكَ بِالصَّلَاةِ وَأَمْطَرُ عَيْنَيْهَا) (٣) ؛ فَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ ، وَيُصْبِرُ نَفْسَهُ .

(١) سورة الدھر ٤٧ ، ٤٨ .

(٢) سورة النور ٣٧ .

(٣) سورة طه ١٣٢ .

ثُمَّ إِنَّ الرُّكَّاءَ جُعِلَتْ مَعَ الصَّلَاةِ قُرْبَانًا لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ ، فَمَنْ أَعْطَاهَا طَيِّبَ
النَّفْسِ بِهَا ؛ فَإِنَّهَا تُحْمَلُ لَهُ كُفَّارَةً ، وَمِنْ النَّارِ حِجَازًا وَوِقَايَةً ؛ فَلَا يُنْتَعَمُ بِهَا أَحَدٌ نَفْسَهُ ،
وَلَا يُكْتَبَرُ عَلَيْهَا لَهْفُهُ ، فَإِنْ مَنْ أَعْطَاهَا غَيْرَ طَيِّبِ النَّفْسِ بِهَا يَرْحُو بِهَا مَا هُوَ أَفْضَلُ
مِنْهَا فَهُوَ حَاحِلٌ بِالسُّوءِ ، مَعْتَبُونَ الْآخِرَ ، ضَالُّ الْعَمَلِ ، طَوِيلُ النَّدَمِ . ثُمَّ أَدَاءُ
الْأَمَانَةِ ؛ فَقَدْ خَابَ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا ، إِسْهَاءَ عُرِضَتْ قُلَى السَّمَوَاتِ الْمَبْنِيَّةِ ، وَالْأَرْضِينَ
الْمَذْخُوعَةِ ، وَالْجِبَالِ ذَاتِ الطُّوْلِ لِلنَّصُوبَةِ ؛ فَلَا أَطْوَلَ وَلَا أَعْرَضَ ؛ وَلَا أَهْلَى وَلَا أَكْظَمَ
مِنْهَا . وَلَوْ أَمْتَنَعَ شَيْءٌ بِطَوِيلٍ ، أَوْ عَرْضٍ ، أَوْ قُوَّةٍ ، أَوْ هِرَةٍ ، لَأَمْتَنَعَ ؛ وَلَسَكُنَ
أَشَقَقْنَ مِنَ الْمُتَقَوَّةِ ، وَعَقْلَانِ مَا حِيلَ مَنْ هُوَ أَصْفَى مِنْهُنَّ ، وَهُوَ الْإِنْسَانُ ، ﴿ إِنَّهُ كَانَ
ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ ^(١) .

إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مَا الْعِبَادُ مُقَرَّفُونَ فِي كَيْلِهِمْ وَنَهَارِهِمْ ،
أَلْفَ بِهِ حَبْرًا ، وَأَحَاطَ بِهِ عِلْمًا ، أَعْيَاؤُكُمْ شُهُودُهُ ، وَجَوَارِحُكُمْ جُنُودُهُ ،
وَصَائِرُكُمْ عُيُونُهُ ، وَحَلَوَاتُكُمْ عِيَانُهُ .

• • •

الْبَيْزَج :

هذه الآية يستدل بها الأصوليون من أصحابنا على أن الكفار يعاقبون في الآخرة على
ترك الواجبات الشرعية ، وعلى فعل القبائح ، لأنها في الكفار وردت ، ألا ترى
إلى قوله : ﴿ فِي جَنَّاتٍ يَنْسَاءُ لَوْنٌ عَنِ الْمُحْرِمِينَ مَا سَدَّكُمْ فِي سَفَرٍ ﴾ ^(٢) . فليس يجوز
أن يعنى بالمحرمين هاهنا العاصفين من أهل القبيلة ، لأنه قال : ﴿ قَالُوا لَمْ يَكُ مِنْ الْمُصَلِّينَ ۖ

(١) سورة الاحزاب ٧٧ .

(٢) سورة المدثر ٤٢ - ٤٧ .

وَلَمْ تَكُنْ تُطِيعُ لِلْيَسْكِينِ • وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْفَارِصِينَ • وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ
الدِّينِ ^(١) .

قالوا : وليس لقائل أن يقول : معنى قوله : ﴿ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴾ لم تكن من
القائلين بحوب الصلاة ؛ لأنه قد أغنى من هذا التعليل قوله : ﴿ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ
الدِّينِ ﴾ لأن أحد الأمرين هو الآخر ، وتحمل الكلام على ما يفيد قاعدة جديدة أولى
من حمله على التكرار ولإعادة ، فقد ثبت بهذا التقرير صحة احتجاج أمير المؤمنين عليه
السلام على تأكيد أمر الصلاة ، وأنها من العبادات المهمة في نظر الشارع .

قوله عليه السلام : « وإياها لتعتل الذنوب » ، الحت : مثر الورق من العصف ،
وانمحات ، أى تناثر ؛ وقد جاء هذا المعنى في الخبر النهوى بعينه .

والرَّثَبُ : جمع رَثَّة ، وهى الحبل ، أى تطلق الصلاة الذنوب كما تطلق الحال المقعدة ،
أى تحمل ما تنهى على المكلف من ذنوب . وهذا من باب الاستمارة .

ويروى : « تهتدوا أمر الصلاة » بالتصنيف ، وهو لغة ، يقال : تماهدت ضيق
وتماهتوا وهو القيام عليها ، وأصله من تجديد العهد بالشئ ، والمراد المحافظة عليه ؛ وقوله
تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ ، أى واجبا ، وقيل : وقوتا ؛
أى متجبا كل وقت لصلاة معينة ؛ وتؤدى هذه الصلاة في مجملها .

وقوله : « كتابا » أى فرضا واجبا ، كقوله تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ
الرَّحْمَةَ ﴾ ^(٢) أى أوجب .

والْحَمَّةُ : الحفيرة فيها اللحم وهو الماء الحار ، وهذا الخبر من الأحاديث الصالحة ، قال
صلى الله عليه وآله : « أيسر أحدكم أن تكون على باب حمة ينسل منها كل يوم خمس

(١) سورة الدھر ٤٢ - ٤٧ .

(٢) سورة النساء ١٠٣ .

(٣) سورة الأنعام ٣ .

مرات ، فلا يبقى عليه من ذكره شيء اقلوا نم ، قال : فإنها الصلوات الخمس .
والذكرن : الوسخ .

والتجارة في الآية ، إما أن يراد بها : لا يشغلهم نوع من هذه الصناعة عن ذكر الله .
ثم أفرد البيع بالذكر ، وخصه وعطفه على التجارة العامة ، لأنه أدخل في الإلهاء ، لأن الربح
في البيع بالكسب معلوم ، والربح في الشراء مظنون ، وإما أن يريد بالتجارة الشراء
خاصة إطلافاً لاسم الجنس الأعم على النوع الأخص ، كما تقول : رزق فلان تجارة رابحة ،
إذا أتجه له شراء صلح ، فأما إقام الصلاة فإن التاء في « إقامة » عوض من الميم الساقطة
للإعلال ، فإن أصله « إقوام » مصدر أقام ، كقولك : أعرض إمرأاً ، فلما أضيفت
أقيمت الإضافة مقام حرف التعويض ، فأسقطت التاء .

قوله عليه السلام : وكان رسول الله صلى الله عليه وآله نصيباً بالصلاة ، أى تيباً ، قال
تعالى : ﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾^(١)

وروى أنه عليه السلام قام حتى تورمت قدماه مع التشير له بالجنة .

وروى أنه قيل له في ذلك قال : « أفلا أكون عبداً شكوراً » .

ويصبر نفسه : من الصبر ، ويروى : « وتصبر ليهاتسه » أى يحبس ؛ قال سيبويه :

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾^(٢) . وقال عنقرة بذكر حربا كان فيها :

فَصَبِرْتُ عَارِفَةً لَدَاكَ حُرَّةٌ تَرْتُسُو إِذَا نَفْسُ الْجَبَانِ تَطَّلَعُ^(٣)

• • •

[فصل في ذكر الآثار الواردة في الصلاة وفضلها]

واعلم أن الصلاة قد جاء في فضلها الكثير الذي يُعجزنا حصره ، ولو لم يكن

(٢) سورة الكهف ٢٨ .

(١) سورة طه ٢ .

(٣) الحان (صبر) .

إلا ما ورد في الكتاب العزيز من تكرار ذكرها وتأكيد الوصاة بها والحفاظ علىها ،
لكان بعضه كافياً .

وقال النبي صلى الله عليه وآله : « الصلاة عمود الدين ، فمن تركها فقد هدم الدين » .
وقال أيضاً عليه السلام : « علم الإيمان الصلاة ، فمن فرغ لها قلبه ، وقام محدودها ؛
فهو المؤمن » .

وقالت أم سلمة : كان رسول الله صلى الله عليه وآله يحدثنا ومحدثه ، فإذا حضرت
الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم يعرفه .

وقيل للعن رحمة الله : ما دل المتجدين من أحسن الناس وجوهاً ؟ قال : لأنهم حلوا
بالرحمن ، فألبسهم نوراً من نوره .

وقال عمر . إن الرجل يشيب عارضاً في الإسلام ما كمل الله له صلاة ، قيل له :
وكيف ذلك ؟ قال : لا يتم خشوعها وتواضعها وإقباله على ربه فيها .

وقال بعض الصالحين : إن العبد ليسجد السجدة عند أنه متقرب بها إلى الله ، ولو قيس
دبه في تلك السجدة على أهل مدينة هلكوا ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : يكون ساجداً
وقلبه عند غير الله ، إنما هو مصير إلى هوى أو دنيا .

صلى أعرابي في المسجد صلاة حفيضة ، وعمر بن الخطاب يراه ، فلما قصاها قال :
اللهم زوِّجني الخور العين . فقال عمر : يا هذا لقد أسأت التقدير ، وأعظمت الخطيئة !
وقال علي عليه السلام : لا يزال الشيطان دعيماً من المؤمنين ما حافظ على الخس ،
فإذا ضيقن تحمراً عليه ، وأوقعه في المعطأ .

وروى عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : « الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما ،
ما اجتنبت الكبائر » .

وجاء في الخبر أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة .

وقال هشام بن عروة : كان أبي يطيل المكتوبة ويقول : هي رأس المال .

قال يونس بن عبيد : ما استخفت أحد بالنوافل إلا استخفت بالقرائن .

يقال : إن محمد بن المنكدر جرأ الليل عليه وعلى أمه وأخته أثلاثاً ، فانت أخته ، فجزأه عليه وعلى أمه نصفين ، فانت أمه فقام ليل كله .

كان مسلم بن يسار لا يسمع الحديث إذا قام يصلي ، ولا يفهمه ، وكان إذا دخل بيته سكت أهله فلا يسمع لهم كلام حتى يقوم إلى الصلاة ، فينحذثون ويلطمون ، فهو لا يشعر بهم . ووقع حريق إلى جنبه وهو في الصلاة ، فلم يشعر به حتى حرق .

كان حنف بن أبيوب لا يطرق الأبواب إذا وقع على وجهه وهو في الصلاة في بلاد كثيرة الذباب ، ف قيل له : كيف تصبر ؟ فقال : بلعمى أن الشطار يصرون تحت السياط ليقل : فلان صبور ، أفلا أصبر وأنا بين يدي ربي على أدى ذباب يقع علي ؟

قال ابن مسعود : الصلاة مكيال ، فمن وقى وقى له ، ومن طقف ، فويل للمطقفين ! قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وآله : يا رسول الله ، ادع لي أن يرزقني الله ما افتتكت في الجنة ، فقال : « أهني على إجابة الدعوة بكثرة السجود » .



قوله عليه السلام : « قربانا لأهل الإسلام » ، القربان : اسم لما يقرب به من نسيكة أو صدقة .

وروى : « ومن النار حجارا » بالزاي أي ماعا واللفظ : الحسرة ، ينهى عليه السلام

عن إخراج الزكاة مع القسطنط لإخراجها والتلف والتعثر على دفعها إلى أربابها، ويقول: إن من يفعل ذلك برجوها تيل الثواب ضال مضيع لئله، غير ظاهر بخارجها من الثوبة.

• • •

[ذكر الآثار الواردة في فضل الزكاة والتصدق]

وقد جاء في فضل الزكاة الواجبة وفصل صدقة التطوع الكثير جدا، ولو لم يكن إلا أن الله تعالى قرن بها الصلاة في أكثر المواضع التي ذكر فيها الصلاة لكفى. وروى بريدة الأسلمي أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «ما حبس قوم الزكاة إلا حبس الله عنهم القطر». .

وجاء في الذين يكثرزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ما جاء في الذكر الحكيم، وهو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْمِي عَلَيْهِمْ فِي كَيْبِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ...﴾^(١) الآية، قال المفسرون: إضاقها في سبيل الله إخراج الزكاة منها.

وروى الأحنف قال: قدمت المدينة، فبينما أنا في حلقة فيها ملا من قريش، إذ جاء رجل خشن الحسد، خشن الثياب، فقام عليهم، فقال: بشر الكاذبين برضف^(٢) يحمي عليها في نار جهنم، فوضع على حاملة ندى الرجل حتى تخرج من نفض^(٣) كفه، ثم توضع على نفض كفه حتى تخرج من حلة نديه، فسألت عنه فقيل: هذا أبو ذر الغفاري، وكان يذكره ويرفضه.

ابن عباس يرفعه: «من كان عنده ما يركي لم يرك، وكان عنده ما يبيع فلم يبيع سأل الرجعة، يعني قوله: «وب ارجعون».

(١) سورة التوبة ٣٤.

(٢) الرضف: الحطارة المصاة.

(٣) النفض: أكل الكف؛ وقيل هو العلم الرقيق الذي على طرفه.

أبو هريرة : مثل رسول الله صلى الله عليه وآله : أى الصدقة أفضل ؟ فقال : أن تهملى وأنت صحيح ، شحيح ، تأمل البقاء ، وتمشى الفقر ، ولا تمهل ؛ حتى إذا بلغت الحلقوم قلت : لفلان كذا ، ولفلان كذا^(١) .

وقيل للشبلى : ما يجب فى مائتى درهم ؟ قال : أتا من جهة الشرع خمسة ، وأمان من جهة الإخلاص فالكل .

أمر رسول الله صلى الله عليه وآله ببعض نائه أن تقسم شاة على الفقراء فقالت : يا رسول الله ؛ لم يبق منها غير عُنُقِها ؛ فقال عليه السلام : كلها بقرى غير عُنُقِها . أحد شاعر هذا المعنى فقال :

يبكى على الدَّاهِبِ من ماله وأما يبقى الذى يذهب

السائل : كان الرجل من السلف يضع الصدقة ، ويمثل فأما بين يدي السائل الفقير ويسأله قبولها ؛ حتى يصير هو فى صورة السائل .

وكان بعضهم يسط كفه ويحملها تحت يد الفقير ؛ لتكون يد الفقير العليا .

وعن النبى صلى الله عليه وآله : « ما أحسن عبد الصدقة إلا أحسن الله إليه فى محققه ،

وعنه صلى الله عليه وآله : « الصدقة ندى سبعين بابا من الشر » .

وعنه صلى الله عليه وآله : « أذهبوا مذمة السائل ولو بمنزل رأس الطائر من الطعام » .

كان النبى صلى الله عليه وآله لا يكل خصلتين إلى غيره : لا يوضئه أحد ، ولا يعطى

السائل إلا يده .

بعض الصالحين : الصلاة تبلى لك نصف الطريق ، والصوم يبلى لك باب الملك ،

والصدقة تدخلك عليه بغير إذن .

الشَّهْمى : من لم يرَ نفسه أحوج إلى ثواب الصدقة من الفقير إلى صدقته ، فقد أبطل

صدقته ؛ وضرب بها وجهه .

(١) ساقط من ب .

كان الحسن بن صالح إذا جاءه سائل ، فإن كان عنده ذهب أو فضة أو طعام أعطاه ، فإن لم يكن ؛ أعطاه زيتا أو ممحا أو نحوهما مما ينتفع به ، فإن لم يكن ، أعطاه كعلا ، أو حرج يابرة وخاطبها ثوب السائل ، أو بحرقه يرقع بها ما تحرق من ثوبه .
ووقف مرة على باب سائل ليلا ، ولم يكن عنده ما يدفعه إليه ، فخرج إليه بقصبة في رأسها شُعلة ، وقال : خذ هذه وتبلغ بها إلى أبواب ناس لعلمهم بسلوكك .

• • •

قوله عليه السلام : « ثم أدا الأمانة » ، هي العقد الذي يلزم الوفاء به ، وأصح ما قيل في تفسير الآية أن الأمانة ثقيلة الحمل ، لأن حاملها معرض لخطر عظيم ، فهي بالغة من التقل وصوبة الحمل مالوا أنها عرضت على السموات والأرض والجبال لامتنعن من حملها . فأتى الإنسان فإنه حملها وألزمه القيم ^{بهم} وليس المراد بقولنا : إنها عرضت على السموات والأرض أى لو عرضت عليها وهى جادات ، بل المراد تعظيم شأن الأمانة ، كما تقول : هذا الكلام لا يحمله الجبال ، وقوله :

• امتلا الخرض وقال قطي • ^(١)

وقوله تعالى : ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِفِينَ ﴾ ^(٢) . ومذهب العرب في هذا الباب . وتوسمها ومجازاتها مشهور شائع .

(١) السان (خض) ، وقيل :

• سَلَا رُؤُوبًا قَدْ مَلَأَتْ بَطْنِي •

(٢) سورة طه ١١ .

(١٩٣)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

وَأَفْهِ مَأْمَاوِيَةً بِأَدْهَى مَيٍّ ؛ وَلَكِنَّهُ بِمَذِيرُ وَبِمَجْرُ ، وَلَوْ لَا كَرَاهِيَةُ الْفَذْرِ
لَسَكَنْتُ مِنْ أَدْهَى النَّاسِ ، وَلَسَكِنْ كُلُّ غَذْرَةٍ فَجْرَةٍ ، وَكُلُّ مُجْرَةٍ كَفْرَةٍ ؛ وَلَكِنْ
غَادِرٍ أَوْ لَا يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَفْهِ مَا اسْتَعْمَلُ بِالْمَكِيدَةِ ، وَلَا اسْتَعْمَزُ بِالشَّدِيدَةِ .

الشرح :

المَذْرَةُ ، على «فَعْلَةٍ» الكثير المَذْرُ ، والمَجْرَةُ والكَفْرَةُ : الكثير الفجور والكفر ،
وكل ما كان على هذا البناء فهو للفاعل ، فإن سَكَتَ المين فهو للمفعول ، تقول : رجل
ضَحَكَ أَيْ يَضَعُكَ ، وَصَحَّكَ يَصْحُكُ مِنْهُ ، وَسُخِّرَ يَسْخَرُ ، وَسُخِّرَ يَسْخَرُ بِهِ ،
يقول عليه السلام : كل غادر فاجر ، وكل فاجر كافر ، وروى : «ولسكن كل غَذْرَةٍ فَجْرَةٍ ،
وكل فَجْرَةٍ كَفْرَةٍ» على «فَعْلَةٍ» للمرة الواحدة .

وقوله : «لكن» غادر لواء يعرف به يوم القيامة ؛ حديث صحيح مسوي عن النبي
صلى الله عليه وآله .

ثم أقسم عليه السلام أنه لا يُسْتَعْمَلُ بِالْمَكِيدَةِ ، أَيْ لَا تَحْزُلُ لِلْمَكِيدَةِ عَلَى ، كَمَا تَحْزُلُ عَلَى
ذَوِي الدَّعَلَةِ ، وَأَنَّهُ لَا يَسْتَعْمَزُ بِالشَّدِيدَةِ ، أَيْ لَا آمِنُ وَالْبَيْنُ لِلْحَطَبِ الشَّدِيدِ .

[سياسة على وجريها على سياسة الرسول عليه السلام]

واعلم أن قوماً ممن لم يعرف حقيقة فضل أمير المؤمنين عليه السلام، زعموا أن عمر كان أسوس منه، وإن كان هو أعلم من عمر، وصرح الرئيس أبو علي بن سينا بذلك في «الشفاء» في الحكمة، وكان شيخنا أبو الحسين يميل إلى هذا، وقد عرض به في كتاب «الفرر»^(١)، ثم زعم أعداؤه ومهاغضوه أن معاوية كان أسوس منه وأصح تدبيراً، وقد سبق لنا بحث قديم في هذا الكتاب في بيان حسن سياسة أمير المؤمنين عليه السلام وصحة تدبيره، ونحن نذكر هاهنا ما لم نذكره هناك مما يليق بهذا الفصل الذي نحن في شرحه.

اعلم أن السانس لا يتمكن من السياسة البالغة إلا إذا كان يعمل برأيه، وعما يرى فيه صلاح مملكته، وتمهيد أمره، وأوطيد قاعدته؛ سواء وافق الشريعة أو لم يوافقها، ومتى لم يعمل في السياسة والتدبير بموجب ما قلناه؛ فعيد أن ينتظم أمره، أو يستوثق حاله، وأمر المؤمنين كان مقيداً بقيود الشريعة، مدفوعاً إلى اتباعها ورفض ما يصلح اعتمادهم من آراء الحرب والسكيد والتخدير إذا لم يكن للشرع موافقاً، فلم تكن قاعدته في خلافته قاعدة غيره ممن لم يلتزم بذلك، ولما بهذا القول رابين على عمر بن الخطاب، ولا ماسين إليه ما هو مبرزه عنه، ولكنه كان محتدياً بعمل بالنياس والاستحسان والنصالح المرسلة، ويرى تخصيص محومات النص بالآراء والاستنباط من أصول تفتحي خلاف ما يقتضيه عموم النصوص، ويكيد حصه، ويأمر أمراءه بالسكيد والحيلة، وتؤدب بالهرة والسوط من

(١) هو كتاب الفرر لأبي الحنفى الصيرى، و أصول السلام، شرحه المؤلف، وسماه: «شرح مشكلات الفرر»، ذكره صاحب رومانه الحيات

يختلف على ظنه أنه يستوجب ذلك ، وبصنع من آخرين قد اجترموا ما يستحقون به
التأديب ، كل ذلك بقوة احتجاده وما يؤديه إليه نظره ، ولم يكن أمير المؤمنين عليه السلام
يرى ذلك ، وكان يقف مع النصوص والظواهر ، ولا يمتدأها إلى الاجتهاد والأفيسة ، وبطريق
أمور الدنيا على أمور الدين ، ويسوق السكل مسافوا واحداً ، ولا يصيغ ولا يرفع إلا بالكتاب
والنص ، فاختلفت طريقتاها في الخلافة والسياسة ، وكان عمر مع ذلك شديد الملاحظة
والسياسة ، وكان على عليه السلام كثير الحلم والصبر والتجاوز ، فازدادت خلافة ذلك قوة ،
وخلافة هذا ايئناً ؛ ولم يمتن عمر بما مئى به على عليه السلام من فتنة عيان ، التي أحوجنه إلى
مداراة أصحابه وحفده ومقارنتهم ، للاضطراب الواقع بطريق تلك الفتنة . ثم تلا ذلك فتنة
الجل ، وفتنة صميمين ثم فتنة النهر وان ، وكل هذه الأمور مؤثرة في اضطراب أمر الوالي
والاحلال معاهد ماسكه ، ولم يتفق لغير شيء من ذلك ، فشتان بين الخلافتين فهما يورد إلى
انتظام المملكة وصحة تدبير الخلافة

فإن قلت : فما قولك في سياسة الرسول ﷺ عليه وآله وتدييره ؟ أليس كان
منظماً سديداً مع أنه كان لا يعمل إلا بالنصوص والتوقيف من الوحي ! أم لا كان تدبيره على
عليه السلام وسياسته كذلك ! إذا قلتم : إنه كان لا يعمل إلا بالنص ، قلت : أما سياسة
الرسول ﷺ عليه وآله وتدييره فمخرج عما نحن فيه ؛ لأنه معصوم لا يتطرق العفة إلى
أفعاله ، ولا واحد من هذين الرجلين مباح المصمة عندهما . وأيضاً فإن كثيراً من الناس
ذهبوا إلى أن الله تعالى أذن الرسول ﷺ عليه وآله أن يحكم في الشرعيات وغيرها برأيه ،
وقال له : احكم بما تراه ، فإنك لا تحكم إلا بالحق ، وهذا مذهب يونس بن عمران ، وعلى هذا
فقد سقط السؤال ، لأنه صلى الله عليه وآله يعمل بما يراه من المصلحة ، ولا ينتظر الوحي .
وأيضاً في تقدير هاد هذا المذهب ؛ أليس قد ذهب خلق كثير من علماء أصول الفقه
إلى أن الرسول ﷺ عليه وآله كان يجوز^(١) له أن يحتج في الأحكام والتدبير ، كما يحتج

الواحد من العلماء ، وإليه ذهب القاضي أبو يوسف رحمه الله ، واحتج بقوله تعالى :
﴿ لِيَتَحَكَّم بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ (١).

والسؤال أيضا ساقط على هذا للذهب ، لأن اجتهاد علي عليه السلام لا يساوي اجتهاد
لنبي صلى الله عليه وآله ، وبين الاجتهادين كما بين للنزئين .

• • •

وكان أبو جعفر من أبي زيد الحنفى نقيب البصرة رحمه الله إذا حدثناه في هذا
يقول : إنه لافرق عند من قرأ السيرتين : سيرة النبي صلى الله عليه وآله وسياسة أصحابه
أيام حياته ، وبين سيرة أمير المؤمنين عليه السلام وسياسة أصحابه أيام حياته ، فكأن
علياً عليه السلام لم يزل أمره مضطرباً معهم بالخفاقة والمصيان والحرب إلى أعدائه ، وكثرة
الفتن والحروب ، فكذلك كان النبي صلى الله عليه وآله لم يزل ممنوعاً بنفاق المنافقين
وأذام ، وخلاف أصحابه عليه وهرب بعضهم إلى أعدائه ، وكثرة الحروب والفتن .

وكان يقول : ألتست ترى القرآن العزيز مملوءاً بذكر المنافقين والشكوى منهم ،
والنآلم من أذام له ؛ كأن كلام على عليه السلام مملوء بالشكوى من منافق أصحابه والنآلم
من أذام له ، والتوهم عليه اودلك بحوقله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ سُواْ عَصَى
النَّجْوَى ثُمَّ يَسْوُدُونَ لِمَا سُواْ عَنْهُ وَيَقْذِبُونَ بِالْإِنَّم وَالْمُدُونِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا
جَاءوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحْيِكَ بِهِ اللَّهُ وَقِيلُواْ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُهُ اللَّهُ بِمَا نَقُولُ
حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (٢).

وقواه : ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُواْ ... ﴾ (٣) الآية .
وقوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ

رَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ كَاذِبُونَ • اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ
اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ... ﴿السورة بأجمعها﴾^(١).

وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ
أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾^(٢).

وقوله تعالى : ﴿ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ اتَّمَشِ قَلْبِهِ
مِنَ الْمَوْتِ قَالُوا لِي لَهْم • طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ
خَيْرًا لَهُمْ • ﴾^(٣).

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ •
وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَ كَهُمْ فَلَمَخَرَقْنَاهُمْ بِسَامِهِمْ وَلَقَعْنَاهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
أَعْمَالَكُمْ ﴾^(٤).

وقوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا
فَأَسْتَعِيرُوا لَنَا يَقُولُونَ بِالسِّتَةِ مَالِكٍ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا
إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا • بَلْ ظَنَنْتُمْ
أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ آنَدًا وَرَأَيْتَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ
عَنْ الْعَوْنِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾^(٥).

وقوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطأتم إِلَى مَنَاقِمٍ لِلتَّخَذِ وَهَا ذَرُونَا
نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُوا كَذَلِكَم قال اللَّهُ مِنْ قَبْلُ

(٢) سورة محمد ١٦ •

(٤) سورة محمد ٢٩ • ٣٠ •

(١) سورة المنافقين •

(٣) سورة محمد ٢٠ •

(٥) سورة الفتح ١١ • ١٢ •

فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْمَدُوكُمْ أَوْ نَكُونُ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١١﴾ .

وقوله : ﴿ إِنَّا الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ • وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٢) .

قال : وأصحابه هم الذين نازعوا في الأغال وطلبوها لأنفسهم ، حتى أنزل الله تعالى : ﴿ قُلِ الْأَغَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١٣) .

وم الذين القوا عليه في الحرب يوم بدر ، وكرهوا لقاء العدو حتى خيف حدلاهم ، وذلك قبل أن تراهي القتان ، وأنزل فيهم : ﴿ يُنَادِلُوكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ (١٤) .

وم الذين كانوا يستنون لقاء العير لقد لقاء العدو ، حتى إنهم ظفروا برجلين في الطريق ، سألوهما من العير ، فقالا لا علم لنا بها ، وإنما رأينا جيش قريش من وراء ذلك الكتيب ، فضر بهما ورسول الله صلى الله عليه وآله قائم يصلي ، فلما دافعا من الصرب قالوا : بل العير أمامكم فاطلبوها ، فلما رفعوا الصرب عنهما ، قالوا : والله ما رأينا العير ولا رأينا إلا الخيل والسلاح والجيش ، فعادوا الصرب عليهما مرة ثانية ، فقالا وهما بصريان : العير أمامكم ، نغشوا عنا ، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وآله من الصلاة ، وقال : إذا صدقكم حرمتموها ، وإذا كذباكم حلتيم عنهما ادعوهما : ما رأيا إلا جيش أهل مكة ، وأنزل قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ بَعَدُ كُمْ اللَّهُ إِخْدَى الْعُلَافَتَيْنِ أَنهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَيِّقَ أَلْفَ بَيْكَلَاتِهِ وَيَقْطَعَ

(١١) سورة الفتح ١٥ .

(١٢) سورة الحجرات ٤ ، ٥ .

(١٣) سورة الأغال ١ .

(١٤) سورة الأغال ٦ .

دَائِرِ الْكَافِرِينَ^(١) . قال المفسرون : الطائفتان : العير ذات القطيع الواصلة إلى مكة من الشام صعبة أبي سفيان بن حرب ، وإليها كان خروج المسلمين ، والأخرى : الجيش ذو الشؤكة ، وكان عليه السلام قد وعدم بإحدى الطائفتين ، فكرهوا الحرب ، وأحبوا العنيفة .

قال : وهم الذين قرأوا عنه صلى الله عليه وآله يوم أُخِذَ ، وأسفوه وأصعدوا في الجبل ، وتركوه حتى شجَّ الأعداء وجهه ، وكسروا ثيابه ، وضربوه على بَيِّنَتِهِ ، حتى دخل جحاجحه ، ووقع من فرسه إلى الأرض بين الفتلى ، وهو يستصرح بهم ، ويدعوم فلا يجيبه أحدٌ منهم إِلَّا مَنْ كَانَ جَارِيًا يَجْرِي نَفْسَهُ ، وشديد الاختصاص به ، وذلك قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَضِيدُونَ وَلَا تُلَوُّونَ عَلَى أَحَدٍ وَرَسُولٌ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ ﴾^(٢) ، أى يسألكم فيسمع نداءه آخر المارئين لا أولهم ؛ لأن أولهم أُوغِلُوا في الفرار ، ويبعدوا عن أن يسموا صوته ، وكان قصارى الأمر أن يبلغ صوته واستصراحه مَنْ كَانَ عَلَى سَاقَةِ الْمَارِيَيْنِ مِنْهُمْ .

قال : ومنهم الذين عصوا أمره في ذلك اليوم ، حيث أقامهم على الشعب في الجبل ، وهو الموضع الذي خاف أن تنكر عليه منه خيل المدون من ورائه ، وهم أصحاب عبدالله ابن جبير ، فأتهم حالقوا أمره وحصوه فيما تقدم به إليهم ، ورعبوا في الفتيمة ، ففارقوا مركزهم ؛ حتى دخل الوهن على الإسلام بطريقهم ، لأن خالد بن الوليد كثر في عصابة من الخيل ، فدخل من الشعب الذي كانوا يحرسونه ، فأأحسن للسلدون بهم إلا وقد عثوهم بالسيوف من حلقهم ، فكانت الحرمة ، وذلك قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا فِشَلْتُمْ

(١) سورة الأتفال ٧

(٢) سورة النحل - عمران ١٥٣ .

وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا
وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۖ (١)

قال : وهم الذين عصوا أمره في عراه نبوك ، بعد أن أكد عليهم الأوامر ، وحذوهم
وتركوهم ولم يشعصوا معه ، فأزل فيهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ
انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَّا قُلْنَا إِلَى الْأَرْضِ أَرْحَبُ مِنْ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَلَا تَتَفَرُّوا بِمَا كُفِّرْ بَكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَبِشْتَدِيدِ قَوْمًا
عَذِّبْكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۖ (٢) ، وهذه الآية خطاب مع المؤمنين
لا مع المنافقين ، وفيها أوضح دليل على أن أصحابه وأوليائه المصدقين لدعوته كانوا يعصونه ،
وبخالفون أمره ؛ رأ أكد عناهم وتفردهم ونوبيعهم بقوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا
وَسَفَرًا فاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَنْهُمْ الشُّعْبَةُ وَكَانَ الَّذِينَ آمَنُوا يَنْتَظِمُونَ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّعْبَةَ الَّتِي كَانَتْ تَتَّبِعُونَ هِيَ تَقُودُكُمْ إِلَى الْفِتْنَةِ أُولَئِكَ
يُحِبُّونَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الدُّنْيَا
فَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكُمْ إِذَا كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَسْرِبُوا فِيهَا أَمْ لَا تَعْلَمُونَ ۖ (٣) ۖ

ثم عاتب رسول الله صلى الله عليه وآله على كونه أدن لهم في التحلف ، وإنما أدن لهم
لعله أنهم لا يحبونه في الخروج ، فرأى أن يجعل لمة له عليهم في الإذن لهم ، وإلا فعدوا عنه
ولم تصل له اللفة ، فقال له : ﴿ عَمَّا أَفْتَى هُنَا لَمَ أَذِنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَنْتَبِئَ لَكَ الَّذِينَ
صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَادِبِينَ ۖ (٤) ، أى هلا أمسكت عن الإذن لهم حتى ينتبين لك قعود
من يصدق ، وخروج من يخرج ، صادقهم من كادهم ! لأنهم كانوا قد وعدوه بالخروج معه
كلهم ، وكان بعضهم بنوى العذر ، وبعضهم مزم على أن يحبس (٥) بذلك الوعد ، ولم يأذن
لهم لعل من يتخلف ومن لا يتخلف ، عرف الصادق منهم والكاذب .

(٢) سورة التوبة ٣٨ ، ٣٩ .

(١) سورة التوبة ٤٣ .

(١) سورة آل عمران ١٥٢ .

(٢) سورة التوبة ٤٧ .

(٣) يحبس : يصد .

ثم بين سبحانه وتعالى أن الذين يستأدونه في التخلف خارجون من الإيمان، فقل له: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَزِيزٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَبِّهِمْ يَزِيدُونَ ^(١)

ولا حاجة إلى التطويل مذكر الآيات المفصلة فيما يناسب هذا المعنى ، فمن تأمل الكتاب العزيز عيم حاله صلوات الله عليه مع أصحابه كيف كانت ، ولم ينقله الله تعالى إلى جوارحه إلا وهو مع المنافقين له والمظهرين خلاف ما يضررون من تصديقه في جهاد شديد ، حتى لقد كشفوه مراراً ، فقال لهم يوم الحديبية : اخلقوا وانحروا . . . مراراً ، فلم يخلقوا ولم ينحروا ، ولم يتحرك أحد منهم عند قوله ، وقال له بعضهم وهو يقسم المنائم : « اعدل يا محمد فإنك لم تعدل » .

وقالت الأنصار له مواجهه يوم حنين : أناخذ ما أفاء الله علينا بسيفه فتدفعه إلى أقاربك من أهل مكة حتى أقمى الأمر إلى أن قال لهم في مرض موته : « اتقوني بدواة وكتبكم أكتب لكم ما لا تصفون بعده » ، فمضوه ولم يأتوه بذلك ، وليتهم أقصروا على عصيانه ولم يقولوا له ما قالوا ، وهو يسمع !

وكان أبو جعفر رحمه الله يقول من هذا ما يطول شرحه ، والقبيل منه بنى عن الكثير ، وكان يقول : إن الإسلام ما حلا عندهم ولا ثبت في قلوبهم إلا بعد موته ، حين فطحت عليهم الفتوح ، وجاءتهم المنائم والأموال ، وكثرت عليهم المكاسب ، وذاقوا طعم الحياة ، وعرفوا لذة الدنيا ، رلبسوا الناعم ، وأكلوا الطيب ، وتمتعوا بنساء الروم ، وملكوا خزان كسرى ، وتبدلوا بذلك النفس والشغف والعيش الخشن وأكل

الضُّباب والنفاذ واليرابيع وليس الصوف والسكرابيس^(١) ، وأكل اللوز بنجات
والفالوذحات وليس الحرير والديباج ، فاستدثوا بما فتحه الله عليهم ، وأتاحه لهم على صحة
الدعوة ، وصدق الرسالة ، وقد كان صلى الله عليه وآله وعذمه بأنه سيفتح عليهم كنوز
كسرى وقبصر ، فلما وجدوا الأمر قد وقع بموجب ما قاله عظموه وبجملوه ، وانقلبت
تلك الشكوك وذلك التناق وذلك الاستهراء إيماناً وبقياً وإخلاصاً ، وطاب لهم المعبش ،
وتمسكوا بالدين ، لأنه زادهم طريقاً إلى نيل الدنيا ، فمظلموا بما وسه ، وبالعوا في إحلاله
وإجلال الرسول الذي جاء به ، ثم انقضت الأسلاف وجاء الأحناف على عقيدة عمدة ،
وأمر أحدهم تقليداً من أسلافهم الذين رثوا في حورهم ، ثم انقضت ذلك القرن ، وجاء
من بعدهم كذلك ، وهم حراً

قال : ولولا الفتوح والنصر والظفر الذي منحهم الله تعالى إياه ، والدعوة التي ساقها
إليهم ، لا انقضت دين الإسلام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكان يذكر في
التواريخ ، كما تذكر الآن بيوت خلف من صفان العيسى حيث ظهر ودعا إلى الدين . وكان
الناس يمحسون من ذلك ويتداكرونه كما يمحسون ويتداكرون أحبار من تبع من
الرؤساء والملوك والدعاة الذين انقضت أمرهم ، وقيت أحبارهم .

وكان يقول : مَنْ تأمل حال الرُّجلين وجدهما منساجمين في جميع أمورهما أو في
أكثرها ؛ وذلك لأنَّ حرب رسول الله صلى الله عليه وآله مع المشركين كانت سبباً ،
انتصر يوم بدر ، وانتصر للمشركين عليه يوم أحد ، وكان يوم الخندق كغافاً خرج
هو وهم سواء ، لا عليه ولا له ، لأنهم قتلوا رئيس الأوس وهو سعد بن معاذ ، وقتل
منهم فارس قريش وهو عمرو بن عبدود ، وامر فوا عنه بغير حرب بعد تلك الساعة
التي كانت ، ثم حارب بعدها قريشاً يوم الفتح ، فكان الظفر له .

وهكذا كانت حروباً على عليه السلام ، انتصر يوم الجمل ؛ وخرج الأمر بينه وبين

(١) السكرابيس : جمع كرابيس ، وهو الثوب من الفل الأيس .

معاوية على سواء ، قتل من أصحابه رؤساء ، ومن أصحاب معاوية رؤساء ، وانصرف كل واحد من الفريقين عن صاحبه بعد الحرب على مكانه ، ثم حارب بعد صفين أهل النهروان ، فكان الظفر له .

قال : ومن العجيب أن أول حروب رسول الله صلى الله عليه وآله كانت بدرا ، وكان هو المنتصور فيها ، وأول حروب علي عليه السلام الجمل ، وكان هو المنتصور فيها . ثم كان من صحيفة الضح والحكومة يوم صفين نظير ما كان من صحيفة الصلح والهدنة يوم الحديبية . ثم دعا معاوية في آخر أيام علي عليه السلام إلى نفسه وتسمى بالخلافة ، كما أن مبيعة والأسود الصسي دعوا إلى أنفسهما في آخر أيام رسول الله صلى الله عليه وآله وتسمى بالنبوة ، واشتد على علي عليه السلام ذلك ، كما اشتد على رسول الله صلى الله عليه وآله أمر الأسود ومبيعة ، وأبطل الله أمرهما بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله ، وكذلك أبطل أمر معاوية وبنو أمية بعد وفاة علي عليه السلام . ولم يحارب رسول الله صلى الله عليه وآله أحد من العرب إلا قريش ماعدا يوم حنين ، ولم يحارب عليا عليه السلام من العرب أحد إلا قريش ماعدا يوم النهروان . ومات علي عليه السلام شهيدا بالسيف ، ومات رسول الله صلى الله عليه وآله شهيدا بالسهم . وهذا لم يتزوج علي خديجة أم أولاده حتى مات ، وهذا لم يتزوج علي فاطمة أم أولاده حتى ماتت . ومات رسول الله صلى الله عليه وآله عن ثلاث وستين سنة ، ومات علي عليه السلام عن مثلها .

وكان يقول : انظروا إلى أخلاقها وخصائصها ، هذا شعاع وهذا شعاع ، وهذا فصيح وهذا فصيح ، وهذا سخي جواد وهذا سخي جواد ، وهذا عالم بالشرائع والأمور الإلهية ، وهذا عالم بالفقه والشرعية والأمور الإلهية الدقيقة العامة ، وهذا زاهد في الدنيا غير أنهم ولا مستكثر منها ، وهذا زاهد في الدنيا تارك لها غير متمتع بلذاتها . وهذا مذهب^(١) نفسه في الصلاة والعبادة ، وهذا مثله . وهذا غير محبب إليه شيء من الأمور العاجلة

إِلَّا النَّسَاءَ وَهَذَا مِثْلُهُ ، وَهَذَا ابْنُ عَبْدِ اللَّطِيبِ بْنِ هَاشِمٍ ، وَهَذَا فِي قُتْدُودِهِ ^(١) ، وَأَبُو هَامٍ أَخُو ابْنِ
لَأَبٍ وَاحِدٌ دُونَ غَيْرِهِمَا مِنْ بَنِي عَبْدِ اللَّطِيبِ ؛ وَرَبِّي مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِي جَعْرِ وَالْدهَا
وَهَذَا أَبُو طَالِبٍ ، فَكَانَ جَارِيًا عِنْدَهُ عَمْرَى أَحَدِ أَوْلَادِهِ . ثُمَّ لَمَّا شَبَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَكَبُرَ
اسْتَغْلَصَهُ مِنْ بَنِي أَبِي طَالِبٍ وَهُوَ غُلَامٌ ، فَرَبَّاهُ فِي حَجَرِهِ مِكَافَأَةً لِمَنْبِغِ أَبِي طَالِبٍ بِهِ ، فَامْتَزَجَ
الْخُلُقَانُ ، وَتَمَثَّلَتِ السَّعِيَتَانِ ، وَإِذَا كَانَ الْقَرِينُ مُقْتَدِيَهُ بِالْقَرِينِ ، فَمَا ظَنُّكَ بِالْقَرِيبَةِ وَالتَّقَرُّفِ
الَّذِي رَالِطُوبِيلُ ! فَوَاجِبٌ أَنْ تَكُونَ أَحْلَاقُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَأَحْلَاقِ أَبِي طَالِبٍ ، وَتَكُونَ
أَحْلَاقُ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَأَحْلَاقِ أَبِي طَالِبٍ أَيْضًا ، وَمُحَمَّدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَرْتَبَةٌ ، وَأَنْ يَكُونَ
السَّكَلُ شَيْئًا وَاحِدًا قَوْسًا ^(٢) وَاحِدًا ، وَطَبِيعَةٌ مُشْتَرَكَةٌ ، وَضَعًا عَظِيمًا مَقْصُودًا لِمَنْ تَعَزَّزَتْهُ ،
وَالْأَيُّ يَكُونُ بَيْنَ بَعْضٍ هَوَلا . وَبَعْضُ فَرْقٍ وَلَا فِصْلٌ ، لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى اخْتَصَمَ مُحَمَّدٌ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلُهُ بِرِسَالَتِهِ ، وَاصْطَفَاهُ لَوْحِيهِ ، لِمَا بَعَلَّهُ مِنْ مَصَالِحِ الْبَرِيَّةِ فِي ذَلِكَ ، وَمِنْ أَنَّ
الْعَلْفَ بِهِ أَكَلٌ ، وَالنَّفْعَ بِمَكَانِهِ أَمْرٌ وَأَعْمٌ ، فَتَمَثَّلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِذَلِكَ
تَحَمُّنٌ سِوَاهُ ، وَبَقِيَ مَا عَدَا الرِّسَالَةَ عَلَى أَمْرِ لَانْعَادٍ ، وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى أَشَارَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلُهُ
بِقَوْلِهِ : «أَخْصِيكَ» ^(٣) بِالْبُيُوتِ فَلَا نُبُوَّةَ بَعْدِي ، وَتَحَمُّمُ النَّاسِ بِسَبْحِهِ ، وَقَالَ لَهُ أَيْضًا : «أَنْتَ
مَتَى عَمْرَلَهُ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَا يَهِي بَعْدِي» ، فَأَبَانَ خُصَمَاءَهُ مِنَ النَّبُوَّةِ ، وَأَثْبَتَ لَهُ مَا عَدَاهَا
مِنْ جَمِيعِ الْفَضَائِلِ وَالْخُصَائِصِ مُشْتَرَكًا بَيْنَهُمَا .

وَكَانَ الْقَتِيبُ أَبُو جَعْفَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ ، غَرِيرُ الْعِلْمِ ، صَحِيحُ الْعَقْلِ ، مُنْصَفًا فِي الْجِدَالِ ، غَيْرَ
مُتَعَصِّبٍ لِلْمَذْهَبِ — وَإِنْ كَانَ عَلَوِيًّا — وَكَانَ يَتَرَفَّ بِفَضَائِلِ الصَّعْبَانِيَّةِ ، وَيُنْشِئُ عَلَى الشَّيْخَيْنِ .
وَيَقُولُ : إِنَّمَا مَهْدَاؤُ دِينِ الْإِسْلَامِ ، وَأَرْسِي قَوَاعِدُهُ ؛ وَلَقَدْ كَانَ شَدِيدَ الْاضْطِرَابِ فِي حَيَاةِ
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَإِنَّمَا مَهْدَاهُ بِمَا تَبَيَّنَ لِعَرَبٍ مِنَ الْفَتْوحِ وَالْمَنَافِعِ فِي دَوْلَتِهِمَا .
وَكَانَ يَقُولُ فِي عَمَانٍ : إِنَّ الدَّوْلَةَ فِي أَيَّامِهِ كَانَتْ عَلَى إِقْبَالِهَا وَهَلَوَ جَدُّهَا ، بَلْ كَانَتْ الْفَتْوحُ
فِي أَيَّامِهِ أَكْثَرَ ، وَالْمَنَافِعُ أَكْثَرُ ، لَوْلَا أَنَّهُ لَمْ يَرَاهُ نَامُوسُ الشَّيْخَيْنِ ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَسْلُكَ

(١) الْقُتْدُودُ : الْقَرِيبُ الْآبَاءِ مِنَ الْجَدِّ الْأَعْلَى (٢) أَيْ أَسْلًا وَاحِدًا (٣) أَحْصَيْكَ : أَغْلَبَكَ .

مسلكتهما ، وكان مصتفاً في أصل القعدة ، مطلوباً عليه ، وكثير الحب لأهله ، وأنبج له من مروان وزير سوء أفسد القلوب عليه ، وتعمل الناس على حله وقتله .

[كلام أبي جعفر الحسني في الأسباب التي أوجبت محبة الناس لعلي]

وكان أبو جعفر رحمه الله لا يبعد الفاضل فضله ، والحديث شجون .

قلت له مرة : ما سبب حب الناس لعلي بن أبي طالب عليه السلام ، وعشقهم له ، ونهاي الكهم في هواه ؟ ودعني في الجواب من حديث الشعاعة والعلم والفضاحة ، وغير ذلك من الخصاص التي رزقه الله سبحانه الكثير الطيب منها :

فصحتك وقال لي : كم تجمع جرائدك على ؟

ثم قال : ها هنا مقدمة ينبغي أن تعلم شوهي أن أكثر الناس موتورون من الدنيا ؛ أما المستحقون فلا ريب في أن أكثرهم محرومون ؛ نعمو عالم يرى أنه لاحظ له في الدنيا ، ويرى جاهلاً غيره مرزوقاً وموسماً عليه . وشعاع قد أبل في الحرب ، وانتفع بموضعه ، ليس له عطاء يكفيه ، ويقوم بضروراته ، ويرى غيره وهو جبان فيل ، يفرق من ظله ، مالكاً لقطر عظيم من الدنيا ، وقطعة وافرة من مال والرزق . وطاقلي شديد التدبير ، صحيح العقل ، قد قدير^(١) عليه رزقه ، وهو يرى غيره أحق ما لها تدر عليه الخيرات ، وتعتلب عليه أحلاف الرزق . وذو دين قويم ، وعبادة حسنة ، وإخلاص وتوحيد ، وهو محروم ضيق الرزق ويرى غيره يهودياً أو نصرانياً أو زنديقاً ، كثير المال حسن الحال ؛ حتى إن هذه الطبقات للضعفة يحتاجون في أكثر الوقت إلى الطبقات التي لا استحقاق

(١) تدر عليه رزقه : صبي .

لها ، وتدعوهم الضرورة إلى الذل لهم ، وانلصوع بين أيديهم . إنا قد دفع ضررنا ، ولا استجلاب
نفع ، ودون هذه الطغيات من ذوى الاستحقاق أيضا ، ما شاهدناه عيانا من تجار حاذق
أو بناء عالم ، أو نقاش بارع ، أو مصور لطيف ، على غاية ما يكون من ضيق رزقهم ، وقعود
الوقت بهم ، وقلة الحيلة لهم ، وبرى غيرهم ممن ليس يحرمهم محرام ، ولا يلحق عليهم ؛
مرزوقا مرغوبا فيه ، كثير المكسب طيب العيش ، واسع الرزق . فهذا حال ذوى
الاستحقاق والاستعداد . وأما الذين ليسوا من أهل الفصائل ، كعشوة العامة ، فإنهم أيضا
لا يخلون من الحقد على الدنيا والدم لها ، والحق والميلط معها لما يلحقهم من حقد أمثالهم
وحيرانهم ، ولا يرى أحد منهم قاتما نبش ، ولا راضيا بحاله ، بل يستزبد ويطلب حالا
فوق حاله .

قال : فإذا عرفت هذه المقدمة ؛ فمعلوم أن عاليا عليه السلام كان مستحقا معروما ، بل
هو أمير المستحقين المحرومين ، وسيدهم وكبيرهم ، ومعلوم أن الذين مناهم الضيم ، وتلحقهم
المذلة والمضمية ، ينعصب بعضهم لبعض ، ويكويون إناجا وبدا واحدة على المرزوقين الذين
ظفروا بالدنيا ، ونالوا مآرهم منها ، لا شتراكمهم في الأمر الذي آلمهم وساءم ، وعصمهم
ومضهم ، وشتراكمهم في الأفة والحمة والنعصب والمناقسة لمن علا عليهم ، وقهرهم ، وبلغ
من الدنيا ما لم يبلغوه ؛ فإذا كان هؤلاء أعنى المحرومين متساوين في المنزلة والمرتبة ، ونعصب
بعضهم لبعض ، فما ظنك بما إذا كان منهم رجل عظيم القدر جليل الخطر كامل الشرف ،
جامع الفضائل محتوي على الخصائص والمناقب ، وهو مع ذلك معروم محدود ، وقد جرعت
الدنيا علاقها ، وعنته عكلا بعد سهل من صابها وصبرها ، ولقي منها برحا بارعا ، وجهدا
جهيدا ، وعلا عليه من هو دونه ، وحكم في بني وأهله ورهطه من لم يكن ما ناله
من الإمرة والسلطان في حسابه ، ولا دائر في خطبه ، ولا خاطر أيباله ، ولا كان أحد من
الناس يرتقب ذلك له ولا يراه له . نعم كان في آخر الأمر أن قتل هذا الرجل الجليل في

مُحْرَابِهِ ، وَقَتْلَ بَنُوهُ بَعْدَهُ ، وَسُجْيَ حَرْبِهِ وَسَاوَهُ ، وَتُبَّعَ أَهْلِهِ وَبَنُو عَمِّهِ بِالْقَتْلِ وَالطَّرْدِ
وَالشَّرِيدِ وَالسَّحُونِ ، مَعَ فَضْلِهِمْ وَزَهْدِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ وَسَخَائِهِمْ ، وَاسْتِفَاعَ الْخَلْقِ بِهِمْ . قُلْ
يُمْكِنُ أَلَّا يَتَمَصَّبَ الْبَشَرُ كُلُّهُمْ مَعَ هَذَا الشَّخْصِ أَوْ هَلْ تَسْتَطِيعُ الْقُلُوبُ أَلَّا تَحْبُوَ وَتَهْوَاهُ ،
وَتَذُوبَ فِيهِ وَتَفْنَى فِي عَشْفِهِ ، انْكَصَارًا لَهُ ، وَحَيَّةً مِنْ أَجَلِهِ ، وَأَفَّةً بِمَا نَالَهُ ، وَامْتِعَاضًا
بِمَا جَرَى عَلَيْهِ أَوْ هَذَا أَمْرٌ مَرْكُوزٌ فِي الطَّبَائِعِ ، وَمَخْلُوقٌ فِي الْفَرَائِزِ ، كَمَا يَشَاهِدُ النَّاسُ عَلَى
الْجُرُفِ إِنْ سَاغَا قَدُوعٌ فِي الْمَاءِ الْعَمِيقِ ، وَهُوَ لَا يَحْسِنُ السَّيَاحَةَ ، فَإِنَّهُمْ بِالطَّبْعِ الْبَشَرِيِّ يَرْقُونَ
عَلَيْهِ رَقَّةً شَدِيدَةً ، وَقَدْ يُبْلَغُ قَوْمٌ مِنْهُمْ أَعْصَمُ فِي الْمَاءِ نَحْوَهُ ، يَطْلُبُونَ تَخْلِيصَهُ ، لَا يَتَوَقَّمُونَ
عَلَى ذَلِكَ عَازَاةً مِنْهُ بِمَالٍ أَوْ شُكْرٍ ، وَلَا ثَوَابًا فِي الْآخِرَةِ ؛ فَقَدْ يَكُونُ مِنْهُمْ مَنْ لَا يَمْتَنِعُ
أَمْرَ الْآخِرَةِ ، وَلَسْكَنَهَا رَقَّةً نَشْرِيَّةً ، وَكَأَنَّ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ يَتَخَيَّلُ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ ذَلِكَ الْفَرِيقُ ،
فَكَأَيُّ طَلَبٍ خَلَاصَ نَفْسِهِ لَوْ كَانَ هَذَا الْفَرِيقُ ؛ كَذَلِكَ يَطْلُبُ تَخْلِيصَ مَنْ هُوَ فِي تِلْكَ
الْحَالِ الصَّعْبَةِ ؛ لِلْمُشَارَكَةِ الْجَنَسِيَّةِ . وَكَذَلِكَ لَوْ أَنَّ مُلِكًا ظَلَمَ أَهْلَ بَلَدٍ مِنْ بِلَادِهِ ظُلْمًا هَهِيبًا ،
لَكَانَ أَهْلُ ذَلِكَ الْبَلَدِ يَتَمَصَّبُونَ بِبَعْضِهِمْ لِيُخْرِجُوا فِي الْإِنْكَصَارِ مِنْ ذَلِكَ لِلْمَلِكِ ، وَالِاسْتِعْدَاءِ
عَلَيْهِ ؛ فَلَوْ كَانَ مِنْ جَلَّتْهُمْ رَجُلٌ عَظِيمُ الْقُدْرَةِ ، جَلِيلُ الشَّانِ ، قَدْ ظَلَمَهُ الْمَلِكُ أَكْثَرَ مِنْ ظُلْمِهِ لِإِيَّاهُمْ ،
وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ وَضَيَّاعَهُ ، وَقَتَلَ أَوْلَادَهُمْ وَأَهْلَهُ ، كَانَ لِيَلْذُمُ بِهِ ، وَانْضَوَاؤُهُمْ إِيَّاهُ ، وَاجْتِمَاعُهُمْ
وَالْتِفَافُهُمْ بِهِ أَعْظَمَ وَأَعْظَمَ ، لِأَنَّ الطَّبِيعَةَ الْبَشَرِيَّةَ تَدْعُو إِلَى ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْإِجْبَابِ
الْإِضْطِرَّارِيِّ ، وَلَا يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ مِنْهُ امْتِنَاعًا .

وَهَذَا مَحْبُولٌ قَوْلِ النَّقِيبِ أَبِي جَعْفَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ ، قَدْ حَكَيْتُهُ وَالْأَقْبَاطُ لِي وَالْمَعْنَى لَهُ ؛ لِأَنِّي
لَا أَحْفَظُ الْآنَ الْقَاذِلَةَ بِمَعْنَاهَا ، إِلَّا أَنَّ هَذَا هُوَ كَانَ مَعْنَى قَوْلِهِ وَغَوَاهُ ، رَحِمَهُ اللَّهُ . وَكَانَ
لَا يَمْتَنِعُ فِي الصَّحَابَةِ مَا يَمْتَنِعُ أَكْثَرُ الْإِمَامِيَّةِ فِيهِمْ ، وَيَسْتَفْهُ رَأْيَ مَنْ يَذْهَبُ فِيهِمْ إِلَى
الْتِفَاقِ وَالتَّكْفِيرِ . وَكَانَ يَقُولُ : حُكْمُهُمْ حُكْمُ مُسْلِمٍ مُؤْمِنٍ ، عَصَى فِي بَعْضِ الْأَفْعَالِ وَخَالَفَ
الْأَمْرَ ، فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ، إِنْ شَاءَ أَحَدُهُ ، وَإِنْ شَاءَ غَيْرُهُ .

قلت له مرة : أفتقول إنهما من أهل الجنة ؟ قال : إى والله ! أعتقد ذلك ، لأنهما إيماناً بغير الله تعالى عنهما ابتداء أو بشفاعته الرسول صلى الله عليه وآله ، أو بشفاعته على عليه السلام ، أو بواخذهما عقاب أو عتاب ، ثم ينقلهما إلى الجنة ؛ لأستريب في ذلك أصلاً ، ولا أشك في إيمانهما برسول الله صلى الله عليه وآله وصحبة عقيدتهما .

قلت له : فثمان ؟ قال : وكذلك عثمان . ثم قال : رحم الله عثمان ! وهل كان إلا واحداً منا ، بوغصنا من شجرة عديمات ! ولكن أهله كدروا علينا ، وأوتقوا المداوة والهناء بينه وبيننا .

قلت له : فيلزمك^(١) على ما تراه في أمر هؤلاء أن تجوز دخول معاوية الجنة ، لأنه لم تكن منه إلا المخالفة وترك اعتزال الأمر النبوى !

قال : كلاً ؛ إن معاوية من أهل النار ، لا لمخالفته علياً ، ولا بمعارضة إياه ، ولكن عقيدته لم تكن صحيحة ، ولا إيمانه حقاً ، وكان من ردوس المناقضين هو وأبوه ، ولم يسلم قلبه قط ، وإنما أسلم لسانه ؛ وكان يذكر من حديث معاوية ومن فلتات قوله ، وما حفظ عنه من كلام يقتضى فساد العقيدة شيئاً كثيراً ، ليس هذا موضعه فأذكره .

وقال لي مرة : حاش لله أن يثبت معاوية في جريدة الشيخين الفاضلين أبي بكر وعمر ! والله ما هما إلا كاذب الإبريز ، ولا معاوية إلا كالدرم الرائف . أو قال : كالدرم القسى^(٢) . ثم قال لي : ما يقول أصحابكم فيهما ؟ قلت : أما القسى استقرت عليه رأى المعتزلة بعد اختلاف كثير بين قدمائهم في التفضيل وعبره ، أن علياً عليه السلام أفضل الجماعة ، وأنهم تركوا الأفضل لصلحها أوها ؛ وأنه لم يكن هناك نص لا يقطع العذر ، وإنما كانت إشارة وإيماء لا يتصنن شيء منها صريح النص ، وإن ما يابا عليه السلام ملزم ثم تابع ،

(١) ب : « فيلزم لك » .

(٢) درهم قسى ، وتغلف سبه ، أى ردى .

وَجَمَعَ ثُمَّ اسْتَجْلَبَ. وَلَوْ أَكَامَ عَلَى الْاِمْتِنَاعِ لَمْ يَنْقُلْ بِصَعَةِ الْبَيْمَةِ وَلَا يَتْرُومَهَا، وَلَوْ جَرَّدَ السِّيفَ كَأَجْرِهِ فِي آخِرِ الْأَمْرِ لَقُلْنَا بِغِقْ كُلُّ مَنْ خَالَفَهُ عَلَى الْإِخْلَاقِ كَأَنَّا مَنْ كَانَ، وَلَكِنَّهُ رَضِيَ بِالْبَيْمَةِ أَخِيرًا، وَدَخَلَ فِي الطَّاعَةِ.

وَالْجَلَّةُ، أَصْعَابُنَا يَقُولُونَ: إِنَّ الْأَمْرَ كَانَ لَهُ، وَكَانَ هُوَ لِلصَّحْقِ وَالْمُتَعَمِّنِ، فَإِنْ شَاءَ أَحَدُهُ لِنَفْسِهِ، وَإِنْ شَاءَ وَلَا غَيْرَهُ، فَلَمَّا رَأَيْنَاهُ قَدْ وَاثَقَ عَلَى وَلَايَةِ غَيْرِهِ، اتَّبَعْنَاهُ وَرَضِينَا بِمَا رَضِيَ. فَقَالَ: قَدْ بَقِيَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ قَلِيلٌ؛ أَمَا أَذْهَبُ إِلَى النَّصِّ وَأَنْتُمْ لَا تَذْهَبُونَ إِلَيْهِ!

قُلْتُ لَهُ: إِنَّهُ لَمْ يَثْبِتِ النَّصَّ عِنْدَنَا بِطَرِيقٍ يُوْجِبُ الْعِلْمَ؛ وَمَا تَذْكُرُونَهُ أَنْتُمْ مَرِيحًا فَأَنْتُمْ تَنْفَرِدُونَ بِتَقْدِيرِهِ، وَمَا عَدَا ذَلِكَ مِنَ الْأَخْبَارِ لَمْ تَشَارِكُمْ فِيهَا، فَلَهَا تَأْوِيلَاتٌ مَعْلُومَةٌ. فَقَالَ لِي وَهُوَ ضَعِيفٌ: يَا فُلَانُ، لَوْ قَرَأْتُمْ بَابَ التَّأْوِيلَاتِ، لَجَازَانُ يَتَنَاوَلُ قَوْلَنَا: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ» شُعْبَةً مِنَ التَّأْوِيلَاتِ الْبَارِدَةِ الَّتِي تَعْلَمُ الْقُلُوبُ وَالنَّفُوسُ أَنَّهَا غَيْرُ مُرَادَةٍ، وَأَنَّ الْمُتَكَلِّمِينَ تَكَلَّفُوهَا وَنَمَسُوهَا، فَإِنَّمَا أَنَا وَأَنْتَ فِي الدُّلُولِ لَا تَالِكَ لَنَا، فَيَسْتَعْمِي أَحَدُنَا مِنْ صَاحِبِهِ أَوْ يَمَافِهِ.

فَلَمَّا بَلَّغْنَا إِلَى هَذَا الْوَضْعِ؛ دَخَلَ قَوْمٌ مِمَّنْ كَانَ بِخَشَاءٍ، فَتَرَكْنَا ذَلِكَ الْأَسْلُوبَ مِنَ الْحَدِيثِ، وَخَضْنَا فِي غَيْرِهِ.

[سِيَاسَةُ عَلِيٍّ وَمَعَاوِيَةَ وَإِبْرَادُ كَلَامٍ لِلْجَاحِظِ فِي ذَلِكَ]

فَأَمَّا الْقَوْلُ فِي سِيَاسَةِ مَعَاوِيَةَ، وَأَنَّ شَتَاءَ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمُبْغِضِيهِ زَعَمُوا أَنَّهَا خَيْرٌ مِنْ سِيَاسَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَيَكْفِينَا فِي السَّكَلَامِ عَلَى ذَلِكَ مَا قَالَهُ شَيْخُنَا أَبُو عَمَّانَ، وَمِمَّنْ نَحْكُمُهُ بِالنَّافِظَةِ.

قال أبو عثمان : وربما رأيت بعض من يظن بنفسه العقل والتعصيل والفهم والتمييز - وهو من العامة ويظن أنه من الخاصة - يزعم أن معاوية كان أبعد غوراً، وأصح فكراً، وأجود روية، وأبعد غابة، وأدق مسلكا؛ وليس الأمر كذلك، رسأرى إليك بحجة نعرف بها موضع غلطه. والسكان لدى دخل عليه الخطأ من قبله.

كان علي عليه السلام لا يستعمل في حرته إلا ما وافق الكتاب والسنة، وكان معاوية يستعمل خلاف الكتاب والسنة؛ كما يستعمل الكتاب والسنة، ويستعمل جميع المكائيد، حلالها وحرامها، ويسير في الحرب بسيرة ملك الهند إذا لاقى كسرى، وخاقان إذا لاقى رثبيل^(١). وعلي عليه السلام يقول : لا تبدهم بالقتال حتى يبدؤكم، ولا تتبعوا مدبراً، ولا تتهزوا على جريح، ولا تفتحوا باباً مطلقاً؛ هذه سيرته في دى الكلام، وفي أبى الأمور السلى، وفي عمرو بن قنص، وحبیب بن مسلمة، وفي جميع الرؤساء، كسيرته في الحاشية والحشور والأتباع والسفلة. وأصحاب الحروب، إن قدرُوا على البيات يفتتوا، وإن قدرُوا على رصع الجميع بالجنادل وهم نيام فعلوا، وإن أمكن ذلك في طرفة عين لم يؤخروه إلى ساعة، وإن كان الحرق أجمل من الفرق لم يقتصروا على الفرق ولم يؤخروا الحرق إلى وقت الفرق، وإن أمكن الهدم لم يشكفوا الحصار، ولم يدعوا أن ينصبوا الجارنيق^(٢)، والمرادات^(٣)، والنفب، والنسريب، والدبابات^(٤)، والكين^(٥)، ولم يدعوا دس التميم، ولا لتضريب بين الناس بالكذب، وطرح

(١) رثبيل : صاحب الترك .

(٢) التجنيق : آلة ترمى بها المجارة .

(٣) المرادات : جمع درادة ؛ وهي من آلات الحرب ؛ ترمى بالمجارة الرمي البعيد ، إلا أنها أسمر من التجنيق .

(٤) الدبابات : آلة تتخذ في الحصار ، يدخل في جوفها الرجال ثم تدفع في أصل الحصن ؛ فيقتلونه وهم في جوفها ؛ وجمعها دبابات .

(٥) الكين : القوم يكمنون في الحرب حيلة ؛ وهو أن يستخفوا في مكان ؛ بحيث لا يظن لهم ثم يظهروا غرة العدو فيقتلوا عليهم .

الكتب في مسا كرم بالسعادات ، وتوهم الأمور ، وإيجاش بعض من بعض ، وقلمهم بكل آفة وحيلة ؛ كيف وقع القتل ، وكيف دارت بهم الحال ! فن اقتصروا - حفظك الله - من التدبير على مافي الكتاب والسنة كان قد منع نفسه الطويل العريض من التدبير ؛ ومالا ينشأ من المكابدة . والكذب - حفظك الله - أكثر من الصدق ، والحرام أكثر عدداً من الحلال ، ولو سمي إنساناً إنساناً باسمه لكان قد صدق ، وليس له اسم غيره ، ولو قال : هو شيطان أو كلب أو حمار أو شاة أو بعر أو كل ما حطر على البال ، لكان كاذباً في ذلك ، وكذلك الإيمان والكفر ، وكذلك الطاعة والمعصية ، وكذلك الحق والباطل ، وكذلك الثم والصحة ، وكذلك الخطأ والصواب ؛ فقل عليه السلام كان ملحقاً بالورع عن جميع القول إلا ما هو لله عز وجل رضا ، وممنوع الهدين من كل بطش إلا ما هو لله رضا ، ولا يرى الرضا إلا كما يرضاه الله ويحبّه ، ولا يرى الرضا إلا فيما دلّ عليه الكتاب والسنة ، دون ما يبول عليه أصحاب الدهاء والسكران^(١) والمكابدة والآراء ، فلما أنصرت المواقف كثرة سواد معاوية في المكابدة ، وكثرة غرائب الخداع ، وما اتفق له وتبيناً على يده ، ولم يرو ذلك من على عليه السلام ، ظنوا - بقتصر حقولهم ، وقلة علومهم - أن ذلك من رجحان عند معاوية ونقصان عند على عليه السلام . فانظر بعد هذا كله ، هل بعد له من الخداع إلا رفع المصاحف ! ثم انظر هل خدع بها إلا من عصى رأي على عليه السلام ، وحالف أمره !

فإن زعمت أنه قال ما أراد من الاختلاف فقد صدقت ، وليس في هذا اختلافنا ، ولا عن غرارة أصحاب على عليه السلام وسعجتهم وتسرعهم وتنازعهم دفعتنا ، وإنما كان قولنا في التمييز بينهما في الدهاء والسكران وصحة العقل والرأي والبرلاء^(٢) ؛ قل أنالا نصف الصالحين

(١) السكران : الدهاء والتمطية .

(٢) يقال : خطة برلاء ، أي فصل بين الحق والباطل .

باللهاء والنكراء ؛ لا قول : ما كان أنكر أبا بكر بن أبي قحافة ! وما كان أنكر
 عمر بن الخطاب ! ولا يقول أحدٌ عنده شيء من الخير : كان رسول الله صلى الله عليه
 وآله أدهى العرب والعجم ، وأنكر قريش وأنكر كثافة ؛ لأن هذه الكلمة إنما
 وضعت في مديح أصحاب الأرب ومن يعمق في الرأي فيؤكد الدنيا وزبرجها وتشديد
 أركانها ، فأما أصحاب الآخرة الذين يرون الناس لا يصلحون على تدبير البشر ، وإنما يصلحون
 على تدبير خالق البشر ، فإن هؤلاء لا يمدحون باللهاء والنكراء ، ولم يمتنعوا هذا
 إلا لمعطوا أفضل منه . ألا ترى أن الخيرة بن شعبة - وكان أحد اللهاء - حين رده على
 عمرو بن العاص قوله في عمر بن الخطاب - وعمرو بن العاص أحد اللهاء أيضا : أنت
 كنت تفعل ، أو تؤم عمر شيئا فيلقنه عنك ما رأيت عمر مستغنيا بأحد إلا رحمة كاتبنا
 من كان ذلك الرجل ، كان عمر والله أحقلم من أن يمدح ، وأفضل من أن يمدح .
 ولم يذكره باللهاء والنكراء . هذا مع أنه بإضافة الناس ذلك إليه ، ولكنه قد علم أنه
 إذا أطلق على الأئمة الألقاب التي لا تصلح في أهل الطهارة ، كان ذلك غير مقبول منه ،
 فهذا هذا .

وكذلك كان حكم قول معاوية الحميم : أخرجوا إلينا قتلة عثمان ، ونحن لكم
 سلم . فاجتهد كل جهديك ، واستعن بمن شأبتك إلى أن تخلص إلى صواب رأي في ذلك
 الوقت أضله على ؛ حتى نعلم أن معاوية حادع ، وأن عليا عليه السلام كان المددوع .

فإن قلت : فقد بلغ ما أراد ، ونال ما أحب ، فهل رأيت كتابنا وضع إلا على أن عليا كان
 قد امتحن في أصحابه وفي دهره ، بما لم يمتحن إمام قبله من الاختلاف والغارة ، والتشاح من
 الرئاسة والتسرع والمجعة ! وهل أتى عليه السلام إلا من هذا المكان ! أو لنا قد فرغنا
 من هذا الأمر ، وقد علمنا أن ثلاثة نفر نواطشوا على قتل ثلاثة نفر ، فانفرد ابن ملجم

بالتماس ذلك من علي عليه السلام ، وانفرد البرك الصريحي بالتماس ذلك من عمرو بن العاص وانفرد الآخر - وهو عمرو بن بكر التميمي - بالتماس ذلك من معاوية ، فكان من الاتفاق أو من الامتناع ، أن كان علي من بينهم هو للقول .

وفي قياس مذهبكم أن تزعموا أن سلامة عمرو ومعاوية إنما كانت بحزم منهما ، وأن قتل علي عليه السلام إنما هو من تضيق منه ، فإذ قد تبين لكم أنه من الابتلاء والامتناع في نفسه بخلاف الذي قد شاهدتموه في عدوه ، فكل شيء سوى ذلك ، فإنما هو تبع للنفس .

هذا آخر كلام أبي عثمان في هذا الموضع ، ومن تأمله بعين الإصاف ، ولم يتبع الهوى علم صحة جميع ما ذكره ، وإن أمير المؤمنين دفع - من اختلاف أصحابه ، وسوء طاعتهم له ؛ ولزومه سنن الشريعة ، ومنهج العدل ، ومخرج معاوية وعمرو بن العاص عن قاعدة الشرع في استمالة الناس إليهم بالرغبة والرهبة - إلى ما لم يدفع إليه غيره . فلولا أنه عليه السلام كان طرفاً بوجود السياسة وتدير أمر السلطان والخلافة ، حاذقاً ذلك ، لم يجمع عليه إلا القليل من الناس ، وهم أهل الآخرة خاصة ؛ الذين لا ميل لهم إلى الدنيا ، فلما وجدناه دبر الأمر حين وليه ؛ واجتمع عليه من العساكر والأنبياء ما يتجاوز العدد والمصر ، وقتل بهم أعداء الذين حالهم حالهم ، فظفر في أكثر حروبه ، ووقف الأمر بينه وبين معاوية على سواء ؛ وكان هو الأظهر والأقرب إلى الانتصار - علماً أنه من معرفة تدبير الدول والسلطان بمكان مكن .

[ذكر أقوال من طعن في سياسة عليّ والردّ عليها]

وقد نعلق من طعن في سياسته بأمور :

منها قولهم : لو كان حين بُويغ له بالخلافة في المدينة أقرّ معاوية على الشام إلى أن يستقرّ الأمر له ويتوطّد ، ويأبى معاوية وأهل الشام ثم يمزله سد ذلك ؛ لكان قد كفى ما جرى بينهما من الحرب

والجواب : أن قرائن الأحوال حينئذ ، قد كان علم أمير المؤمنين عليه السلام بها أن معاوية لا يابح له وإن أقرّه على ولاية الشام ، بل كان إقراره له على إمرة الشار أقوى لحال معاوية وآكد من الامتناع من البيعة ؛ لأنه لا يخلو صاحب السؤال إما أن يقول : كان ينبغي أن يطالب بالبيعة ويقرن إلى ذلك تقليده بالشام ، فيكون الأمران معاً ، أو يتقدم منه عليه السلام المطالبة بالبيعة أو يتقدم منه إقراره على الشام وتتأخر المطالبة بالبيعة إلى وقت ثلث فإن كان الأول فمن الممكن أن يقرأ معاوية على أهل الشام تقليده بالإمرة ، فهو كد حاله عندم وبقرّر في أنفسهم ؛ لولا أنه أهل لذلك لما اعتمده عليّ عليه السلام معه ، ثم يحاط به بالبيعة ، ويحجزه عنها . وإن كان الثاني فهو الذي فعله أمير المؤمنين عليه السلام . وإن كان الثالث فهو كالقسم الأول ؛ بل هو آكد فيما يريد معاوية من الخلف والمصيان . وكيف يتوهم من يعرف السيرة أن معاوية كان يابح له ؛ لو أقرّه على الشام وبينه وبينه مالا تبرك الإبل عليه ، من الثروات القديمة ، والأحقاد ، وهو الذي قتل حفظة أخاه ولوليد خاله ، وعتبة جدّه في مقام واحد ، ثم ما جرى بينهما في أيام عثمان ، حتى أغلظ كل واحد منهما لصاحبه ، وحتى تهدده معاوية ، وقال له : إني شاخص إلى الشام وتارك عندك هذا الشيخ - يعني عمارت - والله لئن

انحصت^(١) منه شعرة واحدة لأضربك بمائة ألف سيف . وقد ذكرنا شيئاً مما جرى بينهما فيما تقدم .

وأما قول ابن عباس له عليه السلام : ولّه شعراً وأعزّه دهرأ ، وما أشار به المغيرة ابن شعبه ، فإنهما ما توثقاه ، وما غلب على ظنونها وخطر بقلوبهما ، وعلى عليه السلام كان أعلم بحاله مع معاوية ، وأنها لا تقبل العلاج والتدبير . وكيف يخطر ببال عارف بحال معاوية ونكره ودهائه ، وما كان في نفسه من على عليه السلام من قتل عثمان ومن قبل قتل عثمان ، أنه يقبل إقرار على عليه السلام له على الشام ؛ ويضدع بذلك ، ويباع ويصلى صفقة^(٢) يمينه ! إن معاوية لأدهى من أن يكاد بذلك ، وإن علياً عليه السلام لأعرف بمعاوية ممن ظن أنه لو استأه بإقراره لباع له ، ولم يكن عند على عليه السلام دواء لهذا المرض إلا السيف ؛ لأن الحلال إليه كانت تتول لا محالة ، فعمل الآخر أولاً .

وأنا أذكر في هذا الموضع حبراً رواه الزبير بن سفيان في " الموضيات " ليعلم من يقف عليه ، أن معارفة لم يكن لينجذب إلى طاعة على عليه السلام أبداً ، ولا يسطيه للبهمة ، وأن مضادته له ، ومباينته إياه كصادة السواد للبياض ، لا يجتمعان أبداً وكهاينة السلب للإيجاب ، فلمّا مباينة لا يمكن زوالها أصلاً . قال الزبير :

حدثني محمد بن محمد بن زكريا بن بنطام ، قال : حدثني محمد بن يعقوب بن أبي الليث ، قال : حدثني أحمد بن محمد بن الفضل بن يحيى السكّني ، من أبيه ، من جدّه الفضل بن يحيى عن الحسن بن عبد الصمد ، عن قيس بن عرفة ، قال : لما حصر عثمان أبرد مروان بن الحكم مخبره ريدتين : أحدهما إلى الشام ، والآخر إلى اليمن - وسها يومئذ يلى بن منية - ومع كلّ واحدٍ منهما كتاب ؛ فيه أن بني أمية في الناس كالشامة

الحراء ، وأن الناس قد قتلوا لم برأس كل محبة ، وعلى كل طريق ، لجهلهم مرمى
المرء والمضيبة ^(١) ، ومقذف القشب ^(٢) والأفيسة ؛ وقد علمت أنها لم تأت عيان إلا
كروها ، تجبذ من وراثتها . وإني خائف إن قتل أن تكون من بنى أمية بمناط الثريا ،
إن لم نصير كرصيف الأساس المحكم ، ولئن زهى صمود البيت لتقداهين جذرائه ،
والذى عيب عليه إطماعكم الشام واليمن ، ولا شك أنكم تابلاء إن لم تحذروا ، وأما أنا
فساعف كل مشير ، ومعين كل مستصرخ ، ومحجب كل داع ، أتوقع الفرصة فائب
وثبة الفهد أصير خفلة مقنصة ؛ ولولا محافة عطب البرد ، وضياح الكتب ، لشرحت
لكما من الأمر ما لا تفرعان منه إلى أن يحدث الأمر ؛ لحدافى طلب ما أنما ولياء ؛
وعلى ذلك فليكن العمل إن شاء الله . وكشف فى آخره :

وَمَا بَلَمَتْ عَمَانٌ حَقَّ تَحَطُّمَتْ رَجُلٌ وَدَانَتْ لِلصَّنَارِ رَجُلٌ
لَقَدْ رَجَعْتُ حَوْفًا عَلَى يَدِي كَوْهَا وَإِنْ لَمْ تَجِدَا فَالصَّيْرُ زَوَالُ
سِبْدِي مَكُونُ الْعَمَائِرِ قَوْلُهُمْ وَيُظْهِرُ نَهْمُ بَعْدَ ذَلِكَ قَوْلُ
فَإِنْ تَقَمَّدَا لَا تَطْلُبَا مَا وَرَثَا فَلَيْسَ لَنَا طَوْلُ الْحِمَاةِ مَقَالُ
نَعِيشُ بِدَارِ الدَّلِّ فِي كُلِّ بَلَدٍ وَتُظْهِرُ مِنْهَا كَأَبَّةٌ وَهْزَالُ

فلما ورد الكتاب على معاوية ، أذن فى الناس : الصلاة جامعة ! ثم خطبهم خطبة
للمستصر المستصرخ .

وفى أثناء ذلك ورد عليه قبل أن يكتب الجواب ، كتاب مروان بقتل عمان ، وكانت
نسخته : وهب الله لك أبا عبد الرحمن قوة العزم ، وصلاح النية ، ومن عليك بمعرفة الحق
واتباعه ؛ فإني كتبت إليك هذا الكتاب بعد قتل عمان أمير المؤمنين عليه السلام

(١) المضية : الإفك والبهتان .

(٢) القشب من الكلام : القرى ، وعن ابن الأعرابي : القاعب : القى عيب الناس بما فيه

وَأَيُّ قِتْلَةٍ قُتِلَ نُحَيْرَ كَأَيْنَحَرَ الْهَمِيرِ الْكَبِيرِ عِنْدَ الْهَاسِ مِنْ أَنْ يَنْوِيَ بِالْحَنْتِلِ ، بَعْدَ أَنْ
تُحِبَّتْ صَفْعَتُهُ بَطْنِيَّ لِلرَّاحِلِ وَسَيْرِ الْمَجِيرِ ، وَإِنِّي مَعْلُوكٌ مِنْ خَبْرِهِ غَيْرِ مُقَصِّرٍ وَلَا مَطْوِلٍ ؛
إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَظَلُّوا مَدَّتَهُ ، وَاسْتَظَلُّوا نَاصِرَتَهُ ، وَاسْتَظْفَرُوا فِي بَدَنِهِ ، وَأَمَلُوا بِقَتْلِهِ بِسَطِّ
أَهْدِيهِمْ غَيَا كَانَ قَبْضُهُ عَنْهُمْ ، وَاعْصَوْصَبُوا^(١) عَلَيْهِ ، فَظَلَّ عَجَازًا ، قَدْ مُبِيعٌ مِنْ صَلَاتِ الْجَمَاعَةِ ،
وَرَدٌّ لِلنَّظَامِ ، وَالتَّنَظُّرُ فِي أُمُورِ الرِّعْيَةِ ، حَتَّى كَانَتْهُ هُوَ فَاعِلٌ لِمَا فَعَلُوهُ . فَلَمَّا دَامَ ذَلِكَ أَشْرَفَ
عَلَيْهِمْ ، نَغَوْفَهُمْ اللَّهُ وَنَاشَدَهُمْ ، وَذَكَرَهُمْ مُوَاعِيدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُ ، وَقَوْلَهُ
فِيهِ ، فَلَمْ يَجْعِدُوا فَضْلَهُ ، وَلَمْ يَنْكُرُوهُ ، ثُمَّ رَمَوْهُ بِأَهْطِلٍ اخْتَلَقُوا لِيَجْعَلُوا ذَلِكَ ذُرِيَّةً
إِلَى قَتْلِهِ ، فَوَعَدَهُمُ التَّوْبَةُ عَمَّا كَرِهُوا ، وَرَعَدَهُمُ الرَّجْعَةُ إِلَى مَا أَحْبَبُوا . فَلَمْ يَقْبَلُوا ذَلِكَ ،
وَنَهَبُوا دَارَهُ ، وَاسْتَهْكُوا حَرَمَتَهُ ، وَوَثَبُوا عَلَيْهِ ، فَسَفَكُوا دَمَهُ ، وَاقْشَعَرُوا عَنْهُ اقْشَاعَ
سَعَابَةِ قَدْ أَفْرَقَتْ مَاءَهَا ، مَكْنُفَتَيْنِ قَتَلَ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ ، انْكَفَاءَ الْجُرَّادِ إِذَا أَبْصَرَ الرَّمْيَ .
فَأَخْلَقَ بَنِي أُمَيَّةَ أَنْ يَكُونُوا مِنْ هَذَا الْأَمْرِ بِعَصْرِ السُّيُوفِ إِنْ لَمْ يَنَازِلْهُ تَأَثُّرُ إِبْنِ شَنْتِ
أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنْ تَكُونَهُ فَكُنْهُ . وَالسَّلَامُ .

فَلَمَّا وَرَدَ الْكِتَابُ عَلَى مُعَاوِيَةَ ، أَمَرَ بِمَجْمَعِ الْهَاسِ ، ثُمَّ خَطَبَهُمْ خُطْبَةً أَبْكَى مِنْهَا الْعَبِيدُونَ ،
وَقَلَّلَ الْقُلُوبَ ، حَتَّى عِلَتْ الرِّتَّةُ ، وَارْتَفَعَ الصَّعْبُجُ ، وَهَمَّ النِّسَاءُ أَنْ يَنْسَلَعْنَ ، ثُمَّ كَتَبَ
إِلَى طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ ، وَالزَّيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ ، وَوَسَّيْدَ بْنَ الْحَاصِ ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَامِرِ بْنِ كَرِينٍ ،
وَالْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ ، وَبَعْلَى بْنَ مُنِيَّةٍ - وَهُوَ اسْمُ أُمِّهِ - وَإِنَّمَا اسْمُ أَبِيهِ أُمَيَّةٌ .

فَكَانَ كِتَابُ طَلْحَةَ : أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّكَ أَقْلٌ قَرِيشِي قَرِيشٍ وَتَرَا ، مَعَ صِبَاحَةِ وَجْهِكَ
وَسَمَاحَةِ كَفِّكَ ، وَفَصَاحَةِ لِسَانِكَ . فَأَنْتَ يَا زَاءُ مَنْ تَقَدَّمَكَ فِي السَّابِقَةِ ، وَخَامِسُ الْبَشَرِينَ
بِالْجَنَّةِ ، وَلَكَ يَوْمَ أَحَدٌ وَشَرْفُهُ وَفَضْلُهُ ، فَسَارِعْ رَحِمَكَ اللَّهُ إِلَى مَا تَقُولُكَ الرِّعْيَةُ مِنْ أَمْرِهَا
عَمَّا لَا يَسَعُكَ التَّخَلُّفُ عَنْهُ ، وَلَا يَرْضَى اللَّهُ مِنْكَ إِلَّا بِالْقِيَامِ بِهِ ، فَقَدْ أَحْكَمْتُ لَكَ الْأَمْرَ

(١) اعصَوْصَبَ الْقَوْمُ : اجتمعوا وشاروا عصاباً .

قَبْلِي ، والزير فخير متقدم عليك بفضل ، وأبكما قدم صاحبه فالقدم الإمام ، والأمر من بعده للمقدم له ، سلك الله بك قصد الممتدين ، وذهب لك رشد الموقنين . والسلام .

وكتب إلى الزير : أما بعد ، فإنك الزير بن العوام ، ابن أبي خديجة وابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريه ، وسلفه ، وصهر أبي بكر ، وفارس المسلمين ، وأنت البازل في الله مهيته بمكة عند صنعة الشيطان ؛ منك للبعث ، فخرجت كالثعبان للنسليخ .

بالسيف المنصلت ، تخبط خبط الجمل الرديع^(١) ؛ كل ذلك قوة إيمان ، وصدق يقين ، وصبغت لك من رسول الله صلى الله عليه وسلم للشارة بالجنة ، وجملك عمر أحد المتخلفين على الأمة . واعلم يا أبا عبد الله ، أن الرعية أصعبت كالمص التمرقة لضيبة الراعي ، فسارع رحلك الله إلى حقن الدماء ولم للشعث ، وتجمع الحكمة ، وصلاح ذات الدين ، قتل تغلق الأمر وانتشار الأمة ، قد أصبح الناس على شعاع جرمهم هارحاً قليل ينهار إن لم يرأب . فشر لتأليف الأمة ، وابتغ إلى ريلك سبيلا ، فقد أحكت الأمر على من قتل لك وإصاحبك على أن الأمر للمقدم ، ثم لصاحبه من بعده . جعلك الله من أئمة الهدى ، وبقاء الخير والتقوى . والسلام .

وكتب إلى مروان بن الحكم :

أما بعد ، فقد وصل إلى كتابك بشرح حبر أمير المؤمنين ، وما ركبوه به ، ونالوه منه ، جهلاً بالله وجراءة عليه ، واستعصافاً بحقه ، ولأمان لوائح الشيطان بها في شرك الباطل ليدفعهم^(٢) في أخويات الفتن ، ووهجات الضلال ، ولشري لقد صدق عليهم ظنه ، واقد انتصهم بأنشطة فتنه . فعلى رسلك أبا عبد الله ، بمشي الهويين ويكون أولاً ، فإذا قرأت كتابي هنا فكن كالتهد لا بصطاد إلا غيلة ، ولا ينشازر^(٣) إلا عن حيلة ،

(١) الرديع ، أي المردوع ؛ من ردمه ؛ إذا كفه .

(٢) أي « ليردهم » .

(٣) تشاور : نظر بمؤخر العين .

وكالطلب لا يخلت إلا روغانا، وأحف نفسك منهم إحقاء القنفذ رأسه عند لمس الأكف،
وامتنع نفسك امتنان من يأس القوم من نصره وانحصاره، وابحث عن أمورهم بحث
المتجاجة عن حب الدخن عند قفاسها، وأنزل^(١) الحجاز فإني منزل الشام . والسلام .

وكتب إلى سعيد بن الحسن :

أما بعد ، فإن كتاب خروان ورد على من ساعة وقعت الباردة ، تُقيلُ به البرد سير الملقى
الوجيف^(٢) ، تتوجس توجس الحية الذكر خوف ضربة العأس ، وقبضة الحماوى^(٣) ،
ومروان الرائد لا يكذب أهله ، فلام الإمساك بالإنعاص ، ولات حين مناص ادلك أنكم
بابنى أمية عما قليل تسألون أدنى العيش من أبعد لسافة ، هيكرم من كان منكم عارفا ، ويصد
حكم من كان لكم واصلا ، مضرتين في الشاهد تستون لفظه^(٤) للعاش . إن أمير المؤمنين عتب
عليه فيكم ، وقتل في سبيلكم ، قبح القعود عن نصرته ، والطلب بدنه ، وأنتم بدوا بيه ،
ذوو رحمة وأقربوه ، وطلأب تأره إصبعهم مني سكرين . شغف معاش زهيد ، عما قليل
يُنزع مكم عند التغاذل وضعف القوى . فإذا قرأت كتابي هذا قدب ديب البرء في
الجسد النعيف ، وبرز سبر النجوم تحت الفم ، واحشد حشد القرة^(٥) في الصيف
لأنبحارها في الصرد ، فقد أيدتكم بأسد وتيم . وكتب في الكتاب :

تافه لا يذهب شئني ما طلا حتى أير مالكا وكاهيلا^(٦)

(١) أنزلهم ، أى أحلهم على الضمن .

(٢) الوجيف : السبع السريع .

(٣) الحماوى : القى يرقى الحية .

(٤) اللفظة في الأصل : اليسير من السمن ؛ تأخذه يابسك ؛ يقال : صده لفلان سمن ، ثم أطلق على

كل شئ قليل .

(٥) القدر : صغار النمل .

(٦) لا يرى القيس ، ديوانه ٣٤ : أير : أعطك . ومالك : كامل من بني أسد .

القائِلين الملك الحلاج^(١) خير مدبر حياً ونائلاً^(٢)

وكتب إلى عبد الله بن عامر :

أما بعد ، فإن اللبّ مركبٌ ذلول ، سهل الرّياضة ، لا يَنازِعُكُ اللّجَامُ . وهيئات ذلك
إلا بعد ركوب أثباح الهالك ، وانقحام أمواج المعاطب . وكأني بكم يا بني أُمّية
شَمَائِرُ^(٣) كالأوارك ، تقودها الخدّة ، أو كرخم الخدمة^(٤) تفرق^(٥) خوف العقاب ،
فتب الآن رحلك الله قبل أن يستشريّ الفساد ونذب^(٦) التوط جديد ، والجرح لما
يندمل ؛ ومن قبل استضرأ الأسد ، والتقاء لحيتيه على فريسته . وساور الأمر مسورة القشب
الأطلس كبيرة القطيع . ونارل الرأى ، والنصب الشرك ، وارم عن تمسكن ، وضع الهناء
مواضع الثقب^(٧) ، واجعل أكبر عدتك الحذر ، وأحد سلاحك التعريض . واغض
عن العوراء ، وسامع اللججوج ، واسقطب الشارد ، ولاين الأشوس ، وقو عزم المريد ،
وبادر العقبة ، وازحف زحف الحية . واسبق قبل أن تُسبق ، وقم قبل أن يقام لك .
واعلم أنك غير متروك ولا مهمل ، فإنّي لكم ناصح أمين . والسلام .

وكتب في أسفل الكتاب :

(١) الحلاج : السيد الشريف ؛ يعني أباه .

(٢) قال شارح ديوانه : قوله : « خير مدبر » ؛ هو راجع إلى قوله : « مالكا وكاملا » ؛ لأنّ بين
أسد من مدبر ؛ ولأنما يريد : حتى أحطت أشرف مدبر وخيرهم ؛ اختصارا لأبي . النائل : المطاء .

(٣) شمائر : مخرفون . والأورك : جمع أرك ، وهي الناقة التي تترك الأراك وترعاه ، وشأنها التفرق
لتلج الأراك .

(٤) الخدمة : موضع .

(٥) فرق الطائر : سلح .

(٦) نذب التوط : أثره .

(٧) هنا الجمع : طلاء بالهاء ؛ وهو الطران ، والنصب جمع قبة ؛ وهي أول ما يبدو من الجرب ، وأصله
قوله فريد بن الصمة :

مَهْذَلًا تَبْدُو مَحَاسِنُهُ بِضَعُ الْهَنَاءِ مَوَاضِعَ الثَّقَبِ

والظفر الثاني (ثقب) .

عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ قَيْسَ بْنَ حَاسِمٍ وَرَحْمَةُ مَا شَاءَ أَنْ يَتْرُكَهَا (١)
تَحِيَّةً مِّنْ أَهْدَى السَّلَامِ لِأَهْلِهِ إِذَا شَطَّ دَارًا عَنْ مَزَارِكَ سَلَامًا
فَمَا كَانَ قَيْسٌ هُنَاكَ هُنَاكَ وَاحِدٍ وَلَكِنَّهُ بَيْنَانِ قُومٍ تَهْدِمًا

وكتب إلى الوليد بن عتبة :

يا بن عتبة ، كنّ الجيش ، وطيب الجيش أطيب من سَفْعِ سموم الجوزاء عند اعتدال
الشمس في أرضها ؛ إن عثمان أخاك أصبح بعيداً منك فاطلب لنفسك ظلاً تسكن به ؛
إني أراك على التراب رَقُوداً ؛ وكيف بالرقاد بك ! لارقادك ؛ فلو قد استتب هذا الأمر
لمريده ألفيت كشريد النعام ، يفرح من ظل الطائر ؛ وعن قليل تشرب الرّيق ،
وتشعر بالخوف . أراك فسيح الصدر ، مترخّل القلب ، ريحوا الحزام ، قليل
الاكتراث ؛ وعن قليل يُبحث أصلك . والسلام

وكتب في آخر الكتاب :

احترت نومك أن هبت شامية عند المعبر وشرباً بالعشيات
على طلابك تاراً من بني حنظلة هبّات من راقد طلاب تارات

وكتب إلى يعلى بن أمية :

حاطك الله بكلاءته ، وأيدك بعوقيقه . كتبت إليك صبيحة ورد على كتاب مروان
بخبير قتل أمير المؤمنين ، وشرح الحال فيه . وإن أمير المؤمنين طال به العسر حتى قصت
قواء ، وثقلت نهضته ، وظهرت الرعشة في أعضائه ، فلما رأى ذلك أقوام لم يكونوا عنده
موضعا للإمامة والأمانة وتخليد الولاية ، ونهروا به ، وألبوا عليه ؛ فكان أعظم ما تقموا
عليه وطأوه به ، ولا يترك اليمن وطول مدتك عليها . ثم تراهي بهم الأمر حالاً بعد حال ،

(١) لمبة بن الطيب يرثي قيس بن حاسم ، الفهر والشعراء ٧٠٧ .

حق ذبحوه ذبح النطيحة^(١) مبادراً بها الموت ، وهو مع ذلك صائم معانق المصحف ،
يملؤ كتاباً الله . فيه عظمت مصيبة الإسلام بصهر الرسول ، والإمام المقتول . على غير
جرم سفكوا دمه ، واتهكوا حرمة ، وأنت تعلم أن بيعته في أعناقنا ، وطلب ثأره
لازم لنا ، فلا خير في دنيا تمدل بنا عن الحق ، ولا في آخرة تورِدُنا النار . وإن الله جل
ثناؤه لا يرضى بالتعذير في دينه ، فشر لدخول العراق .

فأما الشام فقد كفيتك أهلها ، وأحسك أمرها ، وقد كتبت إلى طلحة بن
عبيد الله أن يلتصق بمكة ، حتى يجتمع رأيكما على إظهار الدعوة ، والطلب بدم عثمان
أمير المؤمنين المظلوم ، وكتبت إلى عبد الله بن عامر يفتد لكم العراق ، ويسهل لكم
حزونة عقابها^(٢) .

واعلم يا بن أمية أن القوم قاصدوك ماديهم لا يستغفون ما حوته يدك من المال ،
فاعلم ذلك واعمل على حربه إن شاء الله .
وكتب في أسفل الكتاب :

ظل الخليفة محصوراً يشدُّمُ بالله طوراً ، وبالقرآن أحياناً
وقد تألف أقوامٌ على حقٍّ عن غير جرمٍ وقالوا فيه بهتاناً
فقام يذكركم وعد الرسول له وقوله فيه إسراراً وإعلاناً
فقال كموا فإني معتب لكم وصارف عنكم ينل ومرواناً
فكذبوا ذاك منه ثم ساوره من حاض لبته ظلمنا وعدوانا

قال : فكتب إليه مروان جواباً عن كتابه :

أما بعد ، فقد وصل كتابك ، فتم كتاب زعيم المشيرة ، وحامى الذمار وأخبرك

(١) النطيحة : الداء النطوحة .

(٢) العقاب ، بالكسر : جمع عقبة ، وهي في الأصل : الرق القصب من الجبال

أن تقوم على سائر استقامة إلا شظايا شجب، شئت بينهم يقول على غير عجاوبة، حسب ما تقدم
من أمرك؛ وإنما كان ذلك رئيساً^(١) المصاة، ورعى أخدر من أغصان الموحدة؛ ولقد
طويت أديبهم على نفل يحلم^(٢) منه الجلد، كذبت نفس الظان بنا ترك للظلمة، وحب
المجوع؛ إلا نهوية الراكب المعجل، حتى تبهذ جاجم وجاجم؛ جذ المراجين للهدنة
حين إيناعها، وأنا على صعدة نيتي، وقوة عزيمتي وتحريك الرسيم لي، وغليان الدم مني؛
غير سابقك بقول، ولا متقدمك بفعل، وأنت ابن حرب، طلاب الثرات، وآي الضيم.
وكتابت إليك وأنا كعيرباء السبب في الهجير ترقب عين النزالة^(٣)، وكالتهج
للغيت من الشرك يفرق من صوت نفسه؛ متظراً لما نصيح به عزيمتك؛ وبرد به أمرك؛
فيكون للعمل به، والمعتدى عليه.



وكتب في أسفل الكتاب :

أبقتل عناء وترقا دموعاً ورقد هذا القيل لا عفرعاً
ونشرب برّ دلاء ربها وقد موى على غلأ جلوا القرآن وبركع
فإني ومن حج للثون يتسه وطلخوا به سبياً، وذو العرش بسع
سامع نفسي كل مافيه لذة من العيش حتى لا يرى فيه مطمع
وأفضل بالظلم من كان ظالماً وذلك حكم الله ماعنه مذقم

وكتب إليه عبد الله بن عامر :

(١) الرئيس : الشيء الثابت ، يريد أن ذلك ثابت عليهم وعادتهم .

(٢) حلم الجلد ، إذا قصد .

(٣) السبب : المفازة ، أو الأرض الشثوية المبيدة والهجير : شدة الحر ، والنزالة : الشمس .

أما بعد ، فإن أمير المؤمنين كان لنا الجناح الحاضنة تأوى إليها فراخها تحتها ،
فلما أقصده^(١) السهم مررنا كالنعام للشارد ، ولقد كنت مشترك للفكر ، ضال الفهم ،
التمس دريئة أستعجن بها من خطأ الحوادث ، حتى وقع^(٢) إلى كتابك ، فالتبتهت من غفلة
طلال فيها رقادى ، فأنا كواجد المحبة كان إلى جانبها حائرا ، وكأني أعين ما وصفت من
تصرف الأحوال .

والذى أخبرك به أن الناس في هذا الأمر ، نسمة لك وواحد عليك . ووالله ألفت
في طلب العز أحسن من الحياة في القلة ، وأنت ابن حروب فتى الحروب ، ونضار^(٣)
بنى عهد شمس ، والهمم بك متوطة وأنت منهضها ، فإذا نهضت فليس حين قصود ؛ وأنا اليوم
على خلاف ما كنت عليه عزمتى من طلب العافية ، وحب السلامة قبل قرعك سويداء
القلب بسوط اللام ، ولعم مؤذنب العشير فانت ! وإنا لندرجوك بعد عثمان ، وهأنا متوقع
ما يكون منك لأمتك ، وأعمل عليه إلى شاء الله .
وكتب في أسفل الكتاب :

لاخير في العيش في ذلٍ ومنقصة	وللوت أحسن من خيمٍ ومن عارٍ
إنا بنو عهد شمس مشرٍ أف	غرا جعاجعة طلاب أوتارٍ
والله لو كانت فميا مجاورنا	لطلب العز لم تخذ من الجار
فكيف عثمان لم يذقن بمرزبة	على القمامة مطروحا بها طرا
فازحف إلى فرائى زاحف لهم	بكل أبيض ماضى الحسد بقرار

وكتب إليه الوليد بن عتبة :

أما بعد ، فإنك أسد قريش عقلا ، وأحسنهم فهما ، وأصوبهم رأيا ؛ ملك حسن

السياسة ، وأنت موضع الرئاسة ، نوردُ بمعرفة ، ونصدير عن منهل روى . مُتَاوَتِك
كالمقلب من السيوق^(١) يهوى به عاصف الشمال إلى لجة البحر .

كثنت إلى تذكر طيب الجيش ، ولين العيش ، قل ، طلى على حرام إلا منكة
الرمق^(٢) حتى أفرى^(٣) أوداج قتلة عثمان فرى الأهب^(٤) شبابة الشغار . وأما الذين
فويهاث إلا خيفة المرتقب يرتقب علة الطالب ، إنا على مداجاة ، ولما تبدد صفحاتنا بعد ؛
وليس دون الدم بالدم مزحل . إن العار منقصة ، والضعف ذل . أيجبط قتلة عثمان زهرة
الحياة الدنيا ، ويسقون برؤ للمين ، ولما يمتطوا الخوف ، ويستعلوا الحدر ، بعد مسافة
للطرد وامتطاء العقبة للكنود في الرحلة ! لا دعيت لعقبة إن كان ذلك حتى أنصب لم
حرباً نصع الحوامل لها أطلالها ! قد ألوت بنا المسافة ، ووردنا حياض المنايا ، وقد عقلت
نفسى على الموت عقلت العير ، واحسبت أنى قاتل عثمان أو أقتل فأنه ! فمعل على ما يكون
من رأيك ، فإنما متوطنون بك ، متبعون عقيقك ، ولم أحسب الحال تترأخى بك إلى هذه
الغاية ؛ لما أحافه من إحكام للقوم أسرم

وكتب في أسفل الكتاب :

نومى على محرم إن لم أقم بدم ابن أمتى من نبي الملائم
قامت على - إذا قدمت ولم أقم بطلاب ذلك - مناحة الأموات
عذبت حياض الموت عندي بعدما كانت كربة ، نورد التهلات
وكتب إليه يتي بن أمية :

(١) السيوق : نجم أحر مسمى في طرب الحرة اليمن ، يلو الثريا ، لا يتقدمها ، يضرب مثلاً للبعد .

(٢) الرمي : نوبة الروح .

(٣) فرى المله : شقه .

(٤) الأهب : جمع إهاب ، وهو الجلد ما لم يدع .

إنا وأنتم بائني أمية كالحجر لا يُبقي بغير مدّر ، وكالسيف لا يقطع إلا بضارب .
وصل كتابك بنجر القوم وحالم ، فلئن كانوا ذبحوه ذبح النطيحة بؤدّر بها الموت
لهنّحرّن ذابحه نحرّ البدنة وآق بها الهدى الأجل ! شككتني من آما ابنها إن نمت عن
طلب وثر عثان ، أو يقال : لم يبق فيه رَمَقُ ! إني أرى العيش بعد قتل عثان مرّاً ، إن
أدج القوم فإني مدج . وأما قصدم ماحوته يدري من لال ، فالل أيسر مفقود إن دفعوا
إلينا قتلة عثان ، وإن أبوا ذلك أنفقنا لال على قتلهم ، وإن لنا ولم لمركة تتناحر فيها
نحرّ القدار القنّاع^(١) ، من قبل نصل لحومها .

وكعب في أسفل الكتاب :

لئل هذا اليوم أوصى الناس لانسضيا أو بنجر الرأس



قال : فكلّ هؤلاء كتبوا إلى معاوية يحرضونه ، ويغرونه ، ويمزكونه ،
ويهجونه ، إلا سعيد بن العاص ، فإنه كتب بخلاف ما كتب به هؤلاء ! كان كتابه :
أما بعد ! فإنّ العزم في التثبت ، والخطأ في العجلة ، والشوم في البِدَار ! والسهم
سهمك مالم ينهض به الوتر ، ولن يردّ العالب في الضرع القين . ذكرت حق أمير المؤمنين
عليه السلام ، وقرأت اسمه ، وأنت قُتِلَ فينا . تفصلت أن ذكرها قصص ، والثالثة تكذيب ، وأمرتنا
بطلب دم عثان ، فأى جهة نسلك فيها أبا عبد الرحمن أريدت الفجاء ، وأحكم الأمر
عليك ، وولى زمانه غيرك ، فدع متلاوة من لو كان افترش فراشه صدر الأمر لم يعدل به
غيره . وقلت : كأننا من قليل لا نعلمك ، فهل نحن إلّا حي من فريش ، إن لم نلنا الولاية
لم يبق هنا الحق ، إنها خلافة متعاقبة ، وبلّغ أفسم قسا مبروراً ! لئن صحت عزيمتك على

(١) القنّاع : الجزاء ، والقنّاع : جمع قنية ؛ وهي ما نحر من أبل الذهب .

ماورد به كتابك ، لأتقنك بين الحائنين ؛ طليحاً . وهبني إخالك بعد خوض الدماء
تعال الظفر ، هل في ذلك عوض من ركوب للأثم ونقص الدين !

أما أنا فلا قلّ بي أمة ولا لهم ، أجمل الحزم داري ، والبيت سجن ، وأتوسد
الإسلام ، وأستشر المافية . فاعيدل أبا عبد الرحمن زمام راحلتك إلى محبة الحق ،
واستوهب العافية لأهلك ، واستعطف الناس على قومك ، وهيات من قبولك ما أقول
حق يفجر مروان بنايح الفتن تأخج في البلاد ، وكأني بكأعد ملاقات الأبطال نستذران
بالقدر ، ولبنس العاقبة الندامة ! ومما قليل يخرج لك الأمر . والسلام .

هذا آخر ما كتاب القوم به ، ومن وقف عليه علم أن الحال لم يكن حالاً يقبل
الملاج والتدبير ، وأنه لم يكن بد من السير ، وأن عليها عليه السلام كان أعرف
بما قيل

وقد أجاب ابن سنان في كتابه الذي سماه «الفتاوى» عن هذا السؤال ، فقال : قدم
الناس كافة أنه عليه السلام في قصة الثوري مرض عليه عبد الرحمن بن عوف ، أن يقد
له الخلافة على أن يعمل بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة أبي بكر وعمر ، فلم يستعجب إلى
ذلك ، وقال : بل قلّ أن أعمل بكتاب الله وسنة رسوله ، وأجته رأيي .

وقد اختلف الناس في ذلك ، فقالت الشيعة : إنما لم يدخل تحت الشرط ، لأنه لم
يستصوب سيرتهما . وقال غيرهم : إنما امتنع لأنه مجتهد ، والمجته لا يقتل المجتهد ، فأيهما
أقرب على القولين جميعاً إنما ، وأيسر وزراً أن يقر معاوية على ولاية الشام مدة إلى أن
تتوطد خلافته ، مع ما ظهر من جور معاوية وعداوته ، ومدّ يده إلى الأموال والدماء أيام
سلطانه ، أو أن يهادد عبد الرحمن على العمل بسيرة أبي بكر وعمر ، ثم يخالف بعض
أحكامها إذا استقر الأمر له ، ووقع العقد ! ولا ريب أن أحداً لا يخفى عليه فضل ما بين

للوضعين ، وفضل ما بين الأمنين ، فن لا يجيب إلى الخلافة والاستيلاء على جميع بلاد الإسلام إذا تسمع بلفظة يتلفظ بها ، يجوز أن يتأولها أو يورى فيها ، كيف يستجيب إلى إقرار الجائر ، وتقوية يده مع تمكينه في سلطانه ، لتحصّل له طاعة أهل الشام واستضافة طرف من الأطراف ! وكأن معنى قول القائل : هلّا أقرت معاوية على الشام ؛ هو هلّا كان عليه السلام متهاوياً بأمر الدين راغباً في تشديد أمر الدنيا !
والجواب عن هذا ظاهر ، وجعل السائل عنه واضح .

واعلم أن حقيقة الجواب هو أن علياً عليه السلام ، كان لا يرى مخالفة الشرع ، لأجل السياسة ، سواء أكانت تلك السياسة دينية أو دنيوية ، أما الدنيوية فنحو أن يتوهم الإمام في إنسان أنه يروم فساد خلافة من غير أن يثبت ذلك عليه يقيناً ، فإن علياً عليه السلام لم يكن يستحيل قتله ، ولا حبسه ، ولا يسبل بالثوب ثم بالقول غير الحق ، وأما الدينية فنحو ضرب التهم بالسرقة ، فإنه لم يكن يسبل به ، بل يقول : إن يثبت عليه بإقرار أو بيعة ، أقت عليه الحد ، وإلا لم أعتز به . وغير علي عليه السلام قد كان مهم من يرى خلاف هذا الرأي ، ومذهب مالك بن أنس العمل على الصالح الرسالة ، وأنه يجوز للإمام أن يقتل ثلث الأمة لإصلاح الثلثين ، ومذهب أكثر الناس أنه يجوز العمل بالرأي ونفالب الظن ، وإذا كان مذهب علي عليه السلام ما قلناه ، وكان معاوية عنده فاسقا ، وقد سبق عنده مقدمة أخرى يقينية ، هي أن استعمال الفاسق لا يجوز ولم يكن ممن يرى تمهيد قاعدة الخلافة بمخالفة الشريعة ، فقد تبين محاورته بالمزّل ، وإن أفضى ذلك إلى الحرب .



فهذا هو الجواب الحقيقي ، ولو لم يكن هذا هو الجواب الحقيقي ، لكان لقائل أن

يقول لابن سنان القول في عذوه عن الدخول تحت شرط عبد الرحمن ، كالفول في عذوه عن إقرار معاوية على الشام ، فإن من ذهب إلى تخطيطه في أحد الموضعين ، له أن يذهب إلى تخطيطه في الموضع الآخر .

قال ابن سنان : وحواب آخر ، وهو أنا قد علمنا أن أحد الأحداث التي تقيمت على عثمان . وأفضت بالمسلمين إلى حصاره وقتله ، تولية معاوية الشام ، مع ما ظهر من جوره وعدوانه ، ومخالفة أحكام الدين في سلطانه ، وقد خوطب عثمان في ذلك ، فاعتذر بأن عمر ولأه قبله ، فلم يقبل المسلمون عذره ، ولا قدموا منه إلا سره ، حتى أفضى الأمر إلى ما أفضى ، وكان على عليه السلام من أكثر المسلمين قلبك كراهية ، وأعرفهم بما فيه من الفساد في الدين .

فلو أنه عليه السلام امتنع عقد الخلافة له ^(عنه) معاوية الشام ، وإقراره فيه ، أليس كان يتبدى في أول أمره بما انتهى إليه عثمان في آخره ، ونقص إلى حله وقطعه ولو كان ذلك في حكم الشريعة سائماً ، والوزير فيه مأموماً ، لكان خطأ قبيحاً في السياسة ، وسبباً قوياً للمعصيان والمخالفة ، ولم يكن يمكنه حبس السلام أن يقول للمسلمين : إن حقيقة رأيي عزل معاوية عند استقرار الأمر ، وطاعة الجمهور لي ، وإن قصدى بإقراره على الولاية مخادعته ، وتمجيل طاعته ، وسباية الأحناد الذين قبله ، ثم استأنف بعد ذلك فيه ما يستحقه من العزل ، وأعمل فيه بموجب العدل ، لأن إظهاره عليه السلام لهذا العزم كان يتصل بخبره بمعاوية فيفسد للتدبير الذي شرع فيه ويتنقص الرأي الذي هوّل عليه .

• • •

ومنها قولهم : إنه ترك طاعة والزبير حتى خرجا إلى مكة ، وأذن لهما في العمرة ، وذهب عنه الرأي في ارتباطهما قبله ، ومنعهما من البعد عنه .

والجواب عنه ؛ أنه قد اختلفت الروايات في خروج طلحة والزبير من المدينة ؛ هل كان بإذن علي عليه السلام أم لا ؟ فمن قال : إنها خرجا عن غير إذنه ولا علمه ، فسؤاله ساقط ، ومن قال : إنها استأذناه في العمرة ، وأذن لها ، فقد روى أنه قال : والله ما تريدان العمرة ، وإنما تريدان الفدرة ! وخوفاً من الله من التسرع إلى الفتنة . وما كان يجوز له في الشرع أن يحبسهما ، ولا في السياسة . أما في الشرع فلائنه محظوران بعاقب الإنسان بمالم يقتل ، وعلى ما يظن منه ، ويجوز ألا يقع . وأما في السياسة فلائنه لو أظهر القسمة لهما - وهما من أفاضل السابقين ، وجلة للهاجرين - لكان في ذلك من التدبير عنه مالا يخفى ، ومن الظن عليه ما هو معلوم ، بأن يقال : إنه ليس من إمامته على ثقة ، فذلك ينهم الرؤساء ، ولا يأمن الفضلاء ، لا سيما وطلحة كان أول من بايعه ، والزبير لم يزل مشهوراً ببصرته ؛ فلو حبسها ، (انظر الشك) فيها لم يكن أحداً إلى جهته ، ولتفر الناس كلهم عن طاعته .

فإن قالوا : فهلا استصلحهما رولاها ، وأرتهما بالإجابة إلى أغراضهما ؟ قيل لهم : غوى هذا أنكم تطلبون من أمر المؤمنين عليه السلام أن يكون في الإمامة مغلوباً على رأيه ، مفتاتاً عليه في تدبيره ، فيقرّ معاوية على ولاية الشام فصباً ، ويولي طلحة والزبير مصر والدرق كرها ؛ وهذا شيء ما دخل تحته أحد ممن قبله ، ولا رضوا أن يكون لهم من الإمامة الاسم ، ومن الخلقة اللفظ ؛ وقد حارب عثمان وحصر على أن ينزل بعض ولاته فلم يجب إلى ذلك ، فكيف نسومون علياً عليه السلام أن يفتتح أمره بهذه الدنية ويرضى بالدخول تحت هذه الخلطة ! وهذا ظاهر .

•••

ومنها تعلّقهم بحولية أمير المؤمنين عليه السلام محمد بن أبي بكر بنصر ، وهزله قيس ابن سعد عنها ؛ حتى قتل محمد بها ؛ واستولى معاوية عليها .

والجواب أنه ليس يمكن أن يقال : إن محمدًا رحمه الله لم يكن بأهل لولاية مصر؛ لأنه كان شجاعًا زاهدًا فاضلاً ، صحيح العقل والرأى ؛ وكان مع ذلك من المخلصين في محبة أمير المؤمنين عليه السلام ، والمجاهدين في طاعته ؛ ومن لا يتهم عليه ، ولا يرتاب بنصحه ، وهو ريبه وخرجه ، ويمرر بمجرى أحد أولاده عليه السلام ، لترقيقه له ، وإشفاقه عليه .

ثم كان المصريون على غاية المحبة له ، والإيثار لولايته ، ولما حاصروا عثمان وطالبوه بمنزل عبدالله بن سعد بن أبي سرح عنهم ؛ اقترحوا تأمير محمد بن أبي بكر عليهم . فكتب له عثمان بالهدى على مصر وصار مع المصريين حتى نفضه كتاب عثمان إلى عبدالله بن سعد في أمره وأمر المصريين بما هو معروف . فسادوا جميعاً ، وكان من قتل عثمان ما كان ؛ فلم يكن ظاهر الرأي ووجه التدبير إلا تولية محمد بن أبي بكر على مصر ، لما ظهر من ميل المصريين إليه ، وإيثارهم له ؛ واستحقاقه لذلك بحكامه حاصل الفضل فيه ؛ فكان الظن قوياً باتفاق الرعية على طاعته ، وانقيادهم إلى نصرته ، واجتماعهم على محبته ، فكان من فساد الأمر واضطرابه عليه حتى كان ما كان ، وليس ذلك بسبب على أمير المؤمنين عليه السلام ، فإن الأمور إنما يستمدحها الإمام على حسب ما يظن فيها من المصلحة ، ولا يعلم الميب إلا الله تعالى . وقد تولى رسول الله صلى الله عليه وآله في مؤنة حمرا قتل ، وتولى زيدا قتل ، وتولى عبدالله ابن رواحة قتل ، وهزم الجيش ، وعاد من عادتهم إلى المدينة بأسوأ حال ، فهل لأحد أن يعيب رسول الله صلى الله عليه وآله بهذا ، ويظعن في تدييره !

• • •

ومنها قولهم : إن جماعة من أصحابه عليه السلام فارقوه ؛ وصاروا إلى معاوية ، كعقيل ابن أبي طالب أخيه ، والنجاحشي شاعره ، ورقبة بن مصقلة أحد الوجوه من أصحابه ؛ ولولا أنه

كان يُوحِشهم ولا يستعجلهم لم يفارقوه وبصروا إلى علوه ، وهذا يخالفُ حكم الساسة ، وما يجب من تألف قلوب الأصحاب والرعية

والجواب : إنا أولا لا ننكر أن يكون كل من رغب في حطام الدنيا وزخرفها ، وأحب العاجل من ملاذها وزينتها يميل إلى معاوية الذي يبدل منها كل مطلوب ، ويسمح بكل مأمول ، ويطعم حجاج مصر عمرو بن العاص ، ويصنن لذي الكلاع وحبيب ابن مسلمة ما يوفى على الرجاء والافتراح ، وعلى عليه السلام لا يبدل فيما هو أمين عليه من مال المسلمين عن قصة الشربة وحكم الله ، حتى يقول خالد بن معدان السدوسي لعلاء ابن المهيم ، وهو يحمله على هارقة على عليه السلام ، والحقاق بمعاوية : اتقى الله يا علاء في عشرتك ، وانظر لمسك ولرحمك ؛ ماذا تؤمل عند رجل أردته على أن يزيد في عطاء الحسن والحسين دراهمات يسيرة برأبان خلف حبشهما ، فأبى وغضب فلم يفعل .

فأما عقيل ، فالصحيح الذي اجتمع تحت الرواة عليه أنه لم يجتمع مع معاوية إلا بعد وفاة أمير المؤمنين عليه السلام ، ولكنه لارم المدينة ، ولم يحضر حرب الجبل وصيفين ، وكان ذلك بإذن أمير المؤمنين عليه السلام ، وقد كتب عقيل إليه بعد الحكمين بسأذنه في القدوم عليه الكوفة بولده وخية أهله ، فأمره عليه السلام بالمقام ، وقد روى في خبر مشهور ، أن معاوية وبعث سعيد بن العاص على تأخير عهده في صيفين ، فقال سعيد : لو دعوتني لوجدتني قريبا ، ولكنني جلست محلس عقيل وغيره من بني هاشم ، ولو أوعبنا لأوعبوا^(١) .
وأما النجاشي ، فإنه شرب الخمر في شهر رمضان ، فأقام على عليه السلام الحد عليه ،

(١) أوعب القوم ؛ إذا خرجوا جميعهم للفرار .

وزاده عشرين بجلدة فقال النجاشي: ما هذه الملاوة (١)؟ قال: لجرأتك على الله في شهر رمضان. فهرب النجاشي إلى معاوية.

وأما رقية بن مصقلة، فإنه ابتاع سبي بني ناجية وأعتقهم، وأنط بالمال (٢) وهرب إلى معاوية، فقال عليه السلام: قتل قتل السادة، وأبق إباق العبيد؛ وليس تعطيل الحدود وإباحة حكم الدين وإصاعة مال المسلمين من التألف والسياسة لمن يريد وجه الله تعالى، والتلزم بالدين، ولا يظن؛ بلى عليه السلام الناضل والناصح في صغير من ذلك ولا كبير.

ومنها شبهة الخوارج وهي التعكيم، وقد يحتج به على أنه اعتمد ما لا يجوز في الشرع، وقد يحتج به على أنه اعتمد ما ليس بصواب في تدبير الأمر. أما الأول فقولهم: إنه حكم الرجال في دين الله، والله سبحانه يقول: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ (٣) وأما الثاني فقولهم: إنه كان قد لاحت له النصر، وظهرت أمارات الظفر معاوية، ولم يبق إلا أن يأخذ برقبته فترك التصميم على ذلك، وأحله إلى التعكيم. وربما قالوا: إن تعكيمه بدل على شك منه في أمره، وربما قالوا: كيف رضى بحكومة أبي موسى وهو فاسق عنده بتثبيطه أهل الكوفة عنه في حرب التصرة؟ وكيف رضى بتحكيم عمرو بن العاص وهو أفسق الفاسقين؟ والجواب: أما تحكيم الرجال في الدين فليس بمعذور، فقد أمر الله تعالى بالتحكيم بين المرأة وزوجها، فقال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأُمْنُوا حَكْمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكْمًا

(١) الملاوة، بالكسر: ما زاده على الشيء.

(٢) أنط بالمال، أي أخذه وجعده.

(٣) سورة الأنعام ٥٧.

مِنْ أَهْلِهَا» (١). وقال في جزاء الصِّدْقِ: «يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ» (٢).

وأما قولهم: كيف ترك التَّصَمُّيمَ بعد ظهور أمارات النصر؟ فقد تواتر الخبر بأن أصحابه لما رفع أهل الشام للمصاحف عند ظهور أهل العراق عليهم، ومشاركة هلاك معاوية وأصحابه، أخذوها برفع المصاحف، وقالوا: لا يحمل لنا التَّصَمُّيمَ على حرسهم، ولا يجوز لنا إلا وضع السلاح ورفع الحرب والرجوع إلى المصاحف وحكمها. فقال لهم: إنها خديعة، وإنها كلمة حق يراد بها باطل، وأمرهم بالصبر ولو ساعة واحدة، فأبوا ذلك، وقالوا: أرسل إلى الأشر فليخذ، فأرسل إليه، فقال: كيف أعود وقد لاحت أمارات النصر والظفر؟ فقالوا له: ابث إليه مرة أخرى، فبث إليه، فأطد الجواب بنحو قوله الأول وسأل أن يُبْهَل ساعة من النهار، فقالوا: إن بينك وبينه وصية ألا يُبْهَل، فإن لم تبث إليه من سيده، وألا تهللك بسوفنا كما فعلنا عمار، أو قبضنا عليك وألحناك إلى معاوية فساد الرسول إلى الأشر، فقال: لا يجيب أن تظهر أنت هاهنا وتكسر جنود الشام ويقتل أمير المؤمنين عليه السلام في مضر به؟ قال: أو قد فعلوها؟ لا بارك الله فيهم! أسد أن أخذت بمحقق (٣) معاوية، ورأى للوث عياناً أرجع أنم طافتم أهل العراق وسبهم، وقال لهم وقالوا له، ما هو منقول مشهور، وقد ذكرنا الكثير منه فيما تقدم.

فإذا كانت الحال وقت هكذا، فأى تقصير وقع من أمير المؤمنين عليه السلام؟ وهل ينسب للغلوب على أمره، لظهور على رأيه إلى تقصير أو فساد تدبير؟ وبهذا نجيب عن قولهم: إن التحكيم بدل على الشك في أمره، لأنه إنما يدل على ذلك لو اجدا هو به؛ فأما إذا داه إلى ذلك غيره، واستجلب إليه أصعابه، فنصهم وأمرهم

(١) سورة النساء ٣٥.

(٢) سورة المائدة ٩٥.

(٣) الخنق: موضع الخنق من الخنق.

أن يمروا على وتبرتهم وشأنهم ، فلم يفعلوا ، وبين لم أنها مكيدة فلم يثبتوا ، وخاف أن يقتل أو يستلم إلى عدوه ، فإنه لا يدل تحكيمه على شكه ؛ بل يدل على أنه قد دفع بذلك ضرراً عظيماً عن نفسه ، ورجا أن يحكم الحكمان بالكتاب ؛ فنزل الشبهة عن طلب التحكيم من أصحابه .

وأما تحكيمه محرراً مع ظهور فسقه ، فإنه لم يرض به ، وإنما رضى به بحالته ؛ وكرهه هو فلم يقبل منه . وقد قيل : إنه أجاب ابن عباس رضى الله عن هذا ، فقال للحوارج : أليس قد قال الله تعالى : ﴿ قَاتِلُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِيهَا ﴾ ^(١) ! أرايتم لو كانت المرأة يهودية فبعثت حكماً من أهلها ، أكنّا نخط ذلك !

وأما أبو موسى فقد كرهه أمير المؤمنين عليه السلام ، وأراد أن يحمل بدله عبد الله ابن عباس ، فقال أصحابه : لا يكون الحكمان من مصر ، فقال : فلاشتري . فقالوا : وهل أضرم النار إلا الأشتري ! وهل حرأما ترى إلا الحكومة الأشتري ! ولكن أبا موسى ، فأباه فلم يقبلوا منه ، وأثنوا عليه ، وقالوا : لا نرضى إلا به ؛ فعكفه على مضض .

• • •

ومنها قولهم : ترك الرأي لما دعاه المباس وقت وفاة الرسول صلى الله عليه وآله إلى البيعة ، وقال له : امدد يدك أبائتك ، فيقول الناس : عم رسول الله صلى الله عليه وآله بايع ابن عمه ، فلا يختلف عليك اثنان ؛ فلم يفعل ، وقال : وهل بطمع فيها طامع غيري ! فأراحه إلا القوضاء واللفظ في باب الدار ، يقولون : قد يبيع أبو بكر ابن أبي قحافة .

الجواب : إن صواب الرأي وفساده فيما يرجع إلى مثل هذه الواقعة ، يستندان إلى

ما قد كان غلب على الفتن ، ولا ريب أنه عليه السلام لم يظلب على ظننه أن أحداً يساثر عليه بالخلافة لأحوال قد كان مهدها له رسول الله صلى الله عليه وآله ، وما توهم إلا أنه ينتظر ويرتقب خروجه من البيت وحضوره ، ولعله قد كان يحظر له أنه إما أن يكون هو الخليفة أو يشاور في الخلافة إلى من يفرض . وما كان يتوهم أنه يجري الأمر على ما جرى من الفتن عند ثوران تلك الفتنة ، ولا يشاور هو ولا المهاجرات ولا أحد من بني هاشم ، وإنما كان يكون تديره فاسداً لو كان يحاذر خروج الأمر عنه ، ويتوهم ذلك ، ويظلب على ظننه إن لم يبادر بحصيه بالبيعة للمعجزة في الدار من وراء الأبواب والأخلاق ، وإلا فاته ، ثم بهل ذلك ولا يفعله . وقد صرح هو بما عنده ، فقال : وهل بطمع فيها طامع غيري اثم قال : إني أكره البيعة ها هنا وأحب أن أصير^(١) بها ؛ حين أنه يشهد أن يهاج سراً حلف الحبش والجنود ، ويجب أن يهاج جبهة بمحض من الناس كما قال ، حيث طلبوا منه بعد قتل عثمان أن يبايعهم في داره ، فقال : لا ، بل في المسجد ، ولا يلم ولا حطر له ما في ضمير الأنعام ، وما يحدث الوقت من وقوع ما لا يتوهم العقلاء وأرباب الأفكار وقوعه .



ومنها قولهم : إنه قصر في طلب الخلافة عند بيعة أي بكر ، وقد كان اجتمع له من بني هاشم وبني أمية وعيرهم من أفتاء الناس من يتكهن بهم من المنازعة وطلب الخلافة ، فقصر عن ذلك ، لا جبراً ، لأنه كان أشجع البشر ، ولكن قصور تدير وضعف رأي ، ولهذا كفرته للكاملية^(٢) وأكفرت الصحابة ، فقالوا : كفرت الصحابة لتركهم بيعته ، وكفر هو بترك المنازعة لهم !

(١) أصير بالأمر : أظهره .

(٢) الكاملية : أتباع رجل من الرافضة كان يعرف بأبي كامل ؛ وكان يزعم أن الصحابة كفروا بتركهم بيعة علي ، وكفر على تركه قتالهم ؛ وكان يلزم قتالهم كما لم قتال أصحاب صفين الفرق بين الفرق ٣٩ .

والجواب : أما على مذهبنا ، فإنه لم يكن عليه السلام منصوحاً عليه ، وإنما كان يدعها بالأفضلية والقربة والساقية والجهاد ونحو ذلك من الخصاص ، فلما وقعت بيعة أبي بكر رأى هو على عليه السلام أن الأصلح للإسلام ترك النزاع ، وأنه يخاف من النزاع حدوث فتنة تحمل مبادئ الملة وتزعزع أركانها ، فحضر وبايع طوعاً ، ووجب علينا بدمها بيمته ورضاه أن نرضى بمن رضى هو عليه السلام ، ونطيع من أطاعه ، لأنه القدوة ، وأفضل من تركه صلى الله عليه وآله بعده .

وأما الإمامية ، فليهم من ذلك جواب آخر معروف من قواعدهم .

• • •

ومنها قولهم : إنه قصر في الرأي حيث دخل في الشورى ، لأنه جعل نفسه بدخوله فيها نظيراً لعثمان وغيره من الخلفاء ، (وقد كان الله تعالى ربه عنهم وعلى من كان قبلهم ، هو من ذلك قدره ، وطأطأ من جلاله ، ألا ترى أنه يستهجن ويقبح من أبي حنيفة والشافعي رحمهما الله أن يحملوا أنفسهما نظراء ليه من بدا^(١) طرقاً من العقه ، ويستهجن ويقبح من سبويه والأخفش أن يوازيها أنفسهما بمن يعلم أبوايا سيرة من النحوا !

الجواب : أنه عليه السلام وإن كان أفضل من أصعاب الشورى ، فإنه كان يظن أن ولي الأمر أحدم بعد عمر ، لا يسير سيرة صالحة ، وأن اضطراب بعض أمور الإسلام ، وقد كان يثنى على سيرة عمر ويحمدها ، فوجب عليه بمقتضى ظنه أن يدخل معهم فيما أدخله عمر فيه ، توقفاً لأن يفضى الأمر إليه ، فيعمل بالكتاب والسنة ، ويحيى معالم رسول الله صلى الله عليه وآله ، وليس اعتماد ما يقتضيه الشرع مما يوجب نقصاً في الرأي ، فلا تدبير أصح ولا أسد من تدبير الشرع .

• • •

ومنها قولهم : إنه ما أصاب حيث أقام بالمدينة وثمان محصور ، وقد كان يجب في الرأي أن يخرج عنها بحيث لا تنوط بنو أمية به دم عثمان ، فإنه لو كان بعيداً عن المدينة لكان من قد فيهم إياه بذلك أبداً ، وعنه أزه .

والجواب : أنه لم يكن بخبره مع برأته من دم عثمان ، أن أهل الفساد من بني أمية يرمونه بأمره ، والنيب لا يملك إلا الله ، وكان يرى مقامه بالمدينة أدى إلى التمسار عثمان على المحاصرين له ، فقد حضر هو بنفسه مراراً ، وطرد الناس عنه ، وأخذ إليه ولديه وابن أخيه عبد الله ، ولولا حضور علي عليه السلام بالمدينة لقتل عثمان قبل أن يقتل بمدة ، وما تراخى أمره وتأخره قتله ، إلا لراية الناس له حيث شاهدوه يقتصر له ، ويحمي عنه .



ومنها قولهم : كان يجب في مقتضى الرأي كسب قتل عثمان ، أن يلقى بابه ، ويمنع الناس من الدخول إليه ، فإن العرب كانت تضطرب اضطراباً ثم تتول إليه ، لأنه تمين للأمر بحكم الحال العاصرة . فلم يفعل ، وفتح بابه ، وترشح للأمر ، وبسط له يده ؛ فلذلك انتفضت عليه العرب من أقطارها .

والجواب : إنه عليه السلام كان يرى أن القيام بالأمر يومئذ فرض عليه لا يجوز له الإخلال به ، لعدم من يصلح في تلك الخلافة ، فإما كان يجوز له أن يلقى بابه ويمنع . وما القى كان يومئذ أن يباح الناس طلعة أو تزير أو غيرها ممن لا يراه أحلاً للأمر فقد كان عبد الله بن الزبير يومئذ يزعم أن عثمان عهد إليه بالخلافة وهو محصور . وكان مروان بطح أن يعاير إلى طرف من الأطراف فيخطب لنفسه بالخلافة ، وله من بني أمية شيعة وأصحاب ، بشبهة أنه ابن عم عثمان ، وأنه كان يدبر أمر الخلافة على عهده . وكان معاوية يرجو أن ينال الخلافة ، لأنه من بني أمية وابن عم عثمان ، وأمير الشام عشرين سنة ، وقد كان قوم من بني أمية يتمسبون لأولاد عثمان للقتول ، ويرومون إعادة الخلافة فيهم

وما كان يسوع لعل عليه السلام في الدين إذا طهبه للمسلمون لخلافة أن يتمتع عنها ، ويعلم أنها ستصير إذا امتنع إلى هؤلاء ، فذلك فتح بانه ، وامتنع امتناع من يحاول أن يعلم ما في قلوب الناس ؛ هل لرغبتهم إليه حقيقة أم لا ؟ فلما رأى منهم التصميم وافق لوجوب الموافقة عليه ؛ وقد قال في خطبته : « لولا حضور الحاضر ووجوب الحاجة بوجود الناصر . . . لألقيت حبلاً على غارها ، ولسقيت آخرها بكأس أولها ^(١) » ؛ وهذا تصريح بما قلناه .

• • •

ومها قولهم : هلا إذ ملك شريعة الفرات على معاوية ، بعد أن كان معاوية ملكها عليه ، ومنعه وأهل العراق منها ، منع معاوية وأهل الشام منها ؛ فكان يأخذهم قبماً بالأيدي ١ فإنه لم يصبر على منهم عن الماء ، بل فصح لهم في الورد ؛ وهذا يحالف ما يقتضيه تدبير الحرب .

الجواب ، أنه عليه السلام لم يكن يستعمل ما استعمل معاوية من تعذيب البشر بالعماش ؛ فإن الله تعالى ما أسرى أحد من الصلابة الذين أباح دماءهم بذلك ؛ ولا فصح فيه في نحو القصاص أو حد الزاني المحض أو قتل قاطع الطريق ، أو قتل الصبي والخوارج ، وما كان أمير المؤمنين ممن يترك حكم الله وشريعته ، ويعتمد ما هو محرم فيها لأجل المصلحة والظفر بالعدو ، ولذلك لم يكن يستعمل البيات ^(٢) ولا المذر ولا النكث . وأيضاً فمن الجائز أن يكون عليه السلام غيب على ظنه أن أهل الشام إن منعوا من الماء كان ذلك أدعى لهم إلى الحملات الشديدة المنكرة على عسكره ، وأن يصعوا فيهم السيوف ، فيأتوا عليهم ويكسروهم بشدة حنقهم وقوة داعيهم إلى ورود الماء ، فإن ذلك من أشد الدواعي إلى أن يستميت القوم ويستفتلوا . ومن الذي يقف بين يدي جيش عظيم حرّم حنق قد اشتدّ بهم العطش ، وهم يرون أمامهم كبطون الحيات ، لا يحول بينهم وبينه

(١) من المصلحة الشفعية ؛ وقد تقدمت في الجزء الأول ص ١٥١ - ٢٠٣

(٢) يقال : بيت العدو ؛ إذا أوقع به لئلا .

إلا قوم مثلهم ، بل أقل منهم حدة وأضعف حدة ، وذلك لما حال معاوية بين أهل العراق وبين الماء وقال : لأمتعنهم وروده فأقتلهم بشيفار الظما ، قال له عمرو بن العاص : خل بين القوم وبين الماء ، فليسوا ممن يرى للماء ويصر عنه . فقال : لا والله لا أدخل لم منه . فسفه رأيه وقال : أنظن أن ابن أبي طالب وأهل العراق يموتون بإزائلك عطشا ، والماء بمقعد الأزر ، وسيوفهم في أيديهم فليج معاوية ، وقال : لا أسقيهم قطرة كما قتلوا عثمان عطشا . فلما مس أهل العراق العطش ، أشار على عليه السلام إلى الأشعث بن اهيل ، وإلى الأشتر بن اهيل ، فملا بمن معها عصريا أهل الشام ضربا أشاب الوليد ، وفر معاوية ومن رأى رأيه وتابعه على قوله من الماء كما تفر الضم خالطها السباع ، وكان قصارى أمره ، ومنهى عنه أن يحفظ رأسه ، وينعوى بنفسه . ومك أهل العراق عليهم الماء ودفنهم عنه ، فصاروا في البر القفر ، وصار على عليه السلام وأصحابه على شربة القرات ، مالكين لها ، فما الذي كان يؤمس عكبا عليه السلام لو أعطش القوم أن يذوق هو وأصحابه منهم مثل ما أذاقهم أهل مد اللوت بالمعش أمر يحافه الإنسان ! وهل يبقى له ملجأ إلا السيف يحمل به فيضرب خصمه إلى أن يقتل أحدهما !

ومنها قولهم : أخطأ حيث عبا اسمه بالخلافة من صحيفة الحكومة ، فإن ذلك مما وهته عند أهل العراق ، وقوى الشبهة في نفوس أهل الشام . والجواب ، أنه عليه السلام احتذى في ذلك - لتأدعي إليه واقترحه الخضم عليه - فصل رسول الله صلى الله عليه وآله في صحيفة الحديدية ، حيث عبا اسمه من النبوة لما قال له سهيل بن عمرو : لو علمنا أنك رسول الله صلى الله عليه وسلم لما حاربناك ، ولا متعناك عن البيت ، وقد قال له صلى الله عليه وآله وهو يومئذ كاتب تلك الصحيفة : استدعى إلى مثلها فحبيب . وهذا من أعلام نبوته صلوات الله عليه ، ومن دلائل صدقه ، ومثله جري له حدو القذة بالقذة .

ومنها قولهم : إنه كان غير مصيب في ترك الاحتراس ، فقد كان يعلم كثرة أعدائه ، ولم يكن يحترس منهم ؛ وكان يخرج ليلاً في قبص ورداء وحده ؛ حتى كمن له ابن ملجهم في السجد قتله ، ولو كان احترس وحفظ نفسه ولم يخرج إلا في جماعة . ولو خرج ليلاً كانت معه أضواء وشرطة ، لم يوصل إليه .

والجواب ، أن هذا إن كان قادحاً في السياسة والتدبير ، فليكن قادحاً في تدبير عمر وسياسته ؛ وهو عند الناس في الطبقة العليا في السياسة وصحة التدبير ، وليكن قادحاً في تدبير صاوية ، فقد ضربه الخارجي بالسيف ليلة ضرب أمير المؤمنين عليه السلام فجرحه ولم يأت على نفسه ، ومعاوية عند هؤلاء شديد التدبير ؛ وليكن قادحاً في صحة تدبير رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ فقد كان يخرج وحده في اللدنية ليلاً ونهاراً مع كثرة أعدائه ؛ وقد كان يأكل ما دُعيَ إليه ولا يحترس ؛ حتى كمن من يهودية شاة مشوية قد ستمت فيها فرض ، وخيف عليه التلف ، ولما يرأى لم تزل تنقم عليه حتى مات منها وقال عند موته : إني ممت من تلك الأكلة ، ولم تسكن العرب في ذلك الزمان تحترس ، ولا تعرف الغيلة والعنك ، وكان ذلك عندهم قبيحاً يبر به فاعله ؛ لأن الشجاعة غير ذلك ، والغيلة فعل العجزة من الرجال ؛ ولأن علياً عليه السلام كانت هيئته قد تمكنت في صدور الناس ، فلم يكن يظن أن أحداً يقدم عليه غيلة أو مبارزة في حرب ، فقد كان بلغ من الذكر بالشجاعة مهلنا عظيماً لم يبلعه أحد من الناس ، لا من تقدم ولا من تأخر ، حتى كانت أبطال العرب تفرج باسمه ؛ ألا ترى إلى عمر بن معد يكرب وهو شجاع العرب ، الذي تضرب به الأمثال ، كتب إليه عمر بن الخطاب في أمر أنكره عليه ، وغدر تخوفه منه : أما والله لئن أقمت على ما أنت عليه ، لأبشن إليك رجلاً نستصنرُ معه نفسك ، بضع سيفه على هامتك فيخرجه من بين خذليك أقال همرو لما وقف على الكتاب : هددني بلى والله ! ولهذا قال شبيب بن بكرة لابن ملجهم ، لما رآه يشد الحرير على بطنه وصدره : ويحك ! ما تريد

أن تصع ا قال : أقتل علياء قال هبيلتك المبول ، لقد جئت شبتا إذا ا كيف تقدر على ذلك ا
فاستبعد أن يتم لابن ملجم ما عزم عليه ، وراه مراماً وعرا . والأمر في هذا وأمثاله مستند إلى
غلبات الظنون ، فن غلبت على ظنه السلامة مع الاسترسال لم يحب عليه الاحتراس ؛ وإنما
يجب الاحتراس على من يظلب على ظنه العطب إن لم يحترس .

قد بان عما أوضاعه فساد قول من قال : إن تدبيره عليه السلام وسياسته لم تكن
صالحة ، وبان أنه أصبح الناس تدبيراً وأحسنهم سياسة ، وإنما الموى والمصيبة
لا حيلة فيهما ا

(١٩٤)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

أَيُّهَا النَّاسُ ، لَا تَسْتَوْحِشُوا فِي طَرِيقِ الْهَدَى لِقِلَّةِ أَهْلِهِ ؛ فَإِنَّ النَّاسَ اجْتَمَعُوا عَلَى مَا يَذَمُّ شَرِّهَا قَصِيرًا ، وَحُوعُهَا طَوِيلٌ .

أَيُّهَا النَّاسُ ؛ إِنَّمَا يَجْمَعُ النَّاسُ الرُّصَا وَالسُّخْطَ ، وَإِنَّمَا عَقَرَتْ مِائَةً نُمُودَ رَجُلٍ وَاحِدٍ فَمَنْهُمْ اللَّهُ بِالْمَذَابِ لَمَّا تَعَوُّهُ بِالرُّصَا ، فَقُلْ مُنْبَعَاةٌ : (فَمَقَرُّوْهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ) ، فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ حَارَتْ أَرْضُهُمْ بِالْحَقِيقَةِ خُورَ السَّكَّةِ الْمُعْمَاةِ فِي الْأَرْضِ انْخَلَوَارَةً أَيُّهَا النَّاسُ ؛ مَنْ سَلَكَ الطَّرِيقَ الْوَاضِحَ وَرَدَّ الْمَاءَ ، وَمَنْ حَالَفَ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ

• • •

الشرح :

الاستيعاش : ضد الاستئناس ، وكثيرا ما يحدثه التوحيد وعدم الرفيق ؛ فهمى عليه السلام عن الاستيعاش في طريق الهدى لأجل قلة أهله ، فإن المهتدى ينبغي أن يأبس بالهداية ، فلا وحشة مع الحق .

وعنى بالمائدة : الدنيا ، لذتها قليلة ، ونقصها كثيرة ، والوجود فيها زمان قصير جدا ، والعدم عنها زمان طويل جدا .

ثم قال : ليست العقوبة لمن اجترم ذلك الجرم بعينه ، بل لمن اجترمه ومن رضى به ، وإن لم يشره بنفسه ، فإن عاقبة صالِحٍ إنما كان إنسانا واحدا ، فمَن الله نُمُودًا بالسخط

لما كانوا راضين بذلك القمل كلهم ، واسم « كان » مصترفاً فيها ، أى ما كان الاعتقاد منهم إلا كذا .

وخارت أرضهم بالخشقة : صوّمت كما يخور الثور ، وشبه عليه السلام ذلك بصوت التسكة المحساة في الأرض الخوارة ، وهى القتية ، وإنما جعلها محساة لتكون أبلغ في ذهابها في الأرض . ومن كلامه عليه السلام يوم خيبر ، يقوله لرسول الله صلى الله عليه وآله ، وقد نثته بالتراب : أكون في أمرك كالتسكة المحساة في الأرض ، أم الشاهد يرى ما لا يرى العائب ! فقال له : بل يرى الشاهد ما لا يرى العائب .

وقال له أيضاً هذه اللفظة لما نثته في شأن مارية القبطية ، وما كانت أهتم به من أمر الأسود القبطي ، ولهذا علة في العلم الطبيعي ، وذلك أن التسكة المحساة تحرق الأرض بشيئين : أحدهما يحدّد رأسها ، والثاني حرارتها ، فإن الجسم المحدّد الحار إذا اعتد عليه في الأرض انقضت الحرارة إهانة ذلك الطرف المحدّد على النفوذ بتحللها ما تلاق من صلابة الأرض ، لأن شأن الحرارة التحليل ، فيكون غرض ذلك الجسم المحدّد في الأرض أوحى وأسهل .

والنتيجة : المقارنة بتعبير سالكها .

• • •

[قصة صالح ونموذ]

قال المفسرون : إن عاداً لما أهليكت تحرّث نموذ بلادها ، وخلفوهم في الأرض ، وكثروا وعمّروا أعماراً طويلاً ، حتى إن الرجل كان يبني للسكن المحكم فينهدم في حياته ، ففتحوا البيوت في الجبال ، وكانوا في سمة ورخاء من العيش فتتوا على الله ، وأفسدوا في الأرض ، وعبدوا الأوثان ، فهبث الله إليهم صالحاً ، وكانوا قوماً عرباً ، وصالح من أوسطهم

نسبا ، فآمن به إلا قليل منهم مستضعفون ، فغذّهم وأمّزهم ، فسأله آية ، فقال :
آية آية تريدون ؟ قالوا : نخرج معنا إلى عيدنا - في يوم معلوم لهم من السنة - فتدعونا إليك
وندهو إلهنا ، فإن استجيب لك اتبناك ، وإن استجيب لنا اتبعنا .

قال : نعم ، فخرج معهم ، ودهوا أوثانهم ، وسألوها الاستعانة فلم يجب ، فقال سيّدهم
جندع بن عمرو - وأشار إلى صخرة منفردة في ناحية الجبل بسورها السكّابة : أخرج
لنا في هذه الصخرة ناقة محرّجة جوفاء وبراء - والمخرجة : التي شاكت البُخت^(١) - .
فإن فعلت صدقتك وأجهناك .

فأحدعهم اللواتيق ؛ لأن فعلتُ ذلك لتؤمنن وتصدقن ؟ قالوا : نعم ، فصلّى ودعا
ربه ، فتمخضت الصخرة تمخض التتوج بولدها ، فاصدعت عن ناقة عسراء^(٢) جوفاء
وبراء كاصفوا ، لا يعلم ما بين حبّيبها إلا الله ، وعطاؤهم ينظرون . ثم نُتجت ولدا مثلها
في المعظم ، فأمن به جندع ورهط^(٣) من قومه ، ومنع أحمّاسهم ناس من رموسهم أن يؤمنوا ،
فكسكت النافذ مع ولدها ترعى الشجر وتشرب الداء ، وكانت تردّ عينا ؛ فإذا كان يومها وضعت
رأسها في البئر ، فارتفعه حتى تشرب كل ماء فيها ثم تنفّح ؛ فيحتلبون ماشاءوا حتى
تمتلئ أوانيهم ، فيشربون ويدّخرون ، فإذا وقع الحرّ نصيفت بظهر الوادي ، فتهرب
منها أسامهم ، فتببط إلى بطنه ، وإذا وقع البرد تشنت بطن الوادي فتهرب مواشيهم إلى
ظهره ، فشق ذلك عليهم ؛ وزينت عقرها لهم امرأتان : عبّزة أم غمّ وصدقة بنت المختار ؛
لما أضرّت به من مواشيها ، وكانتا كثيرتي اللواشي ، فقروها ؛ فقروها قدار الأحر ،
وافقسوا لحمها وطبخوه .

(١) البخت : الإبل الحراسية .

(٢) العسراء من النوق : التي مضى لحملها عشرة أشهر أو ثمانية ، وجها عشار ، بكسر اللين .

فَانْطَلَقَ سَاقِبَهَا^(١) حَتَّى رَفَى جَبَلًا سَمِيَ قَارَةً ، فَرَفَا ثَلَاثًا ؛ وَكَانَ صَالِحٌ قَالَ لَهُمْ : أَدْرَكُوا
التَّصِيلَ عَسَى أَنْ يُرْفَعَ عَنْكُمْ الْعَذَابُ ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ ؛ وَانْجَبَتِ الصَّخْرَةُ بَعْدَ رِغَاثِهِ
فَدَخَلَهَا ، فَقَالَ لَهُمْ صَالِحٌ : تَصْبِحُونَ شِدَا وَوُجُوهُكُمْ مَصْفَرَّةٌ ، وَبَعْدَ غَدٍ وَجُوهُكُمْ عَمْرَةٌ ، وَالْيَوْمَ
الثَّلَاثَ وَوُجُوهُكُمْ مَسْوَدَةٌ ؛ ثُمَّ بَشَّاكُمْ الْعَذَابَ .

فَلَمَّا رَأَوْا الْعَلَامَاتِ طَلَبُوا أَنْ يَقْتُلُوهُ ، فَأَحْيَاهُ اللَّهُ سَبْعَانَهُ إِلَى أَرْضِ فَلَسْتِينَ ، فَلَمَّا كَانَ
الْيَوْمَ الرَّابِعَ ، وَارْتَفَعَتِ الضَّحْوَةُ ، تَخَطَّوْا بِالصَّبْرِ ، وَتَكَفَّنُوا بِالْأَنْطَاعِ ، فَأَتَتْهُمْ صَيْحَةٌ
مِنَ السَّمَاءِ وَخَسَفَ شَدِيدٌ وَزَلْزَالَ ، فَتَقَطَّعَتْ قُلُوبُهُمْ فَهَلَكُوا .

وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مَرَّ بِالْحَضْرَةِ فِي عُرْوَةِ تَنُوكَ ،
فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ : لَا يَدْخُلَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ الْقَرْيَةَ ، وَلَا تَشْرَبُوا مِنْ مَائِهَا ، وَلَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ
الْمُذْنِبِينَ إِلَّا أَنْ تَمُرُّوا بِمَا كَيْنَ أَنْ يَصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ .

وَرَوَى الْخَلَدَثُونُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَالَ لِعَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَتَدْرِي مَنْ أَشَقَى
الْأَوَّلِينَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، عَاقِرُ نَاقَةِ صَالِحٍ ، قَالَ : أَفَتَدْرِي مَنْ أَشَقَى الْآخِرِينَ ؟ قَالَ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ
أَعْلَمُ ، قَالَ : مَنْ يَضْرِبُكَ عَلَى هَذِهِ ، حَقٌّ تَحْصِبُ هَذِهِ .

(١٩٥)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

روى عنه أنه قاله عند دفن سيّدة النساء فاطمة عليها السلام ، كما لحى به رسول الله صلى الله عليه وسلم عند قبره .

السَّلامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنِّي ، وَعَنِ انْفَتِكَ الْفَارِثَةِ فِي حَوَارِكَ ، وَالسَّرِيمَةِ الْأَعْقَابِ بِكَ أَقْلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَن صَفِيَّتِكَ مَحَبِّي ، وَرَقٍّ عَمَّا تَحْتَدِي ، إِلَّا أَرَى فِي النَّاسِ لِي بِعَظِيمِ فُرْقَتِكَ ، وَفَادِحِ مُعِيَّتِكَ مَوْجِعِ أَمْرٍ . فَلَقَدْ وَسَّذْتُكَ فِي مَنَعُودَةِ قَبْرِكَ ، وَطَاصَتْ بَيْنَ مَحَبِّي وَصَدْرِي نَفْسُكَ ؛ فَإِنَّا إِلَيْهِ رَاكِعُونَ أَفَلَقَدْ اسْتَرْجَعْتَ الْوَدِيعَةَ ، وَأَخَذْتَ الرُّهْنَةَ ؟

أَمَّا حُرَّتِي فَسَرَمْتُ ، وَأَمَّا لَيْلِي فَسَمَدٌ ، إِلَى أَنْ يَحْتَارَ اللَّهُ لِي ذَارِكُ الْبَقِيَّةِ أَنْتَ سَيَاهُ فِيمَ وَسَدَنَّتْكَ ابْنَتُكَ يَتَضَافِرُ أُمَّتُكَ عَلَى هَضْمِهَا . فَأَحْبَبُ السُّؤَالِ ، وَاسْتَحْبَبُهَا الْحَالُ ؛ هَذَا وَلَمْ يَطْلُ الْعَهْدُ ، وَلَمْ يَحْمِلْ مِنْكَ إِفْكُ كُرُ . وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمَا سَلَامَ مُودَعٍ ، لَا قَالٍ وَلَا سَيِّئٍ ، فَإِنْ أَنْصَرَفَ فَلَا عَنْ مَلَالَةٍ ، وَإِنْ أَيْقَمَ فَلَا عَنْ سُوءِ ظَنٍّ بِنَا وَعَدِ اللَّهُ الصَّابِرِينَ !

الشرح

أما قول الرسمى رحمه الله : « عند دفن سيّدة النساء » ، فلا بدّ من التّواضع والخبر عنه صلى الله عليه وآله أنه قال : « فاطمة سيّدة نساء العالمين » إمّا هذا اللفظ بعينه ، أو لفظ يؤدّي هذا

لأُمِّي ، روى أَنَّهُ قال وقد رآها تبكي عند موته : « أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةً لِّسَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ ؟ » . وروى أَنَّهُ قال : « سادات نساء العالمين أربع : خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، وآسية بنت مزاحم ، ومريم بنت عمران » .

قوله عليه السلام : « وسريمة اللُّعاق بك » جاء في الحديث : أَنَّهُ . آها تبكي عند موته فأسرَّ إليها : « أَنْتِ أَسْرَعُ أَهْلِ الْحَوْقَانِي » ، فضجكت .

قوله : « عَنْ صَفِيَّتِكَ » أَجَلَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَنْ أَنْ يَقُولَ : « عَنْ ابْنَتِكَ » ، فقال : « صَفِيَّتِكَ » ، وهذا من لطيف عبارته ، ومحاسن كتابته ، يقول عليه السلام : ضَعُفَ جِلْدِي وَصَبْرِي عَنْ فِرَاقِهَا ؛ لَكِنِّي أَنَا نَسِي بَغْرَاقِي فَكُ فَأَقُولُ : كُلُّ عَظِيمٍ مَعْدُ فِرَاقِكَ جَلَلٌ ، وَكُلُّ عَظِيمٍ خُطْبٍ مَعْدُ مَوْتِكَ يَسِيرٌ .

ثم ذكر حاله معه وقتَ اعتقاله صلواتُ اللهَ عليه إلى جوارِ رَبِّهِ ، فقال : لقد وسَّدْتُكَ فِي مَلْعُودَةِ قَبْرِكَ ، أَيُّ فِي الْحِمَةِ الْمُشْفُوقَةِ مِنْ قَبْرِكَ ، وَالْعَهْدُ : الشَّقُّ فِي جَانِبِ الْقَبْرِ ، وَجَاءَ بَعْضُ الْأَلَمِ فِي لِقَافِرٍ مَشْهُورَةٍ .

قال : « وَفَاضَتْ بَيْنَ نَحْرِي وَصَدْرِي ضَمَكٌ » ، يروى أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَذَفَ دُمًّا بِسِرٍّ أَوْ قَتَلَ مَوْتَهُ . وَمَنْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ زَمَّ أَنْ مَرَضَهُ كَانَ ذَاتَ الْجَنْبِ ، وَأَنَّ الْقُرْحَةَ الَّتِي كَانَتْ فِي النَّشَاءِ لِلتَّبَطُّنِ لِلْأَضْلَاحِ انْفَجَرَتْ فِي تِلْكَ الْحَالِ ، وَكَانَتْ فِيهَا نَفْسُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ . وَذَهَبَ قَوْمٌ إِلَى أَنْ مَرَضَهُ إِنَّمَا كَانَ الْحَيَّ وَالْتِصَامَ الْحَارَّ ، وَأَنَّ أَهْلَ دَارِهِ ظَنُّوا أَنَّ بِهِ ذَاتَ الْجَنْبِ فَلَدُّوهُ وَهُوَ مَعْفَى عَلَيْهِ ، وَكَانَتْ الْعَرَبُ تَدَاوِي بِاللَّدُودِ (١) مَنْ بِهِ ذَاتُ الْجَنْبِ ، فَلَمَّا أَطَاقَ عِلْمُ أَنَّهُمْ قَدْ لَدُّوهُ ، قَالَ : « لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَسْلُطَهَا عَلَيَّ ، أَكْدُوا كُلٌّ مِنْ فِي الدَّارِ » ، فَعَمِلَ بَعْضُهُمْ يَلْدُ بَعْضًا .

(١) فِي اللِّسَانِ عَنْ الْفَرَاءِ : « الدَّدَانُ يُوْخَذُ بِطَالِ الْمَيِّ لِيَبْدَأَ أَحَدُهُمْ بِهِ ، وَيُجَرُّ فِي الْآخِرِ الْغَوَاءُ فِي الصَّفَقِ . بَيْنَ اللِّسَانِ وَبَيْنَ الشَّقِّ ؛ وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ قَدْ مَرَضَهُ » .

واحتجّ للذاهبون إلى أن مرضه كان ذات الجنب بما روى من انتصائه وتعدّر الاضطجاع والثوم عليه ، قال سلمان الفارسي : دخلتُ عليه صبيحة يوم قبل اليوم الذي مات فيه ، فقال لي : يا سلمان ، ألا تسأل عما كابدته الليلة من الألم والسهرة أنا وعلى ؟ قلت : يا رسول الله ، ألا أسهرُ الليلة معك بذلك ؟ فقال : لا هو أحقُّ بذلك منك .

وزعم آخرون أن مرضه كان أثرًا لأكلة السم التي أكلها عليه السلام ، واحتجّوا بقوله صلى الله عليه وآله : « ما زالت أكلة حَيْر تماودني ؛ فهذا أوّلُ قطعت أبيهري »^(١) .

ومن لم يذهب إلى ذات الجنب ، فأولوا قولهم على عليه السلام : « فاضت بين نحري وصدري نفسك » فقالوا : أراد بذلك آخر الأفاس التي يخرجها الميت ولا يستطيع إدخال الهواء إلى الرئة عوضًا عنها ، ولا بدّ لكل ميت من نفخة تكون آخر حرّ كانه .

ويقول قوم : إنَّها الروح ، وعبر على عليه السلام عنها بالنفس ، لما كانت العرب لا ترى بين الروح والنفس قرابة .

واعلم أن الأحبار مختلفة في هذا المعنى ، فقد روى كثير من المحدثين عن عائشة أنها قالت : توفّي رسول الله صلى الله عليه وآله بين سَحْرِي^(٢) ونَحْرِي .

وروى كثير منهم هذا اللفظ عن علي عليه السلام ، أنه قال عن نفسه ، وقال في رواية أخرى : « فاضت نفسي في بدي ، فأمررتُها على وجهي » .

(١) الأبهري : مرق إذا اضطلع مات صاحبه ، وما أبهر أن يخرج من القلب ، ثم يثقب منها سائر الشرايين .
(٢) السحر هنا : الرئة .

والله أعلم بحقيقة هذه الحال ، ولا يبعد عندي أن يصدق الخبران معاً ، بأن يكون رسول الله صلى الله عليه وآله وقت الوفاة مستنداً إلى علي وعائشة جميعاً ، فقد وقع الاتفاق على أنه مات وهو حاضر لموته ، وهو الذي كان يقليه بعد موته ، وهو الذي كان يعلقه ليالي مرضه ، فيعوز أن يكون مستنداً إلى زوجته وابن عمته ، ومثل هذا لا يبعد وقوعه في زماننا هذا ، فكيف في ذلك الزمان الذي كان النساء فيه والرجال محتلطين ، لا يستتر البعض عن البعض .

فإن قلت ، فكيف نعمل بآية الحجاب ، وما صح من استئثار أزواج رسول الله صلى الله عليه وآله عن الناس بعد رولها ؟

قلت : قد وقع اتفاق المحدثين كلهم على أن العباس كان ملازماً للرسول صلى الله عليه وآله أيام مرضه في بيت عائشة ، وهذا لا ينكره أحد ، فعلى القاعدة التي كان للعباس ملازمته صلى الله عليه وآله كان علي عليه السلام ملازمه ، وذلك يكون بأحد الأمرين : إما بأن نساءه لا يستترن من العباس وعلى لكونهما أهل الرجل وجراً منه ، أو أهل النساء كن يحضرن مأخرتهن ، ويحاطن الرجال فلا يروون وجوههن ، وما كانت عائشة وحدها في البيت عند موته ، بل كان ساؤه كلهن في البيت ، وكانت ابنته فاطمة عند رأسه صلى الله عليه وآله .

فأما حديث مرضه صلوات الله عليه ووفاته ، فقد ذكرناه فيما تقدم .

قوله : « إنا لله » إلى آخره ؛ أي عبيده ، كما تقول : هذا الشيء لزيد ، أي يملكه .

ثم عقب الاعتراف بالملكبة بالإقرار بالرحمة والبهت ، وهذه الكلمة يقال عند

المصيبة ، كما أدب الله تعالى خلقه وعباده .

والودعة والرهينة ، عبارة عن فاطمة ، ومن هذا الموضع أخذ ابن ثوابه الكاتب قوله

عن قطر الندي بنت خمارويه بن أحمد بن طولون ، لما حلت من مصر إلى المنتصد أحمد بن

طلحة بن النوفل : « وقد وصلت الوديمة سالمة ، والله الحمود ، وكيف يوصى الناظر بنوره
أم كيف يحض القلب على حفظ سروره » ١

وأخذ الصابي هذه اللفظة أيضا ، فكتب عن عز الدولة بختيار بن بويه ، إلى عدة
الدولة أبي تغلب بن حذان ، وقد ظل إليه ابنه : « قد وجهت الوديمة ياسيدي ، وإنما
تقلب من وطن إلى سكن ، ومن معوس إلى مغرس ، ومن مأوى برّ واطفاف ، إلى مثوى
كرامة وأطاف » .

فأما الرهينة فهي المرتبنة ، يقال للمذكر : هذا رهين عندي على كذا ، وللأنثى :
هذه رهينة عندي على كذا ، كأنها عليها السلام كانت عوصاً من رؤية رسول الله
صلى الله عليه وآله ، كما تكون الرهينة عوصاً عن الأمر الذي أخذت رهينة عليه
ثم ذكر عليه السلام أن حرره **دائم** ، وأبى بهر إليه ولا ينام إلى أن يلتحق رسول
الله صلى الله عليه وآله ومجاورة في النار الآخرة ، وهذا من باب اللبالة ، كما يبالغ الخطباء
والكتاب والشعراء في المأني ، لأنه عليه السلام ما سهر منذ ماتت فاطمة ودام سهره إلى
أن قتل عليه السلام ، وإنما سهر ليلة أو شهر أرسنة ، ثم استمر سهره ، وارهوى رسنه ،
فأما الحزن فإنه لم يزل حزينا إذا ذكرت فاطمة ، هكذا وردت الرواية عنه .
قوله عليه السلام : « وستفكك ابنتك » ، أي ستملكك .

فأحفظ السؤال ، أي استقص في مسألتها ، واستعبرها الحال ، أخفيت إحقاء في السؤال :
استقصيت ، وكذلك في الحجاج والنازعة ، قال الحارث بن حنيفة :
إِنَّ إِحْوَانَنَا الْأَرْاقِمَ يَمْلُؤُونَ عَلَيْنَا فِي قِيْلِهِمْ إِحْقَاءُ^(١)
ورجل حق ، أي مستقص في السؤال .

(١) اللغات بشرح التبريزي ٢٤٥ . يملون ؛ أي يرممون ، والإحقاء : الاستقصاء .

واستغبرها الحال ؛ أى عن الحال ، فحذف الجار ، كقولك : اخترت الرجال زيدا
أى من الرجال ، أى سألها عما جرى بعدك من الاستبداد بمقد الأمر دون مشاورتنا
ولا بدل هذا على وجود النص ، لأنه يجوز أن تكون الشكوى والتألم من أطراحهم
وترك إدخالهم فى الشاوره ، فإن ذلك مما تكرهه النفوس وتتألم منه ، وهما الشاء
قوماً ، فقال :

وَيُقَصِّى الْأَمْرُ حِينَ نَعِيبُ نَبِيَّ وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ وَهُمْ شُهُودٌ^(١)

قوله : « هذا ولم يطل العهد ، ولم يخلق الله كره » ، أى لم ينس .

فإن قلت : فما هذا الأمر الذى لم ينس ولم يخلق ، إن لم يكن هناك نص ؟

قلت : قوله صلى الله عليه وآله : « لئن لم يخفف فحكم الثقلين » ، وقوله : « اللهم
أدير الحق معه حيث دار » ، وأمثلة ذلك من النصوص الدالة على تعظيمه وتبجيله ومنزله
فى الإسلام ، فهو عليه السلام كان يريد أن يؤخر عقد البيعة إلى أن يحضر ويُسْتَشَارُ ،
وقع الوقف بيده وبينهم ، على أن يكون العقد لواحد من المسلمين بموجبه ، إمامه
أو لآل بكر ، أو لميرها ، ولم يكن ليلحق أن يبرم الأمر وهو غير حاضر له ، مع جلالة فى
الإسلام ، وعظيم أثره ، وما ورد فى حقه من وجوب موالاته والرجوع إلى قوله وفعله ، فهذا
هو الذى كان يعظم عليه السلام ، ومنه كان يتألم ويُطِيلُ الشكوى ، وكان ذلك فى موضعه .
وما أنكر إلا منكرأ . فأما النص فإنه لم يذكره عليه السلام ، ولا احتج به ، ولما طال
الزمان صَفَحَ عن ذلك الاستبداد الذى وقع منهم ، وحضر عندهم فبايعهم ، وزال ما كان
فى نفسه .

(١) جرير ، من قصيدة له فى ديوانه ١٦٠ - ١٦٦ ، يهجو فيها النبي ، قيل عمر بن لجا . وشهود ،
أى حاضرون .

فإن قلت : فهل كان يهوع لأبي بكر ، وقد رأى وثوب الأنصار على الأمر أن يؤخروه إلى أن يخرج عليه السلام ويحضر للشورى ؟
قلت : إنه لم يلم أبا بكر بعينه ، وإنما تألم من استبعاد الصعابة بالأمر دون حضوره ومشاورته . ويحوز أن يكون أكثر تألمه وعتابه مصروفاً إلى الأنصار الذين فتحوا باب الاستبعاد ، والتغلب .

• • •

[ما رواه أبو حيان في حديث السقيفة]

وروى القاضي أبو حامد أحمد بن بشير المروزي الماسري فيما حكاه عنه أبو حيان التوحيدى ، قال أبو حيان : سمى عند القاضي أبي حامد ليلة ابتداد بدار ابن جیشان ، في شارع الماذيان ، فتصرف الحديث بنا كل متصرف ، وكان والله سبحانه ^(١) مزيلاً عما ^(٢) مزز ^(٣) الرواية ، لطيف الذراية [٤] في كل جنو متفئس ، وفي كل نار مقتبس ، فجري حديث السقيفة ، وتنازع القوم الخلافة ، فركب كل منا فناً ، وقال قولاً ، وعرض بشي . وزعم إلى مذهب ، فقال أبو حامد : هل فيكم من يحفظ رسالة أبي بكر إلى علي ، وحواب علي له وسبايته إياه عقيب تلك الرسالة ؟ فقالت الجماعة : لا والله ، فقال : هي والله من دُرر الحقائق المصونة ^(٤) ، ومخبآت الصناديق في الخزائن المحوطة ، ومدد حفظها ماروتها إلى آلهي ^(٥) في وزارته ، فكتبها عني في خلوة بيده ، وقال : لأعرف في الأرض رسالة

(١) اللس : الخليل للتصرف .

(٢) يقال : رحل مزيل غلط : أي فائق رائق .

(٣) ل صبح الأعشى : « غزير » .

(٤) صبح الأعشى : « من بنات الحقائق » . والحقائق : جمع حق ، بالضم ؛ وهو الوفاء .

(٥) صبح الأعشى : « لأبي محمد للهي » .

أعقل منها ، ولا أئين ، وإنما تعدل على عيام وحُكم ، وفصاحة وقهاة ، في دين ودهاء
وبعد غور ، وشدة غوص .

فقال له واحد من القوم : أيها القاضي ، فوأنمت لثنة علينا برؤسها سمعناها ووربنا
عنك ؛ فمنعنا أوغى لها من اللهاى ؛ وأرجب ذماماً عليك !

فقال ^(١) : هذه الرسالة رولها عيسى بن داب ، عن صالح بن كيسان ، عن هشام بن
عروة ، عن أبيه عروة بن الزبير ، عن أبي عبيدة بن الجراح ^(٢) .

قال أبو عبيدة : لما استقامت الخلافة لأبي بكر بين المهاجرين والأنصار ، ولحظ سيرة
الوفاء والهيبة - بعد هجرة ^(٣) كاذب الشيطان بها بسرة فدمع الله شرها ، وأدغم عسرهما .
فركد كيدها ، وتبشر حيرها ، وقصم ظم العناق والنسق بين أهلها - بلغ أبا بكر عن علي
عليه السلام تلكم وثماس ، وتهمهم ^(٤) وتكاسمهم ^(٥) ، أن يتأدى الحال وتدوله المودة ،
وتتفرج ^(٦) ذات البين ، وبصير ذلك حربة الجاهل منور ، أو مقل ذي دهاء ،
أو صاحب سلامة ضعيف القلب ، حوار العنان ؛ دهالي في حلوة خضرته ، وعنده عمر
وحده - وكان عمر قبساً له وطيراً معه ، يستصم مناره ، ويستل من لسانه - فقال لي :

يا أبا عبيدة ، ما أئتمن ناصبتك ، وأبين الخيرة بين عارضيك ! لقد كنت مع رسول
الله صلى الله عليه وسلم بالمكان المحوط ، والمحل للمحوط ، وقد قال فيك في يوم مشهود :
« أبو عبيدة أمين هذه الأمة » ، وطالما أعز الله الإسلام بك ، وأصلح قلبه على يديك ،
ولم تزل للذين ناصروا والمؤمنين رَوْحاً ، ولأهلك ركننا ، وإلحوائك مردنا ! قد أوردتك

(١-١) في صبح الأعشى : « حدثنا الخزامي بمكة ، عن أبي مبصرة ، قال : حدثنا محمد بن أبي طليح ،
عن عيسى بن داب للنجاح ، قال : سمعت مولاي أبا عبيد يقول : » .

(٢) صبح الأعشى : « بعد هجرة » .

(٣) همم الرجل : تكلم كلاماً خفياً ، والتماس : مصدر فاس ؛ أى رغب في الشيء . وفي نهاية الأرب
وصبح الأعشى : « تهم » .

(٤) نهاية الأرب : « وخرق » .

لأمر له ما بعده ؛ خطرُه ^(١) مخوف ، وصلاحه معروف ، ولئن لم يذمَّ لجرَّحه بـ «بارك» ^(٢)
ورَفَّقَكَ ، ولم تُجَبَّ حَيَّته ^(٣) بِرُفَيْتِكَ ، لقد وقع اليأس ، وأعْضَلَ اليأس ، واحتجج بمدك إلى
ما هو أمرٌ من ذلك وأَعْلَقَ ، وأعسر منه وأغلق ، والله أسأل تمامه بك ، ونظامه على
يدك ^(٤) . فَنَأَتْ ^(٥) له يا أبا عبيدة ، وتلطَّفَ فيه ، وانصَحَ لله ولرسوله ؛ ولهذا المصَابَةِ ،
غير آلٍ جهداً ، ولا قالٍ جدّاً ؛ والله كالكلك وناصرك ، وهاديك ومبصرك .

امض إلى عليّ ، واخفض جناحك له ، واعضض من صوتك عنده ؛ واعلم أنه سُلالة
أبي طالب ؛ ومكانه بمن فقدناه بالأمس مكانه ، وقل له : البحر مفرقة ، والبر مفرقة ،
والجو أكثف ، والليل أغلف ، والسما جواء ، والأرض صلواء ، والسمود متمذّر ، والهبوط
متمسّر ، والحق عَطُوف رءوف ، والباطل قُصُوف عَصُوف ؛ والمُعْجَبُ مَقْدَحَةُ الشَّرِّ ،
والضُّعْنُ رائد البوار ، والتعريض شِجَار ^(٦) القَتَّةِ ، والقِيعَةُ مفتاح الداوة ، والشيطان
متسكى على شِماله ، باسط لحيته ، تافج ^(٧) حِصْنِهِ لأَهْلِهِ : ينظر الثَّغَاتِ والفرقة ، ويدب
بين الأمة بالشَّعْناء والداوة ، ^(٨) عناداً لله ولرسوله ولدينه ، يوسوس بالقُجُور ^(٩) ؛ ويبدل
بالفرور ، ويميّ أهل الشرور ، ويوحى إلى أوليائه بالباطل ، دأباً له منذ كان على عهدنا

(١) د : « خطر مخوف » . صبح الأعمى : « لأمر خطر مخوف » .

(٢) المسار : الليل الذي يسير به الجرح . وفي صبح الأعمى : « يسارك » .

(٣) الحب : القطع عامة .

(٤) صبح الأعمى : « يدك » .

(٥) نأت : تهيأ للأمر برفق وحس حيلة و ر ب : « نأت » .

(٦) الشجار : مراكب أصغر من المودج ، صريره مثلاً .

(٧) في القسان : « كل ما ارتفع فقد تعج وانحسج وسفع » ، وقبحه هو وقبعت الفم : « تفتج » ،

أي رفته وعظمته وفي حديث علي : « ناخا حُصْنَهُ » كنى عن التماظم والتكبر والخيلاء . والحضن :
الجنب ؛ وعما حضنان .

(٨) (A - A) صبح الأعمى : « عناداً لله عز وجل أولاً ، ولأدم ثانياً ، ولنبيهم صلى الله عليه وسلم ولدينه

ثالثاً ؛ يوسوس بالقُجُور » .

آدم ، وحادة منه منذ أهانه الله في سالف الذعر ؛ لا يُنَجِّي^(١) منه إلا بعض الناجذ على الحق ، وغض الطرف عن الباطل ، ووطء هامة عدو الله والذين بالأشد فالأشد ، والأجد فالأجد ، وإسلام النفس لله فيما حاز رضاه ، وجنب سخطه .

ولا بد من قول ينفع إذ قد أصرت للسكوت وحيف عبه ، ولقد أرسدك من أفاء ضالتك ، وصافك من أحيا مودته لك بمثالك ، وأراد الخير بك من أثر البقيا معك .

ما هذا الذي نسل لك نفسك ، وبدوى^(٢) به قلبك ، ويلقوى عليه رأبك ، ويعتاوص^(٣) دونه طرفك ، ويستشري به صفتك ، ويتراذمه نفسك ، وتكثر لأجله صمداؤك ، ولا يفيس به لسانك أ أمجة بعد إفصاح ؛ ألبسا بعد إفصاح أديبا غير دين الله ؛ أخلقنا غير خلق القرآن ؛ أهدنا غير هدى محمد أ أمثل يمشى له الضراء ويدب له الخمر^(٤) أ أم مثلك يعمى عليه الفضاء ، ويكشف في عينه القمر أ ماهذه القنعة بالثنان^(٥) ، والوعوغة بالأسان ؛ أ لك لجد عارف^(٦) يستجابتنا لله ورسوله ، وخروجنا من أوطاننا وأولادنا وأحبتنا ، هجرة إلى الله ونصرة لدينه ، في زمان أنت منه في كين الصبا وخذر العرارة غافل ، تشيب وترتب . لا نعى ما بشاد وبراد ، ولا نحصل ما يساق ويقاد ، سوى ما أنت جارٍ عليه من أخلاق الصبيان أمثالك ، وسعيا الفتيان أشكالك ، حتى بلغت إلى غايتك هذه التي إليها أجريت^(٧) ، وعندها خط رحلك ، غير محمول القدر

(١) صبح الأعشى : « لا منعى » .

(٢) دوى الصدر يسوى ؛ من باب علم : ضمن .

(٣) تماوص : عمى بصره من الأمر شيئا .

(٤) مثل يضرب للرجل يحتل صاحبه ويكرهه ، ويقال : ما وارك من أرض فهو الضراء ، وما وارك من شجر فهو الخمر .

(٥) يقال فلان لا يقطع له الثنان ، أى لا يحدع ولا يروح ، وأصله من تحريك الجلد اليابس فيعير ليضم .

(٦) صبح الأعشى : « لك واقه » .

(٧) صبح الأعشى : « التي إليها عند بك » .

ولا محمود الفضل ، ونحن في أثناء ذلك نعانى أحوالاً تزيل الرواسي ، ونحاسى أهوالاً
تُشيب النوامي ؛ خائضين غمارها ، راكبين تيرها ، تتعرج صلابها ، ونُشرج^(١) عيابها ،
ونُحكِم آسامها ، ونهزم أمراثها ، والعيون تَحْدَج^(٢) بالحسد ، والأنوف تمطس بالكبر ،
والصدور تستعير بالفيظ ، والأهناق تتناول بالقعر ، والأسنة^(٣) تشعد بالكر ، والأرض
تُميد بالخوف ، لا تنتظر عند المساء صباحا ، ولا عند الصباح مساء ، ولا تدفع في بحر أمر
إلا بعد أن نحسّو الموت دونه ، ولا نبلغ إلى شيء إلا بعد تَجَرُّع المذاب قبله ، ولا نقوم
مئاداً إلا بعد اليأس من الحياة عنده ، فإدين في كل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأب
والأم ، والخال والعَم ، واللّال والنشب ، والسبد^(٤) والمسد ، واليهة واليهة^(٥) ، بطيب أنفُس
وقرّة أُمِين ، ورُحْب أعطان ، وثبات عِرائِم ، وصحة عُقول ، وطلاقة أَوْجُه ، وذلاقة ألسن .
هذا إلى حبيبات أسرار ، ومكنونات أرحار ؛ كتبَ فيها غافلاً ، ولو لا سنك لم تكُ عن شيء .
منها ما كلا . كيف وفؤادك مشهور^(٦) وعودك معجوم ، وغيبك مهور ، والخير منك
كثير ؛ قالن قد بلغ الله بك ، وأرهس^(٧) الخبير لك ، [وجعل مرادك بين يديك]^(٨) ،
فاسمع ما أقول لك^(٩) ، واقبل ما يمودُ قبوله عليك^(١٠) ، ودع التعبس ، والتعبس^(١١)

(١) أشرج الحية : شد عراها . (٧) تحدج : تحدق .

(٣) صبح الأعشى : « والشفار » .

(٤) في اللسان : « السد الور ، وقيل : الشر ؛ والرمم يقول : « ماله سد ولا ليد » ، أى ماله ذو
ور ولا صوف متلد ؛ يكنى بها عن الإبل والعم ، وقيل : يكنى به عن المر والفضأ ... وقال الأعشى :
« ماله سد ولا ليد ، أى ماله قليل ولا كثير » .

(٥) في اللسان : « ما جاء بهة ولا بهة ؛ الهة من الفرج والاحتلال ، واله : أدنى بل من الخير ،
وحكامها كراخ جينا بالفتح . ويقال : ما أصاب مدء هة ولا بهة ، أى شجأ » .

(٦) مشهور ، أى ذكر متوقد .

(٧) أرهس الخير لك : هبأه ، وجهه غابا منك .

(٨) من صبح الأعشى .

(٩) في صبح الأعشى : « ومن علم أقول ما نسم » .

(١٠) في صبح الأعشى : « فارتقب رمايك ، وقس أردانك » .

(١١) نهاية الأرب : « التّعاس » .

لن لا يضلح^(١) لك إذا خطا ، ولا يتزحزح عنك إذا عطا ، فالأمر غضن ، وفي النفوس
مغن ، وأنت أديم هذه الأمة فلا تحلم^(٢) لجابا ، وسيفها المصنّب فلا تنب اعوجاجا ،
وماؤها العذب فلا تحل أجابا ، والله لقد سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا
لن هو ؟ فقال هو لن يرغب عنه ، لا لن يجاحش^(٣) عليه ، ولن يتضائل له لا لن يشمخ
إليه ، وهو لن يقال له : هو لك ، لا لن يقول : هو لي .

ولقد شاورني رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصبر ، فذكر فتيا ناس من فريش ، فقلت
له . أين أنت من علي ؟ فقال : إني لأكره لفاطمة متبعة شبابه^(٤) ، وحيدة منه . فقلت :
متى كنته بذلك ، ورعته عيمك ، حقت بهما البركة ، وأسبغت عليهما النعمة ؛ مع كلام
كثير خطبت به رغبته فيك ، وما كنت تعرف منك في ذلك حوجاء ولا لوجاء^(٥) ؛
ولكني قلت ما قلت ، وأنا أرى مكان غيرك ، وأجد راحة سواك ، وكنت لك إذ ذاك
خيبراً منك الآن لي . ولئن كان مرض بك رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر ،
تقدسني عن غيرك^(٦) ، وإن قال فيك ، فما سكت من سواك ، وإن احتلج في نفسك
شيء ، فسلم فالحكم مرضي ، والصواب مسوع ، والحق مطاع .

ولقد نقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ما عند الله^(٧) وهو عن هذه المصايفراض
وعليها حذب ، يسره ماسرها ، وبكيد ما كادها ، ويرضيه ما أرضاها ، ويسخطه

(١) الضلح : الاعوجاج ، وفي صبح الأعشى ونهاية الأرب : « يطلع » .

(٢) لا تحلم ، لا تفقد ، وأصله في الجهد .

(٣) يجاحش ، أي يدفع الناس عنه ليجنّ به نفسه .

(٤) مجة الشباب : أوله .

(٥) في اللسان : « الحوجاء : الحاجة ، وبقال : ما في صدي به حوجاء ولا لوجاء ، ولا شك ولا مريبة

بعض واحد » .

(٦) صبح الأعشى ونهاية الأرب : « لم يكن مرضاً من غيرك » .

(٧) صبح الأعشى : « إلى الله عز وجل » .

ما أسخطها . ألم تعلم^(١) أنه لم يدع أحداً من أصحابه وخلفائه ، وأقاربه وسُجَرَّائه^(٢) ؛
إلا أبانته بفضيلة ، وخصته بمزية ، وأمره بحالة ، لو أصفقت الأمة عليه لأجلها لكان عنده
إيمانها وكفالتها .

أنظن أنه عليه السلام ترك الأمة سُدى^(٣) بدأ^(٤) ، هبأ^(٥) مباهل^(٦) عباهل^(٧)
طلاحى^(٨) مفتونة بالباطل ، ملوبة^(٩) عن الحق ؛ لا ذائد ولا رائد ، ولا ضابط ولا خابط
ولا رابط ، ولا ساق ولا واثق ، ولا حادى ولا هادى ، كلاً والله ما اشتاق إلى ربه ، ولا سأل المصير
إلى رضوانه ، إلا بعد أن أقام العصى ، وأوضع الهدى ، وأمن الهالك^(١٠) ، وحنى للطارح
والبارك . وإلا بعد أن شدخ يافوع الشرك بإذن الله ، وشرم وحه التفاق لوجه الله ، وجدع
أف الفتنه فى دين الله ، وتغل فى عين الشيطان سون الله ؛ وصدع بملء فيه وبيده
بأمر الله .

وبعد ؛ فهؤلاء المهاجرون والأنصار عندك ومعك فى بقعة جامعة ، ودار واحدة ، إن
استقادوا لك^(١١) وأشاروا بك ، فأنا واضع يدي فى يدك ، وصائر إلى رأيهم فيك ؛ وإن
تكن الأخرى ، فادخل فى صالح ما دخل فيه المسلمون ، وكن المون على مصالحهم ، والقائح
لمفائيقهم ، والمرشد لضالهم ، والراصد لغايبهم ؛ فقد أمر الله بالتعاون على البر ، وأهاب إلى
التناصر على الحق . ودعا قصى هذه الحياة لنبيا يصدر برثة من الفل ، ونلقى الله بقلوب
حليمة من الصفن .

(١) صبح الأعشى : « أما تعلم » .

(٢) السجاء : جمع سجير ، وهو الصديق

(٣) سدى : مهملون .

(٤) بدأ : مفرقون ، وعدا : متباعدون

(٥) هبأ : مباهل : مهملون أيضا .

(٦) الطلاحى : الإبل التى تشكو بطناً من أكل الصلح ؛ أراد بها هنا القوم الذين لا راعى لهم بصدف
عما يضرهم .

(٧) صبح الأعشى : « مبهونة » .

(٨) صبح الأعشى : « وأمن الهالك » .

(٩) صبح الأعشى : « إن استقالوني بك ، وأشاروا عدى بك » .

وإنما الناس ^(١) ثمانية ^(٢) فارق بهم ، واحن عليهم ، وإن لهم ، ولا تسول لك نفسك فرقتهم ، واحتلاف كلمهم ؛ واترك باجم الشر حصيلا ، وطائر الحق واقعا ، وباب الفتنة مغلقا ، لا قال ولا قيل ، ولا لوم ولا تعنيف ، ولا عتاب ولا تنزيه ، والله على ما أقول وكيل ؛ وبما نحن عليه بصير .

قال أبو عبيدة : فلما تهيات للهوض ، قال لي عمر : كن على الباب هنيئة فلي معك ذرو ^(٣) من الكلام . فوخت وما أدري ما كان بعدي ، إلا أنه لحقني روحه بندي تهلا ، وقال لي : قل لمل : الرقاد محلة ، والحجاج ملحة ، والهوى مقحمة ، ومامتة أحد إلا مقام معلوم ، وحق مشاع أو مقسوم ، وبناء ظاهر أو مكتوم ؛ وإن أكنيس الكينسي من منع الشارد تألغا ، وقارب البعيد تعلقا ، وورن كل أمر بميزانه ، ولم يحمل حبره كيميانه ، ولا قاس فتره بشره ؛ دينيا كان أو دنيا ، وضللا كان أو هدى ، ولا حير في علم مستعمل ^(٤) في جهل ، ولا في معرفة مشوبة بنكر .

ولنا كحلدة رُفِعَ الجيسر بين المعان وبين الذنوب ^(٥)

وكل حال متار بصلي ؛ وكل سيل قابلي قراره بحري . وما كان سكوت هذه المصابة إلى هذه العاية لعي وحصر ، ولا كلامها اليوم لفرق أو حذر ، فقد جدد الله بمحمد عليه السلام أمة كل متكبر ، وقسم به ظهر كل جبار ، وصل لسان كل كذوب ؛ فإذا بعد الحق إلا الضلال ؛ ماهذه الخنزوانة ^(٦) التي في فراش رأسك ؟ وما هذا الشعا المعترض في مدارج أنفاسك ، وما هذه الوحرة ^(٧) التي أكلت شر أسيفك ^(٨) ، والقداة التي أشتت باظرك ؟ وما هذا الذخس ^(٩)

(١) صبح الأعشى : « وبعد فإنما الناس » .

(٢) الثمانية : واحد الثام ، بيت صغير ، يصوب به اللؤلؤ لما هو عين .

(٣) ذرو من الكلام : طرف منه ، وفي صبح الأعشى « دور » تحريف .

(٤) صبح الأعشى ونهاية الأرم : « مستعمل » .

(٥) الرفع : أصول الصغدين من باطن .

(٦) الخنزوانة : الكبر .

(٧) الوحرة : العداوة ؛ وأصلها دوية يشبه بها .

(٨) الشر أسيف في الأصل : جمع شرسوف ، وهو عضروف مطلق بكل صلع ، مثل عضروف الكنف .

(٩) الذخس : التدسيس في الأمر .

والدس اللدان بدلان على ضيق الباع ، وخور الطباع ! وما هذا الذي لبيست بسببه
جلد النير ، واشتملت عليه بالشعناء والنكر الشد ما استصيت لها ، وسريت سرى ابن نقد^(١)
إليها ؛ إن العوان لا تعلم^(٢) الخمرة . ما أحوج الصرعا إلى قالية ، وما أقر الصلحاء إلى حالية ،
واقدر قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم والأمر معبد^(٣) محبس^(٤) ، ليس لأحد فيه ملس ،
لم يسر فيك قولا ، ولم يستبرل لك قرآنا ، ولم يحزم في شمالك حكما ؛ لسنا في كسروية كسرى ،
ولا فيصرية قيصر ؛ [تأمل إحوان فارس وأبناء الأصفر ، قد جعلهم الله جزرا السيوفنا ،
ودريئة لرماحنا ، ومرمى لطماننا] بل^(٥) . نحن في نور بهوة ، وضياء رسالة ، وثمرة حكمة
وآثر رحمة ؛ وعنوان نعمة ، وظل عصمة ، بين أمة مهديّة بالحق والصدق ، مأمونة على الرتق
والفتق ؛ لها من الله تعالى قلب آني ، وحامد قوي ، وبد ناصرة ؛ وعين ناظرة .

أتظن خلفا أن أبا بكر وثب على هذا الأمر مفتتا على الأمة ؛ خادعها ، ومتسلطا عليها ؛
أترأ امتناع أحلامها^(٥) ، وأزاع أيسارها ، وحل عقودها ، وأحال عقولها ، واستل من صدور
حميتها ، وانكث رشاهها ، وانتضب ماءها ، وأضلها عن هداها ، وساقها إلى رداها ، وجعل
نهارها ليلا ، وورسها كيلا ، ويقتظها رقادا ، وصلاحها فسادا ؛ إن كان هكذا ، إن سحره
لمبين ، وإن كيده لمتين . كلا والله ، بأي خيل ورجل ، وبأي سنان ونصل ، وبأي مئة وقوة ،
وبأي مال وعدة ؛ وبأي أيدٍ وعدة وبأي عشيرة وأسرة ، وبأي قدرة ومكنة ، وبأي تدرع
وبسطة ؛ لقد أصبح عاوسمته منبع الرقبة ، رفيع العتبة . لا والله لكن سلا عنها فوطت نحوه ،
وتطامن لها فالتفت به ، ومال عنها ، فالت إليه ، واشماز^(٦) دونها فاشتملت عليه ؛ حبوة حباء الله
بها ، وغاية بلفه الله إليها ، ونعمة سر به جملها ، وبد لله أوجب عليه شكرها ، وأمة نظر الله به

(١) ابن نقد : القند

(٢) إن العوان لا تعلم الخمرة ، مثل ، والعوان : المرأة التي أسنت و التهرم .

(٣) للمد : للذل ؛ ومثله المحبس .

(٤) تسكة من صبح الأعشى .

(٥) امتنع أحلامها : اجتنبها ؛ يريد أمار عقودها نحوه . (٦) اشماز : اتجسس .

لها^(١) . وطالما خلقت فوقه في أيام النبي صلى الله عليه وسلم وهو لا يلتفت لثقتها ، ولا يرتعد وقتها ؛ والله أعلم بخلقه ، وأرأف لعباده ، يختار ما كان لهم لحيرة . وإليك بحيث لا يحمل موضعك من بيت النبوة ، ومعدن الرسالة ، وكهف الحكمة ؛ ولا يحدد حقلك فيما آتاك ربك من العلم ، ومنعك من المنه في الدين ؛ هذا إلى مرايا خصصت بها ، وفصائل اشتملت عليها ؛ ولكن لك^(٢) من يراحمك بمنكب أضخم من منكبك ، وقربى أسمى من قرماك ، وسنن أعل من سننك ، وشبهة أروع من شبهتك ،^(٣) وسيادة معروفة في الإسلام والجاهلية ،^(٤) ومواقف ليس لك فيها جمل ولا ناقة ، ولا تذكر فيها في مقدمة ولا سافة ، ولا تضرب فيها بذراع ولا إصبع ، ولا تمد^(٥) منها يهازل ولا هع^(٦) .

إن أبا بكر كان حبة قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلاقة^(٧) قومه ، وعينية سرته ومثوى حزنه ، وراحة باله ، ومرمى طرق^(٨) شهرته معنية عن الدلالة عليه^(٩) . ولعمري إنك لأقرب منه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة ، وإنك أقرب منك قرابة ، والقرابة لحم ودم ، والقرابة روح ونفس ، وهذا فرق يعرفه المؤمنون ، ولذلك صاروا إليه أجمعون .

ومهما شككت فلا نشك في أن بدء الله مع الجماعة ، ورضوانه لأهل الطاعة ، فادخل فيها هو خير لك اليوم وأنفع غدا ، وأيقظ من فيك ما هو متعلق^(١٠) بملكائك ، وانفت

(١) صبح الأعشى : « إليها » .

(٢) في الأصول : « كل » ، وأثبت ما في صبح الأعشى .

(٣-٤) صبح الأعشى : « وسيادة لها أصل في إمامية ودرع في الإسلام » .

(٤) صبح الأعشى : « ولا تخرج منها » .

(٥) البازل من الإبل : ما دخل في الناحية والمخ : المبر ينتج في الصيف ؛ يريد : ليس لك فيها شيء .

(٦) صبح الأعشى : « علاقة نفسه » .

(٧) يندعق صبح الأعشى : « وذلك كله عصم الصادر والوارد من المهاجرين والأنصار » .

(٨) صبح الأعشى : « الدليل » .

(٩) صبح الأعشى : « يعلق » .

سَخِيمة صدرك ، فإن يكن في الأمد طول ، وفي الأجل فسعة ، فسأكله مريئاً أو غير مريئاً ، وستشربه هنيئاً أو غير هنيئاً ، حين لارد تقولك إلا من كان آيساً منك ، ولانا بع لك إلا من كان طامعاً فيك ، حين يعض إهابك ، ويقرى أديمك ، ويبرى على هذيك ، هناك تفرع السن من بدم ، وتشرب الماء بمزوجة بدم ، حين ^(١) تأسى على ماضى من همرك ، وانقضى وانقض من دارج قومك ؛ وتود أن تسقيت بالكأس التي سقيتها غيرك ، ورُدِدْتَ إلى الحال التي كنت تكرهها في أنيك ، والله فيها وفيك أمر هو نالعه ، وعاقبة هو للرجو لسرأتها وضراتها ، وهو الولي الحميد المفور الودود .

قال أبو عبيدة : فشيت إلى على متبطينا ، كأنما أخطو على أم رأسى فرقاً من الفتنة ، وإشعافاً على الأمة ، وحزناً من العرة ؛ حتى وصلت إليه في خلاه فأبشنته بئى كلة ، وبرئت إليه منه ، ودعته له . فلما سمعها ووعاها ، وسررت في أوصاله حياها قال : حلت معاولة ، وولت محرولة ^(٢) ، ثم قال :

إحْدَى لِيَا لَيْكِ فَيَهِي هِي لَا تَنْصِي اللَّيْلَةَ بِالتَّمْرِيسِ ^(٣)

يا أبا عبيدة ، أهذا كلة في أنفس القوم يستنبطونه ^(٤) ويصططنون عليه اقلقت : لأجواب على ، إنما جئتُك قاضياً حق الدين ، ورائعاً فذق الإسلام ^(٥) ، وساداً ثلثة الأمة ؟ يعلم الله ذلك من جُلجلان ^(٦) قلبى ، وقرارة خفى .

(١) صبح الأعشى : « حيكذ » .

(٢) المعاولة : من الاعلواط ؛ وهو ركوب الرأس ، والنضم على الأمور من غير دوبة ، والمحرولة : السريعة .

(٣) في اللسان ٨ : ١٣٩ : « الهيس : الير ؛ أى صرب كان ، وهاس يهيس هيا : سار أى سير كان ؛ حكاه أبو عبيدة » ، وروى البيت

(٤) صبح الأعشى : « ويصون به » .

(٥) صبح الأعشى : « الدين » .

(٦) الجُلجلان : حنة القلب .

قال : ما كان قمودى فى كسر هذا البيت قصداً بخلاف ، ولا إنكاراً لمعروف ، ولا زرابية على مسلم ، بل لما وقَّذَنِي به رسول الله صلى الله عليه وسلم من فراقه ، وأودعنى من الحزن لفقدته ، فإنى لم أشهد بعده مشهداً إلا جدد على حزناً ، وذكرنى شجناً ؛ وإن للشوق إلى اللحاق به كافٍ من الطمع فى غيره ، وقد عكفت على عهد الله أنظر فيه ، وأجمع ما تفرق منه ؛ رجاء ثواب معدة لمن أحلص لله عمله ، وسلم لعله ومشيئته أمره ؛ على أنى أعلم أن المتظاهر على واقع ، ولى عن الحق الذى سبق إلى دافع ، وإدقاد أفيم الوادى ، وحشد النادى على ؛ فلا مرجحاً عما ساء أحداً من المسلمين ؛ وفى النفس كلام لولا سابق قول ، وسالف عهد ، لشفيت غيظى بمنصرى ويتصبرى ، وخضت لجلته بأخصى ومفرقى ، ولكنى ملجئ إلى أن ألقى الله تعالى ، عسى أن ينسب ما زل بى ، وأنا غادٍ إن شاء الله إلى جماعتكم ، ومبايع لصاحبكم ؛ وصابر على جاسمى وسركم ، ليقضى الله أمراً كان مفعولاً ، وكان الله على كل شيء شهيداً .

قال أبو عبيدة : فددت إلى أبى بكر وعمر ، فقصصت القول على غره ، ولم أترك شيئاً من طوره ومُره ، ذكرت ^(١) عدوة إلى السعد ؛ فما كان صباح يومئذ ^(٢) واقى على نفرق الجماعة إلى أبى بكر وبابه ^(٣) ، وقال حيرا ، ووصف جيلاً ، وجلس رُميداً ^(٤) ، واستأذن للقيام ونهص ، فتبعه عمر إكراماً له ، وإجلالاً لموضعه ، واستبابطاً ^(٥) لما فى نفسه ، وقام أبو بكر إليه فأخذ بيده ، وقال : إن مصابة أنت منها يا أبا الحسن لمعصومة ، وإن أمة أنت فيها لمرحومة ، ولقد أصبحت عزيزاً علينا ، كريماً لدينا ، نخاف الله إن سخطت ، ونرجوه إذا رحيت ، ولولا أنى شددت لما أجبت إلى مادعيت إليه ، ولكنى خفت

(١) صبح الأعشى ، : « وبكرت » .

(٢-٢) صبح الأعشى : « وإذا على محترق الجماعة إلى أبى بكر رضى الله عنه ، فبابه » .

(٣) صبح الأعشى : « زمينا » ، أى حلياً وقورا .

(٤) صبح الأعشى : « متأثراً لما عنده » .

الفرقة ، واستشار الأنصار بالأمر على فريش ، وأعجلت من حضورك ومشاورتك ، ولو كنت حاضراً لبايتك ولم أعدل بك ، وقد حط الله عن ظهرك ما أثقل كاهلي به ، وما أسعد^(١) من يظفر الله إليه بالكفاية ! وإنا إليك محتاجون ، وبفضلك عالمون ، وإني رأيك وهديك في جميع الأحوال راغبون ، وعلى حمايتك وحيظتك معولون . ثم انصرف وتركه مع عمر .

قالت علي إلى عمر فقال : يا أبا حفص ، والله ما قصدت من صاحبك جزءاً على ماصار إليه ، ولا أتبعه خائفاً منه ، ولا أقول ما أقول به^(٢) ، وإني لأعرف مسمى طريقي ومخطئي^(٣) قديمي ، ومنزع قومي ، وموقع سهبي ؛ ولكنني تخلفت إغذاراً إلى الله ، وإني من يعلم الأمر الذي جعله لي رسول الله ؛ وأنيبت فبايت ، حفظاً للدين ، وخوفاً من انتشار أمر الله .

فقال له عمر : يا أبا الحسن ، كُفِّتَ من عربيتك ، ونهيت^(٤) من شريكك ، ودع العصا بلعائتها ، والفلو برشائها ، فإننا من خلفها وورثها . إن قدحنا أوريثنا ، وإن متحننا أروينا ، وإن قرحنا أدينا ، وقد سمعت أمثالك التي ألزت بها صادرة عن صدر دؤب ، وقلب جوي . زعمت أنك قصدت في كسر بيتك لِمَا وَقَدَّكَ به فراق رسول الله . أفراق رسول الله صلى الله عليه ، وَقَدَّكَ وحدك ولم يقُدْ سواك إلا مصابه لأمر وأعظم من ذلك ، وإني من حق مصابه ألا تصدع شمل الجماعة بكلمة لاعصام لها ، فإنك لترى الأعراب حول المدينة لو تداعَتْ علينا في صبح يوم لم تَدْتَقِ في مساء . وزعمت أن الشوق إلى اللحاق به كافٍ عن الطمع في غيره ، فمن الشوق إليه نصرة دينه ، وموازنة المسلمين عليه ، ومعاونتهم فيه .

(١) مكدا في د ، و ، ب : « أسد » .

(٢) صبح الأعشى : « لغة » .

(٣) صبح الأعشى : « انتهى طريق وعط قدمي » .

(٤) صبح الأعشى : « واستوقف من سربك » .

وزعمت أنك مكبٌ على عهد الله تجمع ما انفرق منه ، فن المكوف على عهده
النصيحة لعباده ، والرأفة على خلقه ، وأن تبذل من نفسك ما يصالحون به ويجمعون عليه .
وزعمت أن الظاهر عليك واقع ؛ أي تظاهر وقع عليك ؛ وأي حق استؤثر به دونك ؛
لقد علمت ما قالت الأنصار أس سرّاً وجهرّاً ، وما تقلبت عليه ظهراً وبطناً ، فهل
ذكرتك أو أشارت بك ، أو طلبت رضاها من عندك ؛ وهؤلاء المهاجرون ؛ من الذي
قال منهم إنك صاحب هذا الأمر ، أو أوما إليك ، أو همهم بك في نفسه ؛ أنظن أن الناس
ضئوا من أجلك ، أو طردوا كطردوا رعداً فيك ، أو يأمروا الله تعالى بهوام بعضاً لك ؛
(١) ولقد جاء قوم من الأنصار ، فقالوا : إن علياً ينتظر الإمامة ، ويرى أنه أولى بها من
أبي بكر ، فأنكرت عليهم ورددت القول في محوهم ، حتى قالوا : إنه ينتظر الوحي
ويجوكف (٢) مناجاة الملك ؛ قللت : ذلك أسأله الله سد محمد عليه السلام .

ومن أعجب شألك قولك : « لولا سابق قول ليشق غيظي بمصرى وبمصرى » أو هل
ترك الدين لأحد أن يشقى غيظه بيده أو لسانه ؛ تلك جاهلية استأصل الله شأقتها ،
واقطع جرتومنها ، ونور ليلها ، وغور سيلها ، وأبدل منها الروح والريحان ؛ والمهدي
والبرهان ؛

وزعمت أنك ملجم ، قلمري إن من اتقى الله ، وآثر رضاه ، وطلب ماعنده ، أسك
لسانه ، وأطبق فاه ، وغلظ عقله ودببه على هواه .

وأما قولك : « إني لأعرف منزع قوسي » ، فإذا عرفت منزع قوسك عرف غيرك
مضرب سيفه ، ومطعن رمح . وأما ما ترجمه من الأمر الذي جعله رسول الله صلى الله عليه
وسلم لك ، فتخلفت إصذاً إلى الله ، وإلى العارفة به من المسلمين ، فلو عرفه المسلمون

(١-١) صبح الأعشى : « لقد جاءني عقيل بن ريد المخرجي في غمر من أسطاه ، ومعه شرحيل بن
يغوث المخرجي ، وقالوا : إن علياً ينتظر الإمامة » . (٢) يجوكف : ينتظر .

لجئوا إليه ، وأصفقوا عليه ، وما كان الله ليجمعهم على العصى ، ولا ليضربهم بالصبا بعد الهدى ، ولو كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيك رأى ، وعليك عزم ، ثم بعثه الله ؛ فرأى اجتماع أمته على أنى بكر ، لما حقه آراءهم ، ولا ضل أحلامهم ، ولا أثر عليهم ، ولا أرضاك بسخطهم ، ولأمرك باتباعهم ، والدخول معهم فيما ارتضوه لدينهم . فقال على : مهلا أبا حفص أرشدك الله ! حفص عليك ، ما بذلت ما بذلت وأنا أريد منه حولا ، وإن أخسر الناس صفقة عند الله من استعطن النفاق ، واحتضن الشقاق ، وفي الله خلف من كل فائت ، وهو ض من كل ذاهب ، وسلوة من كل حادث ، وعليه التوكل في جميع الحوادث . ارجع أبا حفص إلى مجلسك نافع القلب ، ببرود العليل ، فصيح اللسان ، رحب الصدر ، متبهل الوجه ، فليس وراء ما سمته مني إلا ما يشد الأزر ، ويحبط الوزر ، ويضع الإضر ، ويجمع الألفة ، ويرفع الكلمة ، إن شاء الله .

فانصرف عمر إلى مجلسه .

قال أبو عبيدة : فلم أسمع ولم أر كلاما ولا محلا كان أصعب من ذلك الكلام والمجلس^(١) .



قلت : الذي يغلب على ظني أن هذه الرسائل والمحاورات والكلام كله مصنوع موضوع ، وأنه من كلام أبي حيان التوحيدى ، لأنه بكلامه ومذهبه في الخطابة والبلاغة أشبه ، وقد حفظنا كلام عمر ورسائله ، وكلام أبي بكر وخطبه ، فلم نجد ما يذهبنا هذا للذهب ، ولا يسلكنا هذا السبيل في كلامهما ، وهذا كلام عليه أثر القول يدليس بحقى ، وأين أبو بكر وعمر من البديع وصناعة المحدثين ! ومن تأمل كلام أبي حيان عرف أن

(١) الخبر في صحيح الأعمش ١ : ٢٣٧ - ٢٤٧ ونهاية الأرب ٧ : ٢١٣ - ٢٢٩ ، ومحاضرة الأبرار ٢ : ١٠٢ - ١١٥ ، ونحوه إبراهيم الكيلاني مع رسالتين لأبي حيان في دمشق ١٩٥١ .

هذا الكلام من ذلك المدين خرج ؛ ويدل عليه أنه أسنده إلى القاضي أبي حامد
المرورودي^(١)؛ وهذه عاداته في كتاب " البصائر " بسند إلى القاضي أبي حامد كل ما يريد
أن يقوله هو من تلقاء نفسه ، إذا كان كارهاً لأن يسب إليه ، وإما ذكرناه نحن في هذا
الكتاب ، لأنه وإن كان عندنا موضوعاً منقولاً ، فإنه صورة ما جرت عليه حال القوم ،
فهم وإن لم ينطقوا به بلسان الحال ، فقد نطقوا به بلسان الحال .

وما يوضح لك أنه مصنوع ، أن المتكلمين على اختلاف مقالاتهم من الممنزلة والشيعة
والأشعرية وأصحاب الحديث ، وكل من صنف في علم الكلام والإمامة لم يذكر أحدهم
كلمة واحدة من هذه الحكاية ، ولقد كان المرتضى رحمه الله يلتقط من كلام أمير المؤمنين
عليه السلام اللفظة الشاذة ، والكلمة المفردة الصادرة عنه عليه السلام ، في معرض التألم
والتفلم ، فيحتاج بها ، ويعتمد عليها ، نحو قوله « ما رأت مظلوماً مذ قُبِصَ رسول الله
حق يوم الناس هذا » .

وقوله : « لقد ظلمت حدّ الحمر والمدر » .

وقوله : « إن لنا حقاً إن سطره نأخذ ، وإن كمنه نركب أبحار الإبل ، وإن
طال الشرى » .

وقوله : « فصبرت وفي الخلق شجراً ، وفي العين قذى » .

وقوله : « اللهم إني أستمديك على قريش فإنهم ظلموني حق ، وغصبوني
إزني » .

وكان المرتضى إذا ظفر بكلمة من هذه ، فكأنما ظفر بملك الدنيا وبوديعها كفته
وتصانيفه ، فأين كان المرتضى عن هذا الحديث أو هلاذ كرى كتاب " الشافي في الإمامة " .

(١) هو أحمد بن عامر بن بشر بن حامد أبو حامد المرورودي ؛ أحد فقهاء الشافعية ؛ ترجم له ابن
خلطان ١ : ١٨ ، ١٩ ، توفي سنة ٣٩٢ .

كلام أمير المؤمنين عليه السلام هذا ، وكذلك من قبله من الإمامية كابن النعمان ، وبني نوبخت ، وبني بابويه وغيرهم ، وكذلك من جاء بعده متأخري متكلمي الشيعة وأصحاب الأخبار والحديث منهم إلى وقتنا هذا ! وأين كان أصحابنا عن كلام أبي بكر وعمره عليه السلام ! وهلا ذكره قاضي القضاة في " المنى " مع احتوائه على كل ما جرى بينهم ، حتى إنه يمكن أن يجمع منه تاريخ كبير مفرد في أخبار السقيفة ! وهلا ذكره من كان قبل قاضي القضاة من مشايخنا وأصحابنا ومن جاء بعده من متكلمينا ورجالنا ! وكذلك القول في متكلمي الأشعرية وأصحاب الحديث كان الباقلاني وغيره ، وكان ابن الباقلاني شديداً على الشيعة ، عظيم المصيبة قتل أمير المؤمنين عليه السلام ، فلو غفر بكلمة من كلام أبي بكر وعمر في هذا الحديث للآفة الكتب والتصانيف بها ، وجعلها هجيرة ودأبه .

والأمر فيما ذكرناه من وضع هذه القصة ظاهراً لمن عنده أدنى ذوق من علم البيان ، وسرقة كلام الرجال ، ولن عنده أدنى معرفة بسم الثبر ، وأقل أس بالتواريخ .



قوله عليه السلام : « مودع لا قال ولا مبعض ولا سم » ، أي لا ملول ، سميت من الشيء أسام سأمًا وسأمًا وسامة ، سمته إذا ملته ، ورجل سؤوم . ثم أكد عليه السلام هذا المعنى ، فقال : « إن انصرف فلاح من ملاة ، وإن أقمت فلاح من سوء ظن بما وعد الله الصابرين » ، أي ليست إقامتي قلى قبرك وجزعي عليك ، إنكاراً منى لفضيحة الصبر والتجلد والتعزى والتأسى ، وما وعد الله به الصابرين من الثواب ، بل أنا عالم بذلك ، ولكن يغلبني الطبع البشرى . وروى أن فاطمة بنت الحسين عليها السلام ضربت فسطاطاً على قبر بعلها الحسن

ابن الحسن عليه السلام سنة ، فلما انتفعت السنة قوتحت النسطاس راجعة إلى بيتها ،
فسمعت هاتفا يقول : هل يلعوا ما طلبوا ! فأجابه هاتف آخر ، بل يتسوا فانصرفوا .
وذكر أبو المباس محمد بن يزيد اللبّرد في كتابه " السكامل " أن عليه السلام
تمثل عند قبر فاطمة :

ذكرت أبا أرؤى فبت كأنني بردة الهوم الماضيات وكيل^(١)
لكل اجتماع من خليلين فرقة وكل الذي دون الفراق قلميل^٢
وإن افتقادي واحداً بعد واحد دليل على ألا يدوم خليل^٣
والناس يرونه :

• وإن افتقادي فاطميا بعد أحمد •



تم الجزء العاشر من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد
وبه الجزء الحادي عشر

(١) السكامل ٤ : ٣٠ (طبعة نهضة مصر) ، ولم يذكر هناك البيت الأول .

فهرس الخطب •

المنفعة

- ١٧٥ - ومن كلام له عليه السلام في معنى طلحة بن عبيد الله ٣
- ١٧٦ - من خطبة له عليه السلام في ذم المنافقين ١٠
- ١٧٧ - من خطبة له عليه السلام يحذرو فيها من متاعية الهوى ، ثم يبين منزلة القرآن ويطلب متابته ، ثم يحث على الطاعة وحفظ اللسان ١٦ - ٢٣
- ١٧٨ - من كلام له عليه السلام في معنى الحكيم ٥٥
- من خطبة له عليه السلام يمجّد فيها الله ثم يحذّر من الدنيا ، ويذكر أن زوال نعم من سوء القفال ٥٨ - ٦١
- ١٨ - من كلام له عليه السلام في تنزيه الله سبحانه ، وقد سأله ذهب البجلي : هل رأيت ربك ؟ ٦٤
- ١٨١ - من كلام له عليه السلام في ذم أصحابه ٦٧
- ١٨٢ - من كلام له عليه السلام في ذم قوم تزعموا الحق بالخوارج ٧٤
- ١٨٣ - من خطبة له في تنزيه الله وذكر آثار قدرته ، ثم التذكّر بما نزل بالسابقين ، ثم أظهر أسفه على إخوانه الذين قتلوا بصفين مع ذكر بعض أوصافهم ٧٦ - ١٠٦
- ١٨٤ - من خطبة له عليه السلام في تعظيم الله وتمجيده ، وذكر القرآن وما احتوى عليه ، ثم بيان منزلة الإنسان في الدنيا والتخويف من عذاب الآخرة ١١٣ - ١٢٣

• وهي الخطب الواردة في تهج البلاغة .

- ١٨٥ - من كلام له عليه السلام في ذم البرج بن مسهر الطائي ١٣٠
- ١٨٦ - من كلام له عليه السلام في وصف القطين ١٢٢ - ١٢٩
- ١٨٧ - من خطبة له عليه السلام يصف فيها المنافقين ١٦٣ ، ١٦٤
- ١٨٨ - من خطبة له عليه السلام في تحجيد الله وذكر بعض صفاته ١٧٠ ، ١٧١
- ١٨٩ - من خطبة له عليه السلام يخطب فيها الناس ويحث على العمل
الصالح قبل فوات الأوان ١٦٦
- ١٩٠ - من خطبة له عليه السلام يذكر فيها موافقه من الرسول صلى
الله عليه وسلم ١٧٩
- ١٩١ - من خطبة له عليه السلام ، فيها تحجيد الله وتنظيم له ، وحث
الناس على التقوى ، ووصف للإسلام وحال الناس قبل البعثة ١٨٨ - ١٩٩
- ١٩٢ - من كلام له عليه السلام يوصي أصحابه ٢٠٢ ، ٢٠٣
- ١٩٣ - من كلام له عليه السلام في شأن معاوية ٢١١
- ١٩٤ - من كلام له عليه السلام في الوصل ، وفيه استطراد قصة
صالح عليه السلام ٢٦١
- ١٩٥ - من كلام له عليه السلام عند دفن سيدة النساء فاطمة
عليها السلام ٢٦٥

فهرس الموضوعات •

صفحة	
١١ ، ١٠	فصل في ذكر بعض أقوال الثلاثة في علي عليه السلام
١٥ - ١٣	جدة من أخبار علي بالأموال النبوية
٢٤ - ٢٠	فصل في القرآن وذكر الآثار التي وردت بفصله
٢٧ - ٢٥	فصل في الآثار الواردة في شديد عذاب جهنم
٤٢ - ٣٧	فصل في العزة والاجتماع وما قيل فيها
٥٤ - ٤٢	فوائد العزة
٥٧ ، ٥٦	كتاب معاوية إلى عمرو بن العاص وهو على مصر
٧٧ ، ٧٦	توف للهكالي
٧٩ - ٧٧	نسب جملة بن حميرة
٩٤ ، ٩٣	نسب العاقلة
٩٤ •	نسب عاد وحمود
- ٩٤	نسب القراصة
٩٥ ، ٩٤	نسب أصحاب الرس
١٠٧ - ١٠٢	عمار بن ياسر ونهذ من أخباره
١٠٨ ، ١٠٧	ذكر أبي الهيثم بن النبتان وطرف من أخباره
١٠٩ ، ١٠٨	ترجمة ذي الشهادتين خزعة بن ثابت

١١١	ذكر سعد بن عبادة ونسبه
١١٢	ذكر أبي أيوب الأنصاري ونسبه
١٢١	بذل وأكاديل في الثغرى
١٢٦	طرف وأخبار
١٢٧	خطبة لأبي الشخفاء المفلاني
١٢٨	رأى المؤلف في كتاب نهج البلاغة
١٣٦	فصل في فضل الصمت والاقتصاد في النطق
١٤١ - ١٣٨	ذكر الآثار الواردة في آفات اللسان
١٤٧	ذكر الخوف من الله وما ورد فيه من الآثار
١٦١	ذكر بعض أحوال المارفين
١٨٣ - ١٨٦	ذكر خبر موت الرسول عليه السلام
٢٠٥ - ٢٠٨	فصل في ذكر الآثار الواردة في الصلاة وفصلها
٢٠٨ - ٢١٠	ذكر الآثار الواردة في فضل الزكاة والتصدق
٢١٢	سياسة علي وجبريها على سياسة الرسول عليه السلام
٢٢٣	كلام أبي جعفر الحسن في الأسباب التي أرجحت محبة الناس لعل
٢٢٣ - ٢٢٧	عليه السلام
٢٢٧ - ٢٣١	سياسة علي وإيراد كلام الجاحظ في ذلك
٢٣٣ - ٢٦٠	ذكر أقوال من طعن في سياسة علي والرد عليها
٢٦٢ - ٢٦٤	قصة صالح وعمود
٢٧١ - ٢٨٨	ما رواه أبو حمزة التوحيدي في قصة السقيفة





(١٧٠)

الأبطل :

ومن خطبة له عليه السلام عند مسير أصحاب الجمل إلى البصرة :

إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ رَسُولًا هَادِيًا بِكِتَابٍ مُطَافٍ ؛ وَأَمْرٍ قَائِمٍ ؛ لَا يَهْلِكُ عَنْهُ إِلَّا هَالِكٌ .
وَأَنَّ الْمُبْتَذَلَاتِ الْمَشْبَهَاتِ هُنَّ لِلْهَلِكَاتِ ؛ إِلَّا مَا حَفِظَ اللَّهُ مِنْهَا . وَإِنَّ فِي سُلْطَانِ
اللَّهِ حِصْنَةً لِأَمْرِكُمْ ؛ فَاصْطَوْهُ طَاعَتَكُمْ عِبْرَةً مُؤَمَّةً وَلَا تُشْكِرُوهُ بِهَا .
وَاللَّهُ لَتَفْتِنَنَّ أَوْ لَيَقْنَنَّ اللَّهُ عَنْتَكُمْ سُلْطَانٌ ^(١) الْإِسْلَامِ ؛ ثُمَّ لَا يَنْقُلُهُ إِلَيْكُمْ
أَبَدًا ؛ حَتَّى يَأْرِزَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِكُمْ .
إِنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ تَمَالَثُوا عَلَى سَجْطَةِ إِمَارَتِي ؛ وَتَأَمَّرُوا مَالَمَ أَحَفَ عَلَى حَامِعِكُمْ ؛
فَابْتِهَمُوا بِإِنْ تَعَمُّوا عَلَى فَيَالَةِ هَذَا الرَّأْيِ ، أَنْقَطَعَ نِظَامُ السَّلَافِ ، وَإِنَّمَا طَلَبُوا هَذِهِ
الْأُمُورَ حَسَدًا لِمَنْ أَمَّا هَؤُلَاءِ اللَّهُ عَلَيْهِ ، أَرَادُوا رَدَّ الْأُمُورِ عَلَى أَدْبَارِهَا ، وَلَكُمْ عَلَيْنَا
الْعَمَلُ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَسُنَنِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَالْقِيَامُ بِحَقِّهِ
وَالنَّهْيُ لِسُنَّتِهِ .

الشرح :

وأمر قائم ، أى مستقيم ليس ببدى عوج . لا يهلك عنه إلا هالك ، تقديره : لا يهلك
مادلاً عنه إلا هالك ؛ وهذا كما تقول : لا يعلم هذا الفن إلا عالم ، أى مَنْ قد بلغ العاية

في العلم واستحق أن يوصف بذلك ويشار إليه فيه ، كذلك لا يهلك بعدوه عنه إلا من هو أعظم المالكين ، ومن يشار إليه بالهلاك ، وقد بلغ الغاية في الهلاك .

ثم قال : « إن المبتدعات للشبهات من الهلكات » ، للمبتدعات : ما أحدث ولم يكن على عهد الرسول . والشبهات : التي تشبه السنن وليست منها ، أي للشبهات بالسنن . وروى : « المشبهات » بالكسر ، أي للشبهات على الناس ، يقال : قد شبه عليه الأمر ؛ أي ليس عليه ، وروى : « المشتهات » أي المتبسات ، لا يعرف حقها من باطلها .

قال : « إلا من حفظ الله » ، أي من عصمه الله بالطواف يمتنع لأجلها عن الخطأ . ثم أمرهم بلزوم الطاعة ، واتباع السلطان ، وقال : « إن فيه عصمة لأمركم ؛ فأعطوه طاعتكم غير ملومة ، أي مخلصين ذوي طاعة عصمة لا يلام بأدائها ، أي لا ينسب إلى النفاق . ولا مستكره بها ، أي ليست من استكرهه ، بل يبدلون اختياراً وحباً ، وروى : « غير ملومة » أي معوجة ، من لويت العود .

ثم أقسم أنهم إن لم يفعلوا وإلا قل الله عنهم سلطان الإسلام - يعني الخلافة - ثم لا يعبده إليهم أبداً ، حتى يأمر الأمر إلى غيرهم ؛ أي حتى يتقبض وينضم ويجمع ؛ وفي الحديث : « إن الإسلام ليأمر إلى المدينة كما تأمر الحية إلى جحرها »^(١) .

فإن قلت : كيف قال : إنه لا يعبده إليهم أبداً ، وقد عاد إليهم بالخلافة العباسية ؟ قلت : لأن الشرط لم يقع ؛ وهو عدم الطاعة ، فإن أكثرهم أطاعوه طاعة غير ملومة ولا مستكره بها ، وإذا لم يحقق الشرط لم يحقق المشروط .

وقد أجاب قوم عن هذا ، فقالوا : حاطب للشبهة المطالبية ، فقال : إن لم تطوى الطاعة المحضة نفل الله الخلافة عن هذا البيت حتى يأرر وينضم إلى بيت آخر ؛ وهكذا وقع ؛ فإنها انضمت إلى بيت آخر من بني هاشم .

وأجاب قوم آخرون ، فقالوا : أراد بقوله : « أبدأ » للهامة ؛ كما تقول : احبس هذا المريم أبدأ ، والمراد بالقوم الذين يأرر الأمر إليهم بنو أمية ؛ كأنه قال : إن لم تفعلوا نفل الله الخلافة عنكم حتى يحملها في قوم آخرين ؛ وهم أعداؤكم من أهل الشام وبني أمية ، ولا يسببه إليكم إلى مدة طويلة ، وهكذا وقع .

وقد تماثلوا : قد اجتمعوا . وتساعدوا على سخطه إمارتي : على كراهيتها وبغضها . ثم وحد بالصبر عليهم عالم يحف من فرقة الجماعة ، وانتشار جبل الإسلام .

وفيلة الرأي : ضعفه ، وكذلك فيوك ؛ رد كل قول الرأي : أي ضعفه ، قال :

ي ربّ الجـواد فلا تـيـلوا ^{فـا} ^{أسم} فـنـمـذـر كـم لـقـيل ^(١)

أي اسم على رجل ضعيف الرأي والجمع أعيال ، ويقال أيضا : رجل قال ، قال :

رأيتك بأخيطل إذ جربنا ^{وجربت القراصة كنت قالاً} ^(٢)

قال : إن تموا على هذا الرأي للضعيف قطعوا نظام المسلمين وفرقوا جماعتهم .

ثم ذكر أن الحسد دعاء إلى ذلك ، وأفادها عليه : ردّها عليه ، فاء يفي : رجع . وفلان سريع الفتي ، من غضبه ، أي سريع الرجوع . وإنه لحسن الفتيّة بالكسر ؛ مثال « الفيمة » أي حسن الرجوع ؛ وهذا الكلام لا يشعر بأنه عليه السلام كان يعتقد أن الأمر له ، وأنه غلب عليه ثم رجع إليه ، ولكنه محمول على أنه من رسول الله صلى الله عليه وآله بمنزلة الجزء من الكل ، وأنهما من جوهر واحد ، فما كان الوالي قديما وهو رسول الله صلى الله

(١) اللسان ١٤ : ٥٠ . وسه إلى الكعب .

(٢) اللسان ١٤ : ٥٠ ، وسه إلى جرير .

عليه وآله ، ثم تخلل بين ولايته صلى الله عليه وآله وولاية أمير المؤمنين عليه السلام ولايات
غريبة ، ستمى ولايته فيها ورجوعا ، لأنها رجعت إلى الدوحة الهاشمية ؛ وبهذا يجب أن
يتأول قوله : « فأرادوا رد الأمور على أديبارها » أي أرادوا انتزاع الخلافة من بني
هاشم ، كما انتزعت أولا ، وإلزارها في بيوت بعيدة عن هذا البيت ، أسوة بما وقع
من قبل .

والشش : مصدر نش ، أي رفع ، ولا يجوز : « أشش » .



(١٧١)

الأصل

ومن كلام له عليه السلام كلم به بعض العرب ، وقد أرسله قوم من أهل البصرة ؛ لما قرب عليه السلام منها ، لم منه حقيقة حاله مع أصحاب الجبل نزول الشبهة من قوسهم ؛ فبين له عليه السلام من أمره معهم ما علم به أنه على الحق ، ثم قال له : بايع ، فقال : إني رسول قوم ، ولا أحدث حدثاً حتى أراجع إليهم . فقال عليه السلام :

أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ الَّذِينَ وَرَاءَكَ بِمَثُوكَ وَإِطْعَا ، تَبْتَدِي لَهُمْ مَسَاقِطَ النَّيْثِ ، فَرَجَعْتَ إِلَيْهِمْ وَأَحْبَرْتَهُمْ مِنَ السَّكَلِ وَالْمَاءِ ، فَعَالَفُوا إِلَى الْمَاطِشِ وَالْعَادِبِ مَا كُنْتَ صَانِعاً ؟ قَالَ : كُنْتُ تَارِكُهُمْ وَمُحَافِظُهُمْ إِلَى السَّكَلِ وَالْمَاءِ .

فقال عليه السلام : فَاْمُدُّ إِذَا بَدَكَ .

فقال الرجل : فَوَالله مَا اسْتَطَعْتُ أَنْ أَمْتِيعَ حُنْدَ قَهَامِ الْحَبَّةِ عَلَى فَبَاطِنَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَام .

والرجل يُعْرَفُ بِكَلْبَيْبِ الْجَرْمِيِّ .

البنرج

العرمي : منسوب إلى بني جرّم بن رَبَاف بن حُلوان بن عمران بن الحافـ ابن قُصاعة ، من حمير . وكان هذا الرجل بعثه قوم من أهل البصرة إليه عليه السلام ،

يستعمل حاله : أهو على حجة^(١) أم على شبهة ؟ فداراه عليه السلام ، وسمع لفظه ، علم صدقه وورعانه ؛ فكان بينهما ماقد شرحه عليه السلام .

ولا شيء ، اللفظ ولا أرفع ولا أوضح من المثال الذي ضرب به عليه السلام ، وهو حجة لارمة لا مدفع لها .

قوله : « ولا أحدث حدثا ، أى لا أقبل ما لم يأمرولى به ، إنما أمرت باستعلام حالك فقط ؛ فأما البايعة لك فإن أحدثتها كنت فاعلا ما لم أندب له .

وساقط النهي : الموضع الذي يسقط العيب فيها . والكلام : التبت إذا طال وأمكن أن يرعى ؛ وأول ما يظهر يسمى للرطب ، فإذا طال قايلا فهو اتخلا ، فإذا طال شيئا آخر فهو الكلام ، فإذا ييس فهو الخشيش .

والعاماش والمجادب : مواضع للمطش والجذب ، وهو المحل .

(١٧٢)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام لما عزم على لقاء القوم بصفين :

اللَّهُمَّ رَبَّ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ، وَالْجَوْءِ الْمَكْفُوفِ ؛ الَّذِي جَعَلْتَهُ مَنِيضًا لِّلَّيْلِ وَالنَّهَارِ ،
وَتَحَرَّى لِّلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ، وَتُخْتَلَمَا لِّلْجُجُومِ السَّيَّارَةِ ؛ وَجَعَلْتَ سُكَّانَهُ سَبْطًا مِنْ
مَلَائِكَتِكَ ، لَا يَسْأَلُونَ مِنْ عِبَادَتِكَ .

وَرَبُّ هَذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي جَعَلْتَهَا قَرَارًا لِلْأَنْبِيَاءِ ، وَدَرْجًا لِلْهَوَامِّ وَالْأَنْعَامِ ،
وَمَا لَا يَحْصَى بِمَا يَرَى وَمَا لَا يَرَى .

وَرَبُّ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي الَّتِي جَعَلْتَهَا لِلْأَرْضِ أَوْتَانًا ، وَلِلْحَلْقِ اعْتِمَادًا ، إِنْ أَظْهَرْتَنَا
فَلْيَعْدُوْنَا ، وَجَنَّبْنَا الْبَغْيَ ، وَسَدِّدْنَا الْقَعْنَ ، وَإِنْ أَظْهَرْتَهُمْ عَلَيْنَا فَارْزُقْنَا الشَّهَادَةَ ،
وَأَعِصِنَا مِنَ الْفِتْنَةِ .

أَيُّنَ الْمَاسِعِ لِلدَّمَارِ ، وَالْمَانِرِ عِنْدَ نُرُولِ الْخَفَائِقِ مِنْ أَهْلِ الْخِفَافِ ؟
الْعَارُ وَرَاءَكُمْ ، وَالْجَنَّةُ أَمَامَكُمْ !

الشرح :

السقف للرفوع : السماء . والجوء المكفوف : السماء أيضا ؛ كفته ، أى جمعه وضمه
بعضه إلى بعض ، ويمرّ في كلامه نحو هذا ، وأن السماء هواء جامد أو ماء جامد .
وجعلته منيضا ليل والنهار ، أى غيضة لها ؛ وهى فى الأصل الأجنة يجمع إليها الماء ،

ففتى غيرة وممضا ؛ ونبت فيها الشعر ، كأنه جبل الفلك كالقنصة ، والليل والنهار كالشعر النابت فيها .

ووجه المشاركة أن المبيض أو الحيضة يتولد منها الشعر ؛ وكذلك الليل والنهار يتولدان من حرّ مان الهلك .

ثم عاد فقال : « دججرتي للشمس والقمر » ، أي موضعاً جلياً بينهما .

ومختلفاً للجنوم السيارة ، أى موضعاً لاختلافها ، واللام مفتوحة .

ثم قال : « حملت سكرانه سيّطا من ملائكتك » أى قسمة ، قال تعالى : ﴿ أَتُنذِرَ عَشْرَةَ أَصْهُاطًا أَمْ لَا ﴾^(١).

لابسائون : لا يملأون . وقرار الأنام ، أى موضع استقرارهم وسكنوهم . ومذرحاً للهوام ، أى موضع ذرهم وسيرهم وهركائهم ، والهوام : الحشرات والخوف من الأحتاش .

ومالا يحصى ، أى لا يضبط بالإحصاء والمدّ ؛ مما تراه وتعرفه ومالا تراه ولا تعرفه
وقال بعض العلماء : إن أردت أن تعرف حقيقة قوله : « مما يرى ومالا يرى »
فأوقد نارا صميرة في فلاة في ليلة صيفيّة ، وانظر ما يجتمع عليها من الأنواع الغريبة المعجبية
الخلق ؛ التي لم تشاهدها أنت ولا غيرك قط .

قوله : «والخلق اعتمادا» ، لأنهم يحملونها كالساكن لهم ، فينتفعون بها ويبذلون منازل إلى جانبها ، فيقوم مقام جدار قد استغفروا عن سيئه ، ولأنها أمتأت الميول ومنابع المياه باعتماد الخلق على مراقبتهم ومنافعهم ومصالحهم عليها .

قوله : « وسدّدنا الحق » أى صوبنا إليه ، من قولك : « صهّب سديدا » ، أى
مصيب ، وسدّد السنان إلى المقرّن ، أى صوّبه نحوه .

والدمار : ما يحمى عنه . والمائر : ذو العيرة . ونزول الحقائق : نزول الأمور
الشديدة كال حرب ونحوها .

ثم قال . « المار وراءكم » ، أى إن رجتم القهقري هارين .
والجنة أمامكم ، أى إن أقدمتم على العدو محاربين . وهذا الكلام شريف جدا .

(١٧٣)

الأجمل :

ومن خطبة له عليه السلام :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا تُوَارَى عَنْهُ سَمَاءٌ سَمَاءٌ ، وَلَا أَرْضٌ أَرْضًا .

• • •

البيان :

هذا الكلام يدل على إثبات أرضين بعضها فوق بعض ، كما أن السموات كذلك ، ولم يأت في الكتاب العزيز ما يدل على هذا إلا قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾^(١) ، وهو قول كثير من المسلمين .

وقد تناول ذلك أرباب المذهب الآخر القائلون بأنها أرض واحدة ، فقالوا : إنها سبعة أقاليم ، فالثانية هي من هذا الوحد ، لا من تعدد الأرضين في ذاتها .

ويمكن أن يتناول مثل ذلك كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، فيقال : إنها وإن كانت أرضا واحدة ، لكنها أقاليم وأقطار مختلفة ، وهي كروية الشكل ، فدن على حدة الكرة لا يرى من تحتها ، ومن تحتها لا يراه ، ومن على أحد جانبيها لا يرى من على الجانب الآخر ، والله تعالى يدرك ذلك كله أجمع ، ولا يحبب عنه شيء منها بشيء منها . فأما قوله عليه السلام : « لا توارى عنه سماء سماء » ، فمقابل أن يقول : ولا توارى شيء من السموات عن المدركين ما ، لأنها شفاذة ، فأى خصيصة للباري تعالى في ذلك ؟ فينبغي أن يقال هذا الكلام على قاعدة غير القاعدة الفلسفية ، بل هو على قاعدة

الشريعة^(١) الإسلامية التي تقتضي أن السموات تسحب ماوراءها عن المدركين بالخاصة ؛
وأنها ليست طباقاً متراصة ، بل بينها خلق من خلق الله تعالى لا يعلمهم غيره . واتباع هذا
القول واعتقاده أولى .

الأصل :

منها :

وَقَدْ قَالَ قَائِلٌ : إِنَّكَ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ بِأَيِّ طَائِفٍ لَحْرِيسٌ ؟ قُلْتُ : بَلْ أَنْتُمْ
وَاللَّهُ لِأَحْرَمٍ وَأَبْعَدُ ؛ وَأَنَا أَحْسَنُ وَأَقْرَبُ ، وَإِنَّا طَلَبْتُ حَقِّي وَأَنْتُمْ تَحُولُونَ بَيْنِي
وَبَيْنَهُ ، وَتَضْرِبُونَ وَجْهِي دُونَ ؛ فَلَمَّا قَرَعْتُهُ بِالْحُجَّةِ فِي اللَّيْلِ الْحَاضِرِينَ ، هَبَّ كَأَنَّهُ
بُهِتَ لَا يَذَرِي مَا يُجِيبُنِي بِهِ .

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعِذُّ بِكَ عَلَى قُرْبِي وَمِنْ أَعَانَتِهِمْ أَقَابَهُمْ قَطَعُوا رِجْلِي ، وَصَنَعُوا
عَظِيمَ مَنَزِلَتِي ؛ وَأَجْعَلُوا عَلَى مُنَازَعَتِي أَمْرًا هَوِيلِي ، ثُمَّ قَالُوا : أَلَا إِنَّ فِي الْخَلْقِ أَنْ تَأْخُذَهُ ،
وَفِي الْخَلْقِ أَنْ تَذُرَّهُ .

الشرح :

هذا من خطبة يذكر فيها عليه السلام ما جرى يوم الثوري بعد مقتل عمر . والذي قال
ه : « إِنَّكَ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ لَحْرِيسٌ » سعد بن أبي وقاص ، مع روايته فيه : « أَنْتَ مَوْى بِمَنْزِلَةِ
هَارُونَ مِنْ مُوسَى » ، وهذا محجب ؛ فقال لهم : بل أنتم واقفوا أحرم وأبعد . . . الكلام
المذكور . وقد رواه الناس كافة .

وقالت الإمامية : هذا الكلام يوم السقيفة ، والذي قال ه : « إِنَّكَ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ
لَحْرِيسٌ » أبو عبيدة بن الجراح ؛ والرواية الأولى أظهر وأشهر .

(١) ب : « عَلَى تَأْيِيدِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ » .

وروى : « فلما قرأه » بالخشيف ، أى صدمته بها .

وروى : « هب لا يدرى ما يحبس » ، كما تقول : استيقظ وانتبه ، كأنه كان غافلاً ذاهلاً
عن الحجة فهب لما ذكرتها .

استمد بك : أطلب أن تُعذِرَ بنى عبدك وأن تنتصف لى منهم .

قطموا رجعى : لم يرعوا غربه من رسول الله صلى الله عليه وآله .

وصنروا عظيم منزلقى : لم يقفوا مع النصوص الواردة فيه .

وأجمعوا على منازعتى أمراً هوئى ، أى بالأفضلية أنا أحق به منهم ؛ هكذا ينهى
أن يُتَأَوَّل كلامه .

وكذلك قوله : « إنما أطلب حقى وإنتم تحولون بينى وبينه » ، وتضربون
رجعى دونه .

قال : « ثم قالوا : ألا إن فى الحق أن تأخذ » ، وفى الحق أن تتركه ، قال : لم يقتصروا
على أخذ حقى ساكتين عن الله تعالى ؛ ولكمهم أخذوه واتعوا أن الحق لهم . وأنه يجب
على أن أترك المنازعة فيه ؛ فليتهم أخذوه معترفين بأنه حقى ، فكانت المصيبة به أحف
وأهون .

واعلم أنه قد تواترت الأخبار عنه عليه السلام بنحو من هذا القول ، بحقوقه : « ما زلت
مظلوماً منذ قبض الله رسوله حتى يوم القدس هذا » .

وقوله : « اللهم أخز قريشاً فإنها منعتنى حتى وغصبتنى أسرى » .

وقوله : « فجرى قريشاً على العمورى ، فإسهم ظفوفى حتى ، واغتصبونى سلطان
ابن لتى » .

وقوله ، وقد سمع صارخا ينادي : أنا مظلوم ، فقال : « هلم فنصبر » ، فإني
مازلت مظلوماً » .

وقوله : « وإنه ليملم أن يحل منها محل القطب من الرحمن » .

وقوله : « أرى تراني فيها » .

وقوله : « أصنيا بإثنا ، وتحلا الناس على رقائنا » .

وقوله : « إن لنا حفا إن نعلمه نأخذه ، وإن نعلمه نركب أبحار الإبل ؛ وإن طال
الشري » .

وقوله : « ما زلت مستأثراً على ، مدفوعاً عما أستحقه وأستوجب » .

وأصحابنا يحملون ذلك كله على أذعانه الأمر بالأفضلية الحقيقية ؛ وهو الحق والصواب ؛
فإن حمله على الاستعقاف بالنصي تكفيراً أو فسقاً أو نحوه المهاجرين والأنصار ؛ ولكن
الإمامية والزيدية حملوا هذه الأقوال على ظواهرها ، وأرزيكوا سهام كيا صعبا . وأمرى
إن هذه الألفاظ مؤهمة معلقة على الظن ما يقوله القوم ؛ ولكن تصفح الأحوال يبطل ذلك
الظن ؛ ويدرك ذلك القوم ، موجب أن بحري بحري لايات التشابهات المؤهمة مالا يجوز على
الباري ، فإنه لا نعمل بها ، ولا ندول على ظواهرها ، لأننا لما تصفحنا أدلة العقول اقتضت
المدول عن ظاهر اللفظ ، وأن تحمل على التأويلات المذكورة في الكتب .

وحدثني يحيى بن سعيد بن علي الحنبل المعروف بابن طلبة ، من ساكني قطنفا^(١)
بالجانب الغربي من بغداد ، قال : كنت حاضر مجلس الفخر إسماعيل
ابن علي الحنبل الفقيه المعروف بعلام ابن المي ، وكان الفخر إسماعيل بن علي هذا ، مقدم

(١) قلنا ، بالفتح ثم الصم ولقاء ساكن وثناء . والضم : محلة الجانب الغربي من بغداد ، بينها
وبين دجلة أقل من ميل (مراد الاطلاع) .

الحفاة بهنداق الفقه والخلاف ؛ ويشغل بشيء في علم اللطيق ، وكان حُلُوَّ العبارة ، وقد رآه أنا وحضرت عنده ، وسمعت كلامه ، وتوفي سنة عشر وثمانئة .

قال ابن عاتية : ونحن عنده تصدّث ؛ إذ دخل شخص من الحفاة ، قد كان له دين على بعض أهل الكوفة ، فأنحدر إليه يطالبه به ، واتفق أن حضرت زيارة يوم العدير ، والحنبل للذكور بالكوفة ؛ وهذه الزيارة هي اليوم الثامن عشر من ذي الحجة ، ويحتمع بمشهد أمير المؤمنين عليه السلام من الخلائق بجموع عظيمة ؛ تتجاوز حدّ الإحصاء .

قال ابن عاتية : قيل الشيخ القنبر سائل ذلك الشخص : ما فعلت ؟ ما رأيت أهل وصل مالك إليك ؟ هل بقي لك منه بقية عند غريمك ؟ وذلك يحاول به ؛ حتى قال له : ياسيدي لو شاهدت يوم الزيارة يوم العدير ، وما يجري عند قبر علي بن أبي طالب من الفصاح والأقوال الشنيعة وسب الصحابة جواراً بأصوات مرتفعة من غير مراقبة ولا خيفة ؛ فقال إسماعيل : أية ذنب لم ! والله عاجز أمام علي ذلك ، ولا فتح لم هذا الباب إلا صاحب ذلك القبر ، فقال ذلك الشخص : ومن صاحب القبر ؟ قال : علي بن أبي طالب ؛ قال : ياسيدي ، هو الذي سنّ ذلك ، وعلمهم إياه وطرقهم إليه ؛ قال : نعم والله ؛ قال : ياسيدي فإن كان محققاً فإنا أن نتولّى فلاناً وفلاناً ؛ وإن كان مبطلاً فإنا نكفّاه ؛ ينبغي أن نبأ إقامته أو منعهما . قال ابن عاتية : فقام إسماعيل مسرعاً ، فلبس نعليه ، وقال : لمن الله إسماعيل الفاعل إن كان يعرف جواب هذه المسألة ، ودخل دار حرمة ، وقفنا نحن وانصرفنا .

• • •

الأمثلة

منها في ذكر أصحاب الجبل :

فَخَرَجُوا يَمْحَرُونَ حُرْمَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا تُجْرُ الْأُمَةُ عِنْدَ شِرَائِهَا

مُتَوَجِّهِينَ بِهَا إِلَى الْبَصْرَةِ . فَحَبَسَا نِسَاءَهُمَا فِي بُيُوتِهِمَا ، وَأُبْرَزَ حَبِيسَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهَا وَلِغَيْرِهَا ؛ فِي جَيْشٍ مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا وَقَدْ أُعْطِيَ الطَّاعَةَ ، وَتَمَحَّلَ بِهَا بِالنِّبَةِ ؛ طَائِفًا غَيْرَ مُكْرَهٍ ؛ فَتَدِيمُوا عَلَى عَائِلِ بِهَا ، وَخُزَّانِ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِهَا ، فَتَقْتُلُوا طَائِفَةً صَبْرًا ، وَطَائِفَةً غَدْرًا .

فَوَاللَّهِ إِنْ لَوَلَمْ يُصِيبُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا مُتَمَقِّدِينَ لِقَتْلِهِ ، بِلَا جُرْمٍ جَرَّه ، لَخَلَّ لِي قَتْلُ ذَلِكَ الْجَيْشِ كُلِّهِ ؛ إِذْ حَضَرُوهُ فَلَمْ يُنْكَرُوا ، وَلَمْ يَذْفُقُوا عَنْهُ بِلِسَانٍ وَلَا يَدٍ ، دَعَا مَا لَانَهُمْ قَدْ قَتَلُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلَ الْمِدَّةِ الَّتِي دَخَلُوا بِهَا عَلَيْهِمْ !



الْبَيْزُ :

حُرْمَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كُنَايَةً مِنَ الزَّوْجَةِ ، وَأَصْلُهُ الْأَهْلُ وَالْحَرَمُ ؛ وَكَذَلِكَ حَبِيسَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كُنَايَةً عَنْهَا .

وَقَتْلُهُمْ صَبْرًا ، أَيْ بَعْدَ الْأَسْرِ . وَقَوْلُهُ : « فَوَاللَّهِ إِنْ لَوَلَمْ يُصِيبُوا » إِنْ هَاهُنَا زَائِدَةٌ ، وَيَحْذَرُ أَنْ تَكُونَ مَخْفُفَةً مِنَ الثَّقِيلَةِ .

وَيُسْأَلُ عَنْ قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « لَوْلَمْ يُصِيبُوا إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا لَخَلَّ لِي قَتْلُ ذَلِكَ الْجَيْشِ بِأَسْرِهِ ، لِأَنَّهُمْ حَضَرُوهُ فَلَمْ يُنْكَرُوا » ، فَيَقَالُ : أَيْحُوزَ قَتْلُ مَنْ لَمْ يَنْكَرِ لِلنَّكَرِ مَعَ تَمَكُّنِهِ مِنْ إِنْكَارِهِ ؟

وَالْجَوَابُ ، أَنَّهُ يَحْذَرُ قَتْلَهُمْ ؛ لِأَنَّهُمْ اعْتَصَمُوا ذَلِكَ الْقَتْلَ مَبَاحًا ، فَلِأَنَّهُمْ إِذَا اعْتَصَمُوا إِبَاحَتَهُ ، فَقَدْ اعْتَصَمُوا إِبَاحَةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ، فَيَكُونُ حَالُهُمْ حَالِ مَنْ اعْتَصَدَ أَنْ الزَّنا مَبَاحٌ ، أَوْ أَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ مَبَاحٌ .

وقال القبط الراوندى : يريد أنهم داخلون في صوم قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا ﴾ (١) .
ولقائل أن يقول : الإشكال إنما وقع في قوله : « لو لم يصيبوا من المسلمين إلا رجلا واحدا لخل لي قتل ذلك الجيش بأسره » ، لأنهم « ضروا للسكر ولم يدفعوه بلسان ولا يد » ، فهو علة استعلاء قتلهم بأهم لم ينكروا المنكر ، ولم يمل ذلك بصوم الآية .

وأما معنى قوله : « دع ما إنهم قد قتلوا من المسلمين مثل العدة التي دخلوا بها عليهم » ، فهو أنه لو كان المقتول واحدا لخل لي قتلهم كلهم ، فكيف وقد قتلوا من المسلمين عدة مثل عدتهم التي دخلوا بها البصرة ! وما هنا زائدة .
وصدق عليه السلام ، فإنهم قتلوا من أوليائه وحرّان بيت المال بالنصرة خلقا كثيرا ؛ بعضهم غنرا ومنهم صبرا ، كما حُطِبَ به عليه السلام .



[ذكر يوم الجمل ومسير عائشة إلى القتال] (٢)

وروى أبو مخنف ، قال : حدثنا إسماعيل بن خالد ، عن قيس بن أبي حازم . وروى الكافي عن أبي صالح ، عن ابن عباس . وروى جرير بن يزيد ، عن عامر الشعبي ، وروى محمد بن إسحاق ، عن حبيب بن عمير ، قالوا جميعا : لما خرجت عائشة وطلحة والزبير من مكة إلى البصرة ، طرقت ماء الحوآب - وهو ماء لبني عامر بن صعصعة - فنهبهم الكلاب ، ففرت صعب إنهم ، فقال قتل منهم : لعن الله الحوآب فما أكثر كلابها ! فلما سمعت عائشة ذكر الحوآب ، قالت : أهدأ ماء الحوآب ؟ قالوا : نعم ، فقالت : ردوني ردوني فسالوها ما شأنها ؟ ما بالها ؟ فقالت : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « كائن بكتاب

(٢) انظر ص ١١٦ وما بعدها من هذا الجزء .

(١) سورة المائدة ٣٣ .

ماء يدعى الحوآب ، قد نهضت بعض نساء ، ثم قال لى : « إياك يا حبراء أن تكونيها » فقال لها الزبير : مهلاً يرحمك الله ، فإننا قد جُرنا ماء الحوآب بفراسخ كثيرة ، فقالت : أأعندك من يشهد بأن هذه الكلاب النابجة ليست على ماء الحوآب ؟ فلفق لها الزبير وطلعة خسين أعرابياً جعلاهم جُملاً ، فلفقوا لها ، وشهدوا أن هذا الماء ليس بماء الحوآب ، فكانت هذه أول شهادة زور في الإسلام .

فارت عاتشة لوجهها .

• • •

قال أبو مخنف : وحدثنا عصام بن قدامة ، من هكرمة ، عن ابن عباس ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال يوماً لقائه ، وعن عنده جهميا : « ليت شرى أمة كُنْ صاحبة الجمل الأذيب^(١) ، تنهبها كلاب الحوآب ، يُقتلُ عن يمينها وشمالها قتل كثيرة ، كلهم في النار وتنجو بعد ما كادت ؟ » .

قلت : وأصحابنا للمعزة رحمهم الله ، يحملون قوله عليه السلام : « وتنجو » على نجاتها من النار ، والإمامية يحملون ذلك على نجاتها من القتل ، وعملاً أرجح ، لأن لفظة « في النار » أقرب إليه من لفظة « القتل » ، والقرب معتبر في هذا الباب ؛ ألا ترى أن نعمة البصريين أعمالوا أقرب العاملين ، نظرا إلى القرب ؟

• • •

قال أبو مخنف : وحدثني الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس ، أن الزبير وطلعة أغذا^(٢) السير بعائشة ، حتى انتهوا إلى حفر أبي موسى الأشعري ، وهو قريب من البصرة ، وكتبها إلى عثمان بن حنيف الأنصاري ، وهو حامل على عايه السلام على البصرة : أن أخل لنا دار الإمارة ، فلما وصل كتابهما إليه بعث الأخنف بن قيس ، فقال له : إن هؤلاء القوم قد مروا علينا ومعهم زوجة رسول الله ، والناس إليها سراخ كما ترى ؛ فقال الأخنف :

(١) الأذيب : الكثير الشعر .

(٢) الأغذا : الإسراع .

إنيهم جاءوك بها للطلب بدم عثان ؛ وهم الذين أثبوا على عثان الناس ، وسفكوا دمه ؛
وأراهم والله لا يزالون حتى يُلقوا العداوة بيننا ، وسفكوا دماءنا ، وأظنهم والله سيركون
ملك خاصة مالا قبل لك به ، إن لم تخاف لهم بالنهوض إليهم فيمن معك من أهل البصرة ،
فلأنك اليوم الوالي عليهم ، وأنت فيهم مطاع ، فسر إليهم بالناس ، وبأدرهم قبل أن يكونوا
ملك في دار واحدة ، فيكون الناس لهم أطوع منهم لك ؟

فقال عثان بن حنيفة : الرأي مارأيت ، لكنني أكره الشر ، وأن أهدم به ،
وأرجو العافية والسلامة إلى أن يأتيني كتاب أمير المؤمنين ورأيه فأعمل به . ثم أتاه بعد
الأحف حكيم بن جبلة العبدى من بني عمرو بن ودبة ، فأقرأه كتاب طلحة والزبير ،
فقال له مثل قول الأحف ، وأجابه عثان بمثل جوابه للأحف ، فقال له حكيم : فأذن
لي حتى أسير إليهم بالناس ، **فأنت دخلوا في طاعة أمير المؤمنين ، وإلا فابذتهم**
على سواء .

فقال عثان : لو كان ذلك رأيي لسرت إليهم بنفسى ، قال حكيم : أما والله إن دخلوا
عليك هذا النصر لينتقلن قلوب كثير من الناس إليهم ، وليربلك من مجلسك هذا ،
وأنت أعلم . فأبى عليه عثان .

قال : وكتب على إلى عثان لما بلغه مشاركة القوم البصرة .

من عبد الله على أمير المؤمنين إلى عثان بن حنيفة ، أما بعد :

فإن البغاة عاهدوا الله ثم نكثوا ، وتوجهوا إلى مصرك ، وساقهم الشيطان لطلب
مالا يرضى الله به . والله أشد بأما ، وأشد تنكيلا ، فإذا قدموا عليك فادعهم إلى الطاعة
والرجوع إلى الوفاء بالسهم والميثاق الذى فارقونا عليه ، فإن أجابوا فأحسن جوارهم ماداموا

عندك ، وإن أبونا إلا التمسك بحبل الدكك والخلاف ، فاجزمهم القتال حتى يحكم الله بينك ، وبينهم وهو خير الحاكمين ؛ وكتبت كتابي هذا إليك من الرعدة ؛ وأنا معجل للسفر إليك إن شاء الله .

وكتبه عبيد الله بن أبي رافع في سنة ست وثلاثين .

قال : فلما وصل كتابي على عليه السلام إلى عثمان ، أرسل إلى أبي الأسود الدؤلي وعمران بن الحصين الجراعي ، فأمرهما أن يسيرا حتى يأتياه بعلم القوم ، وما الذي أقدمهم ، فأطلقا حتى إذا أتيا حفر أبي موسى ، وبه معسكر القوم ، فدخلوا على عائشة ، فبالاها ووعظاها ، وأذكراها وناشداها الله ، فقالت لهما : ألقيا طلعة والزبير . فقاما من عندها ، ولقيا الزبير فكلماه ، فقال لهما : إنا جئنا لطلب بدم عثمان ، وتدعو الناس إلى أن يردوا أمر الخلافة شوري ، ليختار الناس لأبغضهم . فقالا له : إن عثمان لم يقتل بالبصرة ليطلب دمه فيها ، وأنت تعلم قتلة عثمان من هم . وأين هم . وإليك وصاحبك وعائشة كنتم أشد الناس عليه ، وأعظمهم إغراء بدمه . فأقيدوا من أحسكم . وأما إعادة أمر الخلافة شوري ، فكيف وقد بايتم علياً طائفتين غير مكرهين ؛ وأنت يا أبا عبد الله لم يهد العهد بقيامك دون هذا الرجل يوم مات رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنت آخذ قائم سيفك ، تقول : ما أحد أحق بالخلافة منه ولا أولى بها منه ؛ وامتنعت من بيعة أبي بكر . فأين ذلك الفعل من هذا القول ؟

فقال لهما : اذهبا فلقيا طلعة ، فقاما إلى طلعة فوجداه أحسن الناس ، شديد العريكة ، قوى المزم في إثارة الفتنة وإضرار نار الحرب ، فانصرفا إلى عثمان بن حنيف ، فأخبراه وقال له أبو الأسود :

يا ابن حنيف قد أثبت فانفر وطائفتين القوم وجاهد واصبر^(١)

* وبرز لها مستلماً وشمراً *

فقال ابن حنيفة : إى والحرمين لأفمن . وأمر مناديه فنادى فى الناس : السلاح
السلاح ! فاجتمعوا إليه ، وقال أبو الأسود :

أنيباً الزبير فدانى الكلام وطلحة كالتجم أو أهد
وأحسن قوليهما فادح يضيق به الخطب مستكد
وقد أوعدوا بمجد الوعيد فأهون عليهما بما أوعدوا
فقلنا ركضتم ولم ترملوا وأصدرتم قبل أن توردوا
فإن تلقوا الحرب بين الرجال فتقيها حده الأنكد
وإن علياً لكم مصير ألا إنه الأسد الأسود
أما إنه ثالث العادين بمكة والله لا يعبد
فرخوا الله أقولاً لا تحاوروا^(١) فإن غدا لكم موعد

قل : وأقبل القوم ، فلما انتهوا إلى المريد ، قام رجل من بنى حشم فقال : أيها
الناس ، أما فلان الجشمي ، وقد أتاكم هؤلاء القوم ، فإن كانوا أنوكم حائقين ؛ لقد أتوكم
من المسكان الذى يأمن فيه الطير والوحش والسباع ، وإن كانوا إنما أتوكم بطلب
دم عثمان ؛ فديرنا ولي قتله . فاطيعوني أيها الناس وردوهم من حيث أقبلوا ؛ فإنكم إن لم
تعملوا لم تدلوا من الحرب الصروس والعتلة الصماء التى لا تنقى ولا تذر .

قال : فعصاه ناس من أهل البصرة ، فأمسك .

قال : واجتمع أهل البصرة إلى المريد حتى مشوه مشاة وركبانا ، فقام طلحة فأشار
إلى الناس بالسكر ليخطب ، فسكنوا بهد جهد . فقال : أما بعد ، فإن عثمان بن عفان
كان من أهل السابقة والمصيلة ، ومن المهاجرين الأولين الذى رضى الله عنهم ورضوا عنه
(١) رضى : مثل أرخى .

ونزل القرآن نالقا بفضلهم ، وأحد أئمة السنين الوالين عليكم بعد أبي بكر وعمر صاحبي رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وقد كان أحدث أحداثنا نقبنا عليه ، فأتينا فاستعينا به فاعتقنا ، فعدا عليه امرؤ ابتز هذه الأمة أمرها غصبا بغير رضا منها ولا مشورة ، فقتله ، وساعده على ذلك قومٌ غير أتقياء ولا أبرار ، قتل محرمًا بريثًا ثائبًا . وقد جثنا كم آيتنا الناس نطلب بدم عثمان ، ويدعوكم إلى الطل بدمه ؛ فإن نحن أمكننا الله من قتلته قتلناهم به ، وجهلنا هذا الأمر شورى بين المسلمين ، وكانت خلافة راحة للأمة جميعا ، فإن كل من أخذ الأمر من غير رضا من العامة ولا مشورة منها ابتزازا ، كان ملكه ملكا عضويا ، وحدتنا كثيرا .

ثم قام الزبير ، فحسبكم بمثل كلام طلحة .
فقام إليهما ماس من أهل البصرة ، فقالوا له : ألم تبايعا عليا فيمن تابعه ؟ فقيم بايعنا ثم نسكتنا اعتالا : ما بايعنا ، وما لأحد في أعناقنا نية ؛ وإنما استكرهنا على بيعة . فقال ناس : قد صدقا وأحسن القول ، وقطعا شواب . وقال ناس : ما صدقا ولا أصابا في القول ؛ حتى ارتفعت الأصوات .

قال : ثم أقابت عائشة على تجهلها ، فبادت بصوت مرتفع : أيها الناس ، أقلوا الكلام واسكتوا ، فأسكت الناس^(١) لها ، فقالت :

إن أمير المؤمنين عثمان قد كان غير وبدل ، ثم لم يزل يفسل ذلك بالتوبة ؛ حتى قتل مظلوما ثائبا ، وإنما نقموا عليه ضربه بالسوط ، وتأخير الشبان ، وحايته موضع العامة ، فقتلوه محرمًا في حرمة الشهر وحرمة البلد ، ذبحا كما يذبح الجمل . ألا وإن قريشا رمت غرضها بنبالها ، وأدمت أمواها بأيديها ، وما نالت جثلتها إياه شيئا ، ولا سلكت به سبيلا

(١) أسكت الناس : انقطعوا عن الكلام .

قاصدا ، أما والله ليرونها بلايا عقيمة تنبئ النائم ، وتقيم الجالس ، وليسلطن عليهم قوم لا يرحمونهم ؛ ويسوءونهم سوء العذاب .

أيها الناس ؛ إنه ما بلغ من ذنب عثمان ما يستحل بهدمه أمستهموه^(١) كما يخاص الثوب الرخيص^(٢) ، ثم عدوهم عليه فقتلوه بدمه توبه وخروجه من ذنبه ، وبايتم ابن أبي طالب بعير مشورة من الجماعة ، انشرا وغصبا . تراني أعضب لكم من سوط عثمان ولسانه ، ولا أغضب لثمان من سيفكم ! ألا إن عثمان قتل مظلوما فاطلبوا قتله ، فإذا ظفرتهم بهم فاقتلوه ، ثم اجعلوا الأمر شورى بين الرهط الذين اختارهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ؛ ولا يدخل فيهم من شرك في دم عثمان .

قال : فاج الناس واختلطوا ، فمن قاتل : القول ما قالت ، ومن قاتل يقول : وما هي وهذا الأمر ، إنما هي امرأة أمورة بنوم ينشأ وارتفعت الأصوات ، وكثر الأعط حتى تضاربوا بالعمال ، وترأسوا بالخصى .

ثم إن الناس تمايزوا فصاروا فرقتين : فريق مع عثمان بن حنيف ، وفريق مع عائشة وأصحابها .



قال : وحدثنا الأشعث بن سوار ، عن محمد بن سيرين ، عن أبي الخليل ، قال : لما نزل طلحة والزبير للرِّيد ، أتيتهما فوجدتهما مجتمعين ، فقلت لهما : ناشدتكما الله وصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ألقى أقدامكما أرضنا هذه ؟ فلم يتكلما ، فأخذت عليهما ، فقالا : بلغنا أن بأرضكم هذه دنيا ، فجئنا نطلبها .



(١) اللوس : الفصل بالأصابع ؛ وفي النهاية لابن الأثير : ١١٤ : يقال : مصعه أمومة موصا . أراحت أنهم استخبروه عما هموا منه ، فلما أعطاهم ما طلبوا فلقوه .
(٢) الرخيص : للقول .

قال : وقد روى محمد بن سيرين ، عن الأحنف بن قيس أنه لقيهما ، فقالا له مثل مقالتهما الأولى : إنما جئنا لطلب الدنيا .

وقد روى المدائني أيضاً نحوه مما روى أبو مخنف ، قال : بعث علي عليه السلام ابن عباس يوم الجمل إلى الزبير قبل الحرب ، فقال له : إن أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام ، ويقول لكم : ألم تبايعني طائفاً غير مكره ، فما الذي رابك مني ، فاستعجلت به قتالي ؟ قال : فلم يكن له جواب إلا أنه قال لي : إنما مع الخوف الشديد لنطمع ؛ لم يغسل غير ذلك .

قال أبو إسحاق : سألت محمد بن علي بن الحسين عليه السلام : ما تراه يعني بقوله هذا ؟ فقال : أما والله ما تركت ابن عباس حتى سألته عن هذا ، فقال : يقول : إنما مع الخوف الشديد مما نحن عليه ، نطمع أن نلي مثل الذي وليتم .

• • •

وقال محمد بن إسحاق : حدثني جعفر بن محمد عليه السلام ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قال : بعث علي عليه السلام يوم الجمل إلى طلحة والزبير ، وبعث معي بمصحف منشور ، وإن الريح لتصفق ورقه ، فقال لي : قل لها : هذا كتاب الله بيننا وبينكم ، فما تريدان ؟ فلم يكن لهما جواب إلا أن قلنا : نريد ما أراد إكأنهما يقولان : الملك .

فرجعتُ إلى علي فأخبرته

• • •

وقد روى قاضي القضاة رحمه الله في كتاب " المفني " عن وهب بن جرير ، قال : قال رجل من أهل البصرة لطلحة والزبير : إن لسكافضلاً وصحبة ؛ فأخبراني عن مسيركما

هذا وقتا لكما؛ أشي، أسركا به رسول الله صلى الله عليه وآله، أم رأيي رأياء؟ فأما طلحة
فسكت وجعل ينكت في الأرض، وأما الزبير، فقال: ويحك! حدثنا أن هاهنا دراهم
كثيرة، فنجثنا لنأخذ منها.

وجعل قاضي القضاة هذا الخبير حجة في أن طلحة تاب، وأن الزبير لم يكن مصرا
على الحرب. والاحتجاج بهذا الخبير على هذا المعنى ضعيف، وإن صحَّ هو وما قبله؛ إنّه
لدليل على تحقّق شديد، وضعف عظيم، وقصص ظاهر. وليت شري ما الذي أحوجهما إلى
هذا القول! وإذا كان هذا في أنفسهما، فهلا كنهاه!

• • •

ثم نمود إلى خبرهما: قال أبو مخنف: فلما أقبل طلحة والزبير من الرّيد، يريدان
عثمان بن حنوف، فوجداهما وأصحابه قد أخذوا بأقوال السكك؛ فمضوا حتى انتهوا إلى موضع
الذّناغين، فاستقلهم أصحاب ابن حنوف فشجّروهم^(١) طلحة والزبير وأصحابهما بالرماح،
فحمل عليهم حكيم من جيلة، فلم يزل هو وأصحابه يقاتلونهم حتى أخرجوهم من جميع السكك،
ورماهم للنساء من فوق البيوت بالحجارة، فأخذوا إلى مقبرة بني مازن، فوقفوا بها مليا
حتى ثابت إليهم خيلهم، ثم أخذوا على مسنّة البصرة، حتى انتهوا إلى الرابوقة، ثم
أنوا سبخة دار الرزق، فبرلوها.

قال: وأما عبد الله بن حكيم النخعي لما نزل السبخة بكعب كانا كتباهما إليه، فقال
طلحة: يا أبا محمد، أما هذا كتبك إلينا؟ قل: بلى، قل: فكتبتم أمس تدهونا إلى
خلع عثمان وقتله؟ حتى إذا قتلته، أتيتنا نأثر أدمه! فأعيرى ما هذا رأيك؛ لا تريد إلا
هذه الدنيا. مهلا! إذا كان هذا رأيك؛ فلم قبلت من علي ما عرض عليك من البيعة،

(١) هجره بالرمح؛ طه.

فبأيته طائفاً راضياً ، ثم نكثت بيمينك ، ثم جئت لندخلنا في فنتك ! فقال : إن عليا دعاني إلى بيته بعد ما بايع الناس ، فقلت : لو لم أقبل ما عرضه علي لم يتم لي ، ثم يفرى بي من معه .

قال : ثم أصبحنا من غير فصحاً للحرب ، وخرج عثمان بن حنيف إليهما في أصحابه ، فنادى الله والإسلام ، وأذكركما بيعتهما علياً عليه السلام ، قالا : نطلب بدم عثمان ، فقال لهما : وما أتيا وذلك ! أين بنوه ؟ أين بنو عمة الدين هم أحق به منكم ! كلا والله ؛ ولكنكما حسدتماه ؛ حيث اجتمع الناس عليه ، وكنتما ترجوان هذا الأمر ، ونعملان له ؛ وهل كان أحدهما أشد على عثمان قولاً منكما ! فثمنا شيئاً قبيحاً ، وذكر أمتي ، فقال للزبير : أما والله لولا صفية ومكاتها من رسول الله فإني أذكرها إلى الغل ، وأن الأمر بيني وبينك - بابن الصبية - يعني طلحة - أعظم من القول ؛ لأملتكما من أمركما ما يسوءكما .
اللهم إني قد أعدت إلى هذين الرجلين

ثم حمل عليهم ، واقتل الناس قتلاً شديداً ، ثم تجاوزوا واصطلحوا على أن يكفب بينهم كتاب صلح فكفب :

هذا ما اصطلاح عليه عثمان بن حنيف الأنصاري ومن معه من المؤمنين من شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وطلحة والزبير ومن معهم من المؤمنين والمسلمين من شيعة عثمان بن حنيف دار الإمارة وارتبة المسجد وبيت المال والنبر ، وأن طلحة والزبير ومن معهم أن ينزلوا حيث شاموا من البصرة ، ولا يضار بعضهم بعضاً في طريق ولا قرض ولا سوق ولا ثيرعة ولا ميرفق ، حتى يقدم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ؛ فإن أحبوا دخلوا فيما دخلت فيه الأمة ، وإن أحبوا لحق كل قوم بهوهم وما أحبوا من

تعال أو سلم أو خروج أو إقامة ، وعلى الفريقين بما كتبوا هدا الله وميثاقه ، وأشد ما أخذه على نبي من أنبيائه ؛ من عهد وذمة .

وختم الكتاب ، ورجع عثمان بن حنيف حتى دخل دار الإمارة وقال لأصحابه : الحقوا رحمكم الله بأهلكم ، وضموأ سلاحكم ، وداووا جرح حاكم . فكتبوا كذلك أباما

ثم إن طلعة والزير قالوا : إن قديم على ونحن على هذه الحال من القلة والضعف ؛ لياخذن بأهائنا ، فأجما على مراسة الفهائل واستماعة العرب ، فأرسلوا إلى وجوه الناس وأهل الرياسة والشرف ، يدعواهم إلى الطلب بدم عثمان ، وخلع على ، وإخراج ابن حنيف من البصرة . فبايعهم على ذلك الأزد وضبة وقيس بن عيلان كلها إلا الرجل والرجلين من القبيلة ، كرهوا أمرهم فتواروا عنهم ، وأرسلوا إلى هلال بن وكيع التميمي فلم يأثمهم ؛ فجاءه طلعة والزير إلى داره ، فتوارى عنهما ، فقالت له أمه : ما رأيت مثلك ! أتاك شيخنا فريش فتواريت عنهما ! فلم تزل به حتى ظهر لها ، وبايعهما معه بنو عمرو ابن تميم كلهم وبنو حنظلة إلا بني يربوع ؛ فإن عانتهم كانوا شيعة لعل عليه السلام ، وبايعهم بنو دارم كلهم إلا ثمرأمن بن مجاشع ذوى دين وفصل .

فلما استوسق لطلعة والزير أمرهما ، خرجا في ليلة مظلمة ذات ريح ومطر ، ومعهما أصحابهما ، قد ألبسوم البرقع ، وظاهروا فوقها بالثياب ، فالتهبوا إلى المسجد وقت صلاة القجر ، وقد سبقهم عثمان بن حنيف إليه ، وأقيمت الصلاة ، فتقدم عثمان ليصلي بهم ، فأخروه أصحاب طلعة والزير ، وقدموا الزير فجاءت السابجة - وهم الشرط لحرس بيت المال - فأخرجوا الزير ، وقدموا عثمان ، فلبسهم أصحاب الزير ، قدّموا الزير وأخروا عثمان ، فلم يزالوا كذلك حتى كادت الشمس تطلع ، وصاح بهم أهل المسجد : ألا نتقون أصحاب محمد وقد طلعت الشمس ! فلب الزير فصلى بالناس ، فلما انصرف من

صلاحيه ، صاح بأصحابه للسياحيين : أن خذوا عثمان بن حنيفة ، فأخذوه بمدان تضارب هو
ومروان بن الحكم بينهما ، فلما أسر ضرب ضرب الموت ، وثقف حاجباه وأشغره عينييه ،
وكل شجرة في رأسه ووجهه ، وأخذوا السباحية وهم سيمون رجلا ؛ فانطلقوا بهم وبعمان
ابن حنيفة إلى عائشة ، فقالت لأمان بن عثمان : اخرج إليه فاضرب عنقه ، فإن الأنصار
قتلت أباك ، وأعانت على قتله . فنادى عثمان : يا عائشة ، ويا طلحة ، ويا زبير ؛ إن أخى سهل
ابن حنيفة خليفة على بن أبي طالب على المدينة ؛ وأقسم بالله إن قتلتموني ليضمن السيف
في بني أبيكم وأهلكم ورهطكم ؛ فلا يبقى أحدا منكم . فكفوا عنه ، وحذقوا أن يقع
سهل بن حنيفة بميالاتهم وأهلهم بالمدينة ، فتركوه .

وأرسلت عائشة إلى الزبير أن اقتل السباحية ، فإنه قد يلحق الذي صنعوا بك .
قال : فذبحهم والله الزبير كما يذبح النمل ، ثم قتلهم عبد الله الله ، وهم سيمون رجلا ،
وبقيت منهم طائفة متمسكين بيوتهم المال . قالوا : لاندفعه إليكم حتى يقدم
أمير المؤمنين ؛ فسار إليهم الزبير في جيش ليلا ، وأوقع بهم ؛ وأحد منهم حميد أسيرا ،
فقتلهم صبرا .

• • •

قال أبو مخنف : فحدثنا الصقبي بن زهير ، قال : كانت السباحة للفتى يومئذ أربعمائة
رجل ، قال : فكان غدر طلحة والزبير بعمان بن حنيفة أول عذر كان في الإسلام ،
وكان السباحة أول قوم ضربت أعناقهم من المسلمين صبرا . قال : وحيدوا عثمان
ابن حنيفة بين أن يقيم أو يلحق بعل ، فاحتار الزبير ؛ فحلوا بيته ، فخرج إلى عليه
السلام ، فما رآه بكى ، وقال له : فارتقت شيعة ، ورحلتك أسرد ، فقال علي : إنا لله وإنا إليه
راجعون أقالها ثلاثا .

قلت : السبايحة لفظة معربة ، قد ذكرها الجوهري في كتاب " الصحاح " ^(١) قال : هم قوم من السند ، كانوا بالبصرة جلاوزة ^(٢) وحرّاس السجن ، والهاء للمعجمة والنسب ، قال يزيد بن مفرغ الحميري :

وطماطم من سبائك خُزِرْ يابسون مع الصباح القيودا

قال : فلما بلغ حكيم بن جبلة ما صنع القوم بسمان بن حنيف ، خرج في ثلاثمائة من عبد القيس مخالفا لهم ومناظرا ، فخرجوا إليه ، وحلوا عائشة على بجل ، فمضى ذلك اليوم يوم الجمل الأصفر ، ويوم على يوم الجمل الأكبر .

وتجاء الفريقان بالسيوف ، فشدّ رجل من الأزدي من عسكر عائشة على حكيم بن جبلة ، فضرب رجله قطعا ، ووقع الأزدي من فرسه ، فجنا حكيم ، فأخرج رجله فرمى بها الأزدي ، فصرعه ، ثم دبه إليه فقتله متكئا عليه ، خائفا له حتى زهقت نفسه ، فمر به حكيم إنسان وهو يحود بنفسه ، فقال : من من بك ؟ قال : وسادي ، فنظر فإذا الأزدي نحته ، وكان حكيم شجاعا مذكورا .

قال : وقتل مع حكيم إخوة له ثلاثة ، وقتل أصحابه كلهم ، وهم ثلاثمائة من عبد القيس ، والقليل منهم من بكر بن وائل ، فلما صفت البصرة لطلعة والزبير بعد قتل حكيم وأصحابه وطرد ابن حنيف عنها اختلفا في الصلاة ، وأراد كل منهما أن يؤمّ بالناس ، وخاف أن تكون صلاته خلف صاحبه تليها ورضا بقدومه ؛ فأصلحت بينهما عائشة ، بأن جعلت عبد الله بن الزبير ومحمد بن طلعة يصليان بالناس ، هذا يوما وهذا يوما .

قال أبو مخنف : ثم دخل بيت المال بالبصرة ، فلما رأوا ما فيه من الأموال ، قال الزبير : (وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَعَايِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ، فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ) ^(٣) ، فنعن أحق

(١) الصحاح ١ : ٣٢١ .

(٢) الجلاوز : الفرطى .

(٣) سورة النحل ٢٠ .

بها من أهل البصرة ، فأخذنا ذلك المال كله ، فعاغب على عليه السلام ردّ تلك الأموال إلى بيت المال ، وقسمها في المسلمين

وقد ذكرنا فيما تقدّم كيفية الواقعة ، ومقتل الزبير عاراً عن الحرب خوفاً أو توبة - ونحن نقول : إنها توبة - وذكرنا مقتل طلحة والاستيلاء على أمّ المؤمنين وإحسان على عليه السلام إليها وإلى من أسير في الحرب ، أو ظفر به بعدها .

[منافرة بين وأدّى على وطلحة]

كان القاسم بن محمد بن يحيى بن طلحة بن عبيد الله النخعي - يلقب أبا بكرة ، ولي شرطة الكوفة لعيسى بن موسى بن محمد بن علي بن أبي طالب - كتم إسماعيل ابن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام بكلام خرج فيه إلى المنافرة^(١) ، فقال القاسم بن محمد : لم يرل فصلنا وإحساناً ساماً عيكم يا بني هاشم وعلى بني عبد مناف كافة ، قل إسماعيل : أي فضل وإحسان استبدتوه إلى بني عبد مناف ؟ أعصّب أبوك جدّي بقوله : لم يوتن محمد ولنهولن بين خلاخيل نسانه كما جال بين حلاحيل نسانا^(٢) . فأنزل الله تعالى مراغمة لأبيك : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنَافِكُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَيْنِهِ أَبَدًا ﴾^(٣) ومنع ابن عمك أمي حقها من فدك وغيرها من ميراث أبيها ؛ وأجلب أبوك على عثمان وحصره حتى قتل ، وسكت بيعة علي وشام^(٤) السيف

(١) المنافرة : المفاخرة بالحب والنسب .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٣ : ٥٠٦ .

(٣) سورة الأحزاب ٥٣ .

(٤) شام بالسيف : شهره .

في وجهه ، وأفسد قلوب المسلمين عليه ، فمن كان لبني عبد مناف قوم غير هؤلاء أسديتم
إليهم إحساناً ؛ فمررتني من هم جعلت فداك !

[منافرة عبد الله بن الزبير وعبد الله بن العباس]

وتزوج عبد الله بن الزبير أم عمرو ابنة مفلح بن زبآن الفزارية ، فلما دخل بها قال
لها تلك الليلة : أنتدين من معك في حجّتك^(١) ؟ قالت : نعم ؛ عبد الله بن الزبير بن
الموام بن خويلد بن أسد بن عبد المزّي .

قال : ليس غير هذا ؟ قالت : فما الذي تريد ؟ قال : معك من أصبح في قريش بمنزلة
الرأس من الحسد ، لا بل بمنزلة العين من الرأس . قالت : أما والله لو أن بعض بني
عبد مناف حضرك لقال لك حلف قولك فغضب ، وقال : الطعام والشراب على
حرام حتى أحضرك الهاشميين وغيرهم من بني عبد مناف ؛ فلا يستطيعون ذلك إنكاراً .
قالت : إن ألهتني لم تفعل ، وأنت أعلم وشأنك .

تفرج إلى المسعد فرأى حنقة فيها قوم من قريش ، منهم عبد الله بن العباس
وعبد الله بن الحصين بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف ، فقال لهم ابن الزبير :
أحب أن تطلقوا معي إلى منزلي ؛ فقدم القوم بأجمعهم حتى وقفوا على باب بيته ؛ فقال
ابن الزبير : يا هذه اطرّحي عليك سنرك ، فما أخذوا مجالسهم دعا بالمائدة ، فتفدى
القوم ، فلما فرغوا قال لهم : إنما جمعتكم لحديث ردتني على صاحبة السر ، وزعمت أنه
لو كان بعض بني عبد مناف حضري لما أفرّني عما قلت ، وقد حضرتهم جميعاً . وأنت
يا ابن عباس ، ما قول ؟ إنى أحبرتها أن معها في خدرها من أصبح في قريش بمنزلة

(١) الحجة ، بالحركة : بيت للمروسي بن عائذ الأسدي والنور .

الرأس من الجسد ، بل بمنزلة العيين من الرأس ! فردت عليّ مقاتلي ، فقال ابن عباس :
أراك قصدت قصدي ؟ فإن شئت أن أقول قلت ، وإن شئت أن أكف كلفت ، قال :
بل قل ، وما عسى أن تقول ! أليس تعلم أني ابن الزبير حواري رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، وأن أمي أسماء بنت أبي بكر الصديق ذات النطاقين ، وأن عمي خديجة سيدة نساء
العالمين ، وأن صفية عمّة رسول الله صلى الله عليه وسلم جدني ، وأن عائشة أم المؤمنين
خالتي ! فهل تستطيع لهذا إنكارا !

قل ابن عباس : لقد ذكرت شرفاً شرفاً ، ونفراً فافراً ، غير أنك تفاخر من
بفخره نفرت ، وبفعله سموت . قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأنك لم تذكر نفراً إلا برسول
صلى الله عليه وسلم ، وأما أولى بالفخر به منك ، قال ابن الزبير : لو شئت لفخرت عليك
بما كان قبل النبوة ، قال ابن عباس :

• قد أنصف القارة من رماها •

نشدتكم الله أيها الحاضرون ! أعبد المطلب أشرف أم حويلد في قریش ؟ قالوا :
عبد المطلب ، قال : أفهائم كان أشرف بها أم أسد ؟ قالوا : بل هائم ، قال : أصبد مناف
أشرف أم عبد العزى ؟ قالوا : عبد مناف ، فقال ابن عباس :

تدأخري يا ابن الزبير وقد قصي عليك رسول الله لا قول هازل
ولو غيرنا يا ابن الزبير نفرتة ولكننا ساميت شمس الأصائل

(١) القارة : قوم من رماة العرب ، وهم عضل والديش إيسا الهول بن خزيمه ، من كنانة ، سموا قارة
لاحتماهم والتفافهم لا أراد ابن شداح أن يفرقهم في كنانة . وأصل المثل كما ذكره صاحب اللسان : أن
رجلين اتفيا ، أحدهما ظري والآخر أسدي ؟ فقال الظاري : إن شئت مارءك ، وإن شئت سابقك ،
وإن شئت راميتك ، فقال : احبرت الرماة ، فقال الظاري : قد أصغني ، وأشد :

قد أنصف القارة من رماها إننا إذا ما فئة نلقاها

• فرد أولاهما على أخراها •

ثم ارجع له سبباً منك مؤاده .

قضى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفصل في قوله : « ما افرقت فرقتان إلا كنت في خيرهما » ، فقد فارقناك من بعد قصي بن كلاب ، أفنحن في فرقة الخير أم لا ؟ إن قلت : نعم خُصِمْتُ ^(١) ، وإن قلت : لا كُفِرْتُ !

فضعك بعض القوم ، فقال ابن الزبير : أما والله لو لا نحرمتك بطعامنا يا ابن عباس لأعرقته جبينك قبل أن تقوم من مجلسك ، قال ابن عباس : ولم ؟ أيباطل فالباطل لا يغالِبُ الحق ، أم بحق ؟ فالحق لا يخشى من الباطل !

فقال المرأة من وراء الستار : إني والله لقد نهيتُ عن هذا المجلس ، فأبى إلا ما ترون .

فقال ابن عباس : مَنَ أيتها المرأة ! اتقي بيديك ، فما أعظم الخطر ، وما أكرم الظاهر ! فأخذ القوم بيد ابن عباس - وكان قد عَمِيَ - فقالوا : انهمس أيتها الرجل فقد أحمته غير مرة ، قمض وقال :

أَلَا بِأَقْوَمًا ارْتَمَلُوا وَسَيَرُوا فَلَوْ تَرَكْتَ الْقَطْعَ لَعَفَا وَتَامَا

فقال ابن الزبير : يا صاحب القطع ، أفيل على ، فما كنت لدغني حتى أقول ، وإيم الله لقد عرف الأقوام أني سابق غير مذبوق ، وإن حواريت وحدتي ، متجشع في الشرف الأنيق ، خير من طليق .

فقال ابن عباس : دَسَعْتُ بِجِرَّتِكَ ^(٢) ، ولم تبق شيئاً ؟ هذا الكلام مردود ، من امرئ حَسود ، فإن كنت سابقاً فإلى مَن سَبَقْتُ ؟ وإن كنت فاعرفاً فبِمَن نَحَرْتُ ؟ فإن كنت أدركت هذا الفجر بأسرتك دون أسرتنا ، فالفجر لك علينا ، وإن كنت لما أدركته بأسرتنا فالفجر لنا عليك ، والكُنْكَثُ ^(٣) في فمك ويديك . وأما ما ذكرت

(١) خُصِمْتُ : أي غلبت .

(٢) يقال : دَسَعَ الحبر بجرته ؛ أي دفعا حتى أخرجها ؛ والكلام على التمثيل .

(٣) الكُنْكَثُ : التراب .

من الطلاق ، فوالله لقد ابتلي فصيبر ، وأنعم عليه فشكر ؛ وإن كان والله لو فنيما كرميما غير ناقض بيعة بعد توكيدها ، ولا مسلم كتيبة بعد التناثر عليها .

فقال ابن الزبير : أنعم الزبير بالحسين ؛ والله إنك لتعلم منه خلاف ذلك ؛ قال ابن عباس : والله إني لا أعلم إلا أنه قرء وما كرم ، وحارب ففصيبر ، وباع ففاتيما ، وقطع الرحم ، وأنكر الفصل ، ودام ما لبس له بأهل .

وَأَذْرَكَ مِنْهَا بَعْضَ مَا كَانَ يَرْجَى وَقَصَرَ عَنْ جَرَى الْكِرَامِ وَبَلَدَا
وَمَا كَانَ إِلَّا كَالْمَجِينِ أَمَامَهُ عَنَّا قَدْ فَجَّرَاهُ الْعَنَاقُ فَأَجْمَدَا

فقال ابن الزبير : لم يبق يابني هاشم غير للشاعة ^(١) والمضاربة . فقال عبد الله بن الحصين بن الحارث : أقفاه عليك يابن الزبير ، وتأبى إلا منازعتا والله لو نازعته من ساعتك إلى اقضاء أمرتك ما كنتم إلا كالسيف الظلمان ، يفتح فاه يستزبد من الريح ، فلا يشج عن سبب ، ولا يروى من مطر ؛ قل إن شئت ، أو فدع .

وانصرف القوم .

(١٧٤)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَمِينُ وَحْيِهِ ، وَخَاتَمُ رُسُلِهِ ، وَبَشِيرُ رَحْمَتِهِ ، وَنَذِيرُ نِقْمَتِهِ .
أَيُّهَا النَّاسُ ؛ إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِهَذَا الْأَمْرِ أَقْوَلُهُمْ هَلْهَلَهُ ، وَأَعْلَمُهُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ فِيهِ ؛
فَإِنْ شَعَبٌ شَاغِبٌ اسْتَمْتَبَ ، فَإِنْ أَبِي قَتِيلَ .

وَأَعْتَرَى لَيْتَنَ كَانَتِ الْإِمَامَةُ لَا تَنْتَقِضُ حَقٌّ تَحْضُرُهَا عَامَّةُ النَّاسِ ؛ مَا إِلَى
سَبِيلٍ ؛ وَلَكِنْ أَهْلُهَا يَحْكُمُونَ عَلَى مَنْ غَابَ عَنْهَا ؛ ثُمَّ لَيْسَ لِشَاهِدٍ أَنْ يَرْجِعَ ،
وَلَا لِفَتَايَ أَنْ يَخْتَارَ .

أَلَا وَإِنْ أَهْلُهَا رَجَلَيْنِ : رَجُلًا ادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ ، وَآخَرَ مَنَعَ الَّذِي عَلَيْهِ .

• • •

الشرح :

صدر الكلام في ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله ، ويتلوه فصول :

أولها : أَنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِالْإِمَامَةِ أَقْوَامٌ عَلَيْهَا ، وَأَعْلَمُهُمْ بِحُكْمِ اللَّهِ فِيهَا ؛ وَهَذَا لَا يُلَاقِي
مَذْهَبَ أَصْحَابِنَا الْبَغْدَادِيِّينَ فِي صِحَّةِ إِمَامَةِ الْفُضُولِ ، لِأَنَّهُ مَأْثَلٌ : إِنْ إِمَامَةٌ غَيْرُ الْأَقْوَى
فَاسِدَةٌ ، وَلَكِنَّهُ قَالَ : إِنْ الْأَقْوَى أَحَقُّ ؛ وَأَصْحَابُنَا لَا يَكْفُرُونَ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَحَقُّ مِنْ
تَقْدَمَ بِالْإِمَامَةِ مَعَ قَوْلِهِمْ بِصِحَّةِ إِمَامَةِ الْمُتَقَدِّمِينَ ؛ لِأَنَّهُ لَا مُنَافَاةَ بَيْنَ كَوْنِهِ أَحَقَّ ، وَبَيْنَ صِحَّةِ
إِمَامَةِ غَيْرِهِ .

فإن قلت : أى فرق بين أقوام عليه وأعلمهم بأمر الله فيه ؟ قلت : أقوام أحسنهم سياسة ، وأعلمهم بأمر الله أكثرهم علما وإجراء للتدبير بمقتضى العلم ؛ وبين الأمرين فرق واضح ، فقد يكون سائسا حاذقا ، ولا يكون عالما بالفتنة ، وقد يكون سائسا فقيها ، ولا يجرى التدبير على مقتضى علمه وفقهه .

وثانيها : أن الإمامة لا يشترط في صحة انعقادها أن يحضرها الناس كافة ، لأنه لو كان ذلك مشروطا لأدى إلى ألا تنعقد إمامة أبدا لتعذر اجتماع المسلمين من أطراف الأرض ، ولكنها تنعقد بمعقد العلماء وأهل الحل والعقد الحاضرين ، ثم لا يجوز بعد انعقادها لحاضريها أن يرجعوا من غير حبيب يقتضى رجوعهم ، ولا يجوز لمن غاب عنها أن يختار غير من عقده ، بل يكون محبوبا بمعقد الحاضرين ، مكلفا طاعة الإمامة المقنونة ؛ وعلى هذا جرت الخلف خلافة أبي بكر وعمر وعثمان ، وانعقد إجماع المسلمين عليه ؛ وهذا الكلام نصريح بصحة مذهب أصحابنا في أن الاختيار طريق إلى الإمامة ، وبطلان ما يقوله الإمامية من دعوى النص عليه ؛ ومن قولهم : لا طريق إلى الإمامة سوى النص أو المعجز .

وثالثها : أن الخارج على الإمام يستعقب ألا بالكلام والمراسلة ، فإن أبى قول ؛ وهذا هو نص الكتاب العزيز : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَأْتِيَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ (١) .
ورابعها : أنه يقاتل أحد رجلين ؛ إما رجلا ادعى ما ليس له نحو أن يخرج على الإمام من يدعى الخلافة لنفسه ، وإما رجلا منع ما عليه ، نحو أن يخرج على الإمام رجلا لا يدعى الخلافة ولكنه يتمتع من الطاعة فقط .

فإن قلت : الخارج على الإمام مدعي الخلافة لنفسه ، مانع ما عليه أيضا لأنه قد امتنع من الطاعة ، فقد دخل أحد القسمين في الآخر .

قلت : لما كان مدعى الخلافة قد اجتمع له أمران : إيجاب وسلبي ، فالإيجابى دعواه الخلافة ، والسلبى امتناعه من الطاعة ، كان متميزاً ممن لم يحصل له إلا القسم السلبي فقط ، وهو مانع الطاعة لا غير ، فكان الأحسن أن فنّ علم البيان أن يشتمل اللفظ على التقسيم الحاصر للإيجاب والسلب ، فذلك قال : « إما مدعى ما ليس له ، أو مانع ما هو عليه » .

• • •

الأصل :

أَوْصِيَكُمْ - عِبَادَ اللَّهِ - بِتَقْوَى اللَّهِ قَانِهَا خَيْرٌ مَّا تَوْاصَى الْعِبَادُ بِهِ ؛ وَحَبِزْ عَوَاقِبِ الْأُمُورِ عِنْدَ اللَّهِ ؛ وَقَدْ فَتِّحَ بَابُ الْحَرْبِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ الْقِتْلَةِ ، وَلَا تَحْمِلْ هَذَا الْعِلْمَ إِلَّا أَهْلُ الْبَصَرِ وَالصَّبْرِ وَالْعِلْمِ عَوَاقِبِ أَلْحَقْ ، فَاْمْضُوا مَا تَوْصَرُونَ بِهِ ، وَقِفُوا عِنْدَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ ، وَلَا تَعْجَلُوا فِي أَمْرِ حَتَّى تَتَبَيَّنُوا ؛ فَإِنَّ لَنَا مَعَ كُلِّ أَمْرٍ تَفَكُّرًا وَتَفَكُّرًا غَيْرًا .

أَلَا وَإِنْ هَدَيْهِ الدُّنْيَا الَّتِي أَصْبَحْتُمْ تَتَمَتَّعُونَهَا ، وَتَرْغَبُونَ فِيهَا ، وَأَصْبَحْتُمْ تُفْضِلُونَهَا وَتَرْغَبُونَهَا ؛ أَيْسَرُ بِدَارِكُمْ وَلَا مَنَزِلِكُمْ الَّذِي حَقَّقْتُمْ لَهُ ؛ وَلَا الَّذِي دُعِيتُمْ إِلَيْهِ .

أَلَا وَإِنَّمَا لَيْسَتْ بِسَاقِيَةِ لَكُمْ ، وَلَا تَبْقُونَ عَلَيْهَا ؛ وَهِيَ وَإِنْ عَرَّثَكُمْ مِنْهَا فَقَدْ حَذَّرْتُمْ شَرَّهَا ، فَدَعُوا غُرُورَهَا بِتَحْدِيرِهَا ، وَأَطْمَئِنُّوا بِتَخْوِيفِهَا ؛ وَسَاقِيَةُ فِيهَا إِلَى الدَّارِ الَّتِي دُعِيتُمْ إِلَيْهَا ، وَأَنْصَرِفُوا بِقَاوِيكُمْ عَنْهَا ؛ وَلَا يَخِشَنَّ أَحَدُكُمْ خَيْنَ الْأَمَةِ عَلَى مَا رَوَى عَنْهُ مِنْهَا ، وَأَسْتَبْشِرُوا بِعَمَّةِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ ، وَالْحَافِظَةِ عَلَى مَا اسْتَحْفَظَكُمْ مِنْ كِتَابِهِ .

أَلَا وَإِنَّهُ لَا يَنْصُرُكُمْ تَصْيِيعُ شَيْءٍ مِنْ دُنْيَاكُمْ بَعْدَ حِفْظِكُمْ قَانِيَةَ دِينِكُمْ .

أَلَا وَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُكُمْ بَعْدَ تَضْيِيعِ دِينِكُمْ شَيْءٌ حَافِظْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ .
أَخَذَ اللَّهُ بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِكُمْ إِلَى الْخَلْقِ ، وَالْهَمَّا وَإِنَّا كُفُّ الصَّبْرَ !

الْبَيْتُ :

لم يكن المسلمون قبلَ حربِ الجمل يعرفون كيفية قتالِ أهل القبلة ؛ وإنما تعلموا عنه ذلك من أمير المؤمنين عليه السلام .

وقال الشافعي : " لولا ما عرف شيء من أحكام أهل البني .

قوله عليه السلام : « ولا يحمل هذا العلم إلا أهل البصر والصبر » ، وذلك لأن المسلمين عظمَ عندهم حربُ أهل القبلة ، وأكبره ؛ ومن أقدمَ عندهم عليه أقدمَ على خوف وحذر ، فقال عليه السلام : إن هذا العلم ليس بركة كلِّ أحدٍ ، وإنما له قوم مخصوصون .

ثم أمرهم بالمضي عندما أمرهم به ، وبالانتهاء عما ينهاهم عنه ، ونهاهم عن أن يعجلوا بالحكم على أمر ملتبس حتى يثبتن ويتضح .

ثم قال : إن عندنا تغييراً لكل ما تنكرونه من الأمور ، أي يثبت أنه يجب إنكارها وتغييرها ، أي لست كتمان أمر على ارتكاب ما أسهى عنه ، بل أفيد كل ما ينكره المسلمون ، ويقتضي الحال والشرع تغييره .

ثم ذكر أن الدنيا التي تغضب الناس وترضيهم ؛ وهي منتهى أمانيتهم ورغبتهم ، ليست دهرهم ، وإنما هي طريقٌ إلى الدار الآخرة ، ومدة التثبت في ذلك الطريق يسيرة جداً .
وقال : إنها وإن كانت غرارة فإياها منيرة ومحدرة لأبنائها بما رواؤه من آثارها في

سَلَفَهُمْ وَإِخْوَتَهُمْ وَأَحِبَّائَهُمْ ، وَمَنَادَاتِهَا عَلَى نَفْسِهَا بِأَنِّهَا فَاعِلَةٌ بِهِمْ مَا فَعَلْتَ بِأَوْلَئِكَ مِنَ
الْفَنَاءِ ، وَفِرَاقِ الْمَأْلُوفِ .

قَالَ : فَدَعُوا غُرُورَهَا لِتَحْذِيرِهَا ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ جَانِبَ تَحْذِيرِهَا أَوْلَى بِأَنْ يَعْمَلَ عَلَيْهِ مِنْ
جَانِبِ غُرُورِهَا ؛ لِأَنَّ غُرُورَهَا إِنَّمَا هُوَ بِأَمْرِ سَرِيعٍ مَعَ التَّصَرُّمِ وَالْإِنْقِضَاءِ ، وَتَحْذِيرُهَا إِنَّمَا
هُوَ لِأَمْرِ جَلِيلٍ عَظِيمٍ ؛ فَإِنَّ الْفَنَاءَ الْمَعْجَلُ مُحْسُوسٌ ؛ وَقَدْ دَلَّ الْعَقْلُ وَالشَّرَائِعُ كَافَّةً عَلَى أَنَّ
بَعْدَ ذَلِكَ الْفَنَاءِ سَعَادَةٌ وَشَقَاوَةٌ ، فَيَنْبَغِي لِلْعَقْلِ أَنْ يَحْذَرُ مِنْ تِلْكَ الشَّقَاوَةِ ، وَيَرْغِبُ فِي
تِلْكَ السَّعَادَةِ ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى ذَلِكَ إِلَّا بِرَفْضِ غُرُورِ الدُّنْيَا ، عَلَى أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لَكُنَ
الْوَاجِبُ - عَلَى أَهْلِ الْمَلَبَةِ وَالْبَصِيرَةِ رَفْضُهَا ، لِأَنَّ الوجودَ مِنْهَا خِيَالٌ ، فَإِنَّهُ أَشْبَهَ شَيْءَ
بِأَحْلَامِ الْمَنَامِ ؛ فَالْتِمَسْكَ بِهِ وَالْإِحْلَادَ إِلَيْهِ مُخَفًى .

وَالْخَلْقَيْنِ : صَوْتٌ يَخْرُجُ مِنَ الْأَنْفِ عِنْدَ الْبُكَاءِ ، وَأَضَافَهُ إِلَى الْأَمَةِ ؛ لِأَنَّ الْإِمَاءَ كَثِيرًا
مَا يُبْصَرُونَ فِيهِمْ ، وَبَسْمَعُ الْخَلْقَيْنِ مَشْهُورٌ ؛ وَلِأَنَّ الْحُرَّةَ تَأْتِي مِنَ الْبُكَاءِ وَالْخَلْقَيْنِ .
وَزَوَى : قَبَضَ .

ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ لَا يَضُرُّ الْمَكَائِفَ قَوَاتُ قِطْعٍ مِنَ الدُّنْيَا إِذَا حَفِظَ قَائِمَةً دِينَهُ ، يَعْنِي
الْقِيَامَ بِالْوَاجِبَاتِ وَالْإِسْتِغْنَاءَ عَنِ الْمَحْظُورَاتِ ، وَلَا يَنْفَعُهُ حَصُولُ الدُّنْيَا كُلِّهَا بَعْدَ تَضْيِيعِهِ
دِينَهُ ؛ لِأَنَّ اتِّبَاعَ لَذَّةٍ مُتَنَاهِيَةٍ بِلَذَّةٍ غَيْرِ مُتَنَاهِيَةٍ يُخْرِجُ اللَّذَّةَ الْمُتَنَاهِيَةَ مِنْ بَابِ كَوْنِهَا
نَقْمًا ، وَيُدْخِلُهَا فِي بَابِ الْمَصَارِّ ؛ فَكَيْفَ إِذَا انْضَافَ إِلَى عَدَمِ اللَّذَّةِ غَيْرِ الْمُتَنَاهِيَةِ حَصُولُ
مَصَارِّ وَعُقُوبَاتٍ غَيْرِ مُتَنَاهِيَةٍ ، أَطَادَنَا اللَّهُ مِنْهَا !

(ثُمَّ الْجُزْءُ التَّاسِعُ مِنْ شَرْحِ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ وَيَلِيهِ الْجُزْءُ الْعَاشِرُ)

(تَنْبِيْهُ) : ضَبَطْتُ كَلِمَةَ « حُنَيْفٌ » ، فِي بَعْضِ الْمَوَاطِنِ مِنْ صَفَحَاتِ هَذَا الْجُزْءِ بِفَتْحٍ

الْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَالصَّوَابُ بِالضَّمِّ .

فهرس الخطب •

الصفحة	
٣٩	١٣٦ - من كلام له عليه السلام في وصف بيته
٣٣ - ٣٨	١٣٧ - من كلام له عليه السلام في شأن طلعة الزير
٤٠ - ٤٧	١٣٨ - من خطبة له عليه السلام يومئذ فيها إلى ذكر لللاح
٤٩	١٣٩ - من كلام له عليه السلام في وقت الشورى
٥٩	١٤٠ - من كلام له عليه السلام في النهى عن غيبة الناس
٧٢	١٤١ - من كلام له عليه السلام في النهى عن التسرع بسوء الظن
٧٤	١٤٢ - من كلام له عليه السلام في أمر من وضع العروف عند غير أهله
٧٧ ، ٧٦	١٤٣ - من كلام له عليه السلام في الاستسقاء
٨٨ - ٨٤	١٤٤ - من خطبة له عليه السلام في بيعة الأنبياء ثم استورد إلى وصف بنى هاشم
٩١ - ٩٣	١٤٥ - من خطبة له عليه السلام في الزهد ، وذكر البدع والسنن
	١٤٦ - من كلام له عليه السلام وقد استشاره عمر في الشغوص لقتال
٩٥	الفرس بنفسه
	١٤٧ - من خطبة له في هدى الناس بيعة الرسول عليه السلام وذكر من
١٠٣ - ١٠٦	انحرف عن القرآن ، وفيها نهى الناس إلى مواطن الرشذ والنهى
١٠٩ -	١٤٨ - من كلام له عليه السلام في ذكر أهل البصرة
١١٦ ، ١١٧	١٤٩ - من كلام له عليه السلام قبل موته
١٣٢ ، ١٣٦	١٥٠ - من خطبة له عليه السلام يومئذ فيها إلى لللاح

صفحة

- ١٥١ - من خطبة له عليه السلام في التعذير من الفتن وغيرها مما يهلك
١٣٧ ، ١٤٦
- ١٥٢ - من خطبة له في تعجيد الله وتعظيمه
١٤٧ ، ١٥٢
- ١٥٣ - من خطبة له عليه السلام في تحذير الناس من الغفلة
١٥٧ - ١٦٠
- ١٥٤ - من خطبة له عليه السلام في وصف الداعي ووصف أهل البيت
وذكر لزوم العمل بالعلم والعمل
١٦٤ - ١٧٩
- ١٥٥ - ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها بديع خلقه الخفاش
١٨١ - ١٨٢
- ١٥٦ - من كلام له عليه السلام خاطب به أهل البصرة على جهة اقتصاص
الملاحم
١٨٩ - ٢٠٣
- ١٥٧ - ومن كلام له عليه السلام حينما قام إليه رجل وسأله عن الفتنة
٢٠٥
- ١٥٨ - من خطبة له عليه السلام في وصف الدهر والتعظيم منه ، وفيها جملة وصايا
٢٠٩ - ٢١٠
- ١٥٩ - ومن خطبته له عليه السلام في حال الناس قبل البعث وبعدها
٢١٧ - ٢١٨
- ١٦٠ - من خطبة له عليه السلام في وصف حاله مع أصحابه
٢٢١
- ١٦١ - من خطبة له عليه السلام في تعظيم الله ، وفيها ذكر شخص
يزعم أنه يرجو الله وهو لا يعمل لرجائه ، وفيها حث على
الافتداء بالأنبياء
٢٢٣ - ٢٢٩
- ١٦٢ - من خطبة له عليه السلام ؛ ذكر فيها الرسول عليه السلام وشرف
أمته
٢٣٧ - ٢٣٩
- ١٦٣ - من كلام له عليه السلام لبعض أصحابه وقد سأله : كيف دفعكم
قومكم عن هذا للقيام وأنتم أحق به ؟
٢٤١
- ١٦٤ - من خطبة له عليه السلام في تنزيه الله وتذكير الإنسان بهديه
له في سبيل معيشته
٢٥٢ - ٢٥٧

منه

- ١٦٥ - من كلام قاله عليه السلام لعثمان بن عفان ، لما اجتمع عليه
الناس وسألوه مخاطبته عنهم
٢٦١ - ٢٦٢
- ١٦٦ - من خطبة له يذكر فيها عجيب خلقه الطاموس ، وفيها وصف
الجنة
٢٦٦ - ٢٧٨
- ١٦٧ - من خطبة له عليه السلام ، يوصي فيها بمكارم الأخلاق ، ويوعظ
بني أمية
٢٨٢
- ١٦٨ - من خطبة له عليه السلام في أول خلافة ، وفيها حث على اتباع
القرآن ، وتأدية الفرائض
٢٨٨
- ١٦٩ - من كلام له عليه السلام بعدما يبيع له بالخلافة ، وقد قال له
قوم من الصعابة : لو طابت قوما ممن أجلب على عثمان ا
٢٩١
- ١٧٠ - من خطبة له عليه السلام عند مسير أصحاب الجمل إلى البصرة
٢٩٥
- ١٧١ - من كلام له عليه السلام لرجل من أهل البصرة وقد أرسله قومه
ليعلم حقيقة حاله مع أصحاب الجمل
٢٩٩
- ١٧٢ - من كلام له عليه السلام لما عزم على لقاء القوم بصفين
٣٠١
- ١٧٣ - من خطبة له عليه السلام ، وفيها ذكر أصحاب الجمل
٣٠٤
- ١٧٤ - من خطبته له عليه السلام ، فيمن أحق بالخلافة ، وفيمن يجب
قتاله ، وفيها ذم للدنيا وتزهيد فيها
٣٢٨ - ٣٣١

فهرس الموضوعات

١٨ - ٣	ذكر أطراف مما شجر بين علي وعثمان في أثناء خلافته
٢٤ - ١٨	فصل فيما شجر بين عثمان وابن عباس من الكلام في حضرة علي
٣٠ - ٢٤	أسباب المناقصة بين علي وعثمان
٤٦ - ٤٢	فصل في الاعتراض وإيراد مثل منه
٥٨ - ٤٩	من أخبار يوم الثوري وتولية عثمان
٦٦ - ٦٠	أقوال مأثورة في ذم النبية والاستماع إلى المتتابين
٦٩ - ٦٦	حكم النبية في الدين
٧١ - ٦٩	فصل في الأسباب الباعثة على النبية
٧١	طريق التوبة من النبية
٨٣ - ٧٩	الثواب والعقاب عند المسلمين وأهل الكتاب
٨٨ ، ٨٧	اختلاف الفرق الإسلامية في كون الأئمة من قرش
٩٩ - ٩٦	يوم القادسية
١٠١ - ٩٩	يوم نهاوند
١١٢ ، ١١١	من أخبار يوم الجمل
١١٥ ، ١١٣	مقتل طلحة ولزير
١٥٣	عقيدة علي في عثمان ورأى المعتزلة في ذلك
١٨٨ - ١٨٣	فصل في ذكر بعض غرائب الطيور وما فيها من عجائب
١٩٩ - ١٩٠	فصل في ترجمة عائشة وذكر طرف من أخبارها
٢٣٦ - ٢٣٤	نبذ من الأخبار والآثار الواردة في الاعتماد عن زينة الدنيا
٢٤٥ - ٢٤٤	حديث من أمرى الفيس
٢٩٤ - ٢٩٣	موقف علي من قتلة عثمان
٣٢٣ - ٣١٠	ذكر يوم الجمل ومسرح عائشة إلى القتال
٣٢٤ - ٣٢٣	مناقرة بين ولدي علي وطلحة
٣٢٧ - ٣٢٤	مناقرة بين عبد الله بن الزبير وعبد الله بن المباس